THE LIBRARIES

COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY

الدكتور
متعب مناف

الواقع الفكري

والمجتمع العربي الجديد

هل يستطيع العرب فهم ماضيهم وتقييم حاضرهم
والانطلاق نحو مستقبل افضل .. ؟

الطبعة الأولى

١٩٦٦

الدكتور
متعب مناف

المكتبة المركزية
جامعة بغداد

الواقع الفكري
والمجتمع العربي الجديد

القارئ

هل يستطيع العرب فهم ماضيهم وتقييم حاضرهم
والانطلاق نحو مستقبل أفضل ؟

الطبعة الأولى ١٩٦٦

DS
63
.M8

تمهيـــــد

يمر المجتمع فى الوطن العربى اليوم في مرحلة ينتقل بها من طور ذي قيم زراعية فى الفكر والحياة الى طور تغلب عليه القيم الصناعية وما يتصل بها من علاقات ونظم ومؤسسات اجتماعية تسهل عملية التفاعل فى المجتمع الجديد .

ومن المؤكد أن الوطن العربي يحتل موقعاً استراتيجيا فريداً ، فاذا نظرنا الى خارطة العالم القديم المكون من (آسيا وأفريقيا وأوربا) نرى ان الارض العربية تمثل القلب بالنسبة لهذه القارات الثلاث ، ومن الطبيعى ان استراتيجية الموقع الجغرافي للوطن العربي ســـاعدت الى حد كبير على تبؤ المجتمع العربى لمركز حضاري حساس تمثـــل فى التيارات الفكرية التى وفدت وانفعلت ثم تفاعلت وخرجت ثانية لكي تؤكد اصالة العرب الحضـــارية ، فقد تربع الفكر العربى على كرسي الصدارة الحضارية فى العالم لعدة قرون واستطاع ان يمد الفكر العالمي بوجه عام والفكر الاوربي بوجه خاص بالمواد الاوليـة الغنية التي اعتمد عليها فى بناء صرح الحضارة التى نعيشها فى القرن العشرين .

ولم يخطأ (هارولد لامب) حين أكد أن الفكر الحضاري الاوربى مدين بشكل خاص لمصباح المدنية الذى رفعه العرب . وهذا القول يصـدق على فترة القرون الوسطى التى كانت فيها أوربا ضحية للتعصب فى الحياة والعقيدة فى الوقت الذى بلغ فيه الفكر العربى الاسلامى أوجه فى النضج ممثلا فيما كتبـه (ابن خلدون) و (ابن رشد) في المغرب و (الامام الصادق) و (الغزالي) في المشرق . ولا تعدو الحقيقـة اذا قلنا بان مقـدمة ابن خلدون كانت المنطلق الفكري الذى بدأت منه أوربا فقد أكد المؤرخ الايطالى « فيكو » : بان التاريخ يمثل خلاصـــة الاجتماع الانسانى وان الاحـداث ما هى الا نتائج للعلاقات الاجتماعية بعد تفاعلها مع الطبيعة والمستقبل . وقد توسعت هذه النظرة على يد

الانسكلوبيديين و « اوكست كومت » الذي انتهى بها الى وضع قانونه ذي المراحل الثلاث والذي أكد ان الفكر الانساني قد مر خلال العصور الطويلة بمراحل ثلاث :ـ

أ ـ المرحلة الغيبية :ـ وهى تلك المرحلة التى كان الفكر الانسانى فيها يفسر ما يعترضه من الظواهر الطبيعية والاجتماعية حسب موجهات غيبيه تجمع تحت عنوان (القضاء والقدر) .

ب ـ المرحلة الميتافيزيقية :ـ وهى تلك الفترة التى كان فيها الفكر الانسانى يفسر الظواهر المحيطة به بارجاعها الى علل مخزونة في عالم وراء عالمنا المحسوس يطلق عليه اسم (العالم الميتافيزيقي) .

جـ ـ مرحلة العلم الحديث : وفي هـذه المرحلة بدأ الفكر الانساني ينظر الى ما حوله من ظواهر (الطبيعة والمجتمع) نظرة موضوعية ثم يدرس الاسباب التى أدت الى قيام تلك الظواهر وينتهي من دراسته هذه بارجاعها الى دوافع من الممكن اخضاعها الى الملاحظة المقصودة أو تحت ظروف تجريبية .

وعلى الرغم من وجود بعض المآخذ بالنسبة لقانون كومت المار ذكره أهمها : ان محاولة رسم خطوط تحدد لون او الوان النشاط للفكر الانسانى لا تتفق وواقع حركة وتطور الفكر نفسه اذ لا يمكن ان يقاس البعد الحضاري وترسم له الحدود الفاصلة لان مناطق الاخذ والرد ستشوه حتماً أي تخطيط صلب لتطور الفكر الانساني ولكن ما يتصل باهتمامنا هو ان (كومت) ومن قبله (فيكو) ومعهما الانسكلوبيديين الفرنسيين أمثال (فولتير وديدرو وروسو ومونتسكيو) انما يصدرون عن المنبع الفكرى الذى اكتشفه المؤرخ العربى (ابن خلدون) ومن غير المشكوك فيه أن ترجمات قديمة (للمقدمة)(١) لابد وان وصلت الى

---

(١) مقدمة ابن خلدون لتأريخه : العبر وديوان المبتدأ والخبر في اخبار العرب والعجم والبربر ومن جاورهم من ذوي السلطان الاكبر وتعد هذه المقدمة انقلابا فى الفكر وفلسفة التاريخ .

أوربا عن طريق (الاندلس) البلد الذى عاش فيـــه ابن خلدون فترة طويلة مترددا بينه وبين المغرب العربى بشماله الافريقى فى وقت جمع فيه بين التفكير والوظيفة والتجربة الذاتية .

هناك اذن الكثير من المكاسب حصل عليها الوطن العربى بواسطة موقعه الاستراتيجى النادر ولكن هذا الموقع يفرض الكثير من المسؤوليات الحضارية على الامة العربية نفسها لان مسألة الصدارة الحضارية تحتـاج الى بناء متكامل يجمع بين العمق الحضارى والقوة السياسية والعســكرية والرخاء الاقتصادى من جهة وبين المجتمع كوحدة متكافلة من جهة اخرى ثم بين هــذه الجوانب المختلفة وبين السلطة ذات الحكم والقوة لكي تتكون روابط اجتماعية تجعل من الفرد والمجتمع والسلطة اوجهاً لجسم حضارى وحياتى واحد .

وقد استطاعت الامة العربية ملء مقعد الصدارة الحضارية في فترات القوة التى مرت بها وقد كان محك تلك القوة فى السياسة والحضارة الحروب التى وقعت بين فترة الحضارة العباسية وبين الجيوش الرومية فى (القسطنطينية) وعلى الرغم من ان جانب التكافؤ كان يسود تلك الحروب نظراً لتحول الاستراتيجية الحربية فى العصر العباسى من الهجوم الى الدفاع ، فان الامة العربية استطاعت ان تؤكد صدارتها الحضارية ولكن فترات من الضعف ما لبثت ان سادت اجهزة الحكم والسياسة فى تلك الفترة الحضارية وانتهى الامر بضربة شديدة تقوضت على اثرها التنظيمات السياسية والاجهزة الادارية العربية : تلك الضربة تمثلت فى الهجوم المغولى التتري الذى يمثل أفضع غزوة قامت بها جموع بربرية لهدم واحدة من اعرق حضارات الانسان .

وعلى الرغم مما تعرضت له الاجهزة السياسية والادارية فى الوطن العربى على يد الغزاة من مغزل وتتر فان الهياكل الحضارية بقيت قائمة دون ان تتمكن همجية الغزاة تحطيمها لان الحضارة ذات العمق البعيد اقوى من الانسان وأقوى من الزمن فكيف اذا كان ذلك الانسان همجياً متوحشاً ترك لتوه خيامه وحياته البدوية الجافة فى أواسط آسيا ؟

والذى نريد ان نؤكده هو ان الموقع الاستراتيجى للوطن العربى بصرف النظر عما مهد له من رقي حضاري جعل من الوطن العربي هدفاً لرياح شعوبية عاتية تهب عليه عندما تصبح البقعة العربية ذات ضغط سياسي وحضاري منخفض .

ولا يبعد عن البال ان فترة الانتقال التى نمر فيها اليوم فى الوطن العربى وعوامل الضعف والتجزئة تجعل من أرض العرب منطقة ذات ضغط حضاري واطىء يعرضها لرياح شديدة من الشرق والغرب تحمل اليها ما قد يضرها ويؤخر في مسيرتها نحو مستقبل حضاري أفضل .

والواقع ان كل تخطيط للحياة بكافة جوانبها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لابد وان يسبقه تخطيط فكري . وبعبارة اوضح يجب ان يتوفر المناخ الفكرى الملائم لاي تخطيط يشرع فيه فى الحاضر والمستقبل .

الا ان هذا المناخ الفكري المثالي للمخططات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى يرغب الفرد العربى رغبة ملحة فى نجاحها لابد وان ينهض على قاعدة فكرية مشتركة تتخطى التجزئه والحدود والطائفية والاقليمية وعوامل التراجع والضعف والانهزامية .

ومن الواضح ان تكوين القاعدة الفكرية المنشودة لا يتم الا بعد التأكد من العناصر المكونة لها واهمها على وجه الدقة : الجيل والفكرة والطريق والهدف .

والمراد بالجيل المجاميع من الناشئة العرب فى طول الوطن العربى وعرضه لان هذه الكتل من ابناء الجيل الجديد عليها المعول فى بناء الغد الحضاري الافضل لذا فهى مسؤولة أمام الامة العربية وضميرها والتاريخ بان تنجح فى المستقبل القريب أو البعيد فى بناء حضارة عربية على صعيد الوطن العربى ذات نوافذ على الفكر العالمي .

اما الفكرة فيراد بها وضع مادة للتدريس تصلح ان تطعم عقل الجيل العربى الجديد بما يحتاج اليه من وقود من عالم المعرفة لكى يبدأ رحلته فى الاجواء الحضارية العربية والانسانية .

بقيت لازمتان لبناء القاعدة الفكرية العربية الجديدة هما الطريق والهدف ونقصد بالطريق السبيل الذى يمكن بواسطته ان توصل الفكرة الى اذهان الناشئة العرب من ابناء الجيل الجديد اما الهدف فهو المنار الذى تلتقي عنده آمال ومخططات الامة العربية فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها ونريد بذلك (الوحدة العربية الشاملة) •

وانطلاقاً من تعريفنا للقاعدة الفكرية الجديدة فى الوطن العربى وتوضيح مكوناتها الرئيسة فان السبيل السوي لبناء هذه الامنية هو ايجاد مادة دراسية أو مواد تدرس بشكل مشترك وبمناهج موحدة على مستوى الوطن العربى بكافة اقاليمه •

ومن الجائز اعتبار مادة (المجتمع العربى) صورة مصغرة لجمع شتات الفكر العربى وصبه فى قوة موحدة تستطيع ان تتخطى الحدود والقيود الاقليمية والشكلية وتسمو فوق ما يسمى بالدوافع الوطنية أو المحلية وتمشياً مع هذا المخطط الجديد فان تدريس مادة المجتمع العربى يجب ان يشرع فيه خلال سنى الدراسة الثانوية ثم يعطى بشكل اكاديمى على مستوى الدراسة الجامعية وعلى الاخص في السنوات الأول لكي تعمل مادة المجتمع العربي على توجيه فكر الناشئة في الجامعات العربية الوجهة السليمة التي تتفق وامانى العرب ومخططاتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحضارية فى المستقبل •

ومن الواضح ان تدريس هذه المادة يجب ان لا يقتصر على الكليات الادبية والتربوية والقانونية ومعاهد اعداد المعلمين وانما يتعدى هذه الدوائر الفكرية الى مجالات العلوم والطب والمعاهد الفنية لان اعداد المعلم أو الاديب أو المحامي العربى لا يمكن ان يأتي ثماره المنشودة فى بناء مجتمع عربى افضل اذا لم يجد الى جانبه طبيباً ومهندساً وعالماً وفنياً من اخوانه ابناء الامة العربية كلهم مزود بنفس المعرفة التى ينطلق منها الى فهم مسؤولياته الحضارية الحاضرة والمستقبلة •

ومن غير المشكوك فيه أن النظم التربوية فى البلاد العربية تتأثر بالظروف المحيطة بها مما يشوه الغاية من وراء تدريس موضوع المجتمع العربى لذا فان

اضمن السبل للتأكد من نجاحه في تكوين رأي عام عربي موحد هو نقل المسألة الى الجامعة العربية واجهزتها الثقافية والتربوية لكي تخطط للموضوع نفسه وتضع اهدافه القريبة والبعيدة مع التأكيد على المناهج والمراجع التى تنسجم والخط القومى الذى سيسلكه كل من الموضوع والكيفية التى يدرس فيها .

وخلاصة القول ان موضوع المجتمع العربى بجوانبه المختلفة من فكر وواقع وحضارة وهدف تصلح ان تكون المنطلق الواقعى الجرىء لنفض غبار التخلف والجمود وما اعترى الفكر العربى من تأخر وضعف من جهة وتهيأة السبيل امام الناشئة العرب فى المرحلة الجامعية لتكوين ذات عربية مفكرة تستطيع ان تتحمل مسؤولياتها الحضارية على الوجه الاكمل ، من جهة اخرى . ولزاماً فان التأكيد على الجيل الجديد ومسؤولياته الحضارية انما ينطلق من الوضع الحضارى والمصيرى لهذا الجيل فان الناشئة العرب فى الوقت الحاضر تنتظرهم مصاعب وعقبات تتمثل فى اعادة بناء الامة العربية اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا وحضاريا ، اما العقبات فانها تبرز فى عوامل الضعف والتخلف والانهزامية والطائفية والتخاذل وضياع القيمة الذاتية للفرد العربي وضعف التجاوب بين الفرد والفرد فى المجتمع العربى وبينهم وبين المجتمع كقوة منفصلة من جهة وصلة هذه الوحدات بالسلطة من جهة اخرى لذا فان الظروف الحاضرة المحيطة بالوجود العربى تضع على كاهل الناشئة العرب مسؤوليات جسيمة تختلف عما تعرض لهم اباؤهم واجدادهم في مطلع حياة الامة العربية الجديدة .

والواقع ان الجيل العربي الجديد مهيأ نفسياً لتقبل المسؤوليات الجسيمة الملقاة على عاتقه فى بناء حضارة عربية ذات ابعاد انسانية لان الاجيال الماضية عاشت فى دوامات من (الاخذ والرد) الفكرى فى اسلوب وهدف حياتها وبذلك فقدت ناحيتين أساسيتين يجب ان تتوفر فيمن يقع على عاتقهم بناء غد حضاري أفضل : الاولى فقدان (الاعتزاز بالذات والتأكيد عليها) فقد نبتت جذور الاجيال السابقة فى ارض من التأخر والضعف وبذلك شدت تلك الاجيال الى واقع يغلب عليه

الشعور بالنقص أو الركود فى بعض الاحيان لذا فان الاجيال الماضية تحاول ان تبشر بالفكرة القائلة (ليس فى الامكان احسن ممـــا كان) وهى محاولة مبطنة لابقاء القديم على قدمه ومحاربة كل جديد خوفاً من الوقوع فى الخطأ او ارتكاب ما قد يؤثر على مركز تلك الاجيال الاجتماعى او التاريخى .

اما الناحية الثانية فانها تتصل بالافتراض الاول وملخصها ان الاجيال التى عاشت فى جو حضارى يغلب عليه الجمود والضعف والتردد لابد وان تفقد صفة (المرونة) التى تعتبر هى وقرينتها (الجرأة) من ألزم احتياجات البناء الحضارى فى الحاضر والمستقبل .

ولكن السؤال الذى يتبادر الى الذهن هو : لماذا يدفع ابناء هذا الجيل كل هذه التضحيـــات من العرق والدموع والوقت والفكر ؟ والجواب ان ذلك هو جزاؤهم لان هناك ضريبة حضارية يجب ان يدفعوا القسط الاكبر منها والا فان الواقع العربى سيبقى على ما هو عليه وستنتصر القوى التقليـــدية التى تحاول ان تستغل نواحى الجرأة والخطأ والتردد والاندفاع فى سلوك الجيل العربى الصاعد فتفرض ثقلها باسم (الحكمة والموضوعية والنضج العقلي) وما اليها من محاولات لابطاء التيار العربى الجديد فى الفكر والمجتمع .

والحل الاكثر واقعيه للجيل الجديد هو ان يمد يده للاجيال السابقة على درب المسيرة الحضارية نحو الغد الافضل وعلى تلك الاجيال ان تودع حكمتها في تلك اليد التي امتدت اليها لكي يستطيع الجيل العربي الناشىء من اداء رسالته في بناء وطن عربي ذى أصالة حضارية ذات ابعاد عربية وانسانية .

الفصل الاول

العرب والتجربة التاريخية والحضارية

ان مركز الثقل في تدريس موضوع كالمجتمع العربي هو رسم الابعاد التي يكون باستطاعة الفكر العربي ان يمتد في نطاقها مستوعباً المركبات الحضارية المواريثة من جهة وناظراً الى الحاجات المستقبلة للامة العربية في غدها الحضاري من جهة اخرى •

ولعل مما يميز المجتمع العربي انه وريث حضارات قديمة عاشت في قرون خلت قبل ميلاد السيد المسيح • وبالنسبة لعلماء الحضارة والانثروبولوجيا بنوعيها الثقافي والاجتماعي ان الحضارة تنشأ في بيئة معينة اذا توفرت لها أسباب النماء الحضاري وهي : البشر والارض الخصبة والمناخ الملائم والحافز الحضاري الذي يدفع بالانسان لكي يستغل أرضه وما فيها من موارد وطاقات في سبيل بناء محيط فكري له ولاجياله القادمة •

وقد تمثلت هذه الظروف الحضارية الملائمة لبناء الوحدات الحضارية في كل من وادي النيل ووادي الرافدين ونجح الانسان في هذين الواديين ببناء حضارات عريقة استطاعت ان تتحدى الظروف الزمانية والاحداث وان تبقى على امتداد الحضارة العالمية باجيالها المتعاقبة • فقد مارس سكان ارض ما بين النهرين وسكنة وادي النيل كافة ما تؤديه من أعمال في القرن العشرين فقد كون اولئك السابقون الاسر والمجتمعات وبنوا السدود والاهرامات وخزنوا قمحهم واوصلوا المياه الى المدن وعرفوا الكثير من جوانب الغيب المتمثلة في قوى الخير والشر والقوى غير المنظورة التي تتصل بالموت والحياة والرزق والكساد والجفاف والخصب سواء في ذلك ما يتعلق بالانسان أو الطبيعة وزادوا على ذلك بان

عرفوا أهمية الوقت ووصلوا بين تلك الاهمية وبين واقع حياتهم وعلى الاخص فيما يتصل بالري والزرع وجمع الحاصل وسد حاجة الاستهلاك ذي الامد القصير والمتوسط والطويل • كما حدث بالنسبة لمصر فى أيام الفراعنة وما تذكره التوراة من قصة النبي يوسف فان القصة نفسها تتصل بواقع علم الاقتصاد في القرن العشرين ونقصد بذلك فكرة الدوائر الاقتصادية التى يتراوح فيها الانتاج بين الزيادة والنقص نظراً لتأثر العملية الانتاجية بالظواهر الطبيعية فى الاقتصاد المستند على الحاصلات الزراعية •

وقد اوغل القدماء فى كل من وادى الرافدين ووادى النيل فى جوانب المعرفة المختلفة من رياضيات وهندسة وتحنيط وما يتصل بذلك من بناء وزخرفة ورسم وطرب •

وتتضح القيمة العلمية والحضارية للحضارات القديمة فى الوطن العربى فيما خلفه اسلاف الشعب العربى من آثار خالدة تتحدى عوامل التعرية والتآكل البشرية والتاريخية كالاهرامات والجنائن المعلقة والاثار التى تمثل المدن القديمة وأماكن العبادة والقراءة ومخازن الغلال والمجارى والقنوات والحلى وادوات الزينة والطعام وما كان يستعمل فى الكتابة وفى اعداد المكتبات العظيمة كمكتبة اشور بانيبال فى نينوى قرب مدينة الموصل فى شمال العراق •

ومن الثابت حضارياً وتاريخياً ان ما شيده الاقدمون فى كل من وادى الرافدين ووادى النيل لم يكن من قبيل العبث الحضارى وانما قام معظمه على أسس نظرية تتصل بالرياضيات أو الهندسة او الفيزياء الحديثة ومن أدل الامثلة على ذلك بناء الاهرامات والمدن البابلية القديمة فقد بنيت اهرامات وادى النيل باستخدام نظرية فيثاغورس فى ترتيب الصخور فوق بعضها وعمل الشكل الهرمى كما رسمت المثلثات الخاصة باوجه الهرم لكي تقابل مساقط الشمس عند شروقها•

وليس بخاف ان تلك الاهرامات قد اقيمت في سبيل تخليد الجسد دون ان تمسه يد التلويث أو التدنيس لكى تعود اليه الروح ثانية وهو فى كامل هيأته وهذه

الفكرة بذاتها محاولة لفهم الحياة الميتافيزيقية حيث تسبح الارواح فى جو من اللانهاية كما يحاول ان يصفها (دانتي)(٢) في قصته (الفردوس المفقود) .

اما المدن البابلية القديمة فقد بنيت فيها الاقواس والزوايا الحادة وقدرت احتمالات البناء وما يمكن ان ينهض على تلك الاسس من مشيدات وطوابق وقد روعي فى تخطيط المدن البابلية قدرتها على استيعاب الزيادة المنتظرة لمن يفد على تلك المدن من البدو الرحل أو ما يسمى فى العصر الحاضر (الهجرة من الريف الى المدينة) ويتضح هذا القصد من البعد الذى يترك بين نهاية مدن المدينة وبدايات بناية الاسوار .

هذه لمحة موجزة لقصة حضارية عاشت قروناً طوال او كما يؤكد (ويل ديورانت) في كتابه الضخم عن قصة الحضارة ، بان حضارة وادي الرافدين ووادى النيل تمثلان اول مغامرة انسانية فكرية حاولت ان تجعل من الطبيعية طبيعة ثانية تمتلك القدرة على تخليد الانسان كحيوان اجتماعى وتمنحه القابلية على وضع أسس لبناء فكرى وحضارى فى المستقبل له القدرة على استيعاب معنى الحضارة وما يمكن للانسان ان ينجزه بتسخيره للطبيعة وبتحديه للموت ،فلم يكن بغريب ترسب الكثير مما خلفته تلك الحضارات فى ضمير وتفكير الانسان العربي فى الوقت الحاضر .

الا ان الامة العربية عانت من صعوبات حضارية بعد ان نعمت بفترة من الاستقرار الروحى والاجتماعى والرقي الفكري فى الحقبة التى سادت فيها الحضارة العربية المسلمة ، فان الاسلام العظيم لم يقتصر على العبادات فقط وانما تناول جانب المعاملات او ما يسمى فى لغة علم الاجتماع فى الوقت الحاضر (العلاقات الاجتماعية) ولم يقف الاسلام عند حد تلك العلاقات وانما حث على تطويرها لصالح الفرد والمجموع ولصالحهما معاً وخطط للصلة بين الفرد والمجتمع

---

(٢) دانتي (١٢٦٥ ـ ١٣٢١) مفكروواديب ايطالى حاول الجمع بين المثلولوجيا (الاساطير) الثيولوجيا (الامور الدينية) في اثره الخالد الذي ترسم فيه خطى (رسالة الغفران) لابى العلاء المعري .

وبين الفرد والسلطة وبذلك ساد تفاهم ايجابى ومستمر بين الوحدات الاجتماعية في ظل القيم الاسلامية الا ان ظروفاً صعبة عملت داخل الامة العربيـــة ومن خارجها على تفكيك عرى المجتمع العربى والعبث بقيمه الدينية الاسلامية الخالدة فأسلمت تلك القوى الشريرة الامة العربية الى ليل طويل من الجمود والتأخر لم تفق منه الا فى اواسط القرن التاسع عشر •

وقد تمثلت تلك القوى السوداء التى نخرت جسم الامة العربية فى الشعوبية بجوانبها المختلفة الفكرية والاجتماعيـة والسياسية والعسكرية : فالفكرية منهـا تخفت فى محاولات التشـكيك بالتراث العربى وفصل الناشئة عن حضارتهم وتصوير التراث العربي بصـورة هزيلة لكي تزعزع الايمـان فى نفوس ابناء الشعب العربي بالنسبة لتاريخهم ولامجادهم الماضية ولم تسـلم القيم الدينية من محاولات مدسوسة تمثلت فيما كتبه وسلكه اهل الباطن والغلاة ومن جرى على شاكلتهم فى محاولة لضرب النهج الدينى وذلك لاكمال المخطط الشعوبى الذى وضع لمهاجمة الفكر العربى الاسلامى •

اما الشعوبية الاجتماعية فانهـا تظهر فى المحاولات التى جرت لادخال العناصر المدسوسة وجعلها تتسـلم زمام التوجيه الاجتماعى فى الحياة والمجتمع وخلق طبقات تسعى لضرب القيم الاجتماعية والمثل العليا التى سار عليها المجتمع العربى فترات طويلة عندما كان فى اوج تقدمه الفكرى والاجتماعى • فقد وجدت طبقات من الشطار والعيارين لاشاعة الفوضى وكسر قيود النظام فى المجتمع العربى الاسلامي كما جرت محاولات لبث الاباحية الجنسية وتزيين ارتكاب ما لا يتفق والنظم الاجتماعية ذات القيم المحترمة •

اما الشعوبية السياسية فانها تتضـح فى الحركات السـرية والجمعيات (النهالستية) التى قامت على الاباحية وضرب القيم الانسانية والدينية وخير مثال على ذلك جماعة الحسن بن الصباح الذين اشتهروا باسم (الحشاشين) فقـد تكونت هذه الجماعة المارقة بتأثير من رجل يطلق عليه في علم الاجتماع الحديث اسم

(الانسان الهامشي) فقد افتقر الحسن بن الصباح الى موطن او جماعة ينتمي اليها وبذلك ابتدع بعض التعاليم التى تحث على طاعته والانضواء تحت لوائه كل ذلك فى سبيل تكوين فئة ممن باعوا انفسهم للشيطان ممثلا فى الحسن بن الصباح يوجههم كما يشاء .

ولعل من الطريف حقا ان نذكر بان السبل التي اتبعها الحسن بن الصباح فى استمالة اصحابه والسيطرة عليهم تتفق وما يسمى فى الوقت الحاضر (عمليات غسل الدماغ) . لان طاعة اتباعه كانت تفوق كل وصف فقد يلقي احدهم باشارة منه بنفسه من شاهق فيدق عنقه او ان يتصدى لرجل فى الطريق فيقتله دون ان يهاب العقوبة أو القتل .

وقدوجدت أمثال هذه الجماعات لكي تبث الارباك وتفكك السلطة السياسية باغتيال او ارهاب رجال السياسة والحكم فى المجتمع العربى وبذلك يتم تقويض المجتمع من الداخل وتهيئة الفرصة للطامعين من وراء الحدود لكي تنقض قواهم فتدمر المجتمع وتعبث بمكاسبه الثقافية والحضارية .

وهذا ما يقودنا الى الشعوبية العسكرية التي تختلف عن سابقاتها بانها اتخذت من الضعف وسيلة لضرب المجتمع العربى المسلم وبذلك تضافرت القوى الشريرة من مغول وتتر والتي جاءت من وراء الحدود مع قوى الضعف التي تعمل في داخل الحدود نفسها ولكن الضربة التى وجهت للمجتمع العربى باجنحته الحضارية والثقافية لم تنل الا اجهزته السياسية والادارية . اما جانب الحضارة والفكر فقد ضمن لنفسه البقاء وان خضع لمحن الركود والجمود والنسيان .

ولم تقتصر الشعوبية العسكرية على الهجمات الكاسحة للمغول والتتر على الحضارة العربية الاسلامية فى بغداد وانما كانت هناك شعوبية عسكرية تمثلت فى الحروب الصليبية هدفت من وراء اتخاذ الصليب علامة تجمع تجارية لها ضرب القيم الدينية والاجتماعية والاقتصادية لحضارة الشرق العربى .

ولعل دراستنا لاسباب فشل تلك الحروب وخمود قوة الغزو المغولى

والتترى تجعلنا اكثر تعرفاً على طبيعة الامة العربية وتفكيرها وواقع الحياة والمجتمع فيها فالصليبيون وبعدهم التتر والمغول لم يضعوا فى حسابهم قوة القومية العربية والتركيب التام بين مكونات هذه القومية وبين الدين الاسلامى فقد امتزجت القومية العربية بالقيم الدينية المسلمة وكأنهما وجدا لكى يتم بينهما هذا الامتزاج الأمثل ، والواقع ان القومية العربية تجنح نحو الالحاد اذا تخلت عن قيمها الدينية كما ان الشعوبية تجد سبيلها الى المسلمين اذا تم ابتعادهم عن تبني قيم القومية العربية فى الفكر والتطبيق والهدف •

وقد غابت هذه الحقائق عن كل من المغول والتتر والصليبيين وحسبوا ان قوة الهجوم الذى ستتعرض له الامة العربية سيفقدها توازنها بشكل عام وتتحطم الصلة القوية التي تربط مكونات القومية العربية وقيم الدين الاسلامي •

وعلى الرغم من وجود بعض الثغرات التى انتهزها المغول والتتر وقبلهم الصليبيون ونفذوا منها الى الارض العربية وعاثوا دماراً وفساداً فى اقطارهـا المختلفة وفى بعض ثغورها الساحلية فان قوة التلاحم القومى الدينى عادت ثانية لكى تحطم شوكة الصليبيين فى حطين وتقضي على المغول فى عين جالوت •

ان هذه الاحداث التاريخية التى كان الشرق العربى فيها تحت ثقل غزو فكري وعسكري تدلنا على ان الغزاة لا يمكن ان ينفذوا الى جسم الامة العربية وينالوا منها الا اذا وجد فراغ بين مقومات القومية العربية والقيم الدينية الاسلامية

وبالرغم من رد الفعل العربى بالنسبـة للضربة المغولية التى وجهت الى قلب الامة العربية وحاضرة خلافتها (بغداد) فان الامة العربية وعلى الاخص فى تلك الفترة لم تكن لتحتمل الصدمة نظراً للضعف الذى دب فى اجهزتها السياسية والادارية والانقسام الذى حدث فى صفوف المجتمع العربى نفسـه ، وبعبارة أوضح كانت وحدة الهدف قائمة بينما ضعفت وحدة الصف وتحت ثقل الاحداث الخطيرة التى تمثلت فى الغزوات المسلحة لم يتمكن الشعب العربي من الحفاظ على وحدته القومية كذلك مما أدى الى تجزئته وظهور النزعات الاقليمية والمحلية والعنصرية والطائفية بدافع الحفاظ على الذات ولكى يكون الفرد اكثر

اطمئناناً على حياته ومستقبله في المجموعة الصغيرة التي تتصف بقابليتها على الحركة وحماية الافراد الذين يكونونها .

لقد رضخ الشعب العربي بعد فترة الضعف هذه للحكم العثماني وهذا الحكم لا تصله بالعرب الا الديانة الاسلامية التي تبناها امراء آل عثمان وسلاطينهم .

فالعثمانيون اقوام بدائية رحلت من اواسط اسيا وسكنت منطقة الاناضول وقد مر وقت انتقلت فيه تلك القبائل من حياة البداوة الى حياة الاستقرار الا ان ذلك الانتقال لم يكن يجري وفق قواعد مدروسة وانما خضع للصدفة تارة ولعامل الوقت تارة اخرى .

وقد تكون المجتمع العثماني من رؤساء قبائل آل عثمان والمحاربين ثم بقية الجند والاسرى وما يتصل بهم من عمال وفلاحين لذا فان المزيج كان غريباً تعوزه اليد الحكيمة والفكر المجرب الواسع المتصف بالمرونة لكي يجمع هذه الاشتات في دولة قوية قدر لها ان تسيطر على بقعة واسعة من العالم قروناً عديدة .

ومن الواضح تاريخياً ان الكيان العثماني افتقر الى القيادة المؤهلة التي تساعد على بناء مجتمعه المتكامل من جهة وعلى تثبيت سطوة الدولة العثمانية وضمان الحفاظ على ممتلكاتها من جهة ثانية فاكثر سلاطين آل عثمان ـ وخصوصاً في فترات الحكم الاولى للدولة العثمانية ـ كانوا من زعماء العشائر ولم يمض وقت كاف لكي يتحول اولئك الزعماء ذوو النزعة العشائرية الى حكام الدولة حديثة النظام .

فقد بقي المسيطرون على اعنة الحكم والقوة في الدولة العثمانية يتصرفون وفقاً للقواعد والتقاليد العشائرية التي نشأوا عليها وقد أوجد هذا النوع من السلوك في الحكم فراغاً كبيراً بين الشعب وحكامه مما زاد الحكام قوة وضراوة لكي يسدوا الثغرات التي ظهرت في الهرم الاجتماعي نتيجة لقصورهم في فن الحكم والادارة .

الا ان الدولة العثمانية لم تعدم من اشخاص اقوياء تمكنوا من توسيع رقعتها وضم ممتلكات جديدة للنفوذ العثماني ولكن اولئك النفر من الحكام الاقوياء لم يتعد تأثيرهم النجاح فى الفتوحات أو الغزوات ولم تنعكس تلك المكاسب على افراد المجتمع العثمانى انفسهم فلم يتأثر عامة الناس فى الدولة العثمانية بما اتمه محمد الفاتح أو السلطان سليم او السلطان سليمان القانونى • ومن الغريب ان التاريخ يذكر الاعمال الباهرة التى تمت على ايدي ذلك النفر من السلاطين دون ان يكلف المؤرخون أنفسهم بدرس أسباب تلك الغزوات أو الفتوحات وما حدث فيها وما هي نتائجها •

والواقع ان التوسع العثماني تم تحت ضغط الحاجات الاجتماعية المتزايدة التى سببها انتقال المجتمع العثمانى من حالة البداوة وتأكيدها على الحاجات الضرورية فقط الى حالة حضرية كثرت فيها حاجات افراد المجتمع وعلى الاخص الطبقة الحاكمة التى كانت فى تعطلها تشكل عبئاً ثقيلا على الدخل الوطنى مما دفع تلك الفئة للقيام بمغامرات جديدة تقضي فيها على أسباب عدم الارتياح فى الداخل وتحصل فيها على مكاسب جديدة تطمئن الحاجات المتزايدة لمجتمعها بشكل عام ولنفسها بصفة خاصة وقد تسببت الحروب العثمانية كما هي الحال بالنسبة لكل الحروب فى وقوع الكثير من القتلى والجرحى مما خفف الضائقة الاقتصادية عن المجتمع العثماني ولكن نتائج الحروب العثمانية لم تكن تتناسب مع جسامة التضحيات التى قدمها العثمانيون من جهة وزاد فى حركة التذمر بين افراد المجتمع من جهة أخرى •

وقد أخذ التذمر يزداد نتيجة لدخول العديد من القوميات تحت ظل الحكم العثمانى فلم تكن الاجهزة السياسية والادارية والفكرية بقادرة على استيعاب ذلك العدد الكبير من القوميات المتضاربة وصهرها فى بوتقة واحدة مما زاد في التناقضات والتعقيدات التى ظل المجتمع العثمانى يشكو منها حتى انفصال تلك القوميات عنه بواسطة الثورات المحلية او الحرب العالمية الاولى •

واذا نظرنا الى (الممتلكات العثمانية) فاننا نراها تدار بشكل مباشر من قبل

الادارة المركزية في (القسطنطينية) فاذا علمنا بان الاجهزة الادارية والسياسية العثمانية افتقرت الى الفلسفة السياسية والنضج والتجربة في الحكم وساءت بل انعدمت طرق المواصلات التي تربط مركز الامبراطورية باجزائها البعيدة وترددت الاوضاع الاقتصادية وساد الفقر والمرض وتفشى الجهل في الحاضرة استانبول وفي الممتلكات الخاضعة لادارتها مباشرة ، أدركنا الظروف السيئة التي عاشت في ظلها مستعمرات الدولة العثمانية •

وقد سيطر هذا النمط من الحكم الفردي المستبد وما اتصل به من سوء الوضع الاقتصادي والاجتماعي وانعدام العدالة في الحكم والحياة ، على الامة العربية قرابة ٤٠٠ سنة ومما زاد الطين بلة ان الارض العربية نظراً لوقوعها بين الامبراطوريات المتنازعة في ذلك الوقت اضحت ميدان حرب قاسى منه الشعب العربي الكثير من الويلات فقد قلت الايدي العاملة وجمد الفكر وتبعثرت الكتب والمصادر العربية وقل أو ندر من يعرف الاصول البسيطة للقراءة والكتابة ولم يكن الفرد العربي ليأمن على ماله أو اسرته او مستقبله في الوقت الذي كان يرزح فيه تحت ثقل الضرائب التي لا تتفق باي حال من الاحوال والدخل المنخفض الذي يعيش عليه فقد غدت الارض بوراً وانخفض انتاجها وقلت الثروات الحيوانية وتركت الانهار تغرق الحرث والنسل دون ان ترتفع يد للقضاء على هذه الفوضى •

ولم تكن السلطات الممثلة للاستانة في الوطن العربي بافضل من ساداتها في عاصمة الامبراطورية فقد اعتبر هؤلاء الحكام انفسهم مبعدين وغير مرغوب فيهم فنظروا الى افراد ولاياتهم كاجراء واراضي تلك الولايات كضياع لهم يستغلونها لاثراء أنفسهم وسادتهم في استانبول •

موقع الدولة العثمانية واثره في سياستها :

ان الوضع الجغرافي الخاص للدولة العثمانية جعل من اراضيها ما هو واقع في آسيا ومنها ما هو متصل باوربا وقد شعرت الدولة العثمانية بانها أشد

علاقة بآسيا والشرق الاوسط منها باوربا والفكر الاوربي ، وقد تمثلت رابطة العثمانيين بآسيا وبالمسلمين فى العالم بتبنيها فكرة (الجامعة الاسلامية) واعتبار الحكم العثمانى امتداداً للنهج الاسلامى فى مباشرة أمور الدولة ونظم السياسة ولكن الحماس لآسيا لم يلبث ان انقلب الى ضده وبالاخص بعد ان حدثت تغيرات هامة فى أوربا نفسها تمثلت فى الثورة الفرنسية وفى الحروب السبعينية وما حدث فى السياسة والفكر نتيجة لضعف سلطة الاقطاع والكنيسة والملكية وافساح المجال للفرد نفسه لكي يؤكد ذاته •

وقد كانت تلك المبادىء الجديدة وقوداً اشعلت حماس الجيل الجديد فى الدولة العثمانية خلال تلك الفترة فقد قوي الاتصال بين الناشئة فى الدولة العثمانية وبين الفكر الاوربى فى السياسة والاجتماع وبذلك بعدث الشقة بين الاجيال التقليدية والصاعدة فى الدولة العثمانية وكان طبيعياً ان يتنازل الحكام التقليديون عن بعض نفوذهم لكي تضيق الشقة بين تفكير الجيل الجديد وبين تفكير الاجيال المتقدمة وواقعها • ولكن الفئة المستأثرة بالسلطة فى المجتمع العثمانى لم تشأ ان تتنازل عن بعض نفوذها لكي تكون اكثر تجاوباً مع مطالب عصرها والروح التي كانت سائدة آنذاك ، مما أدى الى تصادم بين السلطة وبين الرأي العام فى الدولة العثمانية وكان أمراً محتوماً ان تأتي قوة جديدة لكي توفق بين القوى التقليدية التى كانت تصر على ابقاء القديم على قدمه والقوى المتحررة التى اتجهت صوب الاصلاحات فى الفكر والمجتمع كما فهمتها أوربا ومجتمعاتها المختلفة•وقد كانت القوى الجديدة مكونة من ضباط في الجيش العثماني جمعتهم خطة سياسية موحدة واتخذوا اسم جمعية (الاتحاد والرقي) لكي يجمع بين ناحيتين مهمتين كان المجتمع العثماني بحاجة اليهما الاولى الاتحاد بين القوميات المختلفة التى تكونت منها الامبراطورية العثمانية ونقل ولاء افراد تلك القوميات الى الدولة العثمانية نفسها لكي يتجنب المجتمع العثمانى الخلافات التى قد تنشأ نتيجة للاختلافات بين تلك القوميات من جهة وبينها وبين السلطة الحاكمة من جهة ثانية •

فكلما ازدادت تلك الخلافات تفككت وحدة الدولة العثمانية الاجتماعية وانصرفت الاجهزة السياسية والادارية الى معارك جانبية تشتت الخبرات التى كانت الدولة العثمانية بامس الحاجة اليها على قلتها أو انعدامها فى كثير من الاحيان .

اما الناحية الثانية فانها تؤكد على أهمية الترقي ومعناه التقدم والتطور الاجتماعى فى لغة العلوم الاجتماعية الحديثة وهى محاولة جديدة على مجتمع تقليدي كالمجتمع العثماني فى ذلك الوقت . ويعكس مفهوم الترقي دون شك تأثر حركة الضباط العثمانيين بالتغييرات التى فرضت ثقلها على مجتمع اوربا فى الفكر والسياسة والاجتماع .

ومن المفيد حقاً دراسة التجربة التى مرت بها الدولة العثمانية على يد جمعية الاتحاد والترقي نظراً لاهميتها التاريخية والاجتماعية وامكان الاستفادة منها كحدث تاريخي يتصل بالمجتمع العربي المعاصر .

وخلاصة القول ان ظروف تلك التجربة ضمت عناصر متناقضة فالحكم العثماني فى ذلك الوقت كان يمر بفترة من اعقد فترات حياته السياسية فقد جمع السلطان عبدالحميد الثانى كل التناقضات التى اضعفت الاجهزة السياسية والادارية فى الدولة العثمانية واذا جاز لنا اعتبار عبدالحميد الثاني الوارث غير المحظوظ لاخطاء اسلافه فى الحكم والادارة فانه نفسه قد عمل على زيادة تلك الاخطاء تعقيداً ومن ثم انقلبت فى غير صالحه وصالح الحكم الذى يمثله .

لقد نشأ السلطان عبدالحميد فى جو من الدسائس والغموض والحقد والغطرسة وقد أثرت هذه الصفات المتناقضة على بناء شخصيته كانسان اولا وكحاكم ثانياً لذا فقد عاش هذا السلطان طوال عمره يشك باقرب الناس اليه وقد سيطرت الاوهام على عقله فهو اسير خيالاته التى تصور له الوهم والمؤامرة فى كل ركن من اركان (قصر ريلدز) وقد جمع عبدالحميد الى هذا النوع من الخوف الهدام للذات فكراً يستطيع ان يتقلب وان يظهر بغير واقعه فقد استغل

عبدالحميد الثانى كلما يمكن استغلاله فى سبيل الابقاء على حكمه وقد هداه تفكيره لان يبتكر فكرة الجامعة الاسلامية والجهاد المقدس وبدلا من ان يقيم صلاته مع العالم الخارجى على أساس من الدبلوماسية المخططة التى تعتمد على تحقيق المصالح المتبادلة من اقتصادية واجتماعية وفكرية وثقافية للدول التى ترتبط بالتمثيل الدبلوماسى كما هو متعارف عليه فى الوقت الحاضر اتجه السلطان عبدالحميد الى حفظ مركزه كامبراطور وكحاكم مطلق للدولة العثمانية عن طريق اثاره الدول الاوربية ضد بعضها ، وقد تكون تلك السياسة سليمة اذا كان من يطبقها متجاوباً مع ابناء امته تربطه بهم صلة قوية تخلق ظرفاً من الاستقرار يمكن الحاكم من استخدام هذه الخطة السياسية ذات المزالق الكثيرة الا ان عبدالحميد كان فى صراع مع نفسه ومع حريمه ومع شعبه وقد اختلف والمخلصين من رجال الاصلاح فى الدولة العثمانية أمثال الوالي (مدحت باشا) الذى لم يسلم من غضب السلطان ونقل من العراق الى الحجاز ثم اغتيل ورميت بقايا جثته فى البسفور •

وقد نهج عبدالحميد فى الحكم منهجاً يؤكد على المركزية وعلى حق الملك المطلق فى الحكم مقتفياً بذلك سير اسلافه دون ان يدرك التغير الذى حدث فى المجتمع وفى فلسفة الحكم ، وطبيعي ان الحاكم الذى يحاول انتهاج سبيل الحكم المطلق والمركزية الصلبة لابد من ان يضمن تجاوباً بينه وبين القوى السياسية المختلفة فى المجتمع ولا سيما قوة الجيش الا ان ضعف شخصية الحكم العثماني ودخول العناصر المختلفة فى تكوين الجيش العثمانى زعزع مفاهيم الاحترام والولاء للسلطان العثمانى •

تلك كانت حقيقة لم يقدر عمقها عبدالحميد الثانى فقد تعلق ببعض الاوهام حول الحكم والادارة والسياسة دون ان يلجأ الى تقصي الحقائق ومعرفة أسباب الضعف التى أخذت تنخر فى جسم الدولة العثمانية •

وقد استعاض السلطان عبدالحميد عن الفهم الاصيل لمشاكل مجتمعه

بالاعتماد على مظاهر خدع بها نفسه محاولا استدرار عطف السذج من الناس لكى يقوي من مركزه كحاكم فى نظر الاجهزة السياسية والادارية التى كانت تناصبه العـــداء وعلى الاخص الجيش العثمانى ورجال الاصـــلاح فلم يفكر عبدالحميد بان يداً ستمتد لكى تنال منه أو من حكمه مع ما كان ينشـــره من المظاهر وما يحوكه من الدسائس بين رجال جيشه وبين الفئات الاصلاحية التى كان يخافها •

وللتدليل على خطل السياسة التى انتهجها عبدالحميد الثانى صلته بالدول الاوربية فبدلا من ان يتعامل معها على أساس من معاملة الند للنـد أبتكر فكرة اعلان الجهاد المقدس وكان يصرح بين آونه واخرى بان السلطان اذا ما نفخ فى بوق الجهاد فان آسيا المسلمة وما تحويه من ملايين البشر ستهب كرجل واحد لنصرة الحاكم الجالس فى استانبول وســـتضطرب تبعاً لذلك مصـالح الدول الاجنبية •

وقد كان عبدالحميد متصوراً بان مثل هذا الوهم السياسى يخيف الدول الاوربية فيحملها على التفكير اكثر من مرة قبـل ان تمتد بســـوء اليه أو الى امبراطوريته الا ان الواقع هو ان سفراء الدول الاوربية فى الدولة العثمانية كان لهم العديد من العيون والارصاد فى كافة اجهزة السياســة والحكم وبين افراد الشعب العثمـــانى لذا فان كل قول أو رأي يمحص ويدرس على أساس من الواقع الذى يعيشه المجتمع العثمانى فى ذلك الوقت وبعبارة أوجز فان الدول الاوربية كانت ادق فى تقديرهـــا لقوة العثمانيين وما يمكن ان يقوموا به اكثر مما كان يحاول اذاعته عبدالحميد على مسامع الدول الاجنبية •

وبان بشكل اوضح خطأ تقدير السلطان عبدالحميد الثاني لقوته وقوة الجيش الامبراطوري اثناء الحرب العالمية الاولى فقد تحالفت تركيا مع ألمانيا ضد دول الحلفاء ووضع ضباط الاركان الالمان خطط الدفاع عن الامبراطورية العثمانية ، وعلى الرغم من الثقة التى اولاها الاتراك لحلفائهم الالمان فقد اتضح بعد انتهـاء

الحرب ان القيادة الالمانية كانت على علم تام بقوة الجيش العثماني وعدم قدرة هذا الجيش بالارتفاع الى مصاف الجيوش الحديثة فلم تكن الخطة الالمانية قد وضعت على أساس اعتبار الدولة العثمانية نداً لالمانيا ولكن تلك الخطة توخت زج الجيش العثماني في بعض الجبهات بقصد مشـــاغلة جيوش الحلفاء من جهة وتعويق زحفها من جهة ثانية ولتهديد خطوط المواصلات التي تصـــل الحلفاء وخصوصاً بريطانيا بالهند وبالموارد الغنية بخيراتها في الشرق العربي •

ويتبين من ذلك ان عبدالحميد الثاني ووارثيـه في الحكم والسلطة قـــد اشتطوا في تقدير قوتهم الحقيقية واوهموا أنفسهم بان الدول الغربية لا تعرف شيئاً عن الدولة العثمانية وهذا اسوأ ما يمكن ان يتصف به العقل في الشرق حين يتصور ان ما يجول في داخل المنطقة التي تحيا فيها العلاقات الخاصة به من الامور المغلقة في وجه العالم الخارجي وهذا ما يوجب علينا في واقعنا الاجتماعي الحاضر ان نكون أشد حذراً في تقدير قوانا من جهة والقوى المعادية من جهة أخرى كمـا علينا ان ندرك امكانية الحركة بالنسبة لقوانا وبالنسبة للقوى التي تعادينا •

وهكذا فقد تمادى السلطان عبدالحميد الثاني فيما خيل اليه بانه يموه على الدول الاوربية المحيطة به وســـعى الى توثيق عرى الصـــداقة بينه وبين الثانيـــا القيصرية فدعا قيصر المانيا لزيارة الدولة العثمانية ولكن تلك المحاولات السياسية على الرغم من براعتها في التكتيك السياسي لم تكن مدعمـــة بقوة او بمجتمع متماسك يهيأ لها فرص النجاح •

وقد بلغ الخلاف اشده بين عبدالحميـــد الثاني وبين الضباط في الجيش العثماني ونظراً لان اولئك الضبـــاط كانوا اكثر تأثراً بالفكر الاوربي لانهم عاشوا في اوربا واطلعوا على التغييرات السياسية والفكرية واستطاعوا ان يقارنوا بين وضعهم في الدولة العثمانية وبين مستويات الرقي التي كانت تنعم بها أوربا في ذلك الوقت ، فقد كانوا أقرب الى روح العصر من السلطان وقواه التقليدية •
ولما كانت السلطة العثمانية ذات بقية من هيبة وخوف فقد انتهج الضباط

في سبيل تحقيق الاصلاحات المنشودة ايسر السبل واقلها عنفاً فقد طالبوا بان تصبح الملكية دستورية فى الدولة العثمانية وان يقر الدستور حقوق المواطنة ويفصل بين السلطات ويؤمن قيام الاجهزة السياسية والادارية التى تواكب التغيرات السياسية والفكرية فى العالم وتساعد فى تكوين مجتمع عثمانى حديث تشبع حاجات افراده فى جو نفسي يتناسب والصلات الطبيعية بين الفرد والمجتمع وبينهما وبين السلطة .

ونظراً لان السلطان عبدالحميد كان قد عاش فى جو من العظمة الموروثة والدسائس والمراوغات السياسية التى مارسها طيلة حياته فقد حاول ان يحبط حركة الضباط وذلك باتفاقه معهم ثم الانقضاض عليهم ولكنه لم يفلح مما أدى الى ازاحته عن المسرح السياسي فى الدولة العثمانية فاعلن دستور سنة ١٩٠٨ وكانت من مبادئه الحرية والعدالة والمساواة وهي عبارات اقتبست من شعار الثروة الفرنسية (الحرية ، الاخاء ، المساواة) ولكن الاتحاديين اصطدموا بالواقع ففككك حتى اسم الجمعية التى حاربوا السلطان عبدالحميد الثاني تحت لوائها وبدلا من ان يوحدوا (كما نادى اسم جمعيتهم) اتجهوا نحو سياسية تقوم على تفكير عنصري ضيق فقد انتهجوا السياسة الطورانية التى سمت الى ضرب القوميات الداخلة فى تركيب الامبراطورية العثمانية ورفعوا من مستوى القومية التركية ظناً منهم أن الاعتماد على قومية متماسكة يجعل من مركزهم قوة ذات وزن فى السياسة والادارة وبذلك تتجنب الدولة العثمانية الكثير من المصاعب التي كانت تعرض لها بفعل ضعف قاعدة الحكم وعاصمته فى امبراطورية مترامية الاطراف متعددة القوميات .

وقد أدى فشل الاتحاديين في اشاعة فكرة الاتحاد بين القوميات المختلفة والقضاء على أسباب الخلافات التى طالما نخرت فى كيان الدولة العثمانية الى تهديم العنصر الثانى الذى تكون منه اسم جمعيتهم فقد حل (التردي) محل (الترقي) وانتشرت الفوضى بدلا مما كان متبقيا من النظام وكان تخطيطاً سيئاً ان دخلت الدولة العثمانية حرباً عالمية تحتاج الى تعبئة عامة وتهيئة نفسية تقوم

بها أجهزة سياسية وادارية وفكرية تستطيع ان تفهم الافراد الغايات الحقيقية من وراء المشاركة فى نفقات الحرب وتحمل تبعاتها من جهة ورصد الموارد الاقتصادية والنفقات الضرورية لكى تتمكن الدولة من ادامة شؤون الحرب ومعالجة ما قد ينشأ من تطورات غير محتملة من جهة اخرى ، هـذا فضلا عن تقوية القاعدة الشعبية ودعوة الاطراف السياسية المختلفة لكى تتعاون فى سبيل نجاح التعبئة الفكرية ورد دعوات الخصوم والحملات التى يقصد من ورائها اضعاف الروح المعنوية .

ان الواقع يدلنا على انعدام التعبئة الاقتصادية والفكرية فى الدولة العثمانية فى الفترة التى سبقت الحرب العالمية الاولى ويوضح لنا بان الضباط الذين الفوا جمعية الاتحاد والترقي لم تكن لهم الدراية الكافية فى شؤون الادارة والحكم وقد اخطأوا حتى فى تقديرهم للظروف العسكرية فلما جابهتهم حقيقة ضعف القوى العسكرية وتفكك الصف الداخلى حاولوا استغلال مخططات السلطان عبدالحميد الثانى السياسية فاعلنوا (الجهاد المقدس) ولكن رد الفعل لهذه الدعوة لم يكن كما كان متوقعاً فلم يهب المسلمون فى مشارق الارض ومغاربها للدفاع عن السلطان والخلافة العثمانية وحتى لم يصل نداء السلطان الى أبعد من حدود مدينته استانبول هذا بالاضافة الى ان الحرب كانت قد بدأت وانقضت الفترة التى يمكن فيها للمخططات السياسية ان تنجح فى بلوغ اهدافها لان من الثابت سياسياً ان الدبلوماسية تتعطل أو يثقل سيرها فى الوقت الذى تقوم فيه حالة الحرب بين الاطراف المتنازعة .

وقد ترتب على دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الاولى ان تبعثرت قوى الجيش العثمانية وساد الجبهات التى يحارب فيها هذا الجيش ارتباك عظيم ووقع نتيجة تلك الحرب العديد من التضحيات وبدأ العثمانيون يفقدون الممتلكات التى ظالوا يسيطرون عليها لعدة قرون مما يؤكد عدم الاستعداد اقتصادياً وعسكرياً ونفسياً للحرب .

ومن الواضح تاريخياً ان الوطن العربي الذي يمتد من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي ويتوغل مسافة ليست بالقصيرة في قلب افريقيا محتلا بذلك مركزاً استراتيجيا فريداً من نوعه في العالم ، كان خاضعاً للنفوذ العثماني وعلى الرغم من الروابط الدينية التي تصل العثمانيين بالامة العربية فان ضعف الامبراطورية العثمانية الذي تمثل في قلة تجربة وفساد الاجهزة السياسية والادارية من جهة وترامي اطراف الامبراطورية العثمانية وانعدام طرق المواصلات والاتصال من جهة أخرى جعل من البلاد العربية ضيعات أو اقطاعيات يعيش ملاكها أو سادتها غائبين عنها في الاستانة وتبعاً لذلك الوضع الشاذ فقد اقفرت بلاد العرب على الرغم من خيراتها الوفيرة وقلت الايدي العاملة وتدافعت الانهار في جريانها لتقضي على الحرث والنسل فقد تسببت الزيادة في مناسيب المياه وافتقار الانهار الى سدود تنظم حركة المياه فيها الى حدوث فيضانات عظيمة دمرت ما بقي ما ثلا من مدن وبقايا حضارية وفكرية في الوطن العربي .

وهكذا فقد تضافرت القوى الطبيعية وشرور الانسان في تهديم ما بقي للعرب في بلادهم من حضارة ومن قوة بشرية واسلمتهم لليل طويل من الجهل والمرض والتأخر والفقر ، وبدلا من ان يعمل العثمانيون على رأب الصدع واقالة الامة العربية من عثرتها انتهجوا سياسة لا تقوم على فكر أو حتى تقدير للظروف المحيطة بالواقع العربي في ذلك الوقت فزادوا في انفار الارض بان عاشوا (على صلب خيراتها) وكان طبيعياً ان يوجهوا عنايتهم للارض التي افادتهم والشعب الذي تعاون معهم ولكنهم امعنوا في سياستهم المبنية على الصدفة أو ردود الفعل الامر الذي تسبب في ترك الفلاحين الارض وفي انتشار الفقر والمجاعة وما يتصل بها من الامراض والاوبئة . ولم تكن حال قطر عربي افضل من الآخر فقد عاش العراق كميدان حرب للجيوش التركية والفارسية وخرب أكثر من مرة وأصبح اهله لا يأمنون على أنفسهم واسرهم واموالهم وتفشى الجهل في ارض الرافدين وأصبحت الجريمة واقع الحياة اليومية وانقسم الناس

الى جماعات وطوائف وانعدم اجماع الرأي بينهم وخافوا من كل جديد ظناً منهم انه يحمل لهم الدمار والخراب والاستغلال والاستعباد •

ونظراً لقلة الموارد الاقتصادية وانخفاض مستوى الانتاج والاستهلاك فقد نشأ نوع من القناعة الممزوج بالذل وتمسك الافراد او اكثرهم بما يملكون من فكر بل قد جمدوا عليه خوفاً من ان يضيع هذا النزر القليل من المعرفة وعلى العموم فقد كانت حصة العراق من التأخر ومن الظروف السيئة التى وزعت من قبل الدولة العثمانية اكثر من غيره من الاقطار العربية •

اما بلاد الشام وسواحلها فقد رزح اهلها تحت النير العثماني وتعرضوا كما تعرض غيرهم ن ابناء الشعب العربى لثقل ومآسي السيطرة العثمانية الا ان موقعهم الجغرافي جنبهم الكثير من المآسي التى قاسى منها العراقيون خلال الفترة التي رضخوا فيها لحكم بني عثمان •

ونظراً لوقوع مصر فى الطرف البعيد من الوطن العربي فقد تمتعت بنوع من الحياة الخاصة على الرغم مما عاشت فيه من تخلف تحت حكم المماليك فلم يعدم هذا الحكم من بعض المماليك الاقوياء الذى حاولوا ان يجعلوا صلتهم بالدولة العلية فى الاستانة مجرد صلة شكلية لا تتعدى ضرب السكة باسم السلطان العثماني والدعاء له في المساجد والوقوف الى جانبه في الملمات التي قد تتعرض لها الدولة العثمانية •

ولكن الواقع أن مصر فى ذلك الوقت لم يكن لها مركز دولى يجعلها ذات خطر بالنسبة لمنطقتها فى الشرق الاوسط وعلى الصعيد الدولى فان قناة السويس لم تكن قد حفرت بعد •

اما الاجزاء الاخرى من الوطن العربى فقد تفاوتت سيطرة العثمانيين عليها بين الضعف والقوة كما هو الحال بالنسبة للشمال الافريقى والجزيرة العربية فلم تكن لدى الدولة العثمانية فى الاستانة القابلية العسكرية خصوصاً فى البحر مما يؤمن لها السيطرة على المناطق التى تتاخم البحر او التى تحتاج السيطرة

عليها الى جهد عسكرى منظم كما ان سوء الادارة والسياسة العثمانيين جعل من سيطرة الدولة العثمانية على مستعمراتها البعيدة عن مركز الحكم مجرد سيطرة اسمية لا تتعدى فرض بعض الضرائب واظهار الولاء والطاعة للسلطان المتربع على العرش العثماني .

العرب والعصر الحديث :

لقد أغلقت نوافذ الحضارة العربية بقيمها الدينية والروحية نتيجة للغزو الهمجي الذى تعرضت له حاضرة الخلافة (بغداد) وبالنسبة لدارسي التاريخ والحضارة العالميـــة فأن هجوم المغول والتتر واكتســـاحهم للحضارة العربية وتحطيمهم لاجهزتها السياسية والادارية له مثيل فى هجوم القبائل الجرمانيـــة المتوحشة على الامبراطورية غير الرومانية وغير المقدسة .

وقد أدى الهجوم المغول التتري غير المتوقع على الحضارة العربية في العراق الى فقدان قوة الدفع الحضاري الصاعدة في الامة العربية، وعلى ضوء هذه السياسة التأريخية العنيفة يجدر بنا ان ندرس نفسية الفرد العربي بصرف النظر عن القطر الذي يسكنه من أرض العرب فان هذا الانسان له قابلية تحمل ثقل الاحداث فهو صبور بطبيعته طالما بقيت عزته ومركز الاشعاع الذى يغذيه بالحياة والفكر سليماً ممـــا يطمئنه الى وجود سند له فيما يعتريه من خطوب وصـــعوبات اما اذا تعرضت عزة العرب للضرر وفقد المركز القوي والسند الراسخ الذى يستطيع ان يســـتند اليه فانه ينقلب من حالة الاعتداد بالنفس الى حالة من القلق النفسي يصعب عليه معها ان ان يتعرف على طريقه فيتصرف بشكل ينسجم وما تقتضيه حاجاته مراعياً ظروف الواقع .

من هذه اللمحة النفسية نستطيع أن ندرك بان الانسان العربى بعـــد ان وجهت له ضربات متتابعة تمثلت فى الغزو الصليبي وفى الهجوم التتري الكاسح وتجاوزت هذه الضربات كل الحدود حتى وصلت الى مركز الاشعاع الحضارى

العربي فدكته بدأ يفقد قدرته على التعامل مع الواقع وعلى رأب الصدع الذي حل به وبقومه وبحضارته • وفى هذا التحليل اوجه شبه كثيرة بين الحالة التى وصل اليها الانسان العربى بعد أن حطمت عزته وحضارته وبين ما يذكر عن (فقدان المكانة الاجتماعية) فى البلدان الاسيوية وبعبارة أوضح ان الموت الحضارى المفاجىء الذى تعرض له الانسان العربى ومجتمعه قد بلد الاحساس العام لدى أكثر ابناء الامة العربية وافقد ثقتهم بانفسهم مما اوقع الفرد العربى تحت ثقل الاحداث فى الوقت الذى اعتاد فيه هذا الانسان نفسه ان يوجه الاحداث وان يرسم الطريقة الذى يجب ان يسير فيه التاريخ وترسمه الحضارة •

ذلك التغير المفاجىء الذي حل بالانسان العربي غير الكثير من وجهة نظره وجعله فى مركز جذب لقوتين احداهما شعوره بالتعالى والرفعة نظراً لتأريخه الطويل ونجاحه فى بناء صرح حضارة كان وما زال وسيبقى نورها ساطعاً على الفكر العالمي بشكل متميز والاخرى احساسه بمركب ضعف نظراً لما حل به وبحضارته نتيجة للضربات العنيفة التى تعرض لها •

وبالنظر لشدة هاتين القوتين الجاذبتين وضعف الانسان العربى بالنسبة لهما فقد ابتعد هذا الانسان عن الحياة والواقع وأصبح اسيراً لاوهامه ومخاوفه فهو يتوقع المكروه والمصاعب فى كل لحظة وقد فقد ثقته بنفسه وبغيره فهو يشك فى كل عمل او محاولة تصدر عن الغير ويتصورها تهديداً لامنه واستقراره وعملا موجهاً نحو السيطرة عليه واخضاعه •

وتبعاً لفقدان الثقة بالنفس وتوقع الشر من الغرباء فقد حددت الابعاد التى يمكن ان يتحرك فيها الانسان العربى فكرياً واجتماعياً وواقعياً وقد لعب المكان الضيق دوراً سلبياً في تقييد الانسان العربي وجمود افكاره وفقر معلوماته عما يحيط به من مجتمعات ومؤثرات •

تلك هي حالة الشعب العربي عندما واجه العصر الحديث فقد كان خاضعاً للظروف المكانية ذا قدرة محدودة على التفاعل والحركة ، نظرته للحياة تتسم

بالقناعة الممزوجة بالخوف والتبلد يؤثر السذاجة في الفكر والعمل مطامحه لا تتعدى حصوله على الحاجيات الرئيسة لادامة الحياة أو ما يسمى بلغة العلوم الاجتماعية الحديثة : (توفير الحاجات الضرورية فقط) .

وفي الفترة التي بدأت النوافذ المغلقة للوطن العربي تفتح على العالم الخارجي كان هذا العالم في مهب رياح فكرية عاتية فقد نجحت حركة احياء العلوم في أوربا وبدأ الاقطاع يحسر ظله عن ارض أوربا كما بدأت الكنيسة وسلطتها بالتقلص وضعفت سطوة الملوك والاباطرة أو بدأت بالضعف . كل هذه التغيرات الاوربية في المفاهيم الدينية المتمثلة بقيام حركة الاصلاح الديني وظهور البروتستانتية على يد (مارتن لوثر) في شمال المانيا ثم تطويرها على يد (كالفن) في سويسرا ونجاح حركات الاصلاح السياسي التي بلغت ذروتها في ثورة عام ١٧٨٩ في فرنسا وظهور بعض المفكرين في محاولة لبناء مجتمعات جديدة تسودها روح من التسامح والعمل المشترك كما كان الحال بالنسبة لمفاهيم (سان سيمون)(٣) ، هذه المعطيات تفاعلت في تكوين قاعدة لانطلاق بواكير الثورة الصناعية التي تعتبر بحق اخطر انقلاب في تاريخ الفكر والمجتمع لانها جعلت من الانسان عنصراً أساسياً في بناء الحضارة ووفرت له الوقت الكافي بان قللت جهده العضلي وبذا مكنته من استغلال فائض وقته في تطوير قابلياته الفكرية ولاشباع العديد من الحاجات التي نتجت بفعل التغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

واذا قارنا بين الوطن العربي والعالم الخارجي في ذلك الوقت الذي كانت

---

(٣) سان سيمون (١٧٦٠ ـ ١٨٢٥) مفكر فرنسي . جمع بين الثورية في الفكر والخيالية في التخطيط ، عاصر الثورة الفرنسية وانتقدها لعدم نجاحها في هدم الابنية التقليدية ثم انطلق من هذه المفاهيم الى كتابة (وصفه) اجتماعية لاوربا وللعالم تجلت في كتابه « حول تنظيم المجتمع الاوربي » . يعتبر أباً غير منازع للفكر الاجتماعي واستاذاً لكومت ورائداً اقدم للاشتراكية الطوبائية لذا يختلف سان سيمون عن اتباعه من السانسيمونيين الذين جنحوا نحو الواقعية في اشتراكيتهم .

فيه الثورة الصناعية تدق باب المدنية فى اوربا نرى ان اختلافا كبيراً فى القيم الاجتماعية وفي المنطلقات الفكرية تميز كلا من الامة العربية وأوربا في تلك الحقبة التاريخية •

ولكن كيف حدث الاتصال بين هذين العالمين المختلفين فى الفكر والحياة ؟

لقد قال الشاعر الانكليزي كبلنج (ان الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا) وهذا القول على ما فيه من تحيز يعكس لنا وجهة النظر الاوربية بالنسبة للشرق بشكل عام فى الوقت الذى بدأت فيه المطامع السياسية والاقتصادية ممثلة في طموح الطبقات الوسطى ذات النفوذ والمال في أوربا تحاول ان تمد مناطق نفوذها وامبراطوريات ثروانها الى الشرق الغني بطاقاته وموارده الطبيعية الفقير بامكاناته واستعداده التكنولوجية وافتقاره الى الاجهزة السياسية والادارية التي تستطيع ان توفر سبل العيش والتفكير المناسبة للايين من ابناء هذا الجزء من المعمورة •

ولقد تحركت الاطماع الاجنبية ممثلة فى حملة فرنسية قادها نابليون على مصر وفى محاولات للجمعيات التبشيرية •

وهاتان المحاولتان اللتان تعرض لهما الشرق العربي دفعت اليهما ظروف أوربية خاصة فقد نجحت الثورة الفرنسية فى باريس أولا وفى فرنسا ثانيا وكانت فى طريقها الى ان تصدر الى البلدان الاوربية المختلفة وعلى الاخص تلك التى ترزح تحت حكم ملكي أو امبراطوري مطلق ولكن ظهور نابليون على مسرح السياسة الفرنسية جعل من مبادىء الثورة الفرنسية مجرد شعارات عاطفية تستغل فى شحذ هم الجنود الفرنسيين وتستخدم لاخفاء مطامع نابليون فى بناء مجد شخصي له ولفرنسا وقد أدرك نابليون بعد ان تربع على كرسي السلطة بان العقبات التي تقف فى طريقه تتمثل فى قوة الاسطول البريطاني وبربرية الجيش الروسي وكلاهما يمثل تحدياً لطموح نابليون •

ولم يفكر نابليون بالحرب فى جبهتين وانما حاول ان يباعد بين اعدائه

ويضرب اولئك الاعداء الذين هم أكثر تحدياً له فكان ان بدأ بانكلترا لانها قامت بفرض حصار اقتصادي عليه وسدت في وجه فرنسا سبل تعاملها التجارية خصوصاً عن طريق البحر هذا من جهة ومن جهة أخرى فان نابليون على الرغم من الانتصارات التي أحرزها بعبوره الالب الدينارية في أعلى قممها وفي موسم الشتاء ما زال يشعر بانه (قصير القامة) ولابد له من القيام بعمل بطولي يؤمن له مركزاً مرموقاً في اعين رجال الادارة المسيطرين على الحكم في باريس ويخلب في الوقت نفسه عاطفة الفرد الفرنسي وبذلك يعوض نابليون عن العقدة التي اصيب بها من جراء قصره كما يوضحها العالم النفسي المعروف (ادلر) تلميذ فرويد والقائل بتأثير نواحي عدم التكامل الجسمي على سلوك الفرد وتصرفه خلال علاقاته بالافراد الآخرين وخصوصاً في المواضع التي يصبح محك الاسبقية فيها قائماً على أساس انجاز نجاحات أكبر .

واتجه نابليون صوب أرض الشرق الاوسط وهاجم اخلد بقعة حضارية فيها وهي وادي النيل فقد كان نابليون يحلم ببناء امبراطورية جديدة تخلف امبراطورية الاسكندر المقدوني ولكن حلم نابليون لم يلبث ان تبخر بعد تراجعه عند اسوار عكا المنيعة فعاد ثانية الى أرض مصر وصمم على أن (يعيش) مع الشعب المصري .

ولم تكن رغبة نابليون في اختلاطه باهل الشرق العربي ناتجة عن تلقائية جدية فقد خطط لهذا الاختلاط من قبل وحملت السفن الفرنسية الغازية مجموعة من العلماء كما ضمت مطبعة حجرية اصدر نابليون بواسطتها منشوره الاول الى المصريين وقد دعاهم فيه الى الترحيب به واستقباله واعداً سكان وادي النيل بحياة افضل يعيشونها تحت ظل حكمه وقد ندد في منشوره هذا بالمماليك ونزاعاتهم واستغلالهم للشعب المصري وخيراته وقد زاد نابليون على ذلك بان اعلن بانه يحترم القيم الدينية في مصر وانه كان يفكر منذ زمن طويل بتبنيه تلك القيم وتركه لما هو عليه من دين وعلى الاخص فكرة التثليث (الاب ،

الابن ، وروح القدس) والاستعاضة عنها بفكرة الاله الواحد وقد ظهر نابليون في المجتمع المصري بمظهر الذى يحترم التقاليد والعادات والاعياد والمواسم الشعبية ذات المغازي الدينية والاجتماعية • ولكن أنى يمكن لفرنسي ان يصبح مصرياً صميماً فقد كان رد الفعل فى مصر بالنسبة الى نابليون فى غير صالح الاحلام التى فكر وخطط لها •

تلك كانت المحاولة النابليونية التى هدفت الى بناء مجد نابليون وتحقيق بعض اطماعه ذات الخيال البعيد وانجاح بعض مخططاته السياسية والعسكرية الهادفة الى اضعاف صف اعدائه وضرب خطوط مواصلاتهم وعلى الاخص انكلترا •

اما المحاولة الثانية التى جابه بها العالم الحديث الوطن العربى فقد كانت ممثلة بالجمعيات التبشيرية وقد انتهجت تلك الجمعيات طريقاً ذا هدفين الاول ظاهر يهتم بالامور الدينية ومحاولة نشرها واضعاف القيم الدينية السائدة فى المجتمعات التي تدخلها الجماعات التبشيرية اما الهدف الثاني الذي بقي فى الخفاء حتى فترات قريبة فقد كان سياسياً يقصد منه خدمة مصالح الدولة التي تنتمي اليها تلك الجمعيات المبشرة •

وترجع فكرة التبشير الى فترة قيام حركة الاصلاح الديني فى وربا فقد وجدت الكاثوليكية نفسها محاطة ببحار من البروتستانت فى القارة الاوربية مما دفعها الى القيام (بمغامرات دينية) خارج حدود اوربا لتخفيف الضغط على الكثلكة فى هذه القارة ونقل المعركة الى أرض أو أراض جديدة تستطيع فيها الكنيسة فى روما بسط نفوذها واستعادة قوتها وزيادة ممتلكاتها دون ان تصطدم بمعارضة بروتستانتية أو مطامح سياسية من قبل الفئات الحاكمة الاوربية التى خضعت الى سلطة الكنيسة خلال عصور طويلة •

وتعتبر الحروب الصليبية التى دامت قرابة ثلاثة قرون بداية لحركة التبشير الحديثة ، والواقع ان تلك الحروب وما استهدفته من محاولات للسيطرة

على موارد الشرق العربى واستغلال الايدى العاملة الرخيصة فى سبيل بناء مجد لاوربا والاستحواذ على الاسواق التجارية فى الوطن العربى ، كانت فى مقدمة الاسباب التى دفعت بالصليبيين الى مهاجمة الارض العربية •

ومن المفيد تاريخياً ونحن ندرس التجارب التاريخية ذات المساس بالامة العربية ان نحلل الاسباب التى أدت الى تجريد الحملة الصليبية ، ومجملها وصف الوضع الذى ساد أوربا قبل الحرب الصليبية : فقد بدأ عصر الاقطاع فى الاقطار الاوربية بالزوال لان الاقطاع فى اساسه نظام سياسي ذا أجنحة اقتصادية واجتماعية فقد قام النظام الاقطاعى على تأكيد الصلة بين ما سمي بالتابع وسيده وقد كانت تلك التبعية متراوحة بين العبودية المطلقة وبين العلاقة المبنية على تقديم خدمات من قبل التابع نتيجة لاستخدام الارض أو الادوات والآلات كالمعصرة والطاحونة وما اليها من مستلزمات العمل فى القرون الوسطى التى يحتكرها الاقطاعي •

اما على الصعيد السياسي فان النظام الاقطاعى سد مسد العلاقات السياسية فى أوربا فالسيد الاقطاعى هو السياسي المطاع بالنسبة للمنطقة التى يمارس فيها نفوذه مما جعل أوربا مقسمة الى ولايات صغيرة تتناسب وسلطة الاقطاعى وامتداد نفوذه عن طريق الحاشية والاعوان والاتباع فلم يسمح النظام الاقطاعى فى أوربا نظراً لقابلياته المحدودة فى السياسة والادارة قيام دول كبيرة ، فلما شعر النظام الاقطاعى بانه يحتاج الى نوع من المساندة لكى يبقى على نفوذه وامتيازاته وعلى الاخص فى الفترات التى يبدو فيها نوع من ارادة التحرر من الخضوع للسيطرة الاقطاعية أو يأخذ النظام نفسه بفقد سلطته على ابقاء التابعين له تحت نفوذه وسطوته فقد مد الاقطاع يده الى الكنيسة وتلاقت مصالحهما معا فقد سار النظام الاقطاعى والمطامح الكنسية جنباً الى جنب فى فترة القرون الوسطى فى أوربا وكان البابوات يحاولون دوماً جعل الاقطاعيين وعلى وجه الخصوص اصحاب الاقطاعيات الكبيرة خاضعين لنفوذهم فقد كانت سلطة اولئك البابوات زمنية قبل كونها دينية •

وتحت ثقل التناقض بين متطلبات التطور والجمود التقليدي بدأ النفوذ الاقطاعي في التفكك وأخذ الضعف يدب الى مركزه السياسي وعلى وجه الدقة بدأ يعتري تلك العلاقة بين التابع والاقطاعي فقد ظهرت على المسرح السياسي الاوربي ممالك ودول جديدة غيرت من مفاهيم العلاقة المبنية على الطاعة بين التابع والسيد ونقلت التابعين الى مركز اجتماعي جديد فجعلت منهم مواطنين تحميهم سلطة سياسية ممثلة بالدول وسلطاتها السياسية والتنفيذية واجهزتها الادارية والعسكرية .

وتبعاً لهذا التغير السياسي في وظيفة النظام الاقطاعي كعلاقة سياسية بدأ تغير على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي عم اوربا في ذلك الوقت يتلخص واقعه بما حدث من تبدل في وجهات نظر التابعين بالنسبة لحاجياتهم وطرق اشباع تلك الحاجيات ومعنى ذلك ان التابعين عندما كانوا خاضعين للسيد الاقطاعي كانت حاجياتهم تنصب على الضروريات ونظرتهم للحياة تتصف بالضيق فقد قنعوا بما كانوا يحصلون عليه لانه كان متناسباً مع متطلباتهم وطموحهم القصير المدى فلما انحسرت سطوة الاقطاع السياسية عنهم تغيرت المنافذ التي يطلون منها على المجتمع والحياة ولم تعد العلاقات الاقتصادية في ظل النظام الاقطاعي التي تتيح لهم القدر القليل من الاشباعات الضرورية لحاجياتهم بكفية لسد ما كانوا يشعرون فيه من فراغ نفسي مبعثه التغير العظيم في وجهة نظرهم وفهمهم الجديد للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية .

وبما ان تغيراً سياسياً قد حدث للنظام الاقطاعي في أوربا تبعه تغير اقتصادي فان التغير الاجتماعي اسرع هو الاخر لكي يبني وحدات اجتماعية جديدة تنسجم والمتطلبات السياسية والحاجات الاقتصادية ويعمل بنفس الوقت على ايجاد هيئات ونظم اجتماعية تحفظ لتلك التغيرات الجديدة استمرارها وتساعد على الحركة الاجتماعية داخل التركيب الجديد للمجتمعات في أوربا .

وبدون شك فان الفرد في أوربا وخصوصاً في الفترة ما قبل الحروب

الصليبية كان يعيش فى فراغ سياسي واقتصادي وديني وفكري هائل فقد ضعفت سلطة الاقطاع وبذلك تحرر الفرد من التبعية ولكن تلك الحرية كانت مفاجئة فلم يعرف الفرد الاوربي كيف يتصرف بها .

الا ان الحرية السياسية ـ كما هو ـ ملاحظ فى اكثر المجتمعات لم تكن الاساس الاول فى تكوين الفرد الاجتماعي والفكري لان الانسان حيوان عاطفي ذا نزعة مثالية قبل ان يكون حيواناً سياسياً أو اجتماعياً ـ لذا فان زوال النفوذ الاقطاعي كعلاقة سياسية لم يكن له رد فعل عميق فى نفس الفرد الاوربي ،

لكن اختفاء الاقطاع كعلاقة دينيـــة تمثلت فى الصلة القوية بين رجال الاقطاع وبين الكنيسة والايمان المطلق الذى اتصف به الاوربيون فى ذلك الوقت متمثلا فى الرحلات الطويلة التى قاموا بها الى بيت المقدس والتى وصفها بدقة الكاتب الانكليزي (شوسر) فى كتابه (رحلة الحاج) ذلك الشعور العميق بالولاء نحو الكنيسة أولا وتعاليمها ثانيـــا ، أوجد فراغاً كبيراً فى تفكير الفرد الاوربي جعله يصاب بنوع من هيستريا الرغبة فى العمل والتضحية مما جعل الاوربيون قبل فترة الحروب الصليبية مؤهلين نفسياً لخوض غمار حرب أو القيام بمغامرة تشـبع جانبـاً من رغبتهم فى (ايذاء الذات) عن طريق (الماسوكية الجماعيـة) تعويضاً عما اقترفوه من ذنب فى نقض سلطـــة الكنيســة المتعاونة مع الاقطاع والحنث بالتزاماتهم نحوها .

ومن الممكن ان تكون هناك دوافع اقتصادية بالنسبة لهؤلاء المغامرين حدت بهم الى المجيء الى أرض الشرق العربي وقد تلخص تلك الدوافع فى الحصول على بعض المكاسب أو الاقطاعيات الصغيرة فى ارض الشرق الواسعة .

ولا يغرب عن البال أن تلك الدوافع وجدت على صعيد الافراد فقط ومن الصعوبة بمكان اعتبارها عوامل اصيلة للقيام بمغامرة كبرى كالحروب الصليبية فان من غير المسلم به ان يضحي الفرد الاوربي بنفسه ويتحمل المخاطر فى البحر والبر فى سبيل الحصـول على مكاسب لم تعرف ماهيتها وهو على هـــذا البعـــد

والجهل بها • فقد كان الشرق العربي وما زال فى الوقت الحاضر – على الرغم من الاستعمار والاختلاط والرغبة فى الدرس – يمثل فى الفكر الاوربي قلعة من الخيال والصور المزيفة التى تدور حول الخمول والجنس والاهداف القصيرة الاصل والفلسفة العقيمة وقضاء الفراغ واللهو فى الابنية ذات الاطلال الدوارس كما يحاول الفكر الاوربى المريض التعبير عنها • فهل يصح ان يكون فهم الاوربيون فى فترة متقدمة كفترة الحروب الصليبية كافياً لتعريفهم بالشرق وحياته وموارده والصعوبات التى يعيشها وما يتميز به تفكير الفرد فى الوطن العربي ورد فعله بالنسبة للفرد عامة وللاوربيين بشكل خاص ؟

اما الكنيسة الكاثوليكية فى روما فانها شعرت بان سلطتها الزمنية آخذة بالضعف والاضمحلال ولما كانت الكنيسة تعتمد بمواردها الاقتصادية على الاقطاعيات واملاك الكنيسة فى أوربا ومن الهبات التى يقدمها الافراد فى المناسبات المختلفة حسب ما تقتضيه المراسيم والتقاليد الدينية وان انتقال السلطة من الاقطاعيين واستقرارها فى ايدي حكومات وطنية يضعف مركز الكنيسة السياسى والاقتصادي فى أوربا ويقلل من هيبتها فى نفوس افراد المجتمعات الاوربية ونظراً لما شاب سمعة رجال الكهنوت خصوصا من منهم فى الطبقات ذات الامتيازات الدينية العالية ، فقد كانت الكنيسة نفسها تواقة الى عمل تستعيد فيه نفوذها من جهة وتضيف الى سمعتها المعرضة للضعف والتدني سنداً جديداً من القوة والهيبة والاحترام وتزيد بنفس الوقت من الممتلكات التى تدر عليها الارباح خصوصا فى منطقة كثر التحدث عن مواردها وخيراتها كمنطقة الشرق العربي من جهة أخرى •

والسبب الواقعي وراء تجريد الحملة الصليبية والقيام بمغامرة تاريخية عسكرية أقوى من ان يكون مصطبغاً بالصبغة الدينية كما يحاول بعض من يدرس تاريخ هذه الفترة تصويره وعلى الاخص المؤرخين من الغرب لان المؤرخ شأنه شأن كل فرد من افراد المجتمع تتلون وجهات نظره بما يحيط به وبمجتمعه من

الافكار والاراء والتيارات التى تتحكم فى تكوين العقل الجمعي فى البلد الذى يعيش فيه والحضارة التى يتفاعل معها •

وللتعرف على العامل المباشر فى قيام الحروب الصليبية يمكن أن نرجع الى أوربا مرة ثانية قبل فترة الحروب الصليبية فالوضع السياسي الاوربى كان يتميز باقطاعيات فى وسط اوربا وجنوبها خضعت فيها التشكيلات السياسية لحكم اقطاعي او ملكي مطلق متخذة من الزراعة ومن الانتاج الزراعي وسيلة لتأمين حاجاتها الاقتصادية وبذلك رضخت تلك المجتمعات للظروف المكانية المحيطة بها لان من الخصائص الرئيسية للمجتمعات الزراعية بطء قابلية الحركة ضمن مجتمعاتها أولا وفقدان حركة التفاعل مع المجتمعات الاخرى ثانياً • فقد انقطعت مجتمعات جنوب أوربا ووسطها عن جيرانها أولا وعن العالم الخارجى المحيط بها ثانيا وفضلت نوعاً من الاقتصاد يقوم على أساس الاعتماد على النفس وسد الحاجات الاجتماعية عن طريق الانتاج المحلي والتقليل من التعامل الخارجى والتبادل التجارى •

أما المناطق الساحلية فى أوربا فانها كانت ذات اتصالات خارجية على صعيد التجارة والقرصنة البحرية •

واذا دققنا بنظرنا نحو سواحل أوربا فى تلك الفترة التى سبقت الحروب الصليبية يتبين لنا بان غرب أوربا كان منعزلا عن العالم الخارجى وكانت الجزر التى تسمى اليوم بالجزر البريطانية نهبة للمستعمرين والمتوحشين من الهون والسكسون والاقوام الاخرى التى هاجمت تلك الاراضى المحيطة بالمياه مهددة تأخرها بجماعات من داخل القارة الاوربية • اما اسبانيا والبرتغال فانهما وان كانتا على درجة كبيرة من الاتصال الخارجى بسبب اثارة الشرق العربى لهما بعد دخوله الى شبه جزيرة الاندلس فان روح المغامرة فى كل من اسبانيا والبرتغال قد تلونت بالمكاسب الصغيرة الاجل والقناعة بما حصلت عليه تلك الامم من جراء مغامراتها وقرصنتها فى البحار ثم ان النظام الملكى فى كل من اسبانيا والبرتغال لم يهيء الفرص الكافية لابناء هذه الممالك للقيام بمغامرات جريئة فقد

جابهت على سبيل المثال ـ كريستوفر كلومبس ـ العقبات العديدة في محاولته لاكتشاف طريق يسير شرقاً الى الهند وسخر منه في ذلك الوقت مع وجود تراث وتقاليد خاصة بقدره تلك الممالك المتاخمة للبحر على ارتياد المصاعب والعقبات التي تنجم عن التجارة والحرب والقرصنة في البحار فالملكية وفسح مجال المغامرة الفردية امران على طرفي نقيض مما يدفعنا الى الظن بان اسبانيا والبرتغال لم تكونا في وضع يمكنهما من تلبية رغبات الكنيسة ورجالها في مغامرة حربية عبر البحر الابيض المتوسط تهدف الى الحصول على مكاسب سياسية واقتصادية ودينية والا كان من الطبيعي ان تلجأ الكنيسة الكاثوليكية في تنفيذ مخططات المغامرة الصليبية الى البلدان الاوربية الاكثر استعدادا لتحمل المسؤولية واقدر على ادارة دفة الحرب وخصوصا تأمين نقل الجنود والامدادات عن طريق البحر.

هذا مع معرفتنا بان اسبانيا والبرتغال بلدان كاثوليكيا متعصبان وان لهما صداقات وعداوات مع الشرق العربي تمكنهما من فهم هذا الجزء من أرض العالم واهله بشكل افضل مما يمكن ان يفهمه اي بلد في القارة الاوربية في ذلك الوقت .

ومن المناسب من وجهة النظر التاريخية ونحن نبحث حرباً تمتد جذورها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية والدينية بعيداً في التربة الحضارية للقرون الوسطى والاقطاع ، ان نبين الصلة بين الانظمة السياسية وبين التركيب الاقتصادي للمجتمعات كافة وللتجمعات التي ظهرت بشكل دول او ممالك في القرون الوسطى بشكل خاص .

ويحاول التفكير السياسي ان يربط بين النظم الاقتصادية وبين الواقع السياسي للمجتمعات المختلفة وبوجه عام فان المناطق ذات الاراضي الزراعية الشاسعة تميل الانظمة السياسية التي تمسك بزمام القوة والسلطة نحو الملكية أو التنظيم الامبراطوري بينما توجد النظم الجمهورية في الاماكن ذات الاقاليم التي تشح فيها سعة الارض وتقل أو تصعب فيها الزراعة وهناك مصداق لهذه

النظرية فى السياسة والاجتماع يتمثل فى المدن اليونانيـــة القديمة فان تلك المقاطعات الصغيرة ذات النظام الحضاري المتقدم كانت تدار من قبل مجالس تمثل المدن بكاملها بعد ان صعب جمع المدينة كلها فى مجلس تشـــريعي وتنفيـذي كبير • وهناك عبر التاريخ نظم سياسية سارت على غير هذا النهج فالشرق القديم نشأت فيه الملكيات والنظم المطلقة التى تميل الى تكوين امبراطوريات شـــاسعة مستغلة بذلك اتساع الاراضى فى الشرق واعتمـــاد اهلها على الزراعة كمورد وحيـــاة •

واذا ما طبقنا المخطط الفكري الخاص بالسياسة والادارة والذي يبين الصلة بين الارض واقتصادها من جهـــة ونوع النظام القائم من جهة أخرى فان أوربا فى الفترة التى ســـبقت الحروب الصليبية كانت تضم مجتمعات زراعية يدخل فى تركيبها الكثير من الحرفيين المنظمين بشكل نقابات عمالية تربطهم أصول الانتاج التقليدية التى لا تتوخى من وراء العملية الانتاجيـــة زيادة الانتاج وانمـــا تهتم بالتقسيم الذى يحصل ضمن النقـــابة العمالية مؤكدة على الصلة بين العمال غير المهرة وبين العمال المهرة ثم بين هؤلاء وبين اقرانهم الممتازين •

والواقع ان حياة الزراعة ما زالت حتى ذلك الوقت مسيطرة على تهيئـــة السبل الكفيلة باشباع حاجات المجتمع الضرورية كما اعتبرت الزراعـــة محوراً للفكر والمجتمع فى أوربا فى القرون الوسطى ويؤكد المفكر الاوربي (تاوني)(٤) الذى درس باستفاضة كبيرة تطور العمل والعمال من كافة الوجوه الاجتماعيـــة والانتاجية والتنظيمية والفكرية ، بان ازدياد النقابات العمالية فى القرون الوسطى لم يوجد دفعاً قوياً للحركة الانتاجية وتأثيراً على سوق العمل بل بقيت نسبـــة

---

(٤) تاوني كاتب اوربي بريطاني الجنسية ولد في الهند وفيها تكاملت شخصيته اهتم بالمفهوم الاجتماعي للعمـــل وتطوره من وجهـــة نظر الاجتمـــاع التاريخي حاول ان يسير على خطى ماكس فيبر فى محاولاته الهادفة الى كشف الصلة بين القيم الدينية وتأثيرها الاجتماعي فى تطور النظم الاقتصادية •

الفلاحين الى العمال كبيرة جداً لذا فان أوربا فى الفترة ما قبل الحروب الصليبية كانت اقطاعية فى تفكيرهاالسياسي زراعية فى تنظيمها الاقتصادي كاثوليكية فى تفكيرها الديني هـــذه الامور مجتمعة فسحت المجال لقيـام النظم الملـكية التى يستطيع الفرد فيها ان يشبع حاجاته الضرورية فقط بينما تتربع على قمة المجتمع الهرمي الشكل فئة تخضع للملك او الحاكم المطلق وتمسك بايديها اعنة السلطة ممثلة فى النفوذ السياسي والسيطرة على مفاتيح الثروة والمال فى المجتمع •

ومن وجهة النظر الاجتماعية فان الطبقة الحاكمة فى المجتمعات الزراعية ذات الانظمة التقليدية تنزع نحو الاسـتيلاء على الاراضى وضمها اليها بينمـا تعزف تلك الدول عن المغامرات التجارية خصوصا فى اماكن غير مأمونة تفصلها عن أوربا صعاب كثيرة •

الا ان النظم السياسية التى تعيش فى ايطاليا ولاسيما فى جنوبها اختلفت فى تلك الفترة التاريخية عن التيار العام فى التنظيم السياسي الاوربى وبعبارة أوضح فان تلك المجتمعـات كانت تنتهج النظم الجمهورية ومعنى ذلك ـ بلغـة الفكر السياسي الحديث ـ ان الطبقة الوسطى فى تلك المجتمعات هى التى تسيطر على المخططات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية وهذه الطبقة : طبقة بلا جذور فهى لم تنحدر من الطبقة العليـا ذات النفوذ الاقطاعي ولـكنها برزت من اعماق الطبقة العامة فهى والحالة هذه تحاول ان تبتعد عن الاصل الذى نشات منه وذلك بالاستحواذ على اماكن النفوذ والقيادة فى المجتمع ومنافسـة سـلطات الحكم التقليدية •

ويتمثل الاتجـاه الجديد فى جمهوريات البندقيـة وجنوه حيث تحكم (مجالس الدوما) ويوجد حافز عظيم نحو تكوين ثروات واقعها ليس الارض والزراعة وانما سبيل جديد يتخذ من البحر غاية ومن الممالك التى تحد البحر وسيلة للاثراء •

لذا فقد اتفقت مطامح الطبقة الوسطى المتنفـذة فى جمهوريات ايطاليـا

الجنوبية ورغبات الكنيسة الكاثوليكية على الرغم من اختلاف قيم التفكير لدى كل من هذين الطرفين فرجال الطبقة الوسطى فى المجتمعات ذات النظم الجمهورية فى ولايات ايطاليا الجنوبية كانوا ينزعون نحو اقتناص رؤوس اموال جديدة عن طريق نهب وسلب الثروات الكامنة فى الشرق العربى اما الكنيسة الكاثوليكية فقد كانت تطمع فى زيادة نفوذها وذلك بأشاعتها بشكل دعائي فكرة حماية الاماكن المقدسة وظهورها بمظهر المدافع عن القيم الدينية والاماكن التى وجدت فيها الاثار المسيحية الاولى • وهذا الالتقاء بين الطبقة الوسطى ذات المطامح الاقتصادية وبين القيم التى ارادت الكنيسة التأكيد عليها ونشرها يحمل المؤرخ على الاتفاق مع (ماكس فيبر)(٥) و (تاوني) بوجود صلة بين النظم الاقتصادية والقيم الدينية التى تسند تلك النظم وانعكاس ذلك كله على التركيبات الاجتماعية القائمة •

وبوحي من هذه الدوافع المختلفة فقد باركت الكنيسة الجموع التى سارت نحو الشرق العربى مكدسة فى سفن اعدت وانفق عليها من قبل رجال الطبقة الوسطى ذات المطامح التجارية والاقتصادية التوسعية التى ظهرت كقوة يحسب لها حسابها فى جمهوريات ايطاليا الجنوبية •

تلك كانت بداية المحاولات التبشيرية مع اختلاف فى تكوينها ودوافعها بالطبع والذى نهتم به ان الجمعيات التبشيرية كسابقاتها من الحملات الصليبية أخذت تفتش عن المكان الذى تستطيع جعله قاعدة للغزو الفكري مع ما يحمله ذلك الغزو من اهداف سياسية واقتصادية ان لم تكن تخريبية وعسكرية وقد

---

(٥) ماكس فيبر مفكر اوربي الماني الجنسية جمع بين القانون والمعرفة الاجتماعية وقد اسهم فى وضع دستور جمهورية الفايمار سنة ١٨٤٨ وتميزت كتاباته بمحاولاته لاكتشاف الصلة بين الديانات والنظم الاقتصادية وتعتبر دراسته التى بين فيها الترابط بين البروتستانتية والرأسمالية رائدة فى حقل الاجتماع الاقتصادي •

حاولت الارساليات فى أول امرها اتخاذ الموصل فى شمال العراق منطلقاً لاعمالها التربوية ذات الصبغة الدينية المتمثلة (بالتبشير) ولكنها ادركت صعوبة موقفها فنقلت تأثيرها الى سواحل بلاد الشام •

وقد كان من نتائج عمل تلك الجماعات المبشرة والاساليب التى استعملها في (كسب) السكان العرب فى سواحل الشام ان قامت صعاب كثيرة فى وجه تلك العمليات ذات المظهر الديني مما حدا بالجمعيات التبشيرية الى نقل مركز الثقل فى عملياتها من التبشير الى التربية ولكن التبشير بقي هدف الاهداف بالنسبة لها مما جعلها مصدر شك وريبة من قبل الشعب العربى فى سواحل بلاد الشام •

والذى يمكن استنتاجه من دراستنا لما قامت به الجمعيات التبشيرية من محاولات (لتحضر) المجتمع العربي وما قام به نابليون (لرفع مستوى الشعب العربى فى مصر) أن كلتا التجربتين لم تكونا تهدفان الى تبديل الاوضاع الراكدة فى الوطن العربي آنذاك لانه ليس من مصلحة أوربا ان تتغير التنظيمات السياسية التقليدية والاقتصادية البطيئة فى الوطن العربى والا فان أوربا ومطامعها ستصبح مهددة بالخطر الزوال •

ومن جهة اخرى فان الدوافع التى حدت بنابليون لكى يقدم الى منطقة الشرق العربى ويحتل مصر لم تكن لتنطلق من حب نابليون للمصريين والعمل على رفع مستواهم وكذلك الحال فيما يختص بالجمعيات التبشيرية فانها لم تأت مدفوعة بالرغبة لرفع المستوى التعليمي والتربوي وبالتالى انهاض المجتمع العربي مما كان عليه من تخلف وجمود ، فلما اضطربت اهداف نابليون وتضاربت مخططات الجمعيات التبشيرية فان كلا من تلك المغامرات التى حدثت فى دنيا التبشير والاستعمار اثرت تاثيرا عكسيا على النهضة الحديثة فى الشعب العربى •

ومن غير المشكوك فيه أن المجتمع العربى فى مفتتح نهضته الحديثة كان يمر بفترة من التقاهه فى الفكر والحياة بعد السبات المريض الذى عاشه نتيجة للصعوبات الجمة التى اصطدم بها لذا فمن الطبيعى ان تكون طريقة ايقاظه مما

هو عليه متناسبة وما شعر به من ضعف وتردد ولكن الذى حدث كان العكس تماما فان نابليون كان شديداً جداً بحربه واصلاحه والجمعيات التبشيرية كانت عنيفة فى تحقيق اهدافها وكرد فعل لعمليات العنف هذه انقسم الشعب العربي وانحاز قسم منه بدافع الطمع او الخوف الى التيارات الجديدة بينما تنافرت مجموعات اخرى دافعة بنفسها الى الطرف الاخر فى الوقت الذى بقيت فيه فئات كثيرة لم تتأثر بعد بما احاط بها من حوافز جديدة فان الفرد العادى فى كل من مصر وسواحل بلاد الشام لم يستجب بشكل ظاهر للمغامرة النابوليونية أو ما قامت به الجمعيات والارساليات التبشيرية لان التغير الذي حدث فى المجتمع العربى بفعل تلك العوامل الغريبة تناول فئات قليلة من الشعب العربى ، فالحياة الروتينية للافراد العاديين بقيت كما هي ، ولما لم تتأثر تلك الاساليب التي تعيش فيها وبموجبها الغالبية العظمى فى مجتمعات مصر وبلاد الشام فان نزعة من اللابالية سادت تفكير معظم الطبقات التى تتخذ من حياتها وسيلة لعيشها .

واذا نظرنا الى واقع تأثير الحملة النابوليونية ومحاولات الجمعيات التبشيرية فاننا سنجد ان الصعاب التى يعاني منها المجتمع العربى اليوم والتى تتصل بالتطرف وباللابالية ، انما نشأت جذورها البعيدة فيما قامت به أوربا من مغامرات ومحاولات فى بدء تجربة الشعب العربي مع الحضارة الاوربية المعاصرة لذا فان الكثير من المؤرخين يظلمون التاريخ والشعب العربي اذا اعتبروا تلك المغامرات والمحاولات ذات المطامع والاهداف القصيرة والبعيدة بدايات للنهضة الفكرية والاجتماعية فى الوطن العربى لان الواقع والتاريخ يؤكدان على ان الحضارة تشبه الى حد بعيد مناطق ضغط الرياح فى مفهوم الجغرافيين ومعنى ذلك ان المنطقة ذات الضغط المنخفض تكون عرضة لتقبل الرياح من المناطق ذات الضغط المرتفع ويمكن تطبيق ذلك على مناطق الضغط الحضارية فالوطن العربى فى تلك الحقبة التاريخية كان ذا ضغط حضارى منخفض بينما بدأ الضغط الحضارى الاوربى بالارتفاع وكان طبيعيا ان تهب رياح الحضارة الاوربية على الشرق

العربى دون حاجة الى نابليون ومغامراته أو الجمعيات التبشيرية ومحاولاتها والا فكيف يمكن تعليل تقدم اليابان قبيل الحرب العالمية الثانية مع عدم وجود نابليون والجمعيات المبشرة ؟ فقد بنى اليابانيون مجتمعهم الصناعي دون ان تمد أوربا يداً اليهم بل بالعكس كانت النية الاوربيـــة معقودة على فرض نوع من الحصار الاقتصادى والفني على اليابان ممـــا دفع باليابان الى قطع الطريق على الحلفاء والدخول فى محور المانيا وايطاليا •

وهناك دروس يمكن للفكر العربى الجديد استنباطها خلال تعرض الوطن العربي للمحاولات القسرية فى مفتتح اتصاله باوربا الحديثة هى :

١ ـ ان الوطن العربى يتمتع بعمر حضـــارى طويل يعود به الى اعماق التاريخ وعلى وجه التحديد الى أربعة آلاف سنة قبل ميلاد المسيح وهذا العمق الحضارى يعمل كسلاح ذي حدين الاول يعود بالخير على العرب أنفسهم لانه يجعل منهم امة ذات جذور حضارية عميقة تسهل عملية البناء الحضاري فى الوقت الحاضر والثانى يعمل ضد صالح التقدم الحاضر فى الوطن العربى لانه يوجد نوعا من الاشباع الكلي للعقل العربى يصده عن محاولات التقدم الحديثة ينعكس هذا الاشباع على نفسية الفرد العربى اذ يأخذ بالنظر الى الحضارات الحديثـــة التكوين نظرة ثانوية تحول بينه وبين التعامل الحضاري السليم معها والاستفادة من تجربتها فى عالم اليوم •

٢ ـ ان المجتمع العربى مجتمع تحكمه القيم التقليدية ومعنى ذلك سيطرة الجيل القديم على الجيل الحديث ورسم الطريق له واذا اقتصرت هذه السيطرة على الفترة الحاضرة فان الامر يمكن تقبله من وجهة نظر علم الاجتماع الحديث الذى يؤكد على تقليل الفوارق الحضارية بين الاجيال ولكن اذا تدخل الجيل القديم فى رسم المستقبل الفكرى والاجتماعى للجيل الجديد فان معنى ذلك ان تصادما حضاريا لابد وان يقع بين الاجيال فى الوطن العربى يبتعد فيه الجيـــل الجديد عن معطيات الفكر والثقافة فى المجتمع العربى خصوصا تلك التى تتبـــع السبل التقليدية فى المعرفة •

ومن الظواهر التى يتميز بها المجتمع الحاضر فى الوطن العربى ان جيل الاباء كان نتاجا غريبا لفترة انتقال ما زالت فى طريقها الى التبلور وبمعنى آخر فان الجيل المتوسط بين الجيل القديم والجيل الحديث لم يتمكن بعد من تحديد اتجاهاته الفكرية والعاطفية لذا فهو اقل قدرة على الاتصال بالجيل الجديد على الرغم من ضيق الشقة الزمانية بينهما فالجيل الذي يحكم بالفعل هو جيل الاجداد ينفذ الى الجيل الجديد دون ان يمر بالجيل العازل او جيل الاباء وبما ان الفارق الفكرى والزمنى بين الجيل القديم والجيل الحديث خصوصا فى الوقت الحاضر الذى يميل فيه مؤشر التطور نحو السرعة فى الحيـــاة والفكر فان عدم تفاهم سينشأ حتما بين هذه الاجيال المتنافرة الامر الذى قد يؤدي الى شـــعور الجيل الجديد بعزلة وبفراغ فكري وعاطفي كبير يمكن ان ينقلب الى ما يسمى بعلم النفس (الانعكاس على الذات) وبذلك يفقد الجيل الجديد صلتـــه بالمجتمع وبمؤسساته وخصوصا المدرسة التى ستصبح ـ اذا انقلب التباعد بين الاجيال الى تعقيد اجتماعي ـ منظمة تفرض علومها على جيل لا يؤمن اصلا بالخط الفكري والاجتماعي الذى تسير عليه .

٣ ـ ان الشعب العربى بوطنه العربى قـد مر بفترات من القوة والضعف وهذا أمر طبيعي بالنسبة لكل شعب ولكل حضارة والمفروض في تعليم الناشئة العرب هو فهمهم لهذه الحقيقة فاذا اردنا ان نفهم الفترة الزمنية والفكرية التى نمر بها فما علينا الا ان نعود الى تفكير وتحليل شخصية لها وزنها فى الفكر العالمى هى شخصية ابن خلدون ويعتقد هذا المفكر بان عمر الحضـــارة يتكون من ثلاث مراحل سميت الاولى بمرحلة البناء وفيها يتم وضع حجر الاساس للبناء الحضاري الجديد وتسود روح من القوة والسيطرة لكى يتمكن جيل البناء من الاسراع فى العملية التى يؤديها ومن التقليل فيما يمكن ان يحدث من اخطاء بالاضـافة الى التأكد من متانه اسس الحضارة المستقبلة .

أما المرحلة الثانية فهى مرحلة التكامل وفيها يبدأ الجيل المنوط به هـــذه

المسؤولية اتمام عملية البناء الحضارى وقطف الثمار الذى بدأ بها الجيل السابق •

أما المرحلة الثالثة فهى تلك المرحلة التى يبدأ عنـــدها البناء الحضارى بالتصدع بعد ان تعتريه عوامل التعرية والتآكل ممثلة بالقوى الطبيعيـــة وقوى الانسان والقوى التى تسمى بـ (الميتاحضارية) وفى هذه المرحلة يتقوض الصرح الحضارى بعد ان مر بفترتي البناء والتكامل •

ولا يغيب عن ذهن هذا المفكر العربي ان فترة التكامل على الرغم من سيرها في طريق اتمام البناء الحضاري فانها تحمل بذور فنائها معها والذي يريد ان يقوله ابن خلدون ـ بهذا المعنى ـ ان الطاقات الفردية تختلف فيما بينها لان هناك فروقاً فردية تؤدي الى اختلاف هذه الطاقات هذا من جهة ومن جهة أخرى فان الحضارة تشبه الجهد الانساني فى بلوغها مراحل عليـــا لا تلبث ان تنحدر منهـــا الى الحضيض وهناك مصداق لوجهة النظر هذه فى الاقتصاد الحديث حيث تدعى المرحلة التى لا يستطيع الانتاج ان يتجاوزها ولا يلبث ان يبدأ بالتنافص بمرحلة التناقص •

واذا طبقنا رأي ابن خلدون السابق وما اضفناه اليه نستطيع عندئذ افهام الجيل العربى الجديد بانه يمر الان ووطنه العربى بمرحلة البناء وهى مرحلة تستدعي الكثير من الجهد أولا وتستلزم دقة التخطيط والمرونة وقلة الحساسية بالنسبة للاخطاء والتغييرات ثانيا •

وانسجاما مع هـــذا الرأي لابد من ان يفهم الجيل العربى الجديد بانه المسؤول الاول عن مرحلة البناء هذه وان التاريخ العربى يبدأ به كقوة محركة لامة ذات تاريخ عميق الجذور لها رسالتها التى يجب ان تؤديها متحدية الضعف والزمن والصعوبات التى تقام فى طريقها لان رسالة العرب هى مصيرية وليست دوراً ثانوياً تؤديه على مسرح الحضارة الانسانية كما يتصور ذلك بعض دعاة التخاذل ومن يؤرخ لامة العرب من الاجانب •

٤ ـ وهناك حقيقة جديرة بان يطلع عليها ابناء هذا الجيل هي متى وكيف

بدأ تاريخ نهضة العرب الحديثة وبواضح العبارة فان تاريخ هذه النهضة ستنتهي مرحلته الاولى فى الوقت الذى يحرر فيه العرب ارضهم سياسيا واقتصاديا وفكريا فان التاريخ لا يحدثنا عن المراحل المبكرة لبداية نهضات الامم فمتى بدأت نهضة الامة الالمانية أو الايطالية ومتى أصبحت انكلتره واميركا وروسيا وغيرها من الدول التى تحتكر الحضارة فى الوقت الحاضر دولا ناهضـــة ؟ والجواب ان نهضتنا لم يتم الاعتراف بها الا بعد ان تصبح حقيقة واقعة فبسمارك لم يكن الباني لالمانيا الحديثة لو لم ينتصر على فرنسا فى سادوا وسيدان سنـة ١٨٧٠ وتاريخ اميركا الحديث لم يكتب له ان يكون تجربة لولا انتصار الشمال الامريكى على الجنوب الامريكى اثناء الحرب الاهلية .

وبالنسبة للوطن العربى فان تاريخه الحديث سوف تبدأ المرحلة الجدية منه بعد ان يتم تحرير فلسطين فان هذه المعركة لا تقل اهمية عن معارك سـنة ١٨٧٠ بين المانيا وبين فرنسا وقـــد يحاول بعض المؤرخين ممن يكتبون تاريخ العرب الحديث ان يصوروا اوربا ذات فضل على الفكر العربى والواقع ان مـا قامت به أوربا لم يكن الا تخطيطا سياسيا وعسكريا وفكريا قصد منه الحصول على مغانم اكبر للدول الاوربية ذات الصلة بتلك المخططات . أما ما حدث بالنسبة لرد فعل العربى والتقدم الذى استجابت له الامة العربية فلم يكن اكثر من ناتج جانبى لعملية طاشت اهدافها ولو علم الاوربيـون ما سيحدث فى الوطن العربى لبقي نابليون فى فرنسا والجمعيات التبشيرية من صوامعها .

الفصـل الثاني

الانسان العربي ومعادلته الفكرية

يتميز الانسان العربى بانه مخلوق حضارى قبل اى اعتبار آخر وهـذه الصفة تلقى لها سنداً من التاريخ والحضارة فان جذور الانسان العربي الحضارية تمتد عبر التاريخ حتى تصل الالف الرابع قبل الميلاد ولابد هنا من التفريق بين مفهومنا عن الحضارة وبينها كتاريخ للامة العربية فالحضارة فى هذا المعنى تدل على نتاج ذي صفة انسانية بلورة العقل العربي جاعلا منه حقيقة مثقفـة تحدت المعضلة والقدر ، اما التاريخ فانه سجل للاحداث يعكس حركة الانسان فى تفاعله مع المكان والزمان والهدف .

وتاريخ العرب يتميز عما يماثله من تواريخ الامم الاخرى بانه سفر عام حوى كل ما قام به العرب كافراد وجماعات ودول وهـذه الحقيقة تجعل من التاريخ العربي مرآة ينعكس عليها واقع الامة العربية بشكل تختلف فيه عن غيرها من أمم الشرق الاوسط والدول الاوربية واممها المعاصرة .

وهذا الشمول فى تاريخ العرب يرجع الى أهمية الفرد العربي فهو والحالة هذه عنصر أساسي فى تكوين المجتمع العربي بصرف النظر عن الحقبة التاريخية التى يمر بها . وقد أدت هذه القيمة الغاليـة للفرد العربي لان يخلد اعمـاله بكليتها فالتاريخ بالنسبة للعرب لم يقتصر على ذكر القادة فقط أو الرجال البارزين وانما تناول الحياة البسيطة للانسان العربى نفسه .

ومن المتعارف عليه استنادا الى مفهوم التاريخ الحديث ان هذا السفر الذى يدون الاحداث مع اختلاف واقعها الزمني انما يهتم بمـا قام به اولئك الذين يطلق عليهم اسم (العصب المحرك للاحداث التاريخية) ولكن هذا التحليـل لا ينطبق على تاريخ العرب لذا فقد اختلطت الامجاد بالاحداث التاريخية نفسها

وأصبح من العسير التفريق بين الحدث التاريخي وبين ما ينسبه الافراد الى أنفسهم من مجد وفخار فالقائد العربي لم يكن مجرد قائد سياسي وانما هو شخصية تجمع بين السياسة وبين الحرب والقوة اللغوية ممثلة فيما ينظمه من اشعار في المناسبات التي تتطلبها ظروف عمله لذا فهو يخلط بين العمل التاريخي من حيث هو مجموعه من الاحداث وبين ما يتصل به من مجد شخصي فالمعركة التي يخوضها العرب لم تقتصر على تنظيماتها السياسية والعسكرية ولكنها ملحمة بكافة الجوانب الملحمية وعلى الاخص بعد ان يتفرغ لها الكتاب لتدوينها وجعلها جزءاً من مملكة التاريخ .

وكان على المؤرخين العرب أن يفرقوا بين ما يجب وما لا يجب ان يدون في الاسفار التاريخية الا ان هذا النفر من ذوي القدرة على تدوين الاحداث التاريخية هم نتاج للبيئة التي يعيشونها لذا فهم ينظرون الى الافراد والى جوانب الابداع والمؤثرات العاطفية وما يتصل بالمعركة من الظلال الرومانتيكية والمأساوية كوحدة متكاملة مما يجعل مؤلفات التاريخ خصوصا في الفترات الاولى لتطور الفكر العربي تبدو وكأنها ملاحم كتبت بقلم ادباء أو متتبعين لما يحدث في المجتمع من ظواهر سياسية أو عسكرية أو اجتماعية .

هذا الخلط بين التاريخ وبين جوانب العمل الادبي كالوصف الملحمي أو المأساوي أوجد ما يسمى في التاريخ العربي بـ (الامجاد) وخلق ارتباكا كبيراً بين الاحداث نفسها وبين ما يحيط بها من هالات رومانتيكية او اردية سوداء باكية .

ودون شك فان مشكلة الخلط هذه تجعل مهمة الجيل الجديد في فهم الاحداث التي مرت بها الامة العربية عبر الزمن والاستفادة منها في عالم اليوم ، امراً صعباً ان لم يكن معقداً ، فمن المؤسف ان يفتقر العمل الفكري العربي في الوقت الحاضر الى مؤلف في التاريخ يجمع بين العلمية والموضوعية في المنهج والاهداف القومية في الغاية ولعل من المؤلفات التي تعتبر ذات اسلوب علمي أو موضوعي ما كتبه الدكتور فيليب حتى تحت اسم (تاريخ العرب) والحقيقة ان

هذا المؤلف الذى عاش فى حضارتين مختلفتين احداهما حضارة الوطن العربى والاخرى حضارة اوربا الامريكية حاول ان يكتب تاريخ العرب من خلال فهمه لعلم التاريخ فى الحضارة الاوربية ، وقد بدأت محاولة حتى تأليف كتاب عن تاريخ العرب عندما دخلت الجيوش الامريكية الى الشرق الاوسط العربى ولما كانت اميركا فى عزلة عن العالم الخارجى وكانت تأثيرات مذهب مونرو (اميركا للامريكيين) ما زالت مسيطرة على الفكر والسياسة فى الولايات المتحدة فقد كانت الحاجة ماسة الى تأليف كتاب عن العرب وتاريخهم يكون دليلا بيد القوات الامريكية التى ستحل فى الوطن العربى وبالفعل فقد قام فيليب حتى مدفوعا بتلك الحاجة الى وضع كتاب اسماه (مختصر تاريخ العرب) طبع على نفقة الحكومة الامريكية ووزع على الضباط الامريكيين لكى يكون انجيلا صغيراً فى ايديهم يجعلهم اكثر فهما للشرق الغامض وما يصادفوه من صعاب (كما كان الامريكيون يتخيلون الشرق العربى) .

فلما اشبعت الحاجة الى وضع كتاب مختصر عن تاريخ العرب وسع فيليب حتى كتابه جاعلا منه مؤلفا جديدا فى تاريخ العرب سماه (تاريخ العرب مطول) تمييزاً له عن مختصر تاريخ العرب .

ومن وجهة النظر الفكرية فان الكتابة فى تاريخ العرب بدأت منذ زمن مبكر يرجع الى بداية فترات الاستشراق فقد ظهر اهتمام فى مطلع نهضة العرب فى العصر الحاضر من قبل بعض ذوي الفكر الاوربيين استهواهم الشرق العربى بغموضه وبتاريخه الطويل وبموارده الضخمة وبوجهات نظر ابنائه وما يسود الحياة فيه فى ذلك الوقت من بطء وقناعة وخوف ومفاجئات ولكن الاستشراق بدأ فى أول امره يهتم باللغة العربية وآدابها لانها المفتاح الطبيعى لفهم الامة العربية لذا فان أكثر المستشرقين فى ذلك الوقت وحتى فى ايامنا المعاصرة يؤكدون على اللغةالعربية وآدابها ومفرداتها وما فيها من نحو وضروب منفنون الكلاموالتعبير.

أما الخطوة الثانية فى تفكير المستشرقين فقد تميزت بالانتقال من الادب

الانشائي كما يسمى في التعبير الادبي الحديث الى الادب الوصفي وظهرت اتجاهات جديدة لكتابة ما سمي (تاريخ الادب) وهي محاولة للجمع بين النتاج الادبي من جهة وبين الوعاء الزمني لهذا النتاج من جهة اخرى وقد برع في هذا المجال (كولد زيهر) و (ماسنيون) وجب وفشر •

وقد نجم عن كتابات هؤلاء المستشرقين في تاريخ الادب اهتمام ليس بالاحداث التي تتصل بالنتاج الادبي فقط ولكن تلك التي تتصل بالسياق التاريخي للشعب العربي والربط بين اثر الفرد وما يتركه ذلك الاثر في تكوين للاحداث التاريخية ويتمثل الاتجاه الجديد فيما كتبه جوستاف لوبون وارنست رينان في فرنسا وكارل بروكلمان في كتابة تاريخ الشعوب الاسلامية في ألمانيا •

هذه هي المنطلقات البارزة في محاولة للوصول الى فهم موضوعي لتاريخ العرب وطبيعي ان هناك الكثير من المثقفين العرب ممن كتبوا في هذه المجالات وحاولوا ان يرسموا خطوطا عامة ومفصلة للاحداث وصلتها بالزمن في الوطن العربي لان المستشرقين مع اتباعهم للاسلوب والمنهج الموضوعيين في كتابة الاحداث التاريخية العربية ظلوا مدفوعين بدوافع عدة منها خدمة الدول الاوربية التي يعملون لاجلها وتأثرهم بحقدهم الدفين على العرب والدين الاسلامي ولكن الواقع يشير الى ان ما كتبه المستشرقون ما زال يمثل لوناً جديداً لم يعهده الفكر العربي في محاولاته المختلفة لفهم التاريخ بوجه عام وتاريخ الامة العربية بوجه خاص •

ولعل من المناسب ونحن بصدد ايجاد معادلة جديدة للفكر في المجتمع العربي المعاصر ان نرسم الخط واضحا بين ما نسميه بالتاريخ من جهه وما نطلق عليه اسم الامجاد من جهة ثانية : فالتاريخ احداث من نتاج الانسان نفسه تفاعلت مع الظروف المكانية والزمانية واكتسبت نوعا من القدرة (الميتا انسانية)(٦) •

---

(٦) الميتا انسانية : تعبير ابتكرته يجمع بين لفظين الاول لاتيني معناه (ما بعد) والثاني عربي لكي استدل به على قوة خارقة ذات صلة بالجهد والفكر الانسانيين •

اما الامجاد فانها اسفار تضم ما قامت به المجتمعات ضمن اطاراتها الفكرية وحدودها القومية • فالتاريخ اذن محاولة علمية لفهم الماضى والاستفادة من هذا الفهم فى واقع الحياة كما يعيشه الجيل الحاضر وكما ستعيشه الاجيال القادمة والصلة بين التاريخ والامجاد تكون فى المراحل الاولى لكتابة التاريخ عندما يكون الوعي العام لدى الامة التى تحاول النهوض فى اوليات تطلعاته الى مستوى أفضل لان الصعيد الفكرى لهذه الفترة المبكرة فى تاريخ الامة الثقافي يجعلها تهضم بصعوبة بالغة التاريخ كمادة علمية تقوم على استقراء احداث الماضي واستنباط ما يمكن الانتفاع به فى الوقت الحاضر •

فاذا تعدت الامة فترة النضج المبكرة التى استدعت الخلط بين التاريخ كعلم وبينه كسجل للامجاد فان المرحلة الجديدة تستدعى كتابة تاريخ جديد يبتعد عن التأثيرات العاطفية او التقديرات غير المعقولة كان تفهم المعارك والصعوبات التى مر بها الشعب العربى على حقيقتها لان الخلط بين التاريخ وبين الامجاد فى فترة النضج العقلى المتطورة يجعل من التاريخ مجرد قصص لا تصلح الا للمناهج المدرسية أو لسد اوقات الفراغ والتسلية فى الوقت الذى نريد من تاريخ العرب ان يكون منهجا للعمل السياسي يجمع بين تجربة الماضى والتطلع الى مستقبل افضل عن طريق التفاعل بين التجارب كما عاشتها الامة العربية فى الماضى وبين واقع حياة شعبها فى الوقت الحاضر •

تجارب العرب المرة وكتابة تاريخ لهم :

لقد مر العرب بتاريخ طويل من الواقع قبل ان يشرعوا فى كتابة التاريخ نفسه ، فالعرب من الامم التى تعيش تاريخها بدلا من ان تكتبه ولم تظهر الحاجة الى كتابة التاريخ عند العرب الا فى فترات تلت انتشار الدعوة الاسلامية لان كتابة التاريخ كما هو متعارف عليه فى الوقت الحاضر ظاهرة من ظواهر الحياة المدنية فحياة البداوة تتسم بالبساطة وبالفردية وبتفضيل متطلبات الفرد على المجموع الذى لا يتعدى القبيلة نفسها • ومن دون شك فان القبيلة فى الفترات التى مرت

بها الامة العربية قبل انتشار الدعوة الاسلامية لم تكن مجتمعا بالمعنى المتعارف عليه لان الظروف المكانية كانت تنقصها الى حد كبير نظراً لحركتها الدائمة وصعوبة اشباع حاجاتها اذا تخطت المرحلة الضرورية .

وقد اثرت صعوبة الظروف المكانية فى تمكين الظروف الزمانية لكى تنجح فى نسج الاحداث التى تعتبر المادة الاساسيـــة للتاريخ . لذا فان تاريخ الفترة الجاهلية للامة العربية لم يكن يعنى بالاحداث قدر عناية بنتاج شعرى يحاول فيه الفرد العربى نفسه الارتفاع فوق مستوى الصعوبات التى يمر بها كفرد وكقبيله.

ولما اخذت الاحداث تضمن لها عناصـــر الزمان والمكان ووجـــدت حالة الاستقرار التى افضت الى المدنية والتحضر وما يتصل بهمـــا من نشوء التراكيب الاجتماعية المعقدة ذات الاجنحة السياسية والاقتصادية والفكرية فقد وجدت حاجة قصوى لكتابة تلك التعقيدات والاستفادة من التجربة التى مر بها الانسان خلال العصور السالفة .

الا ان المعلومات التى حصل عليها العرب ومؤرخوهم الاوائل لم تكن تهدف الى الاهتمام بالاحداث كناتج لتفاعل تم بين البشر وبين الظروف التى تحيط بهم من مكان وزمان وانما تصور للماضي بشكل جذور بشرية تمتد فى قدم سحيق فقد سيطرت فكرة الانساب على العرب أنفسهم فالضرورة ملحة على صعيد القبيلة فى الجاهلية والقبيلة ـ المدينة فيما بعد لارجاع الابناء الى آبائهم وارجاع الاباء الى اجدادهم .

وعلى الصعيد الاجتماعى فقد وجدت حاجة ضرورية نظراً لكثرة العناصر الداخلة فى تركيب الامة العربية ، الى ايجاد نسب للامة العربية بكاملها وهذا ما يفسر لنا الاسلوب الذى التزمه مؤرخو العرب القـــدماء كالطبري والمسعودي وغيرهم ممن حاولوا الرجوع الى أصل البشر أنفسهم وقد قادهم هذا السبيل الى بداية تكوين الارض لكى تكون مهداً لظهور الانسان . وقـــد تأثر كتاب تاريخ العرب الاوائل كذلك بما كان سائداً فى الافكار اليونانية وما جاءت به التوراة من

تقص في سفري التكوين والخروج وما اليهما من بدايات متوارثة لتاريخ الارض والانسان .

وبكل تأكيد فقد أثر اعتقاد المؤرخين الاوائل في الامة العربية بان التاريخ شجرة يجب ان يبدأ الانسان بالتعرف عليها عن طريق الرجوع الى اصولها وجذورها الموغلة في أرض الاجيال الغابرة ، في توجيه الفكر العربي من خلال الكتابة التاريخية فقد اهتم العرب باسلافهم كثيراً ولما بدأوا بكتابة التاريخ ظنوا ان هذه العملية لا تعدو كونها محاولة منظمة لتخليد اعمال اولئك الاسلاف وبيان فضلهم من جهة وتقليل شأن الاجيال الحاضرة والمستقبلة من جهة أخرى .

لذا فقد نشأ تأكيد كبير على الماضي لانه الوعاء السليم لفكر الاباء والاجداد وان الابناء والاجيال المستقبلة ليست الا ظلالا باهتة لاولئك العمالقة في الفكر والواقع ومهمة الجيل الحاضر (كما رآها مؤرخو العرب القدماء) هي محاولة تقليد الماضي والسير على النهج التقليدي .

وبعبارة أوضح فان مفهوم العمل التاريخي كما نشأ عند العرب لم يكن ليتعدى محاولة فكرية لاستعمال قصة الارض والانسان ونقلها من حيز الذاكرة الى مجال الكتابة الناضجة توخياً لثبوت محتواها وحفاظاً على تسلسلها الزمني .

فالطبري يبدأ كتابه بقصة طويلة للخليقة ثم لا يلبث آدم ان يظهر على مسرح الحياة وتبدأ الارض تشعر بوطأة مشاكل بني آدم انفسهم ثم يأخذ التاريخ في الجري على هذا المنوال حتى تبتلع الاحداث التاريخية الامم القديمة بما فيها التبابعة العظام وغيرهم ممن خلفوا اثرهم واضحا في سفر التاريخ وينتهي الطبري من استعراضه للاحداث بنهاية الفترة التي يعيش فيها لذا فان اكثر كتابة (الرسل والملوك) مركز على ذكر الماضي كاسطورة اولا وتاريخ ثانيا ثم حادثة في آخر الامر ولكن جانب الاسطورة والتاريخ تطغيان على اكثر ما كتبه الطبري مما يوضح لنا اتجاه كتاب العرب الاوائل نحو الماضي اكثر من محاولتهم لفهم الحاضر .

ولعل هذا الاتجاه نحو الماضى والتأكيد على اسلاف البشـــر دون البشر أنفسهم هو الذى أوجد لدى الفكر العربى نوعا من الاندفاع نحو الماضى من جهة والشعور بضآلة الاجيال الحاضرة من جهة اخرى .

وبعبارة واضحة فان التعلق بالفترات العابرة فى تاريـخ الوطن العربى وخصوصا تلك التى يغلب عليها جانب الاسطورة والتاريخ دفع بالفكر العربى الى التشبع بفكرة الافضلية للاجيال المتقدمة ، واختزال عمل الجيل الحاضر الى مجرد محاكاة للمنجزات العظيمة التى ورثها من مخلفات الماضى . وتبعا لذلك فقد أصبح الانسان العربى فى الوقت الحاضر متجها الى الماضى اكثر من اتجاهه نحو الحاضر والمستقبل وعلى وجه الدقة فان الانسان العربى نفسه بعد ان شعر بالصعوبات التى نشأت نتيجة لهذه العكسية بالاتجاه نحو فهم التاريـخ كحادثة وتجربة وما ترتب على ذلك من تأخر ومن جمود تناقضها رغبة جامعة فى سبيل اللحاق بركب الامم الناهضة من القرنين العشرين فقـــد انحاز الانسان العربى بكليته وبشكل شعوري وسريع نحو المستقبل لكى يستطيع ان ينفض عنه السيطرة التقليدية للركود ويسير جنبا الى جنب مع تيار التقدم الحاضر ، هذا الاسراع في توجيه دفة الفكر نحو المستقبل أدى الى ان ينسى الفرد العربى حاضره لان الوقوف على قاعدة الحاضر معناه الابطاء فى حركة المستقبل وبذلك انقسم الفكر العربى بين الماضى والمستقبل دون عناية بالحاضر الذى يمثل الواقع دون ذلك .

الفكر بين الشرق والغرب :

لقد قال الكونت (كيزرلنج) فى تفريقه بين الفكر الشرقى وصنوه فى الغرب ان الاول يهتم بالمعنى والثانى يهتم بالشىء وقد حاول الكثير من المفكرين ان يرسموا الخط واضحا بين ما يسمى بالشرق وما يسمى بالغرب والحقيقـة ان هذه التسمية فى اساسها لا تستند الا الى واقع عاطفى يمتزج ببعض النزعات السياسية ذات المنافع التوسعية فى الاقتصاد وفى السيطرة الخارجية فقد اطلق الاوربيون على الاقطار التى تبعد عنهم فى المسافة وتختلف فى الفكر وفى الهدف

اسم الشرق كناية عن البداية فى الحياة وتكوين المعرفة والواقع ان لفظ الشرق يختص أكثر ما يختص بالاقطار التي تقع في نصف الكرة الجنوبي حيث ظهرت الحضارات العظيمة التى كانت وما زالت وستظل مشرقا للفكر الانسانى بكامله لان تلك الحضارات قد اصبحت جزءآ مهما من واقع التاريخ والزمن لذا فهى تتحدى التأثيرا تالمكانية فاذا اخذنا بنظر الاعتبار فكرة القبائل الهندية الاوربية وحركتها عبر التاريخ ثم درسنا كيف انتقلت الحضارة من نصف الكرة الجنوبي الى نصف الكرة الشمالى مبتدئة فى بلاد اليونان التى هى نفسها مكونة من اجناس هندية أوربية وفكر سامي ادركنا ان بناة عالم المعرفة فى القديم جاؤا من أصول انحدرت اسلافها من سلالات بشرية عاشت فى نصف الكرة الجنوبى أو ما يسمى الان بالاقطار الحديثة النمو ثم انتقلت تلك الاقوام الى نصف الكرة الشمالى قاطعة فى طريقها البحر الابيض المتوسط عن سبيلين رئيسيين الاول هو شبه جزيرة الاناضول والثانى مجموعة الجزر فى البحر الابيض نفسه التى كانت فى الازمنة الاولى تمثل جسراً كاملا ربط ما نسميه بالشرق فى وقتنا الحاضر أو نصف الكرة الجنوبى فى القديم بالنصف الشمالى .

وليس هذا الامر بمستبعد فالبحر الابيض المتوسط يمثل بحيرة ثقافية نمت على شواطئها حضارات قديمة كالحضارة الفينيقية والكنعانية والمصرية ثم استطاعت تلك الحضارات ان تنتشر عن طريق السياسة والتجارة والمغامرات البحرية وللتدليل على صحة فرضية انتقال البشر والفكر من نصف الكرة المتمدن فى القديم الى نصفه المتوحش فى شمال البحر الابيض المتوسط يمكن ان نستعيد فى ذهننا القصة التى ذكرت فى التوراة والتى تتضمن عبور النبي موسى للبحر الاحمر فقد استطاع النبي موسى ومن تبعه ان يشق طريقا له فى البحر وان يعبر بأمان الى الجهة المقابلة وهذا ما يؤكد لنا وجود فكرة الجسور التى تتكون من اراض يابسة استطاع الانسان فى ذلك الدور السحيق من تاريخه ان يعبرها ليكتشف عالما مجهولا يذر منه من فكره المتطور لينتج ما نطلق عليه اليوم اسم الفكر العربي .

وهناك حلقة اخرى بين الشرق المتحضر واوربا المتخلفة للاتصال الفكرى تمثلت فى دور القسطنطينية فقد كانت تلك المدينة التى تقع بين حدود الشرق والغرب ملتقى بشريا وفكريا اجتمعت عندها السلالات البشرية المختلفة كما تصادمت فى رحابها الافكار بنوعيها تلك التى تتسم بطابع الشرق وتلك التى بدأ الغرب بتكوينها وليس بخاف ان سقوط القسطنطينية يعتبر بداية النهضة الحديثة فى اوربا فى القرن السادس عشر التى عرفت باسم (احياء العلوم) . ولم تقف مكانة البحر الابيض المتوسط عند حد نقل البشر وفكرهم من العالم المتمدن فى ذلك الوقت الى العالم المتوحش الذى يضم قارة اوربا فى الوقت الحاضر فحسب وانما ترعرت اقدم الديانات على شواطئه وشهدت تلك الشواطىء وما زالت تشهد حركة فكرية ودينية واستعمارية وقف المؤرخون المحدثون حيالها بعجب كما صدم بها المؤرخون القدماء .

ففضل الشرق اذن لا يمكن ان يغمط عندما يكتب تاريخ الفكر ودور الفكر العربى فى الفكر الشرقى هو الاخر يحتل مكانه مرموقة فان القوة العربية الدافعة التى غيرت الكثير من علاقات الفكر والمجتمع والحياة انما سارت بنفس الطريق القديم الذى اعتاده فكر الشرق فى مسيرته الحضارية فقد بدأ العرب من شبه الجزيرة العربية ثم العراق فسواحل بلاد الشام ومصر فالمغرب العربي وبذلك وقفوا عند حدود الفكر الشرقى ولكن القوة الخلاقة للفكر الشرقى التى تشبع بها المد الفكرى العربى حفزتهم الى التقدم فاذا بهم ينقدمون نحو اوربا الجنوبية وهنا بدأت لحظة حاسمة فى تاريخ اصالة الحضارة العربية وهى اكمال دور الحضارة الشرقية عن طريق عبور البحر المتوسط حلقة الاتصال بين الشرق والغرب الى حيث يريد الفكر الشرقى متمثلا بالزخم العربى من اتمام رسالته فى المعرفة .

ومن المؤسف حقا ونحن بصدد ايجاد اساليب فكرية جديدة تترجم حضارة العرب فى القديم والمسيرة التاريخية لهم فى الوقت الذى تنظر فيه بثقة

واطمئنان الى الحاضر والمستقبل ان نجد تاريخ العرب يكتشف من قبل رجال الفكر الاوربى الذين دفعتهم المغامرات والخيال والجاسوسيـــة الى ارتياد ارض الشرق العربى ومحاولة اشباع تلك الدوافع التى طالمـــا خدمت الاهداف التى تسترت وراءها •

فمن المعيب حقا ان يضطلع شخص نزق مثل الكولونيل لورنس الذى لا يعرف من الشرق الا ما تصوره خيالات الف ليلة وليلة المريضة وما استوعبه فى مدرسة الاستخبارات البريطانية ، بالدور الذى قام به والذى زعم انه تكتيـــل للقبائل العربية لخدمة المصلحة البريطانية الاستعمارية فى الشـــرق العربى والاستحواذ على كنوز هذا الشرق عن طريق ابقاء القديم على قدمه • ثم يكمل مخطط لورنس رجل آخر لا يقل نزقا عن لورنس نفسه هو جون فيلبي وتنتهى هذه الحلقة من صغار الممثلين الذين اسندوا الى أنفسهم ادوار العظماء على مسرح التاريخ بظهور (كلوب) فى الاردن وقيامـــه بالدور الذى قام به والذى انتهى باتمام ما خططته معاهدة سايكس بيكو من تقسيم الشرق العربى الى مناطق نفوذ وما أكده اللورد بلفور فى وعده بمنح ارض فلسطين لليهود وصهاينتهم وبذلك مكنت الصدفة هؤلاء الرجال الصغار من ذوي الخبرة القليلة والطموح العميق البعد ان يعبثوا بمغاليق الفكر والحياة فى الشرق العربى مثلهم كمثل اولئـك الهمج الذين يظفرون بمدينة اثرية قديمة فيعبثون فيها همهم ان يحصلوا على ما تخفيه من مغانم ومكاسب وفاتهم انهم بعملهم هذا يطمسون معالم شموخ فكرى ترشحت فيه حصيلة جهد وتجربة للانسان خلال حقب موغله فى القدم •

لقد تمكن لورنس وفيلبي وكلوب من ازاحة بعض الستائر عما ظنوا أنه الحياة والفكر فى الشرق العربى ولما كانت مهمتهم قد خطط لها ورسمت اهدافها فى المكاسب والمغانم للجهات التى يخدمونها فقد تمكن اولئك الصغار من الممثلين ومهرجى التاريخ ان يعبثوا بتراث الماضى ورسم صور مشـــوهة لواقعه تخدم وتنفذ الاغراض التى ارسلوا الى الشرق العربى من أجلها فالبداوة حياة كمـــا

يراها لورنس وفيلبي وكلوب تتسم بالعزة والكرامة والشيم العربية الاصيلة ومن الخير للوطن العربى ان يترك مدنه وحضارته لكى ينتفع بالصحارى فيقيم فيها خيامه ويخرج بذلك لتوه من احدى قصص الف ليلة وليلة ! اما البادية فقد سحرت عقول لورنس وزملاءه ممن دفعتهم صدفة مجرمة للعبث بالشرق وحياته ، لذا فهى (البادية) تصور برأيهم الحياة التى يجب ان يحياها العرب وبذلك يعيش الشعب العربي فى صحراء وتحت الخيام لكى يكون فى الامكان اعادة مواسم العرب في القديم وحروب واحس والغبراء والسير الشعبية مثل سيره عنترة بن شداد والزير بن سالم والاميرة ذات الهمة .

هذا هو الشرق العربى الذى اكتشفه او اراد ان يكتشفه صغار من استاجرتهم صدف مجرمة همها ان تبقى القديم على قدمه ولكن أثر لورنس وفيلبي وكلوب ترك اثراً سلبيا على الفكر العربي من جهة والفكر العالمي من جهة ثانية فقد فقد العرب أو بدأوا يفقدون ثقتهم بانفسهم لانهم وجدوا ان تركيبهم الفكري لا يصلح للقرن العشرين وان رسالتهم فى الحياة والفكر قد انتهت عندما اسدل الستار على الحضارات القديمة التى ترعرت وتكاملت فى أرض العرب ووسط هذا الخضم الزاخر من مخلفات الماضى ومن صعوبات الحاضر وما اشيع فيه من افكار مسمومة جند لنشرها لورنس وزملاؤه من عملاء التأخر فى الوطن العربى ، ولدت بذرة جديدة للفكر العربى تمثلت فى انسان عربى جديد خرج من بين انقاض الماضى وركام الحاضر ثم شرع يبحث عن ذاته فهل هو مسخ للحضارات القديمة التى ينتمى اليها ؟ أم هو ذلك الانسان الذى خطط مستقبله عن طريق معاهدات وبروتوكولات حيكت دسائسها فى ارض بعيدة عنه وراء نوافذ وشبابيك محكمة الاغلاق ؟ أم هل هو ذلك المخلوق الذي يفترش البادية ويستظل بخيمة واسطته جمل ينتقل عليه ويعتمد على ما يجود به فى الوقت الذي يلوك انسان الخيمة هذا جوانب من الشعر والامثال والحكم ويجتر ما وعته ذاكرة جيله والاجيال التى سبقته من قصص واخبار بدت مهلهلة لاتخدم

الانسان العربى الجديد كمخلوق صدفة رمت به الاقدار فى ارض لا تملاؤها الا جوانب الامتاع وقتل الوقت بالتسلية ! وبعبـــارة موجزة ايمكن ان تكون خرافات الماضى واوهام الحاضر ومجهولات المستقبل سبيلا للتعرف على انسان عربى جديد ؟

فما هي « هوية » هذا الانسان اذن ؟

من المناسب فى الوقت الذى يمر فيه الوطن العربى بمرحلة من ادق مراحل تاريخه الطويل المشبع بالرقى الحضاري والمشـــوب بعوامل الضعف والتفكك خلال الفترات التى تعرضت فيها الحضارة فى الشرق العربى للضعف وما تصبو اليه الامة العربية من طموح وآمال عراض فى مستقبل افضل ، فى مثل هـــذا الخضم من التاريخ والواقع والتردد والامل والاندفاع والطموح علينا ان نبحث عن واقع للانسان العربى فما هو ذلك الواقع ؟

ان التاريخ الحديث اذا صح هذا التعبير يذكر اكثر من حادثة لامة تعرضت لمثل ما تعرضت له الامة العربية فكان اول ما صنعه ابناء هذه الامم التى تعثرت مسيرتها على درب التاريخ هو اعادة تقييم الفرد والمجتمع ورسم الاهداف القصيرة والمتوسطة والبعيدة وذلك لبناء ثقة جديدة فى نفس الفرد واحاطته بآفاق متسعة يستطيع ان ينطلق خلالها وبذلك يواكب هذا الانسان ركب الحضارة فى عصره ويرتفع من ثم الى المسؤوليات التى تتطلبها الحضارة الانسانية فى ذلك الظرف الخاص .

ومن الامثلة على ذلك ما حدث لالمانيا القيصرية عندما انهارت فى الحرب العالمية الاولى فقد اعيد تقييم مركز الفرد وظهرت اتجاهـــات انتهت الى اتخاذ الاسلوب الذى جعل المانيا قوة ذات أهمية من وسط اوربا وعلى الصعيد الدولى وقد حدث الشيء نفسه بعد ان انهارت تركيا العثمانية وما زال هذا الاسلوب فى اعادة بناء مركز الفرد والمجتمع يتبـــع فى كل أمة ذات تاريخ عريق يصـــل جمودها الحضارى الى حد تفقد منه صفة الطواعية للحاضر مما يولد قوة عظيمة

تعصف بالبناء الاجتماعى القائم لكى تفتح سبلا جديدة فى الدوائر المغلقة التى تعيشها تلك الامم .

فهل اعيد حقا تقييم مركز الفرد العربى ورسمت علاقات جديدة لذلك الفرد تربطه بمجتمعه وبقوميته وتخطط لمسؤوليته بالنسبة للحضارة الانسانية ؟

ان الواقع لا يؤكد لنا أن محاولة التقييم الضرورية قد أخذت طريقها أو قد تم التفكير فيها على الاقل ولعل ذلك يرجع الى فكرة (القدرية العميقة) التى سيطرت على الفكر والحركة فى الوطن العربى فقد افقدت الضربات القوية التى تعرض لها الوطن العربى كل رغبة فى التفكير نحو المستقبل او النظر الى الامتداد فى غد افضل فقد طمست فكرة المستقبل من اذهان معظم ابناء الامة العربية وقنع الانسان العربى بالعيش لساعته حتى ان الكثير منهم كانوا يودون لو انقضت حياتهم باقصر ما يمكن من الزهـد والزمن وتفشت بذلك نزعات خطرة كاللاباليـة والانهزامية والتراجعية والعبث اللامجدي وكانت حصيلة هذه النزعات ان تلون الواقع بها فعم عدم الثقة بالنفس أولا وبالغير ثانيا واضطربت المقاييس فى الامة العربية فالانسان الذكى هو الذى يعيش لساعته ويغنم اكثر من غيره ولو كان على حساب الغير لان ثقة الانسان العربى بالمستقبل قد فقدت أو كادت تفقد لذا فهو يريد ان ينتفع بما لديه من الوقت بشكل قد يفوت عليه وعلى مجتمعه فرص العمل لخير يعم الوطن العربى .

ولكن اين هو دور الفكر العربى فى تلك المرحلة المليئة بالتعقيد الضعف فى تاريخ الامة العربية ؟

وحقا لم يكن هناك فكر يستطيع ان يمسك بتلابيب المشاكل التى ادمت اشواكها الواقع العربى فى تلك الحقبة من الزمن لان الوعى فى الامة العربية لم يكن قد وصل الى الحد الذى يؤهـل الفكر لكى يصبح قوة دافعة فالمفكرون العرب فى ذلك الواقع الزمني كانوا هم أنفسهم فى تيه فكرى عميق وكان عليهم ان يكتشفوا ذواتهم قبل ان يخططوا للمجتمع العربى ولمسيرته الجديدة لان

المفكرين على طول درب التاريخ والعبقرية هم جزء متمم لهذه المركبات ولكنهم سرعان ما يتميزون عنها وبذلك تبدأ ظروف الزمان والمكان تخضع لهم لتصبح جزءاً من مخططاتهم فى سبيل المستقبل الافضل والغريب ان المفكرين فى أوربا بدأوا أنفسهم كجزء من المشكلات التى عاشت فى مجتمعاتهم ولكنهم سرعان ما ارتفعوا فوق تلك المشكلات واخذوا يعالجونها عن طريق الفكر اولا ثم انقلب ذلك الفكر الى واقع بعد فترة من التلاقح بين الفكر والمجتمع فجان جاك رسو وفولتير ومونتسكيو هم أنفسهم اجزاء من مشاكل عاشها المجتمع الفرنسى فقد عاشوا فى ظل النظم التى كانت تحكم فرنسا فى النواحى الاجتماعية والسياسية والفكرية وليس بخاف ان جذورهم العقلية قد امتدت الى الارض التى غذت مشاكل فرنسا فى ذلك الوقت ولكن فكرهم اخذ يتجه اتجاها مغايراً للواقع المظلم الذى خرجوا منه وبذلك انفصل رسو وفولتير ومونتسكيو عن الاجواء التى نشأوا فيها وبدأ فكرهم يرتفع فوق تعقيدات المجتمع الذى ترعرعوا فيه وسرعان ما بدأ الصراع بين مجتمعهم التقليدى وفكرهم الجديد انتهى بقيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ ولكن لم يحدث الشىء ذاته بالنسبة للمفكرين العرب ويمكن ارجاع ذلك الى الاسباب التالية :

١ ـ لقد عاش الوطن العربى فى عزلة تامة عن العالم وعلى الاخص فى الفترة التي سبقت دخول العرب الى الحضارة المعاصرة فى منتصف القرن التاسع عشر تلك العزلة المكانية صحبتها عزلة فكرية انعكست على نفسية الفرد العربى فقد عاش ذلك الفرد فى محيط ضيق فرض عليه نوعا من الكآبة والقناعة وعدم الرغبة فى كل تجديد او تغيير فالفرد فى العراق عاش لنفسه ولاسرته ولحيه الصغير متصوراً ان العالم ينتهي عند حدود ذلك الحى ويصدف ان يبقى الفرد العربى فى مصر أو سواحل بلاد الشام سنوات طويلة فى قريته دون ان يفكر فى السفر الى المدينة القريبة التى لا تبعد سوى اميال قليلة عن المكان الذى يقطنه • وبعبارة أوضح فقد خضع الفرد العربى قبل ان يدخل الى مسرح الحضارة الحديثة لظروف شاذة لونت تفكيره بقضاء وقدر عجيبين

خلقت منه كمية مهملة تركته فى جانب من جوانب الاهمال والعفوية والتأخر !

وقد ساعد على بقاء هذا اللون من السلوك والواقع العربيين سيطرة النفوذ الاجنبي متمثلا فى الحكم العثمانى الذى شجع هو الاخر كل ما من شأنه نشر التأخر فكراً وواقعاً لكى يحتفظ بولاء الملايين من العرب للسدة العثمانية العلية و (للسلطان الخليفة) فى استانبول .

٢ ـ وقد تضافرت مع العزلة المكانية عزلة زمانية فحواها ان الانسان العربى فى تلك الفترة كان قليل الحاجات بعيدا عن شىء اسمه الطموح او التقدم لذا فان أهم ما يحتاجه هو قليل من المعرفة تساعده على السهولة فى اشباع حاجاته القصيرة الاجل والقليلة التعداد فمبادىء القراءة والكتابة والعمليات الحسابية البسيطة هي كل ما يحتاجه الفرد العربى ! كما كان يقدره بعض أهل الرأي فى ذلك الوقت فاذا خرج الانسان العربى على هذه الحدود البسيطة فانه يعد خارجا على تقاليد مجتمعه لان هذا الطموح قد ينتهى به الى تحطيم ذاته ! واذا تمكن الانسان العربى من أن يكسب من وراء قابلياته وعمق تجربته فى الحياة فان الحكمة القديمة لا تلبث ان تطل بعنقها عليه مذكرة اياه بان حبل حياته قصير وان ما جمعه (من تراب الدنيا) لا يلبث ان يتبعثر بعد موته وبذلك اختلت مقاييس النجاح واخذ المجتمع يرسم الخط بين النجاح فى العمل وبين القناعة وهدوء البال وراحة النفس وبمعنى اوضح فقد نشأ احتقار عظيم لمن يستغل ذكاءه وقابلياته فى سبيل تحسين ما يكسبه ماديا وما يحتله من مركز اجتماعى ووصف هذا اللون من السلوك بانه جشع ومحاولة للسيطرة على أكبر نصيب من الحياة الدنيا واصبحت نظرة العامة للاشخاص الذين ينجحون فعلا بانهم من ذوي الضمائر أو الايدي الملوثة وكأن النجاح سبة والذكاء جريمة والطموح مرض قتال ! اما من يقنع بالحياة البسيطة فهو الانسان المثالى كما يصوره الفكر القديم . أو هو المخلوق العاقل الذى ادرك بهرج الدنيا وعرف مواطن الضعف فى التفكير الانسانى فلا يغره شىء على وجه هذه البسيطة لانه يحتقر كل شىء

ويشعر بالازدراء نحو كل المكاسب مهما كان نوعها مما يذكرني بجماعة القديس (دومنيك) وهى مجموعة من الرهبان اطلق عليهم اسم الرهبان (الدومنيكان أو الفرنسيسكان) كان همهم فى الحياة ان يموتوا وهم احيـــاء ويتم ذلك عن طريق التقشف والزهد ونبذ الصفراء والخضراء وبذلك تتخلص الروح من أوشاب البدن واوضار الجسد لتنطلق فى رحلة هانئة سعيدة الى متاهات الغفران التى رسمها دانتي فى قصته الخالدة (الكوميديا الالهية) .

والواقع ان الجيل التقليدى فى الوطن العربى لم يفهم حقيقة وجوده الا من خلال القضاء والقدر فقد تصور الانسان العربى نفسه قبل ان يلج باب حضارة القرن العشرين بانه كائن لا قيمة له بالنسبة لما يحيط به من ظواهر الطبيعـــة وبذلك فقد الفرد فى الوطن العربى ابرز مميزات الانسان الا وهو بناء طبيعة اجتماعية يسد فيها الانسان الواعي ما يشـــعر به من نقص عندما يقارن نفسه بظواهر الطبيعة وتعقيداتها فقد احس الانسان العربى بضعف مركزه بالنسبـة للطبيعة فخضع بذلك لنوع من الحياة الجبرية القاسيـة ساعد على استمرارهـا الحياة الرتيبة التى كانت سائدة بين ابناء الامة العربية وقد يتضح مجال الاختلاف بين الفكر العربى وواقعه من جهة وبين الفكر الاوربى وواقعه من جهة اخرى فيما ظهر من تباين بين الشرق العربى وبين اوربا فى اول صدام للشرق والغرب منذ الحروب الصليبية ، فقد غزا نابليون مصر وبذلك فتحت صفحة جديدة فى تاريخ الشرق العربى لم يكن لنابليون فضل فى كتابتها وانما يعود الفضل الى ما ظهر من اختلاف فى الميزان الثقافي والاجتماعى بين مصر وفرنسا فى ذلك الوقت فقد هاجم الجيش الفرنسى مصر وكانت فرصة للمماليك وهم ولاة الامور فى مصر آنذاك ان يعبروا عن وطنيتهم واخلاصهم لتربة امدتهم باسباب الحياة .

والذى يهتم به التاريخ كحركة وكواقع لاحداث متعاقبة ، المظهر الذى عكسه كل من الجيش الفرنسي والمماليك فى تلك الحقبة من الصدام الحضاري فقد زود المحاربون الفرنسيون بالاسلحة التى اســتعملت فى أوربا واعتبرت

بالنسبة لعصرها حديثة وعلى الاخص استعمال البارود سواء على مستوى الجندى العادى او لاطلاق القذائف وابادة التجمعات ولم يكن مفهوم الحرب لدى المماليك كمفهومه لدى الفرنسيين فقد درج المماليك على فهم الحرب وكأنه مسرح تتبارى فيه قوى متكافئة يكون الفصل بينها للشجاعة ومن يتحلى بها بالاضافة الى الكرم ورفعة النفس واجادة استعمال التراكيب اللفظية للدلالة على ملكة الحافظة والنبوغ الشعرى •

وتمشيا مع هذا اللون من التفكير بالحرب كهدف فى ذاته والاهتمام بسير الحرب بشكل يطمئن هذا الهدف فقد لبس المماليك فى مصر بزتهم الكاملة وصقلوا سيوفهم وخوذهم ثم اسرجوا جيادهم واضفوا عليها العديد من صنوف الزينة بما يتناسب ومكانه الفارس وفوق هذا كله فقد اعتمد المماليك على القدرة الفردية والنزال بين الابطال من ذوي الكفاءة والشجاعة على أساس مخاصمة الند للند ثم بدأت معركة (الاهرام) بين الجيش الفرنسى وبين جيوش المماليك ولم يمض وقت طويل حتى بدأ النيل يحمل جثث القتلى من المماليك وهم بكامل زينتهم الحربية وبذلك انتصر البارود على السيف والخوذة والخيل المسرجة وما أضفي عليها من زينة وبهرج •

والحقيقة ان البارود كان يمثل عصرا يختلف فى قيمة الحضارية وفى فكره وواقع حياته الاجتماعية عن ذلك الذى مثله المماليك بملابسهم الزاهية وعدتهم المصقولة وخيولهم ذات النسل الاصيل • وبمعنى آخر : فان البارود وانتصار الجيوش الفرنسية اكد دون شك ان ذلك الجيش المحارب كان يعيش حاضره ويعمل لمستقبله بينما عكس المماليك وجيشهم حياة خاصة بافراد من بقايا الماضى اوجدتهم الصدفة فى عصر اكثر منهم تقدما •

ولم يكن هذا اللقاء بين الحضارات المتباينة بمقتصر على مصر وحدها فقد تأثر العراق هو الاخر بالتفاوت الحضارى بينه وبين اللقاءات الاوربية الاولى حينما وفد اوائل الاوربيين الى العراق كسائحين او تجار اختلفت اهدافهم بين

التفكير فقد تنكر الولاة الذين بعثهم آل عثمان للعراق لكل ما هو اوربى بدافع الاجانب وبوصمهم بانهم كفرة وقد ساعد العثمانيون على تغذية هذا اللون من التجارة والتجسس والسياحة فقد رفعت بعض الشعارات الخاصة بتحريم هؤلاء من خوف التلوث بهؤلاء الاجانب ووصفهم (بالنجاسة والخبث) بالاضافة الى ما يتميزون به من كفر وابتعاد عن القيم الدينية المألوفة فى الوقت الذى كان فيه السلطان العثمانى فى استانبول يحتمى بحرس اوربى الاصل ويحاول ان يحصل عن طريق عملائه فى اوربا على كل ما يتوصل اليه الاوربيون من مخترعات ومن كل جديد لتسهيل الحياة وجعلها متعة وفائدة للانسان نفسه •

ونتج من جراء ذلك النفور ضد الاوربيين بشكل خاص والاجانب بشكل عام أن تلون السلوك الفردي والجماعي لدى ابناء الامة العربية بتردد ممزوج بالخوف والرهبة والشك تجاه كل ما هو جديد وقد خلفت هذه النزعة من التردد اثارا لم يستطع عامل الزمن حتى وقتنا هذا من محوها فالتجديد فى كل جانب من جوانب الحياة هو أمر مرهوب وتقتضي الضرورة انيحارب بكل ما لدى المجتمع من قوة والشخص الانسان هو الذى يقف حائلا بين كل ما هو جديد فى الفكر والواقع والعمل وبين وصول هذه الابعاد الى الفكر والمجتمع العربيين •

٣ ـ الحاجات وقلتها فى المجتمع العربي : يمكن ان نعرف الحاجة بانها دافع تختلط فيه الحوافز الداخلية (ذات الانسان) والخارجية (المحيط الخارجى) لكى تدفع بالانسان نفسه الى اشباع يضفى عليـــه لونا من الراحة والرغبات والحاجات الجـــديدة فى الواقع هى المحرك الرئيسي للفرد وللمجموع فى آن واحد ويمكن ان تقسم ببساطة الى نوعين رئيسين الاول الحاجات الاساسية وهى المختصة بالاشباعات الضرورية للجسم الانسان ثم تليها الحاجات الكمالية وتمثل هذه الحاجات دون شك القوى الدافعة للفكر والسلوك الانسانيين •

والحضارة بشكل خاص هى حاجة من الحاجات الكماليـــة بالنسبة للفرد ولكنها تصبح ملحة عندما يعم الامر المجموع وتبدأ بالتفاعل مع التاريخ • فالحضارة

في واقعها عملية معقدة لانها تتأخر في ظهورها على مسرح الحياة الفكرية بعد ان يقطع المجتمع طريقا طويلا من الفهم والتجربة والخبرة وبعد ان يرتفع في ذلك كله فوق الحاجات الضرورية التي لا يعكس اشباعها الا راحة نفسية موقتة .

فاذا درسنا الفرد العربي على اختلاف مكانه في الوطن العربي في الفترة التي سبقت فتح نوافذ الوطن العربي على العالم ذي الحضارة الحديثة نرى اهم ما يميز الانسان في البلاد العربية في تلك الحقبة من تاريخ العرب قلة الحاجات وحتى الضرورية منها فقد كان عامل الشعور بالقناعة يشبع الكثير مما يحتاجه الفرد بشكل ملح وكانت القناعة بحد ذاتها اشباعا لحاجات لم يستطع الفرد ان يتوصل الى تحقيق اشباعات لها . وبمعنى آخر فقد أكد على القناعة للقناعة ذاتها لان حياة الانسان العربي في تلك الفترة التاريخية المتقدمة لم تكن لتتحدى العمل الدائب على اشباع اقل عدد ممكن من الحاجات الضرورية او محاولة توزيع نسبة الاشباع بينها تأكيدا على قناعة الانسان العربي من جهة وشعورا بالطمأنينة النفسية لما يولده السلوك البطيء في نفس ذلك الانسان من راحة وكسل من جهة اخرى .

وقد علل بعض من انحط الى هذا المستوى المنخفض في اشباعه للضروريات من الحاجات بان عمله هذا سيدفع عنه ما قد يصيبه من اذى وما قد يوجه اليه من حسد او انتقاد فقد انقلب الكسل الجسمي الى استرخاء عقلي والى بطء في التفكير وحذر في العلاقات الاجتماعية وبذلك انتقلت تلك المصاعب الناجمة عن البطء والبلادة في اشباع الحاجات الضرورية الى فراغ نفسي كبير تدور فيه افكار تتعلق بالجوع وبالقناعة وبالحسد والحذر والنقد والريبة والشك فقد انقلبت هذه كلها الى عقد نفسية عاشت مع الانسان العربي نفسه واصبح من الصعوبة بمكان استئصالها أو التخفيف من حدتها على الاقل فقد انقلب الجوع من مفهومه الخاص بالجسم وما يتبعه من الحصول على الطعام الى جوع نفسي

يتواتح فيه الانسان العربي وعلى الاخص عندما لا يظهر بمظهر الجائع أو ذلك الذى يحتاج فعلا الى ما يسد هذه الحاجة الضرورية ، ونشأ عن ذلك كله ما نسميه (بالتظاهر) لكى يبدو الفرد العربى على غير حقيقته تجنبا للنقد او الحسد أو تأكيدا على ذكائه فى تضليل ما قد تمتد اليه من ايادي المجتمع وعيونه .

٤ ـ ويمكن ان نرجع ضعف الفرد العربي بالنسبة لطبيعته وتقصيره فى بناء حضارته الحاضرة أو اشتراكه بدور ضليع فى الفكر الانساني المعاصر الى نوع الحياة التى يحياها هذا الفرد فالزراعة هى محور حياته ومصدر رزقه وثروته الرئيسي وطبيعى ان الزراعة تعتمد على الارض والمناخ وتقلبات الجو وهي أمور غير مأمونة من جهة وتصعب السيطرة عليها أو كبح جماحها من جهة ثانية لذا فقد نشأ الفرد العربى تحت رحمة ما يسمى بالطبيعة وهناك واقع فكرى يرى ان الطبيعة والفرد الانساني يعيشان وفق قوانين تحكم التوازن بينهما فالخصب والجدب والمطر والرياح وما اليها من ظواهر الطبيعة لا تحدث بشكل عشوائي وانما ترتبط بالسكان انفسهم والمخلوقات التى تستغل الارض وتتخذها سكنا وتستثمرها فاذا قل السكان عم الخصب ووفر المحصول وبذلك تستطيع الطبيعة ان تجهز الكثير من الحاصلات مما يسمح بازياد السكان القاطنين فى تلك المساحة من الارض ! ولكن سلوك الطبيعة لا يلبث ان يتغير وعلى الاخص عند ازدياد ما نسميه بالكثافة السكانية وبذلك يحدث الجفاف وما يتبعه من قلة فى الحاصلات مما يجعل امر تجهيز الغذاء للعدد الوفير من السكان ان لم يكن مستحيلا فهو فى غاية الصعوبة عند ذلك يتفشى الموت بعد ان تعم المجاعة ويسود المرض لكى يعاد التوازن بين الانسان وبين الطبيعة .

ودون شك فان هذه النظرة الغيبية والغبية فى آن واحد هي السبب الرئيسي وراء ملاحظة علماء الانثرويولوجيا المحدثون عند دراستهم للمجتمعات ذات النظم الفطرية فقد وجد قسم كبير من الانثروبولوجيين (علماء الانسان) أن الادوات التى يستعملها بعض السكان الاصليين فى المجتمعات الفطرية بسيطة

الى أبعد الحدود ومكونة من ابسط المواد أيضا فالمحراث خشب وكذلك الفأس ولما سئل هؤلاء السكان عن سبب البساطة فى ادواتهم هذه كان الجواب هو ان شق (بطن الارض) بآلة حادة لابد وان يؤذيها فى المحل الاول ويوقع اللعنة على مرتكبي هذه الفعلة الشنعاء فى المحل الثانى !

ولعل فكرة الموازنة بين الطبيعـــة وبين الانسان هى التى اورثت اسلوب زراعة (النير) المستعمل حتى الوقت الحاضر فى اجزاء عـــديدة من الوطن العربى ضمانا للمحافظة على التوازن المزعوم .

٥ ـ ولمـــا كانت الزراعة هى المحور الذى تدور حوله الحياة والفكر والعلاقات الاجتماعية فى الوطن العربي فان بناء الحضارة قد تعرض الى بطء شديد لان الحضارة فى اساسها تنبع من المعرفة والمعرفة تستند على التفكير وهذه العملية الفكرية بحد ذاتها تتطلب وقتا يستطيع فيه ان ينصرف أو يتفرغ الانسان لكى يصب عبقريته وذكاءه بشكل عمل فنى او فكرى يصلح ان يكون لبنـه فى بناء الحضارة .

وبعبارة اوضح فان العمـــل الفكرى يقوم على مفهوم (فائض الوقت) ويقصد بذلك مقدار الزيادة التى تتوفر للانسان فى وقته وعلى الاخص عنـــدما يؤمن حاجاته الضرورية وما يتطلبه من كماليات فاذا تم اشباع تلك الحاجات فى وقت اقصر وبجهد اقل توفر لدى الفرد وقت فائض عما يحتاجه فى ســـد حاجاته يستطيع ان يستغله فى التفكير وفى العمل الحضاري بكافة جوانبه من عقل وفن وكتابة .

لذا فمن المميزات الرئيسة للحضارة فى القرن العشرين ان التقدم الصناعى قد مكن الانسان من الحصول على فائض من الوقت فلم يبق للحاجة سلطان على الفرد نفسه وانما اصبح الانسان هو الذى يسيطر على الحاجة عن طريق الصناعة واخضاع متطلبات الانسان لظروف المعمل التى يمكن التحكم فيها الى حد بعيد .

ونستطيع ان نفهم الفرق بين المجتمعات التى تستهلك وقتها كله فى توفير

الحاجات الضرورية كما هو الحال فى المجتمعات الزراعية فى جنوب شرق آسيا وبالاخص فى الهند حيث يقضي الفرد حياته وكل ما يملكه من وقت فى سبيل توفير ابسط الحاجات التى يفتقر اليها الانسان وهى الحاجات الضرورية وبين مجتمعات العالم الصناعية حيث يتم اشباع حاجات الافراد باقصر وقت وباقل تعب ممكن وبذلك يحصل الفرد فى المجتمع المتصنـــع على زيادة فى الوقت الفائض ينتفع بها فى بناء حضارته واضافة ابعاد جديدة لما عنـــده من فكر وتجربة عن طريق الاختراع او الاكتشاف •

وهكذا فقد خضع الانسان العربي للطبيعة وللزراعة بشكل خاص وتلونت حياته باسلوب العمل فى الارض ولم يبق له من وقت فائض يستطيع ان يخلد فيه الى التفكير والى زيادة حصيلته من العلم والعرفان فقد تميزت الفترة التى سبقت دخول العرب الى مسرح حضـارة القرن الحاضر ، بركود عقلى رهيب بطؤت فيه حركة الفكر والعمل واقتصرت العلوم على بعض الجوانب التقليدية التى لا يقصد من ورائها الا الحصول على قدر من الثقافة تصد منه الثقافة نفسها وأصبح العالم او رجل العلم من أفقر افراد المجتمع لان حاجة المجتمع العربى فى ذلك الوقت للعلم لم تكن حاجة كما نعرفها اليوم وانما كانت رغبة سطحية قد يلجأ اليها بعض من يسعفه الحظ عن طريق وجود مكتبة مهجورة فى بيتـه او معرفة رجل له الملم فكرى ورثه عن اسلافه من الجائز انه يريد الاحتفاظ به لنفسه فلم يكن هناك تعليم كما نفهمه اليوم وانما اختزلت عملية التعليم ومـا يتصل بها فى نقل العلوم والمعارف الى حلقات هزيلة للدرس عن طريق الاعادة والشرح •

والكتب المدرسية هى الاخرى كانت نادرة لان الطباعة لم تكن قد دخلت الوطن العربى بعد فقد كانت اكثر الكتب منسوخة وكان يبالغ فى حفظها وخطها والتستر على اماكن وجودها وبذلك انزوت الثقافة فى دور قليلة واحتكرتهـا حفنة من العوائل التى تمكنت من الجمع بين العلم والمال والنفوذ الاجتماعى ويندر

ان يوجد بين عامة الناس من يستطيع ان يكتب او يقرأ فقد كانت هذه المبادىء الاولية التى تحسب فى الوقت الحاضر من ابجديات المعرفة ، وقفا على فئة معينة من الناس فى الوقت الذى حرمت فيه الغالبية العظمى من ابناء الامة العربية من القراءة والكتابة وبذلك اعتمد الناس على ذكائهم المحدود وحافظتهم مما أدى الى تأخر عملية التفكير بوجه عام لان قابلية الذكاء اذا لم تنم فانها ستبقى ضحلة قد تبدو منها بعض اللمحات ذات المعنى ولكن على العموم سيكون الذكاء اقل بكثير مما نفهمه عن الذكاء فى الوقت الحاضر .

وقد تسبب عن الاعتماد على الحافظة الذاكرة مع قلة تجربتهما وتزويدهما بالمعلومات المطلوبة ان ساد نوع من عدم الثقة بين الناس فى المعلومات التجارية وما اليها من عقود اعتمدت على الكلمة الملفوظة فقط لان الذاكرة ستخون الانسان حتما وعلى الاخص اذا كان الكسب من العقد او الاتفاق فى غير صالحه وهنا لابد من تغطية ضعف الذاكرة والحافظة وبذا لجأ عامة الناس الى الاختلاق والكذب ولم تلبث هذه الابعاد السلبية ان طغت على التجارة وحركة الصفقات فى المجتمع وامتد الكذب الى نواحى الزور والبهتان وبذلك تضافرت كل عوامل التأخر هذه لبث الريبة والشك بين افراد المجتمع أنفسهم وتسببت فى بطء الحركة التجارية وانعدام الثقة فى السوق فلم تكن هناك مصارف يعتمد عليها فى الاستدانة وانما كان المعول عليه فى مثل هذه الحالات هو الرجوع الى ذوى المال وقيام تعاقد شفوى يعتمد فيه على الكلام او ما نسميه بالثقة غير الموثقة ولكن الامر قد ينتهى الى عكس ما تهدف اليه الثقة وبذلك يحل التنافر والخصام بين الاطراف ذات العلاقة ولم يكن القضاء فى ذلك الوقت بافضل من روابط العرف والتقليد بالاضافة الى تفشي الرشوة والمحسوبية فى الجهاز القضائي نفسه مما زاد الوضع سوءا وترك الناس لا يأمنون على حياتهم الخاصة فكيف بهم يطمئنون الى استثمار اموالهم فى سوق تغلب عليه الثقة الشفوية والكذب والبهتان والتغيرات غير المنتظرة .

وقد ادى تجميد ذكاء الفرد العربى وضعف ذاكرته وحافظته الى شعور بضعف الانسان العربى نفسه وعلى الاخص عند مقارنته بامثاله من افراد شعوب هذه الارض فقد شعر المجتمع العربى آنذاك ـ نظرا لصعوبة المشاكل والتعقيدات التى احيط بها ـ بان تأخره قدر محتوم وان هناك فارقا كبيرا بين الفرد العربى وبين غيره من افراد الشعوب التى تسكن هذه المعمورة وقد أدى فقدان الثقة بالذاكرة والحافظة لدى افراد المجتمع العربى نتيجة سوء استعمال وتوجيه كل منها الى شعور بفارق كبير عند المقارنة بين الامة العربية وبين غيرها من امم العالم مما هيأ المجال للاستعمار لكى يؤكد على هذه الناحية ولكى يزيد ضعف العرب ضعفا عن طريق استغلاله لمشاكلهم وتهويله لتلك المشاكل .

فقد لجأ الاوربيون على اختلاف اهدافهم ووظائفهم والجهات التى ارسلتهم الى بث الفرقة بين صفوف الامة العربية وتجسيم مشاكل العرب واظهارها بمظهر ميؤوس منه فقد بدت الصعوبات التى تواجهها الامة العربية فى بدء تعرضها للحضارة الاوربية ، وكأنها مستحيلة الحل او التخفيف على الاقل مما اربك الفرد العربي وجعله وكذلك المجتمع العربى فى دوامة فكرية واجتماعية خطرة اوحت له ظروفها بانه هدف لمؤامرة عظيمة حيكت حيوطها منذ القرون الاولى عندما طغت الجاهلية على الجزيرة العربية ثم عادت فى فترات متقطعة حتى اتصلت ثانية بالاستعمار الحديث فى الوطن العربى وما سبقه من ذل الحكم العثماني لذا فان الفرد العربى هو فرد ضائع فى الشبكات المعقدة والكهوف المظلمة لتلك المؤامرة المحبوكة الاطراف وعليه اذن ان يستسلم وان يعيش فى خمول فى الذهن والحركة اذا اراد فعلا ان يبقى فى محله عندما تبدأ العاصفة بالهبوب عليه .

وليس هناك مجال للانكار بان الشعوبية والحركات التى اريد بها تحطيم القيم الدينية والقومية هى حركات تتصل من ناحية الاساليب بالحروب الصليبية وبالاستعمار الحديث وان الهدف من هذه المخططات هو استغلال واستعمار

واذلال الامة العربية وابتزاز خيراتها وثرواتها الا ان من غير المسلم به عقليا ان تكون تلك الحركات الشعوبية او الاستعمارية قد خططت من قبل جهة خاصة او مجموعة من رجال الشر همها ان تعمل باقنعة مختلفة لضرب الامة العربية لان هناك اختلافا زمانيا بين كل موجة لئيمة وموجة اخرى فالجاهلية قديمة بالنسبة لتاريخ العرب والشعوبية ظهرت في العصر العباسي الاول ثم بلغت اوجها في الحركات الباطنية بينما نرى الحروب الصليبية تباغت الامة العربية في وقت يختلف عن حركة التتر والمغول التي تعرضت لها حضارة العرب في بغداد سنة ٦٥٦ للهجرة وانقضت فترة طويلة قبل ان تبرز انياب الاستعمار الحديث ويطلع على العالم بمعاهدة سايكس بيكو ووعد بلفور وقبل ان تبدأ المحافل الاستعمارية والماسونية في العالم تخطط لنهب خيرات الشرق العربي وعلى الاخص ثروته النفطية الهائلة وتعمل بكل تصميم على تسميم آراء شباب الوطن العربي.

وبدون ريب فان اظهار المؤامرة بالشكل الذي عرضت فيه وبخطوطها وخيوطها المعقدة والممتدة في اتجاهات بعيدة الغور في الزمان والمكان والحركة والمباغتة والاجرام تضع الفرد العربي في موقف الضعيف المستسلم حيال هذا الاخطبوط الضخم وتؤدي في نهاية تلك المعركة غير المتكافئة بين وهم فكري مخيف وبين فرد متطلع متردد الى استسلام كلي للفرد العربي واختفاء للحافز الذي يدفعه للحركة والتقدم لانه سيشعر حتما بان خصمه ممثلا في تلك المؤامرة ذات الحلقات الرهيبة لا يمكن ان يجابه من قبل مخلوق ضعيف الارادة والتصميم كما هي الحال بالنسبة له هذا بالاضافة الى ان مكان المعركة وزمانها قد حدد من قبل المؤامرة وخيوطها مما يفقد الفرد العربي دون شك ما يسمى بعنصر المباغتة .

وليس مما يعود بالنفع على الامة العربية ان تزعزع ثقة الفرد العربي بنفسه وبحاضر امته ومستقبلها عن طريق تجسيم عوامل التحدي التي يجابهها والربط بين حلقات لا تصل بينها الا الوهمية والخيال لغرض لا يخدم في تخطيطه

وفى اهدافه الا اضعاف الامة العربية وضرب مكاسبها عن طريق تقليل شأن تلك المكاسب بنظر الفرد العربى وبالتالى دفع هذا الفرد نفسه الى فراغ قاتل يسير به وبالمجتمع العربى نحو الحفر القديمة التى عاش فيهـــا ابان فترات الضعف والظلام التى مر بها الشعب العربى •

٦ ـ واذا امعنا النظر فى الفترة التى سبقت الاتصـــال بين العرب وبين حضارة القرن العشرين لكى نكون على بينة من تقدير مصاعب المجتمع العربى فى ذلك الوقت نرى ان الامة العربية قد انقسمت على نفسها وقد انقسمت كذلك فى كل قطر من الاقطار العربية المجتمعـــات التى تقطن تلك الاقطار وظهرت النزعات المحلية والطائفية تغذيها الدوافع الاقليمية فان الشعور القومى لم يبق محتفظا بقوته كما كان قبلا كشعور يضم تكتلا بشريا كبيرا • ومع وجود الصلات التي تربط العرب كالحضارة والتـاريخ والدين والتجارب والاهداف المستقبلة فان بقاء الشعور القومى كقوة سياسية وفكرية تسعى الى اقامة وحدة على صعيد العمـــل القومى ، مرهون بنجاح الحافز القومى فى الحفاظ على قوة التصميم ومرونته فى الدفاع عن الوطن ككل ضد التحديات الداخلية والخارجية •

الا ان ضعف هذا الحافز وعلى الاخص بعد الضربات المتتابعة التى تلقاها الوطن العربي على يد الصليبيين والتتر والمغول افقدت الواقع القومى قوته التى تربط بين اجزاء الوطن العربى وتحافظ على الشعور بالمسؤولية القومية فبرزت اتجاهات سلبية جديدة منها التفكير بالاقليمية والطائفية والمحلية وبمعنى آخر وضع دافع حب الذات والحفاظ على المكتسبات الفردية ضمن الاطارات الضيقة فوق مفهوم العمل القومى وبذلك عاشت الامـة العربيـة فترة من اسـوأ فترات تأريخها لا يمكن بأي حال من الاحوال ان تقارن بتلك الفترة التى امتدت من سقوط بغداد على يد التتر الى فتح نوافذ الوطن العربى على حضارة العالم المعاصرة ، بالعصر الجاهلى الذى سبق نجاح الرسالة الاسلامية • لان الجاهلية فى مفهومها لم تكن وليدة فترة من النضج السياسي والاقتصـادى والفكرى ما لبثت ان استهلكت

نفسها فاسحة المجال لعوامل الضعف لكى تنخر فى تلك التراكيب وتسلمها الى جيل الضعف والتفكك كما ظهر بالنسبة للعصر الجاهلى .

وبكل تأكيد فان هذا الاسلوب فى الحضارة والمجتمع لم يكن لينطبق على العصر الجاهلى بل بالعكس فقد نجح العصر الجاهلى عن طريق انقسام الامة العربية الى مجموعات بشرية صغيرة مترابطة فى مجابهة صعوبات الحياة اطلق عليها اسم القبيلة ، استطاعت تلك الوحدات الاجتماعية ان تحفظ الشعور القومى وان تصارع الطبيعة القاسية أولا والعوامل التاريخية السلبية المتمثلة بالغزو الخارجى ثانيا .

الا ان ما حدث للحضارة العربية فى أواخر الفترة العباسية هو بحق انهيار لواحد من أعظم صروح الحضارة فى تاريخ الفكر الانساني أما الفترة التى تلت تلك المأساة الحضارية المتمثلة بالهجوم التتري والمغولي الكاسح على حاضرة المدنية والعرفان بغداد ، فانها اسلمت الامة العربية الى نوع من الاسترخاء الفكري والبطء في الحركة والحياة مما عاد على العرب خاصة وعلى العالم وحضارته باسوأ العواقب .

والذى يهمنا من دراسة الفترة المتقدمة هو تبيان اثر تلك العوامل السلبية فى الحركة الحضارية للوطن العربى فى الوقت الحاضر ، والواقع ان الامة العربية فى ذلك الوقت بالاضافة الى تمزقها وفقدان ثقة ابنائها بانفسهم وقلة التعليم والمتعلمين فى طول الوطن العربى وعرضه فان هناك بعض الظواهر التى يجب ان نأخذها بالحسبان ونحن بصدد بناء المجتمع العربي الجديد لان بعض تلك الصعوبات ما زالت تعيشها بكليتها ظلها فى المجتمع العربى فى الوقت الحاضر

ومن اكثر تلك الصعوبات تأثيرا فى فترة البناء الحضارى المعاصرة الايمان بالاهداف الصغيرة والمتوسطة والتركيز على الفردية واعتبار الانانية والمخاتلة من ضروب العمل العقلى الناجح والابتعاد عن العمل مع المجموع وفى سبيل المجموع وسرعة الحكم على الامور بشكل يتراوح بين القبول التام وبين الرفض التام وعدم

الاهتمام بالعلم والمنهج العلمى فى التعرف على الظواهر الطبيعية والاجتماعية وفى التهريب من مسؤوليات الحياة وتوقع المكروه قبل وقوعه والظهور بمظهر الحزن الدائمى لانه الحالة التى يجد فيها الفرد العربى نوعا من الطمأنينة والاستقرار النفسي ومن الامثلة على ذلك ان شعر الرثاء وما يتبعه من المراثي ذات الاسلوب النثري تعد بحق التصوير الصادق للنفس العربية الحزينة لان الانسان العربي حينما يرثي يبكي ويؤبن غيره فهو ينعى نفسه ويتمثل المصير ذاته غير مفكر بعامل الزمن الذى يفصل بين الذات التى انقضى نحبها وذاته الحية •

وقد اسلمت تلك المفاهيم المرتبكة الفرد العربى الى نوع من الجبرية الممزوجة بقضاء وقدر عجيبين جعلته مترددا امام كل عمل يقوم به وعلى الاخص اذا كان العمل جديدا عليه يتطلب قدرا من الجرأة والاندفاع وتحمل بعض الاخطار التى لا تعرف مقدما ، بالاضافة الى ان ضعف الفرد العربى تجاه صعاب الطبيعة والمجتمع جعلته يبتكر بعض الاساليب التى تعكس خوفه وتردده وعلى الاخص مما هو مجهول لديه او معقد يصعب على فكرة غير الناضج حله •

وينعكس التناقض والتأخر فى المجتمع العربى آنذاك على مدنه فلم تكن مدنا بالمعنى المتعارف عليه فى عالم اليوم فقد خلت تلك المدن من ابسط مستلزمات الحياة الا وهو النظافة ومحاولة ايصال مياه الشرب النقية الى حيث ينتفع منها عامة الناس وقد ازدحمت البيوت بشكل يعكس الاضطراب النفسي الذى كان يعانيه الانسان العربى فى فترة الركود الحضارى التى سبقت الاتصال بين العرب وبين عالم القرن العشرين فان البيوت المتقاربة والازقة الضيقة توحى للفرد الخائف المتردد بالراحة اولا وبانه يستطيع ان يجد من يعتمد عليه فى سد حاجاته والدفاع ضد ما قد يداهمه من الخارج ثانيا فقد اقيمت الاسوار حول المدن ونصبت الابواب فى مداخل الاماكن السكنية لكى توصد قبل ان ينتهى الهزيع الاول من الليل ويذهب الانسان العربى داخل تلك القواقع فى سبات يحاكى به سبات حضارته ثم لا يلبث ان يخرج من تلك الاعماق الميتة عند

اشراقة الشمس ولكنه لا يخرج الا الى واقع مظلم أيضا .

فالحياة هى الاخرى مليئة بالركود والموت البطيء فالفقر هو الصفة الغالبة على الحياة اليومية حتى انه أصبح فنا وطريقة تمارس خلالهـــا بعض المراسيم الخاصة فى محاولة لتنقية البدن عن طريق اتباع اصول تعلم الفقر وعيش الفقراء وهي فكرة ولا ريب ثم استيرادها من جنوب شرق آسيا وعلى الاخص الهند حيث يكثر الفقر وينتشر الفقراء وتصبح مشكلة الفقر فلسفة لها درجاتها ومريدوهـا واعلى تلك الدرجات مرتبة (اليوجا) أو فناء الذات الانسانية فى بحر من الذات المطلقة ذات النور الغامر .

ويمكن ان نربط بين ازدياد عدد الفقراء وانتقال الفقر من دافعه الاقتصادى الى دافع غيبى وظهـور الـكثير من الدراويش فى الفترة التى سـبقت التطـور الحضارى الجديد فى الوطن العربى ، وبين تردى الاوضاع الاقتصادية وظهور الكثير من الخرافات التى سيطرت على الفكر والحياة فى الوطن العربى .

وقد تعدت تلك الخرافات مجال العمل الغيبى وارتباطها بالسحر والاوهام الى السيطرة على جوانب المجتمع وفكرة المختلفة فالامراض مهما كان نوعهـــا يمكن ان ترجع الى بعض الارواح الشريرة التى تدخل جسم المريض ويمكن طردها عن طريق بعض النذور والهبات وترتيب جلسات خاصة يلعب فيها السحر والشعوذة الدور الاول .

ولعل اعمق ما قامت به تلك الخرافات وجلسات السحر من اعمال تركت سلبيتها بشكل مشـــوه على الفرد والمجتمع فى الوطن العربى محاولتها علاج الامراض العقلية وتعذيب اولئك المرضى بحجة اخراج الارواح الشريرة ممـــا ولد لدى الناس مفاهيم خاطئة عن الامراض الجسمية والعقلية ما زال بعضهـــا موجودا فى الوطن العربى اليوم كحفلات الزار فى مصـــر واوكار السحرة والمنجمين وفاتحى البخت والفال فى العراق والاردن وسوريا ولبنان والسعودية وامارات الخليج العربى .

اما محيط العلاقات الاجتماعيـــة فانه لم يسلم فى تلك الفترة الحضارية المتقدمة للامة العربية من الركود العبث والتفكك فقد كان مفهوم التربية قائمـــا على السيطرة التامة من قبل الوالدين على ابنائهم منذ فترة الولادة حتى ساعة الوفاء وكان كل شذوذ عن هذه القاعدة يعتبر خروجا على القيم والتقاليد وقـــد أدت تلك النظرة الضيقة للعلاقات الاجتماعية فى وحدة حيوية كالاســـرة الى كبت الكثير من الطاقات لدى الناشئة وحرمتهم كما حرمت المجتمع من جهودهم لان تلك الجهود قد وزعت بين الحفاظ على ما كبت فى لاشعور جيلهم وبين مساهمتهم الشعورية فى الحركة والبناء الاجتماعيتين •

هذا بالاضافة الى نشوء الافكار الخاطئة عن المشابهة الكلية بين جيل الابناء وجيل الاباء فالابن يجب ان يكون نسخة مصغرة من ابيه وكلمـــا كان الشبه قريبا بين الابن وابيه ان لم يكن بينه وبين اجداده على امتداد شـجرة العائلة ، كلما ازدادت قيمة الابن فى نظر المجتمع •

وبهذا نظر الى الابناء وكأنهم سلع ينتجها معمل الاسرة وكلما كان الانتاج مطابقا للنسخ الاصلية ومواصفاتها كان نجاح الاسرة فى عملها ذا وزن اجتماعى ثقيل ومقبول دون ان يشعر الاباء بان ابناءهم خلقوا لجيل غـير جيلهم وعليهم ان يعلموا اولئك الابناء الخطوط العريضة للحياة ويزودوهم بالقيم بشكلها المثالى ثم يتركونهم لانفسهم وللحياة لكى يتم التفاعل على نحو يؤمن للجيل الجديد ما يرجوه من دراسة وفهم وتجربة •

ومن غير المألوف ان يخرج (نفر) من ابناء الجيل الجديد على ارادة ابائهم فى مسائل مثل الزواج والعمل أو حتى فى أمور بسيطة كالكلام والسفر ومحاولة التجديد فى الطعام والملابس والسكن لان الفرد من الابناء اذا حاول ذلك فانه لابد وان يتوقع موتا اجتماعيا لانه يعيش فى مجتمع تقليدى تحكمه العادات والعرف التى يخطط لها وينفذها ويعاقب من يخرج عليها الاباء ومن يعضدهم من الجيل الســـابق •

فليست هناك عقوبات كما هى الحال فى مجتمع الوقت الحاضر لان القانون من ظواهر الحكم المدنى فى الوقت الذى كان فيه المجتمع فى الفترة التى بدأت

بها التجربة الحضارية للامة العربية فى الوقت الحاضر يخضع للتقاليد وسلطانها وكانت العقوبات تقوم على النبذ او المقاطعة او العزل وقد يلجأ الى النفي والترحيل .

وقد يحاول بعض من يريد ان يتفقه فى فهم المجتمع والحركة الاجتماعية فيدلي بآراء منها ان المجتمع العربى فى تلك الفترة المبكرة من تاريخه الحضارى الحديث على الرغم مما انتابه من عوامل الضعف فان هناك عوامل قوة كانت تسند ذلك المجتمع من وقت لاخر فخضوع الفرد العربى للطبيعة وان كان استسلاما فى حد ذاته الا انه فسح المجال امام الطبيعة لكى تختار بين ما هو ضعيف فتقتله وما هو قوى فتبقى عليه لذا فان ارتفاع عدد الوفيات بين الاطفال فى الوطن العربى فى تلك الفترة التاريخية التى اتسمت بانها على الهامش بين الركود واليقظة جنب المجتمع العربى كثيرا من حالات الضعف فى تركيبه البشرى وزوده ببناء سكانى قوى ولكن هذه الفكرة وان كانت صحيحة من الوجهة النظرية كما اكد بذلك العالم الاجتماعى المعروف (برترم سوروكن)(٧) الا ان واقع الوطن العربى فى تلك الحقبة التاريخية لا ينسجم ومفهوم هذه الفكرة النظرية لان عدد الوفيات لم يكن يقصد من ورائه القضاء على الضعفاء واولئك الذين لا يستطيعون ان يواصلوا حياتهم متحملين ما قد يصادفهم من مشاكل فقد تركت الامور بما فيها مسألة الاسرة وتربية الاطفال تخضع لعوامل الصدفة والغيب وما يفرضه المجهول من تحديات على واقع الشعب العربى فى بدء حياته الحضارية المعاصرة .

---

(٧) برترم سوروكن : عالم اجتماع امريكي اوربي الاصل اهتم بالاجتماع الانساني وصلته بحركة التأريخ والحضارة لذا تقف اراؤه فى فلسفة التاريخ على صعيد واحد مع ابن خلدون وفيكو ونيبور وتوينبي . ويعتقد سوروكن بان التاريخ يسير في خطوط دائرية ولكنها ليست متواصلة الحلقات فكل دائرة للتاريخ والحضارة تمر بثلاث فترات اطلق عليها بالتتابع اسم المرحلة الاحساسية والحسية والمطالعة وعنده ان الحضارة الاوربية الحديثة تسير فى مرحلتها الثانية مما يجعلها تخضع للارباك والفوضى والتفكك وقد ظهرت آثاره فى مؤلفات عديدة منها مشاكل عصرنا ونظرته فى فلسفات التاريخ ويمكن اعتباره من أكبر الادمغة الحية .

ومن وجهة النظر الاكثر واقعيه فان انجاب الاطفـــال فى الوطن العربى يعد دليلا على رجولة الفرد العربى وما منح من بركة فيما يحصل عليه من عدد الاطفال خلال فترة حياته وبالعكس فان قلة الاطفال يجعل رب الاسرة فى وضع مضطرب اجتماعيا ويبدأ المجتمـــع ينظر اليـــه وكانه اقرب للعقم فى حياته الاجتماعية منه الى النجاح وما يتبعه من انجاب عدد كبير من الاطفـــال وليست العبرة فى ان يعيش او يموت اولئك الاطفال ولكن مجال المفاضلة يستند بشكل رئيسي على العدد الذى تمكن للانسان ان يصل اليه فى اقصر فترة ممكنة وكأن الامر سباق عددي لا يقصد من ورائه الا اثبات رجولة الرجل من جهة والحصول على استحسان المجتمع من جهة ثانية •

اما تربية الاطفال وتنشأتهم ومن ثم تعليمهم فان هذا كله متروك الى عامل الصدفة والرحمة فى آن واحد وكثيرا ما تقع بعض الكوارث التى تنتهى بفقـــد احد الابوين او كليهما وعندها يبدأ الاطفال فى اتباع خطوط اجتماعية منكسرة مما قد ينجم عنه العديد من المشاكل ان لم نقـــل الجرائم الاجتماعية كل ذلك حدث بفعل غياب ما نسميه اليوم بالتخطيط الاجتماعى ووجود نضج اجتماعى يواكبه وعلى الاخص عند انجاب الاطفال فالمقياس ليس فى عدد من يتم جلبهم الى هذا العالم ولكن العبرة بتربيتهم واعدادهم لحياة افضـــل تعود بالنفع عليهم وعلى الانسانية بشكل عام •

ويقرب هذا التفكير فى انجاب الاطفال فى الوطن العربي مما هو متعارف عليه فى الاقطار النامية فى افريقيا واميركا الجنوبية وجنوب شـــرقى اسيا فان زيادة عدد المواليـــد وخصوصا فى مناطق مزدحمة بالسكان كالهند يدفع اليه شعور الرجل بتأكيد رجولته من جهة والتماسا للبركة والخير الذين سيعمانه حتمـــا عندما يملأ بيت زوجته بالاولاد من جهة اخرى •

وتصطدم اكثر المشاريع والمخططات الاقتصادية الهادفة الى زيادة الانتـــاج بازدياد النسل الى حد مخيف الامر الذى يجعل من عمليات التخطيط الاقتصادى مجرد مظاهر وواجهات للكسب السياسي •

ولما كانت حياة الزراعة هى الغالبة على الفكر والمجتمع والحياة فى الوطن العربى فى مفتتح حضارته المعاصرة فان الصناعة كانت بدائية حقا تذكرنا بالفترة التى سبقت النهضة الصناعية فى اوربا بشكل عام وفى بريطانيا بشكل خاص فالبيت كان الوحدة الصناعية الاساسية فى المجتمع وكانت هناك صناعات تعتمد بشكل رئيس على الجهد العضلى وعدد من انوال النسج ومحلات لانتاج سلع محدودة لان الانتاج نفسه لم يكن يوجه للسوق وانما كان يهدف الى سد حاجة الاستهلاك ويندر ان تتناسب السلع بشكل متوازن مع معدل الطلب عليها ولم يكن العمل هو الاخر قد بدأ يكون جزءا رئيسا فى العملية الانتاجية فالعمال اكثرهم من غير الماهرين وهم يصعدون درجات المهارة عن طريق السنين التى يقضونها فى العمل نفسه وقد يصل الفرد منهم الى مراكز تهيىء له الاشراف على سير العمل وعندئذ يصبح مهيمنا على عدد معلوم من العمال يمارسون المهنة تحت اشرافه ولكن مثل هذه المراحل المتقدمة فى سلم النضج الفنى يصعب ان يصل اليها العمال الا بعد ان يكونوا قد سلخوا من حياتهم القسط الاكبر واضافوا الى جهدهم الكثير من العرق والدموع .

ومما يميز الصناعة فى العصر الحاضر هو انتشار الوعى العلمى اولا وازدياد الطاقة الانتاجية ثانيا ثم انتشار المعلومات الخاصة بالاختراعات وبالوسائل الكفيلة الى تطوير السلع المصنوعة وتسهيل استعمالها والحصول عليها ويتم ذلك عن طريق تبادل الخبرات الفنية فى البلد الواحد او على صعيد العالم عن طريق بعض المنظمات العالمية التى تسعى الى نشر وتعميم الخبرات الفنية كما هو ملاحظ فى عمل منظمة الثقافة او العلم والتربية المعروفة باسم (اليونسكو) وبذلك يتسع مجال الاستفادة من المخترعات على نطاق شامل فى الوقت الذى يعمل فيه المخترعون بروح جماعية لكى يسند بعضهم البعض الاخر فى مسيرتهم الصعبة نحو ارتياد الاماكن المجهولة فى العمل والحياة والاستفادة من الخبرات الماضية والحاضرة فى سبيل تسخير الطبيعة والمادة لخدمة الانسان فى حياته ومجتمعه وحضارته .

هذه هى فى الواقع رسالة العلم والعلماء فى العصر الحاضر فما هى رسالة العلم والعلماء فى مفتتح حضارة الوطن العربى المعاصرة والحقيقة ان العلم كما نفهمه فى عالم اليوم لم يكن لينطبق على مفهومه لدى الامة العربية عندما بدأت تتصل بحضارة القرن العشرين فقد خلط انذاك بين العلم والتعلم ويعني الاخير الاطلاع على اكبر قسط ممكن من المعرفة المتوفرة بينما يعني العلم فهم مجاميع من الحقائق لها انظمتها الخاصة ومنهجها فى البحث العلمى او الموضوعى •

ويعود هذا الفهم الخاطىء للعلم الى انعدام الوعي العلمى بين افراد الامة العربية فى تلك الفترة المبكرة من حضارتها الحديثة اما العلماء فقد ندر وجودهم الا فى بعض المجالات الادبية حيث تسود الكتابة الكلاسيكية ذات القوالب الجامدة وما زال بعض الكتاب فى العراق ومصر وبلاد الشام يحنون الى الايام الخوالى حينما كانت الكتابة وقفا على مجموعة حبتها الصدفة بطابع العلم والمعرفة تكتب وفق اصول وقوالب لا يقصد من ورائها المعنى كما هو دأب الكتابة فى الوقت الحاضر وانما كان القصد ابراز البراعة الكتابية وتنميق الالفاظ وتزويقها وحشوها بالمحسنات اللفظية والكلمات ذات الجرس الموسيقى دون ان يكون لتلك التراكيب الجامدة اى انعكاس على حقل المعنى •

ومن وجهة النظر الاجتماعية فان الكتابة الكلاسيكية فى صدر حضارةالعرب الحديثة تعكس دون شك بما فيها من ركود وجمود ومبالغة ، الضحالة والركود والجمود والتفكك فى المجتمع العربى انذاك فقد اصبحت المعانى والمواضيع ذات الخطورة الفكرية والاجتماعية قليلة او نادرة بسبب تفشي الروح الفردية وانعدام المسؤولية الجماعية لذا فقد انطوى الكاتب العربى على نفسه وبدأ يقطع الوقت فى زحزقة الالفاظ واختيار بعضها دون البعض الاخر او حشر اكبر عدد منها وعلى الاخص فى صدر مواضيعه الكتابية او عندما يقارب على نهاياتها لكى يغطى على تفاهه الامور المعالجة ويسبغ عليها ثوبا من الاحترام والتقدير مؤكدا على ذاته فى الوقت نفسه •

ويضاف الى تردى المستوى والوعى العلميين فى الفترة المبكرة من الحضارة العربية الحديثة نقص كبير فى الايدى العاملة الخبيرة والمدربة وعدم فهم العمل كقوة لبناء المجتمع وعلى الاخص الجوانب التى تحتاج الى كد متواصل فى سبيل نجاح العملية الانتاجية بمراحلها المختلفة من صناعة وتوزيع واستهلاك.

لقد نظر الى العمل فى الوطن العربى فى ذلك الوقت على انه صفة كمالية لا يلجأ اليها الا عند الضرورة القصوى كما نظر المجتمع الى الاشخاص الذين يعملون بجد نظرته الى مرضى يعدون ايامهم الاخيرة لذا فهم يحاولون ان يحصلوا على أكبر قسط من المتعة فى اقل وقت ممكن وقد وصف اولئك العاملون الدائبون بانهم يجمعون (حطام الدنيا) عن طريق انهاك اجسامهم وعقولهم لذا فقد نشأ نوع من البطء على صعيد الاعمال التجارية والصناعية فى المجتمع وتصدرت بعض الاقليات الغربية عن الامة العربية قائمة الاعمال بكافة جوانبها واخذت تستخدم العديد من ابناء الامة العربية اولئك الذين قنعوا بان يكونوا تحت امرة رجال تلك الاقليات شرط ان لا يتحملوا اى قسط من المسؤولية فهم يتقاضون اجورهم يوميا دون ان يكون لهم ارتباط بتبعات العمل او النتائج المترتبة على تلك التبعات .

وقد ساند الاستعمار الاوربى تلك الاقليات وجعلها فى مراكز حساسة بالنسبة للتجارة والادارة او الهيمنة على مرافق الرئيسية فى الوطن الوطن العربى والانتفاع بها لصالح تلك الفئات مع افقار واذلال الغالبية العظمى من الشعب العربى .

اما الخبرة الفنية ونعني بها فهم دقائق العملية الانتاجية ومحاولة الابداع بالنسبة لوقت الانتاج او كمية السلع المنتجة ونوعيتها فعلى الرغم من افتقار المجتمع العربى فى صدر حضارته المعاصرة الى قسط كبير من النضج الفنى فى الصناعة وادارة الاعمال فقد ضنت القلة ذات الخبرة المكتسبة عن طريق التجربة بان تفتح تجربتها لغيرها من المبتدئين وممن يمارسوا نفس المهنة فقد عد التفوق من الاسرار

وحاول بعض من يملك مفاتيح المعرفة فى مجالات العمل التجارى والصناعى ان يحتكر تلك المفاهيم لنفسه خوفا من ان تنتشر بين الاخرين وبذلك يفقد الفرد مكانته من جهة ، ورهبة من ان فتح مجال التعلم والاستفادة للاخرين قد يؤدى (الى ابتذال المهنة وكثرة الداخلين فى نطاق سلكها) من جهة أخرى .

والواقع ان دافع هذا الاسلوب العكسى فى العمل هو قلة مجالات العمل وفقدان ثقة الانسان العربى بنفسه فى ذلك الوقت بالاضافة الى توقع المكروه كالمرض والموت وخوفا من ان تؤدى الصدف السيئة الى ان يفقد الفرد قابليته على ممارسة العمل وبذلك تدخلت عوامل كالكذب فى تقدير ما يمكن ان يقدمه أو ينتجه الفرد الكفوء واصبح ذلك الفرد الذى يجب ان يفاخر بانجازه يؤكد دوما وفى كل مناسبة انه فى آخر قائمة المنتجين وهو لا يقدر من عجزه أو مرضه أو حسد الاخرين ان يبلغ المستويات التى يجب ان يبلغها اولئك الذين يتمتعون بنفس طاقاته .

ونظرا للصعوبات التى جابهت الامة العربية فى صدر اتصالها بالحضارة الحديثة واستغلاق بعض تلك الصعوبات على فهم الفرد العربى وقلة الوعي العلمى وما يتصل به من توفر مستوى صحى تعرف عن طريقة اسباب الامراض والوقاية منها واستعمال اساليب التعقيم وتهيئة الظروف المناسبة للحد من انتشار الامراض ومعالجتها عن طريق توفير الادوية والمستشفيات واماكن العلاج ، فقد وجد الانسان العربى نفسه وجها لوجه امام مشاكل فى الحياة والمجتمع لم يستطع ان يتصدى لها بمفرده ولما لم يكن هناك عقل جمعى ناضج يتمكن هو الاخر عن طريق القانون او النظام ان يحمى الفرد ذاته فقد وقع الانسان العربى ضحية للسحر والشعوذة والخرافات والاوهام والحسد والغيرة والعين الشريرة والمفاجئات غير المتوقعة .

لم تكن تلك الافات الاجتماعية لتمارس فى بعض الحالات الخاصة كما هو متبع فى مجتمع عالم اليوم وانما انقلب السحر والشعوذة وما يتصل بهما من

خرافات واوهام الى اساليب منظمة فى الخداع والتغرير والتستر على الجرائم وارهاب الافراد عن طريق التنبوء بالمكروه وقد مارس اولئك المشعوذون تجارتهم المحرمة واساليبهم المجرمة مستغلين جهل النساء فى الوطن العربى وتأثير المرأة على الرجل وبذلك اصبح الشعب العربى نهبة لمجاميع من المشعوذين وممن اتخذوا من التنبوء بالغيب او انزال العقاب عن طريق السحر وسائل لممارسة نفوذهم فى المجتمع ذاته وقد ساعد الفقر المدقع وتتالى النكبات كالامراض والاوبئة والاحداث المروعة فى تمكين الشعوذة والمشعوذين من السيطرة الكلية على الطاقات النفسية والعقلية وبذلك بددت تلك القوى وانقلبت ضد صالح المجتمع بدلا من ان تكون عاملة فى سبيل خير المجتمع وفى فترة من احرج الفترات فى حياة الامة العربية •

هذه هي صورة مصغرة لما كان عليه الوطن العربى وامته فى الفترة التى فتحت فيها نوافذ العرب الفكرية والاجتماعية على الحضارة الاوربية فلقد ساد التردد وعدم الثقة بالنسبة للفرد وللجماعة وكانت هناك جبرية عميقة على صعيد الوطن العربى من اقصاه الى اقصاه تمنع كل محاولة للتجديد تساندها العناصر التقليدية من المنتفعين من افراد الجيل الغابر •

وقد رفعت شعارات مثبطة للهمم مثل (ليس فى الامكان احسن مما هو كائن) وان القدر هو الذى ابتلى الامة العربية بما ابتلت به ولا طريق لها الى الخلاص وان آخرة العرب آتية عما قريب حيث لا يجدي اى ضرب من العمل فالاستسلام هو الذى يجب ان يطغى على الفكر والركود على المجتمع والبطء فى الحياة والعمل فقد فقد العرب تقريبا كل امل لتغيير الاوضاع المتردية التى كانوا يعيشونها وقنع كل منهم بما وجد عليه واخذ الفرد العربى فى تلك الفترة من احداث الامة العربية يتوقع الموت فى شبابه المبكر لكى يتخلص مما يمكن ان يقع له من مكروه وتراه دوما يحن الى الماضى فى شعوره ولا شعوره ويتمثل الحنين اللاشعورى فى رغبته فى البكاء حتى فى اشد ساعات الفرح وتوقعه المكروه

فى اعلى مراحل الارتياح لان بساط عيشه سيفنى حتما لذا فالواجب عليه ان يبكي نفسه وهو حي لان الموت سيحرمه فرصة البكاء .

وقد اثر الحكم العثمانى بشكل سلبى على الاوضـــاع فى الوطن العربى فالحاكم العثمانى هو سلطان زمنى وخليفة ديني الا انه يجمع الى ذلك حبه للهو والعبث ويميل بطبعـــه الى ترك امور الادارة والحكم تجري حسب ما تشتهى توجهها تلك اليد غير المنظورة التى نادى بها الاقتصادى الانكليزى المشهور آدم سمث حينما كتب كتابه (ثروة الامم) . اما الولاة العثمانيون فانهم كانوا نسخا مشوهة لسلطانهم فى الباب العالى وكان همهم ان يحصلوا على اكبر نصيب من المكاسب لكى ينعموا بالحياة فى اخريات ايامهم وكان اسلوبهم فى العمل الادارى لا يتعدى التفرقة بين القوى المختلفة التى يتكون منهـا المجتمع الذى وضعـه القدر والظروف السيئة تحت سيطرتهم فاذا بلغ امر التفرقة حدا لا يمكن الرجوع عنه عزل الوالى العثماني واحيلت مزايدة مقاطعته بعهدة من يدفع اعلى عطاء بين المتكالبين على السلطة وبذلك يتم شراء حكم الولاية من سلطان السلاطين فى استانبول الذى يسارع الى اصدار (فرمان) التولية وبذلك يصبح المغامر الجديد هو الوالى الشرعى وتدور الحرب بين الوالى المقيم وذلك المرسل من الدولة العلية فى الاستانة وطبيعى أن الولاية نفسها هى ســـاحة الحرب وان الضحايا هم من ابناء الوطن العربى .

فان ســـوء تصرف العثمانيين فى الوطن خلال الفترة التى وضعت الاقدار هذا الوطن تحت سيطرتهم والتى امتدت قرابة ٤٠٠ سنة ، قد اضافت مساوىء جديدة الى ما كان ينوء المجتمع العربى به من صعوبات فى الحياة والمجتمع فقد تسبب الحكم العثماني فى التأكيد على الروح العشـــائرية خصوصا فى العراق وأوجد الكثير من الانقسامات الطائفية والعنصرية كما حدث بالنسبة لبلاد الشام وسواحلها هـــذا بالاضافة الى اختفاء وحدة الحكم ممـــا أدى الى تباعد بين المشرق العربى وبين المغرب العربى .

وهناك حقيقة لابد من ان نؤكد عليها ونحن بصدد ايجاد محصلة فكرية تصلح ان تكون منطلقا لبناء فكرى عربى جديد يدعم قيام مجتمع جديد يرتفع الى مستوى مسؤولياته العربية والانسانية ، هى ان بعض المهتمين بالفترة العثمانية واثرها فى تاريخ العرب عامة يؤكدون بان العثمانيين قد اهملوا شؤون تركيا نفسها فكيف يتيسر لهم ان يقدموا جهودهم القليلة والمبعثرة لكى ينتفع بها ابناء الوطن العربى فى اقطار بلادهم البعيدة عن الاستانة ؟ الا ان هذا السؤال لا يثبت امام مناقشة علمية منظمة فالاستعمار بكافة انواعه امر لا يجادل فى رفضه لانه تسلط مهما دعت الظروف اليه فقد اثبت التساهل فى كل ما من شأنه الاستعانة بالقوى الخارجية الى وضع العديد من الاثقال فوق كاهل الشعوب التى تقبل بان يسيطر عليها فقد عانى الوطن العربى مما ابتكرته عصبة الامم مما يسمى بالانتداب ولم يستطع التخلص منه حتى فى الوقت الحاضر فكيف لسيطرة كالحكم العثماني حاولت ان تخضع كل شيء لحكم فردى بغيض يستمد شرعيته من شخصية ضعيفة هى شخصية السلطان ، ثم ان الضعف اذا كان من صفات الادارة والحكم المركزى وقد ظهر اثره فى حاضرة الحكم العثمانى فكيف يحاول العثمانيون ان يسيطروا على اقطار تبعد الاف الاميال عن عاصمة ملكهم ثم هل هم اوصياء على العرب أو غيرهم من القوميات ؟ او هل يمكن اعتبارهم جزءا من القدر الغاشم الذى يضع العرب دوما فى منخفضات الصعيد التاريخى ، ليحكم عليهم بالعقم الفكرى والتفكك الاجتماعى والبطء فى الحياة والحركة ؟

ومما يرتبط بالحقيقة السابقة أن نظام الحكم فى الدولة العثمانية مع كونه اعتمد على الاستعمار والسيطرة المطلقة فى ربط الاجزاء المختلفة التى كونت الدولة العثمانية فان صلته بالعرب كانت صلة خاصة اختلفت عن غيرها من صلاته بالقوميات الاخرى فان السلطان العثمانى بعد ان فقد قوته ونفوذه الشخصي الذى مكن سلاطين فترات القوة من آل عثمان ان يضمنوا استمرار حكمهم لجأ السلاطين الضعفاء الى مخططات سياسية يستطيعون بواسطتها ان يسندوا حكمهم

المنهار وكان من نتائج تلك المخططات الجديدة فى دعم النظم السياسية المهدمة شعار (الجامعة الاسلامية) الذى رفع فى فترة السلطان عبدالحميد الثانى ولم يكن هذا السلطان بمبتدع للشعار الذى رفعه لان سلاطين آل عثمان اعتبروا أنفسهم الخلفاء الشرعيين الذين يحق لهم ان يحملوا اسم خلفاء المسلمين وبذلك وقع الوطن العربى فى ارباك لم يستطع ان يتخلص منه الا بعد ان تبخرت تلك الشعارات وظهرت النزعات العلمانية فى تركيا الحديثة ولكن السبيل الذي انتهجه السلاطين العثمانيون ومحاولتهم دعم عروشهم الضعيفة عن طريق استعمال مساند دينية تمثلت فيما ذكرناه من شعارات ومحاولات تلتها : اهمها اعلان (الجهاد المقدس) وهو أسلوب اتبعه الخلفاء العثمانيون لمباغتة الدول الاوربية وارهابها عن طريق تخويفها بالجهاد الذى يمثل تضافر جهود المسلمين من اقصى الغرب الى اقصى الشرق حيث تقع (تخوم البلاد الاسلامية) فى الهند وجنوب شرقى آسيا وحيث يهب المسلمون كرجل واحد مضحين بالنفس والنفيس فى سبيل نصرة الاسلام متمثلا فى شخص الخليفة العثماني !!

ومهما كان الاثر الذى تخلف عن طريق مزج الدين بالسياسة خلال الفترة التى قضاها العثمانيون فى التسلط ومحاولاتهم لدعم تنظيماتهم السياسية والادارية المنهارة وظهور الفارق الكبير بين الشعارات التى رفعوها بين واقع تصرفهم كافراد وكحكام وظهورهم على الصعيد الخاص بمظهر يتنافى وما يظهرون به امام العامة كسبا للشرعية والاسناد الذى كانوا وعلى الاخص فى أواخر ايام الدولة العثمانية فى اشد الحاجة اليهما ، فان الكثير من ابناء الوطن العربى بدافع من اخلاصهم للقيم الدينية تمسكوا بالخلافة وعدوا الخروج عليها خروجا على المسلمين وبذلك فقد كان العرب تحت الحكم العثمانى بين قوتين جاذبيتين احداهما تحاول دفعهم فى طريق يضمن لهم التحرر من النير العثمانى والتخلص من مساوىء آل عثمان فى الادارة والحكم والخروج من المآزق التى عاشها الوطن العربى مفكك الاقطار تحكمه قوى التخلف والخرافات ويسوده

الفقر والجهـــل والمرض وبين قوة جاذبة اخرى تحتم على العرب الخضوع للخليفة العثمانى الذى حاول ان يمثل فى شخصه مركز (خليفـة المسلمين) مما جعل طاعته واجبة على كل فرد مهما بلغ بعد مكانه عن حاضره الخلافة وعلى الفرد نفسه ان يضع ولاءه للسلطان الخليفة فوق كل ولاء وان لا يجاهر بعداوته أو كسر اوامره أو الانحياز الى اعدائه والا عد خارجا على اوامر الخليفة وكاسرا للقيم التى تحيط بالخلافة وما تتطلبه تلك القيم من طاعة وتمسك بتنفيذ الاوامر والقرارات التى تصدر عن الخليفة نفسه !

هذا التناقض بين متطلبات الواقع وبين واجبات الخلافة زاد ارباك الحياة والفكر والمجتمع فى الفترة التى رزح العرب فيها تحت النير العثمانى وبذلك ارتفعت الصيحات من كل جانب لايجاد طريق جديد يفتح امام الامة العربية أفقا يتناسب وحضارة العرب فى الماضى ومسؤوليتهم فى المستقبل فقـــد انحدر الوطن العربى الى اوطأ مرحلة فى مؤشرة الحضارى وكانت الحاجة ملحة الى التغير الجذرى الشامل ووضع العرب على درب التقدم ثانية وعلى الاخص بعد ان تأثرت اوربا بالكثير من الهزات الفكرية والاجتماعية اهمها الثورة الفرنسية التى اثبتت مع فكرها الثوري ان الصلة بين الحاكمين وبين المحكومين لا تعدو ان تكون صلة تعاقدية وهذا التعاقد نفسه يتنازل بموجبه المحكومون عن جزء من حقوقهم فى سبيل ضمان وسط افضل يستطيعون فيه ان يعوضوا بشكل أثمر عن تلك الحقوق التى تنازلوا عنها .

اما العقد فانه يكون بين طرفين الاول المجتمع وافراده والثانى السلطـــة واجهزتها وهذا التعاقد نفسه هو الذى يزود السلطة بقاعدتها الشرعية ويمنحها السند لوجودها واستمرارها فى الحكم ، فالسلطة اذن مسؤولة فيما تعمل وتتخذ من قرارات امام المجتمع الذى منحها حق الحكم فاذا اخلت السلطة بشروط التعاقد فان للمجتمع الحق فى الانتقاض والثورة على السلطة وازاحتها عن مكان قوتها والاتيان بطرف يستطيع ان يحترم ويسير حسب نصوص التعاقد .

وقد وجدت مثل هذه الاراء فى كتابات جان جاك روسو وعلى الاخص كتابه (العقد الاجتماعي) كما ظهرت فى آراء كاتب آخر من فرنسا له أثر كبير في الفكر والواقع السياسيين هو مونتسكيو ومؤلفه (روح القوانين) الذى اكد فيه على تقسيم السلطات وجعل من كل سلطة رقيبا على السلطة الاخرى فى سبيل ضمان سير هذه السلطات وفق متطلبات عملها السياسى والاداري والقضائي وحسب ما تقتضيه ضرورات واهداف العمل الاجتماعى •

وكان من نتيجة انتشار تلك الاراء فى فرنسا اولا واوربا ثانيا ان بزغ فجر تفكير سياسى جديد يحاول ان يعيد تخطيط الصلات بين الفرد والمجتمع وبين كليهما والسلطة •

وكحصيلة للفكر والواقع السياسى والاجتماعى الذى تكون بفعل نجاح الثورة الفرنسية وعلى الاخص على صعيد الفكر الثوري فان موجة من المطالبة بحقوق الانسان قد ظهرت فى اوربا واخذت تدق بيد عنيفة ابواب الشرق الادنى فقد تسللت هذه الحمى الجديدة الى الدولة العثمانية وتأثر المفكرون وخصوصا من ابناء الجيل الجديد بتلك المبادىء والاراء القادمة من القارة الاوربية، وسرعان ما تأثر المثقفون من ابناء القوميات بما بشرت به الثورة الفرنسية من ضمان لحريات الافراد والحق فى الثورة على السلطة •

ومن الغريب حقا ان تتفق مبادىء الثورة الفرنسية مع التفكير القومى الذى يقصد منه التأكيد على حقوق الفرد فى وسط يتفق واياه من اوجه عديدة منها لغته وتاريخه ومعتقداته وآماله والالام التى تعرض لها ومن المؤكد ان ظهور الشعور القومى فى اوربا والذى بلغ اعلى مراحله فى القارة الاوربية عام ١٨٤٨ انما يمثل حلا وسطا بين مبادىء الثورة الفرنسية من جهة وبين مطامع نابليون من جهة اخرى فالفرد لا يريد ان يحصل على حقوقه كاملة فى ظل حكم غريب عنه ولكنه يريد ان يتمتع بالحرية فى ظل حكم يمثل القومية التى اشتق منها ذلك الفرد •

وقد اثرت مبادىء الثورة الفرنسية فى الحرية والاخاء والمساواة وكذلك الشعور القومى الذى ساد اوربا بعد ان انحسر ظل الحروب النابوليونية عنها فى اثارة الشعور بالتحرر ممزوجا بالقومية لدى الكثير من القوميات التى اخضعتها الظروف للحكم العثماني فقد هبت تلك القوميات لكى تحرر شعوبها مما ترزح تحته من ظلم واستبداد وتعسف وما يرتبط بهذه القوى السوداء من فقر وجهل ومرض وتأخر .

وطبيعى ان تلك القوميات فى نزوعها الى التحرر والمسؤولية القومية لابد وان تعتمد على مثقفيها ممن اتاح لهم الظرف والفرصة كي يطلعوا على الفكر الاوربى وما حدث فى واقع ذلك الفكر من تغيرات وكانت القومية العربية من القوميات السباقة لاتخاذ موقف جديد تجاه متطلبات التطور والتجديد فى الفكر السياسى العالمى ولكن حافز القومية العربية لم يلبث ان اصطدم بعقبات كثيرة منها الانقسامات والحدود التى تركت آثارا عميقة فى نفوس الافراد وجعلت ظروف العمل المشترك بين المثقفين من العرب امراً له صعوبته ، ومن جهة اخرى فان التكوين الفكرى لدى مثقفي العرب فى تلك الفترة اختلف عن مثيله لدى العامة فان القاعدة الشعبية فى الوطن العربى كانت تصر على ان الخلافة هى النواة التى تتكتل حولها كل آمال الشعوب الاسلامية بما فيها الامة العربية وان أمل العرب يتركز فى خلافة عادلة تستطيع ان تضع الامور فى نصابها وبذلك تزيل الكثير من المظالم التى كان يشكو العرب منها ثم ان السلطان الخليفة له شرعية مستمدة من القيم الدينية لذا فان العمل ضده يعتبر خروجا على القواعد المألوفة ان لم يكن جريمة فى حد ذاتها بالاضافة الى الايمان الشديد بالقضاء والقدر وان التغيير لا يمكن ان يحدث فى الوطن العربى لان الحياة قد خطط لها وقدر للعرب ان يعيشوا هذا اللون من الحياة فالتدخل فى شؤون التخطيط المقدر لا يعني الا فشل اولئك الطامحين فى محاربة المجتمع الممثل بتقاليده والقدر المتمثل بقوة جبريته وسيطرته .

وفى ظل هذه الاراء المتضاربة وفى الوقت الذى اخذت منه الدولة العثمانية تضيع هى الاخرى بين ما نصبه رجال الاطماع فى اوربا ممثلين بسفراء الدول الاوربية فى الاستانة من مصائد لاقتطاع اجزاء من الدولة العثمانية التى اطلق عليها تعبير (الرجل المريض) وبين فشـــل حزب الاتحاد والترقى فى تحقيق اهدافه التى اكدت على بناء مجتمع افضل لتركيا العثمانية والتى لم تلبث ان انقلبت تلك الاهداف الى سياسة عنصرية بغيضة سميت بسياسة (التتريك) أو السياسة الطورانية التى صبت كل غضبها الناتج عن فشلها فى تحقيق ما خططته من غايات في المستقبل انقلبت الى اسواط الهبت فيها ظهور القوميات العديدة المـكونة للدولة العثمانية بالاضافة الى ظهور شبـــح الحرب ودق ناقوس الخطر فى اوربا التى تكالبت فى اطماعها لاقتسام توابع الدومة العثمانية •

فى خضم كل هذه الاحداث فكرت مجموعة من مثقفي الامة العربية فى ايجاد تفاهم بينهم على الصعيد القومى وتذويب الحدود المصطنعة والقيام بعمل عربى مشترك يمكن الامة العربية من نفض غبار الذل عنها والدخول الى حضارة القرن العشرين وقد اختير مكان الاجتماع فى باريس عام ١٩١٣ وقد اطلق على ذلك الاجتماع العربى اسم (المؤتمر العربى الاول) وقد حاول المؤتمرون بعد ان استعرضوا تاريخ الامة العربية ونظروا بعين خاصة الى حاضرها وفكروا فى مستقبل العرب أن يوجدوا قاعدة فكرية سليمة يستطيع الفكر العربى المشترك ان يقيم صرحه عليها ومن خلال التفاعل العربى المشترك على صعيد الفكر الموحد تتمكن الامة العربية من اتخاذ خطوات مشتركة فى سبيـــل تقارب افضل بين اقطارها لا يلبث ان يتحول الى تفكير سياسي موحد فى المســتقبل وبذلك تسير الامة العربية فى الطريق السليم الذى حادت عنه عنـــدما تهدمت حضارتها فى آخر الفترة العباسية واتبعت السبيـــل المسدود نفسه خلال بقائها تحت النير العثماني •

وقد ناقش المؤتمر العربى الاول آراء متعددة منها ما يساند بقاء الوطن

العربى تحت الحكم العثماني ومحاولة التفاهم مع الدولة العثمانية وعلى الاخص فى تلك الفترة التى تعرضت فيها الحكومة العثمانية لامتحانات قاسية على الصعيدين الداخلى والدولى .

اما الرأى الثانى فانه كان يفضل ان يخطط للامـــة العربية وفق مفاهيم جديدة تبتعد بموجبها عن ارتباطاتها بالدولة العثمانية لكى تنتهج الطريق الذى يتفق ومطالب المجتمع العربى فى حريته العاجلة واهدافه فى الحياة الفضلى فى المستقبل فقد اكد اصحاب هذا الرأى على ان الارتباط بالدولة العثمانية باى شكل من الاشكال قد يعرض التجربة المراد تطبيقها لانتشال الامة العربية مما هى عليه من التردى والضعف والتأخر ، الى خطر الانتكاس وبالتالى يحرم الوطن العربى من فرصة مناسبة يستطيع فيها ان يبعد عن كاهله الضغط والاستغلال والتسلط العثماني .

وقد حاولت آراء اخرى فى المؤتمر متأثرة بالخط التقليدى ان تترك كل شىء الى عامل الوقت مع اتخاذ قرارات عامة لا تنحاز الى اى الجانبين المتباعدين .

والحقيقة ان المؤتمر العربى الاول فى باريس على الرغم من قدمه واختلاف الظروف المحيطة به وبالامة العربية عما يحيط بنا من صـــعاب وتعقيدات فى الوقت الحاضر فان المشكلة التى جابهت المؤتمرين فى باريس عام ١٩١٣م هى نفسها تجابه المثقفين العرب اليوم فى كافة الاقطار العربية . وملخص هذه المشكلة هو : ما مقدار الانحياز الذى يمكن ان يلتزمه العرب نحو كل من جانبى الفكر الذى يجمع بين التقليـــد والتراث وبين القوة الفكرية الجديدة فى المجتمع العربى والتى تطالب بان ينصرف التفكير العربى بلكيته نحو ميدان العلم والفلسفة بمفهومهما فى اوربا مع بناء علاقات اجتماعية جديدة تأخذ بنظر الاعتبار الحاجات المستقبلة للامة العربية القائمة على الرغبة الملحة فى التقدم وما يتصل به من تصنيع وتغيير .

وفحوى فكرة الجانب الذى يريد ان يتجه نحو اوربا بكليته يعتمد على مفهوم خاص فى التغير الاجتماعى هو ان المجتمعات التقليدية لا تستطيع ان تبقى

موزعة بين القديم والحديث عند محاولتها بناء تراكيب اجتماعية جديدة ومن الافضل لهذه المجتمعات ان تتجه بعقول جديدة لا تحمل من تبعات الماضى الا وراثتها الطبيعية فى الوقت الذى تسعى فيه الى التنفس بجو اجتماعى وفكرى جديد وبذلك تستطيع المجتمعات المتطلعة نحو التقـــدم ان تقضي على عاملين أساسيين قد يتسببان فى فشـــل تجربة التغير الاجتماعى بكاملها الاول التردد بين القيم القديمة ونقيضتها الجديدة وما يتصل بهذا التردد من بطء فى اساليب العمل والوقوع فى الكثير من اخطاء التنقل بين القديم والحديث •

والثانى الخوف من الردة الاجتماعية والفكرية نحو المجالات التقليـــدية وهذا امر محتمل الوقوع وعلى الاخص فى مجتمعات تتمتع بفترة طويلة من العمر الحضارى تتضاءل امامها فترة الحاضر القصير الاجـل مع غموض ملامح المستقبل •

اما اصحاب المدرسة التقليدية فانهم يؤكدون على ان المجتمعات تمر بادوار من الضعف والقوة وان تلك التى تمتلك الحضارات القديمة لا يمكن ان تنحاز الى متطلبات العصر الحديث بكليتها لان قوى الجذب للمـــاضى اقوى من تلك التى تدفعها نحو الحاضر والمستقبل لذا فان أفضل السبـــل للتغير الاجتماعى هو عدم التغير والابقاء على التراكيب الاجتماعية والفكرية كما هى وذلك ضمانا للابقاء على مكاسب المجتمع المتوارثة ودفعا لما قد ينجم عن التغير الاجتماعى من مشاكل ومصاعب قد تؤثر فيما يسمى بلغة علم الاجتماع (بالتوازن الاجتماعى) وتعصف بالمجتمع فى جو لا يتناسب والخطوط التقليدية لتفكيره وواقعه •

واذا جاز لنا ان نسمي كلا من هذين الجانبين باسم مدرســة فكرية فان المدرسة الاولى يمكن ان يطلق عليها اسم (المدرسة التجديدية) بينما نطلق على المدرسة الاخرى تعبير (المدرسة التقليدية) او (الكلاسيكية) وواقعا ان كلا من هذين الرأيين ظهر اثره في وقت مبكر قبل التصادم الفكرى العربى فى باريس عام ١٩١٣ وما زال يظهر فى فترات متقطعة وعلى الاخص عندما تجد حاجات ملحة لايجاد أنمـاط اجتماعيـــة جديدة وعلى الاخص فى اعقـــاب التغيرات السياسية فى الوطن العربى •

الفصل الثالث

العرب بين التجارب والنكسات الحضارية

العرب أمة قديمة فى اصولها الحضارية والبشرية فقد ورثوا تراث الحضارات المعينية والسبائية والحميرية فى اليمن من جهة وحضارات الفرات والنيل وأرض كنعان وفينيقية من جهة ثانية وقد تقطر نتيجة لهذه الوراثة التاريخية الضخمة عطر حضارى انتقل من جيل الى اجيل آخر وهذا العطر وان احتفظ بتأثيره الحضارى الا انه فقد الهياكل التى يستطيع ان يترك طابعه عليها فقد تعرضت الامة العربية لنكبات حضارية وتأريخية وسياسية اضعفت الابنية التى تتمكن من ان ترفع الشعلة الحضارية المتوارثه •

ولعل اهم النكبات على الصعيد الحضارى التى تعرضت لها الامة العربية هى انهيار سد مأرب فى اليمن المثلث الخصب من شبه جزيرة العرب فان اندثار الحضارات التى قامت فى ذلك الجزء من الوطن العربي اضعفت من الناحية الاستراتيجية حضاريا وواقعيا الاندفاع العربى نحو افريقيا من جهة والاتصال بآسيا من جهة اخرى لان اليمن تمثل فى الواقع همزة الوصل بين شبه جزيرة العرب وبين افريقيا ثم تشكل بنفس الوقت جسرا للعبور الى آسيا وجنوب شرقيها بشكل خاص ، الا ان انهيار حضارة المثلث الخصب فى شبه جزيرة العرب افقد العرب القابلية فى استغلال مركز اليمن الاستراتيجى وجعلهم يتجهون نحو الشمال بدلا من ان يرتادوا أرض القارة الافريقية ويقوموا بعملية استكشافية رائدة لا تقل عما قام به الاوربيون الاوائل من اكتشاف للقارة الامريكية او استراليا ومن المؤكد ان الحضارة العربية لو تمكنت من الاستمرار بارض اليمن فان العرب سينقلبون الى دولة بحرية من الدرجة الاولى مما يترتب عليه قيام تصميم عربى للتوسع عن طريق استخدام السفن البحرية والسير بها فى جميع الاتجاهات حيث تكتشف اراض جديدة تكون محطات للتجارة والفكر فى آن واحد •

الا ان فشل الحضارة العربية فى جنوب الجزيرة وعلى الاخص فى اليمن حال دون استمرار قوتها ذات الدفع الحضاري العالى ووجه العرب نحو الحركة عن طريق استخدام القوافل وواسطتها الرئيسية الجمال بما تتصف به من البطء فى الحركة وكثرة ما تتطلبه من جهد لحملها على السفر على الرغم من قصر المسافة التى تقطعها فى السفرة الواحدة وليس هناك من شك بان القول الذي يصف الجمل بكونه سفينة الصحراء لا يستطيع ان يعوض عن السفن الحقيقية التي تمخر عباب البحر وتعود بالكسب المادي والمعنوي على الامة التي تسير تلك السفن فى خدمتها .

ومجمل القول ان العرب لم يستطيعوا خلال تاريخهم الطويل ان يبنوا قوة بحرية لها القابلية على الحرب والتجارة توصلهم الى مركز البرتغال او جمهوريات ايطاليا الجنوبية وبذلك اضاع العرب فرصا حضارية سنحت لهم لكي ينشروا الحضارة العربية ويحصلوا على مواد خام لتشييد صروح حضارية تختلف الى حد كبير عن تلك التي خلفوها بعد ان انقلبوا من حياة المغامرة البحرية الى حياة السير والتنقل بشكل جماعات فى صحراء جرداء لا تقودهم حركتهم تلك الا الى واحة للكلأ او مكان يستطيعون ان يستريحوا به من عناء سفرهم الطويل .

وقد فوت العرب فرصة ثانية فى حياتهم التاريخية لكي يصبحوا دولة بحرية عندما وصلوا الى شمال افريقيا فقد كان جل اهتمامهم ان يتوسعوا فى اليابسة وان يتركوا التوسع عن طريق البحر فقد احرق طارق بن زياد القائد العربي السفن بعد ان وصل الى شاطىء جزيرة الاندلس ويدل هذا العمل على قلة دراية بالنسبة لاستراتيجية الحرب البحرية .

أما من وجهة نظر التكوين الحضاري فأن العرب فى شمال افريقيا شأنهم شأن القبائل العربية القديمة اتصفوا بالتردد فى اتخاذ البحر سبيلا حضاريا يستطيعون بواسطته ان يكسبوا علما وتجارة فى الوقت الذي كانوا هم فى مركز يمكنهم من تصدير ما عندهم من فائض حضاري والاستفادة مما لدى الامم الاخرى وذلك عن طريق التفاعل الحضارى معها عن طريق الحرب

اذا كان الاختلاف كبيرا بين القيم الحضارية العربية وتلك التى يراد التعامل معها او التجارة اذا كان هناك مجال للتفاهم على وسائل متبادلة للكسب التجاري والاستفادة من تقايض السلع الحضارية والمادية .

وليس بخاف ما للبحر من أثر فى انتعاش الحضارة من جهة وتزويدها بتفاعلات حضارية من جهة اخرى ثم بالتالى خلق الاجهزة السياسية وانظمتها وما يتبعها من جهات مختصة فى شؤون تمويل الرحلات والاشراف عليها وايجاد اسواق لتصريف السلع التي تتعامل بها بما يعود بالفائدة على أفراد الدول ذات النفوذ البحري ويساعد على تكامل بنائها سياسيا واقتصاديا .

واذا قارنا بين الحضارة اليونانية فى القديم وبين الحضارات التي سبقتها وعاصرتها نرى ان اليونانيين استطاعوا ان يكونوا رجال بحر قبل ان يتدربوا على الحركة والعمل فى اليابسة وبذلك اخذت اليونان القديمة احسن ما فى الشرق من حضارة ولولا السفن اليونانية ورحلاتها فى البحر المتوسط لما استطاعت الحضارة اليونانية القديمة من تطعيم فكرها الحضاري بما كان للشرق وخصوصا فى مصر من ابعاد حضارية عميقة وناضجة .

وبالفعل فقد بنيت الحضارة اليونانية التى سبقت ظهور المسيحية بحوالى ثلاثة قرون على ما نقلته السفن اليونانية من فكر شرقى ورجال وبضائع ولولا هذه الحركة السريعة للنقل البحرى لما استطاعت اليونان ان تحصل على فكر الشرق العربى القديم وان تضمن لنفسها سلعا ورجالا يقومون بالعمل والجهد بينما يفكر اليونانيون فى مسائل تخص الفلسفة وما يتصل بها من علم وما يترتب عليهما من امتدادات فكرية تبلورت فيما كتبه افلاطون وارسطو واخذت تنتقل من جيل الى جيل متحدية الزمن والانسان فهي تعيش فى كل عصر وستظل تملك القابلية على الحياة فى المستقبل .

وبما ان الحضارة فى الشرق العربى القديم كانت حضارة يابسة بالدرجة الاولى فانها اعتمدت على الزراعة وان احتلت التجارة جانبا ضئيلا من حياتها

الاقتصادية وعلاقاتها السياسية • بالاضافة الى ان الحضارة اليابسة تستدعى جهدا لتثبيت الاسس الحضارية عن طريق استنزاف الموارد الطبيعية للارض نفسها لكى يصبح مستطاعا اشباع الحاجات المتكاثرة لسكان الحضارات ذات التجمعات البشرية الهائلة والا فان الحرب امر لا محالة منه لكى تخفف الضائقة عن البشر انفسهم ويعود التوازن بين الانسان والطبيعة الى سابق عهـده •

وتبعا للحضارة على اليابسة وهي الصفة التي تميزت بها حضارة العرب فان وحدة الحياة الاجتماعية العربية اعتمدت اعتمادا كليا على فئة قليلة من الافراد تقوم روابطها على الدم والقرابة وقد سميت هذه الوحدة الاجتماعية باسم (القبيلة) •

وهذه الظاهرة الاجتماعية المتمثلة بالقبيلة نفسها لم تكن امرا عفويا وانما كانت ناتجا طبيعيا لحياة اليابسة التي اتبعتها الحضارة العربية خلال فتراتها الطويلة • ومن غير المشكوك فيه ان القبيلة كلما قل عدد افرادها كلما ضمنت لنفسها حركة سريعة وسط طبيعة قاسية واستطاعت فى الوقت نفسه ان تقيم توازنا بينها وبين ما تجود به الارض الجرداء مما لا يكفى الا الضروريات لادامة حياة القبيلة •

وقد نشأ نتيجة اختزال التركيب السكاني عبر الحقب المختلفة للحضارة العربية الى وحدة صغيرة هي (القبيلة) ان انصفت العلاقات بين افراد القبيلة أنفسهم بنوع من الرابطة القوية واصبح الولاء للقبيلة فوق كل اعتبار ونتج عن ذلك ان افراد هذه الوحدة الاجتماعية يجب أن يساعد بعضهم بعضا الى حد هدر حقوق الاخرين تأكيدا على مبدأ التضامن ضمن نطاق القبيلة نفسها •

ولابد لمثل هذه القبيلة من توجيه يضمن استمرار العلائق الاجتماعية والاقتصادية بين افرادها وبذا اصبح على رأس كل قبيلة شخص توكل اليه المهام الخاصة بجوانب الحياة المختلفة ويكون قضاؤه جازما دون ان يعترض عليه من قبل أفراد القبيلة أنفسهم •

وقد نشأ عن ظهور القبيلة كوحدة اجتماعية صغيرة ان سادت بين العرب أنفسهم روابط اعتمدت قبل كل شيء على صلة القرابة والدم وكلما كانت تلك القرابة قريبة اصبح من الواجب ان يكون سلوك الافراد منسجما وما نسميه بالتقاليد القبلية ، وقد اصبحت تقاليد الحياة القبلية على مر الزمن الحضارى اعرافا حفضت ودافع عنها العرب على اختلاف واقعهم المكاني وكأنهم يدافعون عن حياتهم لانهم فى الحقيقة يدافعون عن وجودهم كافراد فى قبيلة وان اختلف واقعها المكاني والقطر الذي تتحرك او تميل الى الاستيطان فيه مما اضعف الشعور القومي لدى الكثيرين من العرب واتجه بولائهم صوب قبائلهم او وحداتهم الاجتماعية التي تشبع العديد من حاجاتهم وتوفر لهم عنصر الاطمئنان والحماية بصرف النظر عما يتهددهم من اخطار .

أما شيخ القبيلة ذو الشخصية المتنفذة فانه ظل يمارس نفوذه دون ان يكون هناك ما يمنعه من ممارسة سيطرته على كل فرد من افراد قبيلته وما يملكونه او قد يملكونه فى المستقبل وبذلك نشأت فكرة التسلط من قبل ذوي النفوذ على اولئك الذين يخضعون لامرتهم وقد ازداد التسلط طبعا بازدياد الحاجة اليه نتيجة ضعف الرباطات القبلية بعد ان جنحت بعض القبائل نحو الاستقرار وبذلك بدأ الشيخ يتحول بين ليلة وضحاها الى حاكم سياسى تقمص سلطة الملك او الحاكم المتنفذ ولكنه ما زال يحمل فى قرارة نفسه مخلفات شيخ القبيلة وما يتصل بتلك المخلفات من نفوذ وتحكم .

وقد احتاج الحاكم الجديد وعلى الاخص بعد ان اتسعت التنظيمات البشرية التي يتسلط عليها الى قوة تدعمه تمثلت قبل كل شيء فى انجاب العديد من الابناء الذين يؤمنون للحاكم سياجا قويا ضد من تسول له نفسه العبث بحكمه او التعرض لهيبة سلطانه مما ادى الى نشوء ما يسمى (بالحريم) وان لعب مركز (الحريم) دورا سلبيا فى القضاء على الحاكم نفسه او تنصيب من يستطيع ان يقرأ افكار اولئك المتنفذين فى دنيا الحريم

وبذلك يضمن لنفسه السلطة .

وهكذا فقد عاش مبدأ التسلط مع الحضارة العربية فى ادوارها المختلفة فلم تسلم منه القبيلة الصغيرة التي اتخذت الحل والترحال وسيلة لاثبات وجودها فى الحياة والواقع كما اثر نظام التسلط نفسه على التشكيلات السياسية عندما انتقل التنظيم الاجتماعى من مستوى القبيلة الى صعيد الدولة ولم يطرأ تغير على شخص الحاكم وسلطته ماخلا اعتماده على جماعة من ابنائه والمقربين اليه يتخذهم سندا للذود عن سلطته ولتمكينهم فى المستقبل من ان يرثوا السلطة والسلطان .

ونعود ثانية الى مفهوم الحضارة ذات الجذور البحرية فنؤكد بأن الحضارات الاوربية فى القرون الوسطى على الرغم من الركود فى المجتمع والفكر ووقوع الفرد الاوربى تحت سيطرة الكنيسة والاقطاع وانعدام سبل الحركة والحياة عدا الزراعة التى عول عليها لسد الحاجات الضرورية وتأكيد الصلة بين التابعين والاقطاعيين ، فى مثل هذا الجو الاسن الذي افتقر الى اتفه تعبير يعكس الحياة قامت دول وجمهوريات استطاعت ان تصير البحر الابيض المتوسط بحيرة ايطالية وتمول مغامرة توسعية هي « الحرب الصليبية » التي دامت اكثر من اربعمائة سنة مما يثبت دون تردد النتائج الواقعية لسيطرة جمهوريات ايطاليا الجنوبية على البحر واستخدامه كواسطة للتوسع والتجارة .

وفى الفترة التى تلت القرون الوسطى برزت اهمية البحر وخاصيته الحضارية بشكل اوضح فأن بريطانيا هي اشد الاقطار الاوربية فقرا وأكثرها حاجة الى المعونات والصدقات الخارجية فقد وجدت الجزر البريطانية فى معزل عن القارة الاوربية مما يزيد فى موقفها سوء واحتياجاتها ضرورة ولما كانت القارة الاوربية نفسها فى تلك الفترة المتميزة بالاصلاح الدينى والاضطراب السياسي والفكري فى شغل شاغل عن جزر منفصلة عنها كالجزر البريطانية فقد شرعت انكلترا فى استغلال البحر وبالفعل استطاعت ان تثبت نجاح محاولاتها هذه عندما هزم الاسطول البريطاني القوة البحرية الاسبانية

متمثلة فى اسطولها « الارمادا » أي الذي لا يقهر ، مما اكسب بريطانيا وملكتها اليزابيث الاولى سمعة اوربية ودولية مكنتها من بسط نفوذها الاستعماري وانجاح عملياتها فى القرصنة الدولية فيما وراء البحار • وقد حاول نابوليون الاول ان يكسر شوكة بريطانيا بفرض حصار اقتصادي عليها الا انه فشل نظرا لمركز الاسطول البريطاني فى الحرب والتجارة الدوليتين وانتهت سياسة التصدى الذي انتهجها نابوليون الاول الى وقوع معركة (ابي قير) التي تحطم فيها اسطول نابوليون واضطره هذا الفشل العسكري فى عرض البحر وبعد ان تبخرت احلامه فى بناء امبراطوريته فى مصر ان يعود ثانية الى فرنسا فى باخرة للفحم خوفا من قطع الاسطول البريطاني المنتشرة فى البحر الابيض المتوسط آنذاك •

وفى القرن العشرين لعبت الاساطيل البحرية والتجارية الدور الاول فى نجاح سياسة وتجارة الدول التى تملكها واصبح عنصر المفاضلة بين دولة واخرى فى مجال التقدم الصناعي تقوم على اساس ما تبنيه من سفن ذات حمولات كبيرة وعلى الاخص بعد ظهور عابرات المحيطات وناقلات النفط الى حيز الوجود ، وبذلك اضحى لزاما على اية دولة تحترم نفسها ان تؤمن لها اسطولين تجاري وحربي يتفقان وما تريد تلك الدولة ان تنجزه فى مشاريع اقتصادية او تفكر فيه من مخططات فى دنيا السياسة يكون لها وزنها فقد تستغل القوة البحرية فى الكسب السياسى بمجرد التلويح بها وبما لها من طاقة مدمرة •

فمن المؤسف حقا ان الحضارة العربية على مر عصورها افتقرت الى القوة البحرية والتجارية التى تفتح امام العرب انفسهم ابواب المعرفة عن طريق السفر والتجربة كما تعمل على تطعيم الفكر العربى والحركة التجارية بالكثير من اسباب النمو والحياة •

فالحضارة العربية اذن « حضارة يابسة » تميزت ارضها بالجفاف مما اختزل سكانها الى مجموعات صغيرة تستطيع ان تتحرك بيسر وسهولة وان خضعت لسيطرة مطلقة يفرضها رجل بمفرده تفترض فيه الحكمة والمعرفة

والسداد فى الرأي والعمل مما مهد التربة السياسية لظهور الحكم الفردى الذى تمثل بالدكتاتورية والتسلط .

اما الميزة الثانية للحضارة العربية فهي انها حضارة فئة من الناس من ذوى الحظوة والجاه ومن يحسنون القول والتصرف فى مجالس الملوك واصحاب النفوذ والمال مما جعل العلم والمعرفة وقفا على تلك الحفنة من أتباع الرؤوس الحاكمة تزين بها بلاطاتها لكى تفاخر بها الامم وكأن رجال العرفان دمى او مصابيح للزينة توضع فى مجالسها عند الحاجة اليها في الوقت الذى يغط العامة من الناس فى سبات عقلى واجتماعى عميق .

وليس هذا ما يميز الحضارة العربية فقط فقد كانت الحضارة اليونانية فى اوجها فى الفترة التي سبقت ظهور المسيحية باربعة قرون وقفا على جماعة التزمها ذوو المال والنفوذ فى المجتمع اليوناني بشكل عام والاثيني بشكل خاص . فقد كان افلاطون فى اكثر من مرة مستشارا سياسيا لحاكم سيراكوز ومن الغريب انه فشل فى عمله هذا وان ارسطو اشتغل مهذبا للاسكندر المقدونى وغيره ن ابناء الملوك والحاكمين لكى يتمكن من السير فى خطته فى الكتابة والتأليف . أما روما فان قضاتها ورجال القانون فيها كانوا ملتزمين من قبل الاباطرة واصحاب المال والاقطاعيات .

الا ان ردود الفعل لهذا السلوك من قبل رجال الفكر ما لبثت ان سارت فى اتجاه معاكس واخذ ذوو المعرفة فى التمتع بقسط اكبر من الاستقلال ولعل امتزاج المسيحية بالتصوف والافلاطونية الجديدة فى العصور الوسطى قد قضى الى حد بعيد على السبيل الذى سلكه رجال المعرفة فى ربط انفسهم بعجلة السلطة والمال بينما بقى الفكر فى الحضارة العربية خاضعا للسلطة وسيفها وذهبها لان الحاكم قد مثل بشخصه كل ما يخضع الفرد العادى والمفكر لذا فان طاعته واجبة على كل من يسكن منطقة نفوذ السلطة والا اعتبر الاستقلال الفكري تحديا او خروجا على « وجوب الامتثال » مما يترتب عليه اتهام اصحابها بالخروج على القيم الاجتماعية والاعراف المتبعة مما عرض اهل الفكر والرأي الى عقوبات .

اقساها التنكيل والقتل .

وقد تسبب هذا الضغط من قبل السلطة على الفكر والمفكرين فـــى ظهور دنيا مـــن الشائعات والتقولات وجدت لها تربة ملائمة لدى العامـــة من الناس اولئك الذين يمتصون ما يقال لهم فاما ان يستنكروه او يتفقون معه وقد يظهرون لا ابالية غبية تاركين الامور برمتها الى القضاء والقدر علما بان الاحداث تصلح نفسها وتتعهد كل منها بامر الاخرى دون الحاجة الى تدخل من الناس مثقفهم او عاميهم والا وصل الفساد مع تلك الايدى التي عبثت بما لا يعنيها فهي ولا شك ستنال عقابها العاجل او الاجل .

ومن افدح النكسات التى تعرضت لها الحضارة العربية فى تاريخهـــا الطويل الحروب الصليبية والغزو التترى وكلاهما يعكس دون شك مـــا وصلت اليه الحضارة العربية من ضعف وتدهور بعد أن مرت بفترة تكاملها الحضارى لذا فان الحروب الصليبية والغزو التترى ليسا الا اختبارين من التاريخ نفسه لمدى القوة المرونة التي تتمتع بها الحضارة العربيـــة فى أعقاب فترة طويلة من تماسكها الحضارى .

أما واقعهما التاريخى فانه يختلف عن التاريخ نفسه كحركة عامة ذات روح مستقل وانما يتأثر الواقع بالابعاد التى تتركها عوامل الزمان والمكان والقومية أو الوطنية على الحدث نفسه وبذلك يخضع الحـــدث للظروف المكونة له اكثر من اتباعه الحركة التاريخية فى التقاطها لامتداد الانســـان مادة وفكرا فى فراغ من الزمن والعبث ورسم مفهوم للتاريخ على ضوئها يرقى فوق الاعتبارات الطبيعية التى تمد الحدث بعناصره الاوليـــة

ومن وجهة نظر الواقع التاريخى فان المكون الرئيسى للحضارة العربية هو العرب انفسهم وهم مادة بشرية جمعت بين مخلفات لحضارة قديمـــة انجزها اسلافهم وحياة بدائية عاشها بعضهم فى مسطحات رملية هائلـــة أدى تفاعلها مع سوابقها الحضارية الى رغبة مشوبة بالخوف عكستهـــا نظرتهم المتطلعة الى الحضارة الحاضرة .

أما العنصر الثاني من عناصر الحضارة العربية فهو الطبيعة أو الوعـــاء

الجغرافي ويتميز هذا العنصر بانه وان تميز ببعض الجوانب الايجابية التى تساعد على انماء الحضارة وازدهارها الا انه بشكله العام يعكس شكل منطقة من اقسى ما يمكن ان تظن به الطبيعة على البشر فاغلب الارض العربية صحراوية قاسية المسالك صعبة التضاريس يندر ان تتوفر بها احتياجات الافراد الا اذا واصل الفرد نهاره فى حل وترحال لكى يكفى ما يبقيه حيا وبذا ولدت صورة الانسان الزاهد الذى يقبل بالقليل ويحاول ان يقنع نفسه به الامر الذى بدل القبول بالقناعة والرضا على امل ان يتحسن وضع الفرد فى المستقبل القريب او البعيد فاذا لم تتحقق هذه الاهداف على بساطتها فان الزهد يصبح لاجل الزهد وتكون القناعة عندئذ كنزا لا يفنى لان الكنز الواقعي قد تبعثرت احلامه على رمال الصحراء وأشواك الفاقه .

وهناك خرافة تاريخية هى ان الجزيرة العربية كانت أرضا خصبة ذات أثمار ونعيم ينعكس فى مساحات شاسعة من الارض الخضراء وبذا توفرت سبل العيش لعديد من سكان الجزيرة العربية مما ادى الى كثافة سكانية عالية الا أن تغير الظروف المناخية وأهمها انتقال الحزام الجليدي الى شمال اوربا اصاب المنطقة المدارية ـ ومنها ارض العرب ـ بجفاف عظيم قلبها الى صحراوات هائلة !

فاذا سلمنا بصحة هذه النظرية من ناحية جيولوجية فاننا لا يمكن ان نقبلها من ناحية الواقع التاريخي لان الجفاف لو تم لانتاب الجزيرة العربية بكاملها ولهجرها اهلها دفعة واحدة الى مناطق يستطيعون فيها أن يوفروا متطلبات عيشهم بشكل افضل ولكن ما حدث هو ان الهجرات تمت بشكل « موجات » بدأت فى الالفه الرابع قبل الميلاد وانتهت بحركات التحرر الاسلامية بعد نجاح الدعوة الاسلامية ، فكيف تم ذلك ؟ وهل يمكن تعليله عن طريق استمرار الجفاف خلال هذه الحقبة الطويلة على شكل «مراحل» مما لا يسنده واقع عدا بعد الاخبار المنقولة وفولكلور متداول.

والواقع ان الجزيرة العربية مرت بادوار جيولوجية كغيرها من أقسام

سطح الارض خلال المراحل التى تركت طابعها بشكل تضاريس او براكين او صدوع عظيمة كالبحر الاحمر ولكن طبيعة الجزيرة نفسها وقابليتها على الزراعة لم تكن بأفضل مما هي عليه اليوم والدليل ان ما وصلنا عن الحضارات العربية القديمة يقتصر خبره على اليمن ومصر والعراق ولا يشير بقليل أو كثير الى حضارات نمت فى الربع الخالى او الاقسام الصحراوية البعيدة عن عالم الاكتشاف والمعرفة لذا فمن اقرب الفرضيات الى الصواب أن الجزيرة العربية كانت تعيش بظروفها الحالية فى الوقت الذى تمتعت فيه اليمن والمناطق الساحلية بحياة مدنية ورفاه اقتصادي جذب البدو من العرب انفسهم الى محاولات لاقتسام خيرات الاستقرار والتقدم الحضاري الا انهم ردوا على أعقابهم فى فترات القوة التى تميزت بها المدنيات فى اليمن وسواحل شبه الجزيرة العربية مما دفع القبائل الغازية الى الحركة البعيدة فى محاولة فى سبيل كسب جديد وبذا خرجوا من طوق الجزيرة العربية الى حدودها الشمالية او عبروا الى أفريقيا فى حالات أخرى لان البحر الاحمر كان مليئا بالجزر التى ساعدت النبى موسى على ان يعبر الى الجهة المقابلة .

ومن غير المشكوك فيه ان الهجرة حدثت من شبه الجزيرة العربية على نحو قبائل او مجاميع صغيرة وليس على نمط موجات لعدم وجود وحدة هدف مشتركة بالنسبة للقبائل المهاجرة من جهة ولاختلاف الطرق التى سلكتها من جهة اخرى اضف الى ذلك ان الهجرات خضعت لدافعين مهمين الاول هو قوة الحضارات المدنية فى شبه جزيرة العرب عسكريا وسياسيا مما حدى بالغزاة والمهاجرين الى سلوك وسائل اخرى يستطيعون بواسطتها الحصول على مكاسب معيشية أفضل والثانى هو انتصار القبائل المغيرة وهدم الحضارات القائمة فى المناطق الاكثر قابلية للحياة الحضرية فى شبه الجزيرة العربيةمما قد يصاحبه تفكك هائل فى تلك المجتمعات وفقدان الكثير من رجال السياسة والادارة والعلم تضطرب بفقدهم اجهزة الدولة الادارية والفنية فيقل الانتاج ويصبح الاقتصاد فى عسر شديد يدفع

بالمنتصرين والمنكسرين الى ايجاد أرض جديدة للخروج من المأزق الذي هم فيه .

واهمية هذا النقاش لفكرة الموجات التي خرجت من شبه الجزيرة العربية ترجع الى غرس بعض المفاهيم المغلوطة فى اذهان الناشئة العرب مما قد يضيف تعقيدا فوق ما يشعرون به من تعقيدات ، وفحوى ذلك ان التأكيد على خصوبة الارض فى القديم وتحولها المفاجىء يترك بعمق فى نفسية الفرد العربي شعورا خفيا بالاسى والحنين الى الجنة المفقودة التي خضعت الى قضاء وقدر ظالمين لا سبيل للفرد فى مقاومتها مما يبدد ما تبقى للانسان العربي من قوة ذات وذلك بجعله ضحية (مؤامرة جيولوجية هائلة) ذهبت بغدرها ارضه الخضراء ومياهه الوفيرة واصبحت كلها صحارى يظلها العدم والخوف فى وقت يحتاج فيه المجتمع العربي الى تقدير واقعي لماضيه وحاضره خصوصا ما يتصل بالارض التي يعيش عليها لكي يبعد الفرد العربي عن ذهنه (عشق الارض) ويبدأ بالنظر اليها كواسطة للانتاج فحسب وبذلك يزداد تصميمه على العمل من جهة وتقل تطلعاته الرومانتيكية وتصوراته الخيالية للماضى من جهة اخرى .

فالارض العربية أرض صحراوية ، وهكذا كانت فى الحقب التاريخية المنصرمة وعلينا ان نقر هذه الحقيقة الواقعية وان مسؤولية هذا الجيل هي ان يحيل الارض البور الى مزارع تبسط بالحياة والانتاج وبذا نبدأ من واقع نعالجه فى سبيل الافضل لا خيال يشبع حواسنا فنتصور خياله او ننهزم .

وانطلاقا من هذا الواقع الجديد فان القومية العربية فى محتواها الاصيل هي رد الفعل الذي فرضته الطبيعة القاسية فى شبه جزيرة العرب على اولئك الذين عاشوا تلك الظروف القاسية وبذلك يكون العرب وارضهم ركائز قوميتهم التي جعلت من تركيبها البشري وحدات متنقلة عاشت على مر التاريخ تحت اسم القبيلة أو العشيرة يضاف الى ذلك ان الخصائص العربية تظهر بأجلى مظاهرها من كرم ونخوة وشجاعة ونكران للذات عندما يتوفر الجو

الملائم لها حيث تسود الحياة القبلية التي يذوب فيها الفرد فى مصلحة القبيلة وتقسو فيها الطبيعة على الانسان وكأنها بذلك تمتحن ما يتحلى بـه سلوك فالكرم لازمة طبيعية فى مجتمع تندر فيه متطلبات الفرد الاساسية ويفتقـر الاجتماع الانساني الى موازنة بين ما تقدمه الارض ويستهلكه بنو الانسان مع الافتقار الى ما يؤمن التوزيع العادل تلبية للحاجات الاساسية للافراد .

اما النخوة ونكران الذات والشهامة فانها اوجه للسلوك الاجتماعي تميز بها العرب لكي تكتمل ردود الفعل العربية بالنسبة لما يحيط بقوميتهم من طبيعة صعبة وظروف حياتية ولكن هذا التعليل قد يبدو قليل القيمة فى اعين نفـر ممن يودون استعمال التعابير الضخمة وحشر بعض المعلومات التي تعكـس ظلا ثقافيا ثقيلا ولكنها تخالف ابسط مركبات القومية العربية فقد يذكر كلام حول تقسيم المدارس القومية التي ظهرت منذ عصر القوميات فى اوربا عـام ١٨٤٨ للميلاد ويصنفون هذه المدارس تحت عنوانين رئيسيين الاول المدرسة الالمانية والثاني المدرسة الفرنسية ويفرقون بين المدرسة والثانية بان المدرسة الالمانية تقوم على العنصر وأفضلية الالمان بالذات فهي قومية عدائية تنظـر الى القوميات الاخرى نظرتها الى كميات مهملة من البشر لا حق لهم فى الحياة . اما المدرسة الفرنسية فانها تؤمن بالثقافة كواسطة للتفاضل بين بشر وآخرين وبذا تكون اللغة وما يتصل بها من تاريخ وشعور مشـــترك هي الوسائل الرئيسة لتمييز بعض القوميات عن الاخرى .

ولكن كلتا المدرستين لا تنطبقان على ما نفهمه عن القومية العربية لان اوربا كانت ومازالت تخلط بين مفهومي الوطنية والقومية نظرا لوجـــود مصطلح واحد لهما فى اللغات الاوربية هو (ناشيونال) بينما يكون الخـط عميقا بين مفهومى الوطنية والقومية فى دنيا الامة العربية فقد تكون الوطنية عاملا يعترض التيار القومى فى الهدف والتخطيط والعمل لذا تســعى القومية العربية الى تخطى الحدود الوطنية والانطلاق فى سبيل عمل عربى على الصعيد القومي فى الوقت الذي تؤكد فيه اوربا على الشعور القومي والارتفاع به الى مستوى الوطنية العالية (سوبر ناشيونال) او الوطنيـة

المترابطة (پان ناشيونال) وما يتصل بهذا كله من اشكال تجميع الشعور الوطنى كالفدرالية والكونفدرالية مما يختلف واقعه وفكره عما هو متعارف عليه فى الوطن العربى •

والواقع ان هذه المفاهيم ولدت وعاشت وتطورات فى اوربا لذا فهى بعيدة عن الجو العربى الذي تتنفس فيه القومية العربية وليس هناك من ضير فى دراسة التكوين التاريخى لمفهوم القومية فى اوربا ومقارنتها بما نعيشه من مفاهيم للقومية العربية اذا اريد التعرف على تجارب العمل والفكر الاوربيين والاستفادة منهما على صعيد العمل العربى مع ملاحظة عميقة للظروف المحيطة بالامة العربية وتطلعاتها فى سبيل المستقبل الافضل •

ان اوربا بما تميزت به من طبيعة متناقضة ومناخ متباين لم ترتفع الى مستوى الوعاء القومى وبذلك فقدت القارة الاوربية قوة التحدى الطبيعى التي تخلق شعورا مشتركا لدى سكان اوربا مما جعلهم يتفرقون فى ردود فعلهم تجاه قوة التحديات الطبيعية •

ولم تكن الاحداث التاريخية باكثر نفعا من الطبيعة نفسها التي حرمتهم رد الفعل الموحد فقد خضعت اوربا فى حياتها الى محاولتين جديدتين لتوحيدها فكريا وسياسيا الاولى ما قام به اليونانيون القدماء من تجارب للمعرفة انتجت نماذج عالية للسلوك السياسى والاجتماعي تميزت بها كتابات افلاطون فى الجمهورية وارسطو فى السياسة الا انها فشلت عندما اختبرت طواعيتها للعمل على يد الاسكندر المقدوني الذي اتجه بجيوشه صوب ايران والهند بدلا من ان يدخل اوربا ويجمع بين الفلسفة والحكم وبذلك يطبق ما كتبه افلاطون عن الفلاسفة الملوك •

وانهارت الجهود فى سبيل قومية اوروبية بعد ان فشل الاسكندر المقدوني وخابت مساعي اباطرة روما الذين تركزت جهودهم فى تأكيد ذواتهم عن طريق الارتفاع بحياتهم الخاصة والعامة فوق الناس انفسهم وبذلك نشأ فراغ نفذت منه التعاليم المسيحية لاعادة الطمأنينة والهدوء للفرد الاوربي التي فقدت نتيجة اطماع الاباطرة وحاشيتهم وتسخيرهم القوانين لخدمة مصالحهم

الخاصة .

واتصرت المسيحية فى روما ـ معقل الامبراطورية الرومانية ـ لا كما ارادها السيد المسيح جامعة للخير والسلام على هذه الارض والسعادة فى الدار الاخرى وانما ظهرت على مسرح التاريخ متمثلة فى كنيسة قوية خلطت تعاليم المسيح الخيرة بدماء شهداء المسيحية الاوائل واضافت اليها بعض جوانب من الفكر اليوناني الوثني والتشريعات الرومانية وبذا ولدت قوة دينية يجب ان نطلق عليها اسم (المسيحية الاوربية) استطاعت ان تسيطر عن طريق باباواتها ورجال كهنوتها على الاوربيين فى دنياهم وآخرتهم . وهكذا برزت محاولة ثانية لاشاعة الروح القومية فى طول البلدان الاوربية وعرضها الا ان رغبات الامراء الالمان فى شمال المانيا ما لبثت ان حفزت رجلا خيرا مثل (لوثر) لكي يعلن نقمته على كنيسة روما وباباواتها مقتفيا بذلك آثار (ارازمس) الذي حاول هو الاخر ان يقوم باصلاح الكنيسة دون ان يعرضها لاثر الهزة كما فعل لوثر .

وبتأثير هذا الاتجاه الجديد ظهرت حركة الاصلاح الديني التي اضاعت على اوربا فرصة كبرى فى خلق كيان قومي اوربي موحد ، وكانت خاتمة تلك اللطمات التي وجهت الى المحاولات القومية ظهور نابليون الاول على مسرح السياسة الاوربية ومحاولته فرض مباديء المسيحية الجديدة ممثلة فى شعارات الثورة الفرنسية على اوربا بكاملها .

وكما فشل الاسكندر المقدونى فى تطبيق الجوانب السياسية للفكر اليونانى الهادفة الى اقامة نماذج حكم تشترك فيها اوربا واجزاء العالم آنذاك فشل نابليون فى مسعاه الجديد لضم اوربا فى دولة موحدة فاتجه ـ كما فعل الاسكندر من قبل ـ الى الشرق ولكن القومية العربية التي قضت بالحمى على الاسكندر المقدوني انقلبت الى اشواك أدمت أقدام نابليون وجنده مما اضطره الى ترك مصر والاتجاه ثانية نحو فرنسا واوربا مخلفا فى مكانه (كليبر) الذي اغتيل على يد سليمان الحلبى انتقاما لتحدي نابليون للقومية العربية ومحاولته السيطرة على لجنتها لتحقيق احلام اسطورية .

وجاءت سنة ١٨٤٨م لكي تبرهن للتاريخ وللانسان انتهاء احلام نابليون والكنيسة وقبلهما الاسكندر المقدوني فقد نشأ كرد فعل لمحاولات نابليون بوناپرت شعور وطني تمثل فى قيام حكومات اوربية وضعت مصلحتها الوطنية فوق كل اعتبار متخذة من بعض الظواهر الطبيعية حجة لاقامة تلك الصروح الوطنية .

ولكن وجود التشابه بين التراكيب البشرية لمواطني الدول الاوربية فى شرق ووسط وجنوب اوربا جعل من خط الحدود خط بارود قابل للانفجار لانه فصل القومية الواحدة وضم اجزاءها الى دول متعددة مما اذكى الشعور المشترك بالوحدة بلغ مداه فى محاولة الطالب الصربى (برنزيب) التى انتهت بمقتل ولي عهد النمسا والمجر (الامبراطورية النمساوية المجرية القديمة) وزوجته فى سيراجيفو مما ادى الى نشوب الحرب العالمية الاولى .

وفشلت الحرب العالمية الاولى فى حل مشاكل تجزئة القوميات الا انها دفعت جهود الدول الاوربية الى توجيه الصعاب فى مشاكلها الداخلية نحو عمل مشترك بعيد عن اوطانها يعود بالكسب والفائدة على الدولة والفرد فى اوربا وبذا ولدت فكرة الاستعمار وانتقل الفشل القومى الاوربى الى محاولات منافسة بين الدول الاوربية للحصول على مناطق نفوذ فيما وراء البحار بلغت ذروتها قبيل الحرب العالمية الثانية التي اشعلت نيرانها سياسات التوسع الاستعماري وتكديس الثروات فى ايدى الغامرين من ابناء الطبقات الوسطى فى المجتمعات الاوربية التى تضع مصلحتها الخاصة فوق أي اعتبار وطني او قومي مثلها فى ذلك مثل اباطرة روما وحكامها ورجال الاصلاح الديني فى اوربا ومن التزمهم من الامراء الالمان الشماليين فى بادىء الامر والملك هنرى الثامن الذي ضحى بالكنيسة والشعور الاوربى المشترك فى سبيل تخلصه من زوجته كاترين وزواجه بآن بولين .

أما فى العصر الحاضر وعلى الاخص فى فترة مابعد الحرب العالمية الثانية فأن وجود قوى متضاربة تمتلك اسلحة دمار مخيفة قضت كل ما بقى من شعور

قومي ودفع اوربا الى ان تميز واقعها بدول صغيرة تستطيع ان تسند نفسها بنفسها فيما يتعلق بسياستها الداخلية محققة بعض المكاسب فى الداخل أما على الصعيد الدولي فأن معظم الدول الاوربية انتظمت فى تكتلات سياسية كبيرة تحمل كل منها صبغة او صبغات سياسية مختلفة وبذلك ضمنت لنفسها حياة دولية تحت حماية مظلات كبيرة مكونة من اسلحة تقليدية فتاكة او ذريـــة مجنونـــة .

وبذا فقدت اوربا كل شعور بالقومية واصبح من الصعوبة بمكـــان اطلاق لفظ (امة) على شعوب اوربا وفضلت لفظة (الدولة) او الوطـن لان تعبير الامة يحمل فى طياته ـ كما يحاول بعض الاوربيين والامريكيين تصويره ـ معنى التعصب والتكتل والعدوانية أما الدولة فانها تعكـــس مفهوما سياسيا يرتبط فيه الافراد برباط المواطنة عن طريق رسم حقـــول الحقوق والواجبات مما يختزل الفرد الى مسمار فى ماكنة الدولة الاداريـــة والسياسية تحركه دوافع اهمها ان يحصل لنفسه على ما يسهل له عيشـــه كفـــرد فى اســرة تتوفـر لها ســبل الحيـــاة لجيلهـا فى الحاضـر والمستقبل .

فالقومية العربية بدأت كرد فعل للطبيعة قابل للحركة وخاضع للهدف ولكن اين تقف اللغة كعامل من العوامل التكوينية للقومية العربية ؟.

والواقع ان الدراسات المتنظمة عن اللغات التى سادت فى الحضـــارة القديمة سواء أكان ذلك فى المدنيات حيث الاستقرار والتقـدم الحضارى او فى الصحارى والبوادي حيث تجول العرب للحفاظ على ميزة طابعهـم القومي الاصيل وليشعروا بتحدي الطبيعة لهم ، هذه الدراسات لم تعكس ما يفهم قيام لغة موحدة على صعيد الوطن العربى فى القديم فقـد نشأت الهيروغلوفية فى مصر والتي هي اشتقاق لغوى للغات محلية تأثرت باللغات التى قدمت من اواسط افريقيا وتلك التى ازدهرت على الشواطىء المصرية واليونانية فى البحر الابيض المتوسط .

أما المسمارية فى وادى الرافدين فهى ابتكار محلى تأثر بالحاجـات

الاجتماعية التى كانت سائدة فى تلك الحقبة التاريخية واهمها دافع الاستيعاب والمرونة واختزال التعقيد فى الرسم والتعبير حتى يتفق وما وصلت اليه حضارات بلاد ما بين النهرين .

وتمثل الفنيقية والكنعانية لغات جماعات من العرب تأثرت بما يحيط بها وعلى الاخص فى المنطقة التى عاشت فيها الحضارات الفنيقية والكنعانية حيث المواصلات البحرية التى تفتح طرق التأثير والتأثر بين الأطراف ذات العلاقة بالبحر ومسالكه التجارية ، ومن اقرب ما توصف به اللغات العربية فى سواحل بلاد الشام ـ فينيقيا ـ وارض كنعان ـ فلسطين ـ بانها شبيهة بالسواحيلى اليوم وهي اللهجات التي يتكلم بها سكنة السواحل في افريقيا الشرقية مع فارق فى التركيب السكانى ورسم الحرف والاداء طبعاً.

أما اللغات التى سادت شبه الجزيرة العربية فى تلك الفترة السحيقة فان الحضارات التى قامت فى اليمن لم تخلف لنا ما يكشف عن لغاتها او لهجاتها وان شمخت بآثارها فى الفن والهندسة فوق التاريخ والعدم وكذلك حضارات شمال الجزيرة العربية هى الاخرى اندرست آثارهاوضاع ما نستدل به على لغاتها . الا ان هناك رأى تقليدى يقسم العرب الى اهل الجنوب واهل الشمال فيطلق على الجنوبيين اسم القحطانيين وعلى سكنة الشمال تعبير العدنانيين وما وصلنا فى الواقع لغة اهل الشمال اوالعدنانيين وعلى وجه الدقة لغة قبيلة منهم هي قريش .

وهذا الرأي لا يخضع للنقاش الموضوعي والا فكيف جاز لنا ان نفصل بين العرب فى الجنوب وابناء جلدتهم فى الشمال وما هو خط الحدود بين عرب الشمال وعرب الجنوب ؟ وهل ان مجرد الاسم او القيد المكانى هما العاملان اللذان يقطعان الصلة بين ابناء الامة والقومية الواحدة لكى يتصدر العدنانيون الافضلية فى قائمة الاختيار وتحوز قريش القدح المعلى ؟.

والواقع ان العرب فى شبه جزيرتهم فى ذلك الوقت الموغل فى القدم كانوا امة واحدة عاشت فى الشمال وفى الجنوب وفى شرق الجزيرة وغربها حسب ما تفرضه ظروف الحركة والحياة والا فكيف تمت نجدة سيف بن

ذى يزن ونصرته على يد ما يسمى بالقبائل الشمالية وكيف تم الاتصال بين القبائل على الرغم من وجود الفواصل بينها ثم كيف أمكن التفاهم بين أفراد القبائل الشمالية ومن تعرض للعدوان الخارجي من عرب الجنوب ؟

فمسألة تقسيم الكيان العربى فى القديم الى شمال وجنوب محاولة قصد منها تفتيت الشعور القومى من جهة وايجاد تخطيط منطقى لظهور اللغة العربية من جهة اخرى لان عرب الجنوب كما يطلق عليهم كانوا أهل مدنية واستقرار وتقدم فى مجالات الهندسة وبناء السدود مما يؤكد وجود حصيلة مكتوبة من العلم والمعرفة لان بناء السدود وصيانتها وكذلك التحكم فى مشاكل الرى والزراعة تحتاج قبل كل شىء الى تقدم نظرى فى مجالات الهندسة والاقتصاد يستفاد منها فى عالم الواقع عندما تمارس عمليات البناء والصيانة ، ولكننا لم نستطع أن نعثر حتى وقتنا هذا على ما يدلنا على اللغة ونمطها فيما يسمى بحضارات جنوب الجزيرة العربية مع التأكيدبوجود لغة مكتوبة كانت المحور الاساسى فى التقدم النظرى والتكنولوجى اللذين بلغتهما الحضارات فى اليمن قديما .

والهدف الذى نصل اليه من خلال دراساتنا للغة كعامل قومى بالنسبة للعرب هو ان القومية العربية تختلف أطلاقا عن غيرها من القوميات كالالمانية أو الايطالية لانهما كلتاهما كانتا وليدتى اللغتين الالمانية والايطالية فى حين أن قومية العرب وجدت قبل اللغة العربية لان القومية بالنسبة للعرب حياة واللغة لا تعدو كونها واسطة لذا فهى متأخرة عن الحياة نفسها .

أضف الى هذا أن اعتبار اللغة المحور الذي تدور حوله القومية العربية يختزل هذه القوة الهائلة الى مجرد قوالب تتفق مخارج حروفها ويقطع عنها عناصر الفكر الثورى والعمل السياسى وما يتصل بهما من ديناميكية الحركة والتضحية والتفاعل ويجعل من القومية صورة أدبية يلعب فيها السجع اللطيف والبيت من الشعر الموزون والمقفى الدور الرئيس .

وهذا هو السبب المهم فى غلبة العاطفة والاحاسيس المضطربة فى بسط قضية القومية العربية حيث لعب الادباء من رجال الفصاحة والبيان الدور

الاساسي على مسرح العمل السياسى العربى وغاصوا فى (بطون الكتب) فى سبيل العثور على بيت من الشعر او قطعة من النثر وردت فيها لفظة القوم أو ما يدل على هذا المفهوم .

فليس غريبا ــ وهذا اللون من التفكير الادبى والعاطفى يطغى على العمل القومي ــ أن تحتل قصيدة اليازجي التي يحث فيها العرب على (أن يتنبهوا ويستفيقوا) مكانة عالية وتنتشر بسرعة بين الاوصال المجزأة للوطن العربى آنذاك .

وقد يكون مناسبا التأكيد بان القصيدة كانت ناجحة فقد حاولت ان تملأ الفراغ الذى شعر به الفرد العربى فى تلك الفترة من تأريخه وليس هناك من نقد يوجه اليها لو اننا عشنا فى تلك المرحلة التى انعدم فيها العمل السياسى المنظم ولكن ما يؤخذ على هذه القصيدة هو انها ابتكرت اسلوبا خياليا ممزوجا بالعاطفة لعرض قضية من اخطر قضايا العرب الا وهى العمل فى سبيل ترجمة الشعور القومي الى عمل سياسي ذي اجنحة اجتماعية وأقتصادية وفكرية يقود الامة العربية الى وحدة فى العمل والمصير .

ومن المؤسف أن يحاول رجال الصناعة الكلامية التصدى لعرض مشكلات القومية العربية مؤكدين على اللغة كوسيلة لحلها كأن تبسط قواعد اللغة العربية ويؤخذ ببعض النظرات فى النحو والصرف دون غيرها مع جعل القومية والوحدة من الابواب الثابتة فى الشعر بنوعيه العامودى واللا عامودى الى تدبيج مقالات تزخر بالالفاظ ذات الجرس والرنين والاستهلال العذب والعرض السلس والخاتمة الشافية وترصيع ذلك كله بابيات تقطر اسى أو تتفجر حمما الى آخر ما هنالك من أساليب تقليدية لجأ اليها المثقفون العرب فى منتصف القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين وما زال البعض منهم يحاول أن يسير على النهج نفسه ناسيا ان الشعور القومى حياة يعيشها الانسان قبل أن ينطق بها ومن الافضل ان يتم تجسيم الاحساس دون مسخه الى الفاظ ، فالحس اقرب الى الحركة منه الى النطق واللغة بالاضافة الى ان الاساليب مهما بلغت من سمو اللفظ والمعنى لا يمكن ان تترك اثرها على

مسيرة التاريخ وتحقق ما تريده الامة من انجازات وهذه حروب البلوپونيز التى رجحت كفة اسبارطة على اثينا فى الوقت الذى بلغت فيها الاخيرة اوجها على يد بيركليس ولم تفلح الخطب البيزنطية فى الدفاع عن بيزنطية كما فشلت الخطب والقصائد ودور البيان فى كسب معركة فلسطين وما يدور فى الوطن العربى فى الوقت الحاضر من معارك التقدم والبناء والتصنيع .

فالعمل القومي فى الوقت الحاضر لم يعد مسؤولية الادباء من رجال القلم والبيان وانما مسؤولية الشباب المثقف الذي يحس ويعيش قوميته التى تمثل بالنسبة اليه حياة وواقعا وتضحية ومصيرا وكم هو الفرق بعيدا بين عبدالعزيز البشرى والكواكبى من جهة وبين مصطفى كامل ومحمد فريد ابو حديد من جهة ثانية فقد كان كل من عبد العزيز البشرى والكواكبى كاتبين جاهدا عن طريق الكتابة واختصرا قضية التحرر والاستقلال الى مجرد مقالات مسبوكة اما مصطفى كامل ومحمد فريد فانهما فهما القضية نفسها بشكل آخر وفضلا الحركة والعمل على القول والكتابة فاذا بهما يجولان اوربا ويستحثان ذوى الآراء النيرة من الاوربيين لنصرة قضايا التحرر فى الشرق العربى فتتأثر بهما جوانب هامة من الرأي العالمي فى ذلك الوقت وينمو شعور على الصعيد الدولي لنصرة قضايا الحرية فى العالم .

فالقومية العربية دون تردد فوق اللغة وتعابيرها وشعرها ونثرها وما نحتاجه اليوم ليس شعراء او امراء بيان للقومية العربية وانما قوة مدركة على قدر كبيرمن الفهم والعمل فى مجالى السياسة والتجربة تمتلك الاخلاص والخبرة فى التنظيم والقيادة وترتفع فى الوقت ذاته فوق الحوافز المعلولة كالمال والجنس والوظيفة لكى تستطيع التخلص من قيودها المحلية والطائفية والعنصرية والانتهازية فتنطلق فى عمل سداه التضحية ولحمته النضج فى الفكر والتجربة وهدفه بلوغ المستقبل الافضل لملايين الامة العربية عن طريق ضمها فى وحدة شاملة .

هذا بالاضافة الى ان اللغة اذا ترجمت احاسيس لم تصل الى مستوى المسؤولية فى الفكر والحركة قد تنقلب الى فوضى فى فهم ما يريده الانسان

العربى عندما يخاطب نفسه او غيره فنكون بذلك قد اضفنا تعقيدات اخرى الى ما يشدنا الى البطء والتردد من مشكلات .

أما اذا قامت اللغة وما يتصل بها من اعمال ادبية فى خلق مناسبات خيالية تزيد من فائض الاندفاع العاطفي لدى الفرد العربي عن طريق تزويده بشحنات ذات دفع قوى كاستخدام الشعر او حث العواطف بالوصف النثرى المؤثر ثم يترك الفرد العربي دون أن توجه الطاقات المستحثة فان ذلك قد يثير لدى الغالبية من شباب الامة العربية ممزوجا بالرغبة فى تحمل سريع دون وعى أو تخطيط او قد ينقلب الاحساس لدى ناشئة وطننا العربي الى سلوك يتميز بالتردد واللا مبالاة وترك الاحداث تجرى حسب ما توحيه الصدفة او العبث .

وليس هناك من مبالغة بان نسبة الانتحار والاصابة بالامراض العقلية والقلبية قد ارتفعت منذ نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ م لان شباب العرب عاش الكارثة باعصابه وان لم يستطع ان يشارك بها عمليا فى الوقت الذى كانت فيه عمليات المتاجرة باسم فلسطين وتحريرها والقضاء على اليهودية والصهيونية تصب بشكل مقالات وقصائد وخطب وبيانات وتصريحات افقدت كل صلة تربط السياسة التقليدية فى الوطن العربى بالشعور القومى ومنعت قيام تجاوب بين الحاكمين والمحكومين انتهت بهزات عنيفة للتخلص من ساسة الكلام ومغامرات الظلام .

الفصل الرابع

الاسلام والديانات الاخرى والقومية العربية

لقد مر بنا فى الفصل السابق ان القومية العربية تختلف عن غيرها من القوميات فى الشرق أو الغرب كما اتضحت لنا صعوبة الموازنة بين القومية العربية وبين ما يفهمه الفكر والتاريخ والواقع فى اوربا عندما تستخدم لفظة (قومية) .

وقد توجهنا ببحثنا بعد ان اتضحت لنا صعوبات الموازنة وبانت القومية العربية كظاهرة امتزجت فيهاالعوامل النفسية والتاريخية والحضارية تختلف كل الاختلاف عن غيرها من القوميات فى ظروف تركيبها وفى حركتها وهدفها لكى نفهم القومية العربية عن طريق فهمنا للقومية العربية نفسها واول ما حاولنا ان نضعه تحت مركز ثقل البحث الموضوعى (عامل اللغة) ولم نغفل ما للعامل اللغوى من اثر فى ايجاد رابطة على الصعيد القومى الا ان ما توصلنا اليه فى بحثنا لهذا العامل هو أن اللغة تمثل وسيلة من الوسائل المتبعة لتقوية الروابط الاجتماعية والعمل على تجديدها عن طريق ايجاد مفاهيم فكرية يحددها الرسم واللفظ اللغوى وبذلك تنحصر مهمة اللغة فى كونها احدى الظواهر التى تعكس تراكيب القومية العربية ذاتها فيها الا ان اللغة لا ترتفع باية حال فوق القومية العربية كقدر وكمصير فقد يتمكن غير العرب من دراسة اللغة العربية او اخذها عن طريق المشاركة فى العيش ولكن هذا الغير يظل يفتقر الى ما يجعله عربيا لان القومية العربية تنفذ خلال كيان الانسان العربى فتمتلك عليه كل ذرة من وجوده وبذلك يصبح العربى والقومية العربية ظلين لعصا نفسية وحضارية

ومصيرية واحدة .

وقد تم كذلك فى الفصل السابق أيضاح السبب الذى ادى الى غلبة الكلمة الملفوظة على العمل والتضحية فى المجال القومى ومناداة البعض بان أيجاد لغة مبسطة قد يزيد من تأصل الروح القومية بين ابناء الامة العربية

والواقع أن مسألة اللغة لا يمكن أن تختزل الى مجرد نحو وصناعة كلامية لان النحو وما يتبعه من ضوابط ومسائل تخص الاعراب والتخريج فى الامور النحوية قد وجد كدليل على ضعف الملكه اللغوية التي تتجاوب تجاوبا كليا مع المفهوم القومى الاصيل ونعنى بذلك ملكة الحس اللغوى وما يتبعها من سليقة تستطيع ان تدرك مكامن الضعف فى التركيب والتعبير هذا مع تأكيدنا بان اللغة العربية بحاجة ماسة الى انطلاق لغوى تخرج فيه من قواقعها القديمة ومن رفوفها التى علاها التراب والصدأ لكى تصبح لغة العلم والتكنولوجيا وما يتناسب ومتطلبات عصر الفضاء .

الا ان ما يؤخذ على اللغة حينما تعالج قضية القومية العربية هو امتناصها للحافز النفسى ومحاولتها اشباع الهدف القومى فى نفوس الناشئة العرب عن طريق الخيال والمحاولة الوهمية لابعاد الزخم عن ساحة المعركة الفاصلة بين حياة التشتت والاقليمية وبين الحياة القومية وذلك عن طريق جر أبناء الامة العربية الى معارك جانبية تغلب عليها الصبغة الكلامية وبذلك تؤدى اللغة ــ بشكلها المثقل بالتراكيب الكلاسيكية وما يتبع ذلك من صناعة لفظية ــ دور العامل المثبط ان لم يكن المجهض لحركة القومية العربية وعلى الاخص فى هذه المرحلة المعتمدة على التجربة والخطأ والمتأثرة بما يدخل فى تعبئة الوعى القومى العربى من عوامل حسية او عاطفية تلعب اللغة دون شك دورا ذا قيمة فى اظهار اثارها بشكل قد يكون سلبيا فى بعض الاحيان .

ويتصل بهذا الدور الجديد الذي خططناه للغة العربية ومسؤولياتها أن يعاد النظر فى مناهج تدريسها على ضوء الهدف الكبير فى أقامة مجتمع عربي موحد فى المستقبل . وليس المقصود باعادة النظر فى برامج اللغة العربية وما يقرر من كتب المطالعة وتقوية

الحس اللغوى او توجيه المناهج صوب تبسيط العرض والامثلة او تغليب بعض المدارس النحوية والبلاغية دون غيرها وانما المقصود باعادة النظر التى مر ذكرها هو استغلال اللغة فى تعبئة الشعور القومى وتطعيم الكتب المستخدمة للارتفاع بالمستوى اللغوى فى مدارس الامة العربية بما يتفق واذكاء الروح القومي وعلى الاخص فى مراحل التعليم المبكرة مع التأكيد على أن اللغة وسيلة وان الفكر والمعنى والتركيب او ما يسمى بالاسلوب فى الوقت الحاضر هو القصد من وراء أستعمال المفردات اللغوية والجمل والتعابير . ويهدف هذا الاسلوب الى تنمية وتوعية وتعبئة أبناء الامة العربية وأعدادهم لمعركة المصير التى ستكون حدا فاصلا بين التخاذل الاقليمى والتأخر فى مجالات السياسة والصناعة والفن والفكر وبين صفحة جديدة تكتبها امة عربية موحدة شعارها العمل والتضحية والمستقبل الافضل .

أما الاسلام العظيم فانه يشكل العصب الخلقى والفلسفى والروحى للقومية العربية ومن المناسب ان ندرس بصفة تتناسب والهدف من هذا الكتاب أثر العامل الدينى فى الجاهلية وفى الاسلام ثم اثره فى عملية الدفع القومى خلال الفترة التى اطلت الامة العربية بها على الحضارة المعاصرة .

والجاهلية فترة سبقت قيام الاسلام ويختلف فى سبب تسميتها الا ان وجاهة الرأى القائل بعدم وجود ايمان دينى ينظم علاقة الخالق بالمخلوق وفق ما تؤكده القيم الاسلامية هو الذى أثر فى ايجاد لفظ الجاهلية فاطلقت على الفترة التى سبقت نجاح الدعوة الاسلامية .

والواقع ان الجاهلية فترة من الفترات القاسية فى تاريخ الامة العربية فان القومية العربية فى تلك الفترة تعرضت للكثير من الضغوط الخارجية منها ما هو فكرى ودينى كالمحاولات التى بذلتها اليهودية العالمية والمسيحية الارثوذكسية بشقيها النسطوري واليعقوبي وكذلك الضغط العسكري المتمثل فى الغزاة من الحبشة ومن فارس وبيزنطية .

أما رد الفعل العسكري العربي فلم يكن يتناسب وتلك الضغوط الموجهة للامة العربية فوحدة القبيلة لم تكن قادرة على ان تقف بوجه التحديات

الفكرية والسياسية والعسكرية الخارجية ومما زاد فى ضعف التركيب القومى العربى فى تلك الحقبة من تاريخ العرب هو عدم وجود دين قومى او دين عربى على الصعيد القومى فقد اتصفت الحياة الدينية فى الفترةقبل الاسلام بانها جمعت بين ما يسمى بالاوثان (ويطلق عليها بلغة الانثرويولوجيا الاجتماعية اسم الطواطم) والاصنام وهي مجسمات اكثر دقة من الاوثان وتقرب من شكل الانسان الى حد كبير .

ومن وجهة نظر اخرى فان بعض الاصنام كانت لها صبغة تجارية بحتة وضعتها فى مكة فابعدت عنها تلك الصفة اية قيمة يمكن ان يعكسها مركز الكعبة كواسطة للتجمع القومى .

ولكن اين كانت اليهودية والمسيحية فى ذلك الظرف ولماذالم تستطع هاتان الديانتان كسب المؤيدين على صعيد الجزيرة العربية التى مثلت فى تلك الحقبة التاريخية ميدان المعركة الرئيسى للقومية العربية ؟

والحقيقة أن الديانة اليهودية تعتبر ديانة غريبة كل الغرابة على القومية العربية فقد حاولت اليهودية تفسير القيم الدينية والسماوية الخيرة بشكل عنصري وبذلك بدأ التنافر واضحا بين القومية العربية التي تعتد بنفسها واصالتها وبين يهودية تحاول ان تجعل من العرب اتباعا لهم درجة اخفض من أصحاب الدين انفسهم . هذا بالاضافة الى ان اليهودى بطبعه تاجر ومراب اولا ثم تأتى صلته بقيمه الدينية فى الدرجة الثانية وطبيعى ان العربي لا يستسيغ دين قوم يريدون أن يستغلوه لمصلحتهم فيمتصون دماءه ويستحوذون على ثرواته باسم ادخاله فى حضيرة دينهم .

ومثل العربى بالنسبة لمحاولات اليهودية فى شبه جزيرة العرب قبل الاسلام يتفق وما يقوم به المبشرون بالنسبة للافارقة فى طول القارة الافريقية وعرضها فقد تردد فى القارة السوداء وفى اكثر من مناسبة ان المبشرين دخلوا افريقيا وفى ايديهم الانجيل ثم خرجوا منها وفى ايديهم الارض وثروتها فى الوقت الذى تركوا فيه الانجيل بايدى السكان الوطنيين .

وهذا ما يفسر لنا رد الفعل لدى الملايين من ابناء افريقيا وآسيا تجاه محاولات التبشير الدينية والاقتصادية التى يراد من ورائها الاستحواذ على مصادر الثروة الضخمة فى افريقيا وآسيا باسم الدين ونقل غير المتدينين والوثنيين ـ كما يسميهم رجال الجمعيات التبشيرية ـ من ظلام الخطيئة الى نور القيم الدينية التى يبشرون فيها فاذا أعيتهم هذه الحجة الواهية وظهر انهم انما يبشرون بقيم تفتقر الى الروح فى عقر بلادهم التى تعتبر (متمدنة) انتهجوا سبيلا آخر بطنوه بدعواهم القائلة بان بثهم لتعاليمهم الدينية يقصدون من ورائه نقل الملايين من ابناء سكان العالم من التأخر فى الحضارة والحياة الى ما يسمونه بالتقدم والمدنية وكأن اوربا واهلها وجدت لتلعب دور القيم أو الوصي على سكان هذا الكوكب الارضي !

ونعود الى شبه جزيرة العرب قبل الاسلام لنرى ان اليهودية قد تسللت الى هذه الديار عن طريق القوافل التجارية وان اليهود اتخذوا لهم مراكز تجارية وتمسكوا بحياة المدينة لما فيها من استقرار ونفع فقد ادخل اليهود الربا والغش والتلاعب فى المعاملات التجارية وارادوا أن يجعلوا منها الابعاد الحقيقية للعمل التجاري العربي فى ذلك الوقت متناسين الحقيقة الثابتة وهى ان العربى انسان قبل كل شيء وان القومية العربية لا تعيش بالخبز والتجارة فقط وبذلك تشرنقت اليهودية فى بعض المراكز التجارية ولم تستطع الخروج بقيمها الدينية الى حيث المجتمع القبلي العربى .

اما المسيحية فانها دخلت البلاد العربية عن طريق التجارة ايضا وأستطاعت ان تنزوى فى بعض الاديرة وذلك فى الطريق بين شبه الجزيرة العربية وبين شمالها المكون من العراق وسوريا وبلاد الشام . وقد هربت بعض الطوائف المسيحية عندما بلغ الخلاف اشده بين الكنيسة البيزنطية وبين الطوائف المسيحية الاخرى حول مسألة امتزاج الناسوت واللاهوت او الجسد والروح بالنسبة للسيد المسيح فقد قالت الكنيسة البيزنطية بعدم الامتزاج بينما نادت بعض الطوائف المسيحية فى العراق وبلاد الشام ومصر بفكرة

الامتزاج مما اوقعها تحت وطأة التعذيب والقسر من قبل الكنيسة البيزنطية الحاكمة فى القسطنطينية الامر الذى انتهى ببعض الطوائف المسيحية الى أن تبتعد عن مكمن السلطة والسيطرة فى الاستانة وتتبع حياة من الزهد والتقشف فابتكرت فكرة الاديرة وما يتبعها من انقطاع فى صوامع خاصة تمارس الطقوس والمراسيم المتعلقة بحياة الرهبنة المبنية على العيش وفق متطلبات الطبيعة متخذة من الافلاطونية الحديثة وما نادى به رجال المسحية الاوائل من اتباع السيد المسيح وحواريه فلسفة ومنهجا لتنقية الروح من ادران الجسد !.

بهذا المستوى من الفكر والاسلوب فى العمل دخلت المسيحية الوطن العربى وحاولت ان تبث بعض القيم المؤكدة على التعاطف والتسامح بشكل لا يتفق ومقاييس الخطأ والصواب فى الفكر القومى العربى وبذلك بدأ التنافر بين القيم الدينية المسيحية وبين الفكر الاجتماعي العربي فى تلك الحقبة التاريخية ، أضف الى أن حياة الرهبنة والانعزال باعدت بين المسيحيين وبين غيرهم من افراد المجتمع لعربى فلم يستطيعوا والحالة هذه من الخروج بتعاليمهم الى حيث ينتظرهم امتحان عسير على صعيد شبه الجزيرة العربية ممثلا فى قبائلها ومدنها فى ذلك الوقت .

ويحاول اكثر المستشرقين رسم صلة قوية بين الدين الاسلامى وبين التعاليم المسيحية التى بلغت الذروة فى انقسامها الفلسفى قبل ظهور الدعوة الاسلامية وبدأ الخلاف واضحا بين المدارس الفكرية المسيحية وخصوصا تلك التي ترعرعت فى القسطنطينية وما شاع بينها من آراء جاء بها رجال الدين المسيحى فى الشرق العربى ومحور ذلك الخلاف هو شخص السيد المسيح وجانب الروح والجسد فى تكوينه وقد تأثر المسيحيون القريبون من بلاد اليونان بآراء افلوطين وفيلون وفصلوا بين المسيح كجسد وبينه كروح بينما فهم العقل المسيحى فى الشرق العربى المسيح كجسد وروح يمتزجان فى كيانه .

هذا هو فحوى الخلاف بين المدارس المسيحية الفكرية التى خلطت بين القيم الدينية والفلسفية فما هى صلة هذا التعقيد الفلسفى الدينى بالقيم الاسلامية ؟.

ويصعب أن يوضح المستشرقون وجهة نظرهم فيمايخص الصلة التى ذكرناها ولكنهم يحاولون عن طريق التحليل التاريخى والفلسفى واللاهوتى ربط الديانات بالافكار اليونانية وخصوصا تلك التى نادى بها افلاطون وارسطو ثم بشروح الافلاطونية الحديثة والطريقة التي فهم بها الفكر الافلاطونى من قبل مدرسة الاسكندرية الفلسفية بالاضافة الى ما ذكره فيلون عن فكرة الفيض وما يتصل بها من الوجود وما بعد الوجود وينتهون من وراء هذا التقصى التاريخى والدينى والفلسفى بان الديانات انما اخذت جانبها الفلسفى على الاقل من الاصول اليونانية الفكرية القديمة .

ولعل من المناسب ان نذكر على سبيل المثال لا الحصر ما جاء به المستشرق الاوربى ديلاسى او ليرى فى كتابه (الفكر العربى ومكانه فى التاريخ) ترجمه الدكتور تمام حسان الفصل الاول (ص ١٩ ــ ص ٧٤) بان الاسلام قد تأثر كثيرا بالفكر المسيحي الفلسفي وعلى الاخص المدارس الدينية المسيحية التى غلب عليها طابع الفكر الشرقى وأهمها النساطرة واليعاقبة وما كانت تتميز به تلك الامتدادات الدينية الفلسفية المسيحية من حياة تقشف لجأت اليها نتيجة الضغط الذى مارسته الكنيسة البيزنطية التى أقامت تفكيرها فى الفلسفة الدينية على مفهوم الفصل بين الناسوت واللاهوت بالنسبة للسيد المسيح .

وبذلك يحاول المستشرق اوليري ان يربط بين الاصول اليونانية والهيلينية من جهة وبين مفاهيم فلسفة مدارسها الفكرية ظهرت بشكل وآخر فى المسيحية ومن بعدها فى الاسلام ، ويرمي مؤلف كتاب الفكر العربي ومكانته فى التاريخ الى تحقيق الهدف التقليدى لكثير من المستشرقين وهو نفى الاصالة عن الفكر الدينى والحضارى لدى العرب وبذلك يقلل من أثر العرب فى الفكر الاوربى فى العصور الوسطى او يعتبر ما قدمه

العرب لاوربا خلال تلك الحقبة المظلمة من تاريخها لا يعدو مجرد اطفاء لدين قديم كان بذمة العرب عندما اخذوا هم الفلسفة والحضارة عن الفكر اليونانى الاوربى !.

ولكن وجهة النظر الموضوعية فيما يتعلق بالناحية الدينية تعكس نتائج لا تتفق وما ينادى به المستشرقون منذ بدأ الاستشراق حتى الوقت الحاضر وما ذكره (ديلاسى اوليرى) كنموذج للهدف الذى يسعون من اجله .

والحقيقة ان الاسلام وقبله المسيحية ضما تعاليم سماوية وجدت لكي تبلور العلاقات الاجتماعية حول مفاهيم اخلاقية تخطط لصلات سليمة تعود بالنفع على الفرد والمجموع فى الوقت الذى تضمن فيه صلة قائمة على الاحترام المتبادل بين الحاكم والمحكوم فى ظل عقائد ومعاملات تهدف الى مصلحة المجموع الا ان الاسلام يختلف عن المسيحية وان اتفق معها فى المبادىء الاساسية التى تدعو للخير والمحبة وتعمل على اسعاد بنى الانسان فى وقوع المسيحية تحت تأثير الفلسفة واختلاط المفاهيم الدينية بالتفكير الوثنى اليونانى القديم بينما بقى الاسلام ينبع عن عقيدة سماوية فى الوقت الذى اخضع الاسلام فيه الفلسفة لسلطان الدين وقضى على ما يمكن ان يجر العقائد الدينية الى معارك فلسفية جانبية .

وتمشيا مع النظرة الموضوعية وعلى الاخص فى بحث علاقة الاسلام بالمسيحية يجب ان نذكر بالاضافة الى الاختلاف البين فى المنهج الفكرى لكل من الديانتين الذي يتركز بشكل اساسي على ان الاسلام ابتعد منذ اللحظة الاولى لبزوغ شمسه عما يجره الى تعقيدات فلسفية تصبح معها القيم الدينية مجرد جوانب للفكر الفلسفى ، ان الاسلام عمل على وضع منهج سليم للحياة الدنيا والآخرة بعيد عن التقشف وما يتصل به من عزلة ومن رهبانية وما ظهر فى اكثر من وقت بالنسبة للمسيحية من نزعات اتخذت فيها الاتجاهات الفلسفية ذات المحتوى الدينى طابع العنف والقتل والتدمير كما حدث بالنسبة لمحاكم التفتيش فى اوربا وماقام به البابوات الميكافيليون من أصدار اوامر العزل والتشريد والحكم بالهرطقة او الموت كما حدث

بالنسبة للراهب (سافونا رولا) الذى احرق فى مدينة فلورنس بتأثير من البابا اسكندر السادس فى اواخر القرن الخامس عشر ، فلم يحدث خلال تاريخ الاسلام الطويل عقيدة ونظاما أن قامت مجازر دينية باسم الدين كما حدث فى اوربا وكما يحدث اليوم على يد الجمعيات التبشيرية التى تسندها شركات النفط العالمية وقوى الاستعمار لاستغلال القوى البشرية وثرواتها فى افريقيا وآسيا واميركا اللاتينية .

والنتيجة التى نخرج منها بعد مناقشتنا لآراء العديد من المستشرقين ان الاسلام دين سماوي يتفق اتفاقا كليا مع الاديان السماوية المقدسة وخاصة المسيحية ولكن هذا الاتفاق لا يعنى اعتماد الاسلام (كما يرى المستشرقون) على المسيحية لان الفترة التى عاصرت فيها المسيحية ظهور الاسلام كانت فترة غلبت عليها الفلسفة الدينية وكانت تدور حول شخص السيد المسيح بالذات فى الوقت الذى بدأ الاسلام فيه بعيدا كل البعد عن التعقيدات الفلسفية فقد جاء بقيم سمحاء هدفها الاول بناء المجتمع العربى الجديد والانطلاق بهذا النموذج الكامل الى افق انسانى شامل وبعبارة اوجز فان المغالاة التي يذكرها المستشرقون قد تخرج بالتفكير الموضوعي الى تعميمات عاطفية كأن يقال بان الثورة الوهابية التى قامت فى شبه جزيرة العرب هي انعكاس لحياة التقشف للرهبان الدومنيك او الفرنسكان التى سادت فى اوربا فى القرون الوسطى !.

وهذا اللون من التفكير وان خضع الى بعض وجوه المقارنة لا يمكن ان يصمد امام التحليل الموضوعى الدقيق لان الحركة الوهابية اسلوب متطرف فى العمل ساده التقشف الى حد المغالاة الا انه يختلف عما انتهجه الرهبان الدومنيك أو الفرنسيسكان في محاولتهم لاصلاح المجتمع الاوربى عن طريق بذل انفسهم والتضحية فى سبيل التعاليم المسيحية والموت كشهداء .

لذا فان عنصر المقارنة ينعدم اذا درسنا هاتين الظاهرتين المتصلتين بالدين وبالمجتمع فى كل من اوربا والجزيرة العربية مما يدل دون شك على

ان المستشرقين او القسم الاكبر منهم قد يكونوا منطقيين لهم القدرة على البحث والتمكن من فهم العديد من اللغات والقابلية على ربط الاحداث الا ان منطقيتهم هذه لا تعنى القطع بصحة احكامهم .

والواقع ان هناك صفحة تعكس الصلة بين الاسلام والمسيحية تنطلق من مفهوم القومية العربية هى اجدر بالاهتمام مما يروجه المستشرقون من الدعاوى المبنية على التعقيدات الفلسفية لايقاع الفرقة بين المسلمين والمسيحيين فى الوطن العربى ، وتتمثل هذه الصفحة المشرقة فى العلاقات على المستويات الدينية والقومية فى الطريق الذى اتجهته المسيحية عندما كانت ذات اثر دينى فى الجزيرة العربية فقد ظهرت المسيحية بشكلين او اتجاهين جمعا بين القومية والقيم الدينية .

الاتجاه الاول وضع القومية العربية قبل القيم الدينية المسيحية وبذلك سار هذا الاتجاه مع منطق الواقع اكثر من غيره لان المسيحيين هم من القبائل العربية قبل ان يسيروا على نهج القيم الدينية المسيحية ويتمثل هذا السبيل القومي الديني فى طائفة الاحناف التي مهدت بما نشرته من قيم الخير والمحبة والالفة بين الناس وما ذكرته من ان هناك رسالة سماوية ستأتى لتكمل الشرائع الالهية ، هذه التعاليم والتنبوءات هيأت الاذهان للدعوة الاسلامية .

أما الاتجاه الثانى فقد وضع القيم الدينية فوق مفاهيم القومية العربية وذلك لان اصحاب هذا النهج الدينى المسيحى اكثرهم لا يمت بصلة قوية الى القومية العربية مما ادى الى ابتعاد هذه الفئات عن المجتمع وحصر اتباعها فى اديرة انتشرت فى اماكن متعددة وعلى الاخص فى المنطقة بين شمال الجزيرية العربية وبين الجزيرة العربية نفسها .

ومهما كان اتجاه المدارس الفلسفية والدينية المسيحية وبصرف النظر عن تأكيدها على القيم الدينية قبل المفاهيم القومية او اهتمامها بعكس ذلك فان المسيحية كدين شرقى عاشت على مر الزمن متفاهمة مع الاسلام والمسلمين وقد عامل المسلمون المسيحية ودينها ومعابدها وفق التعاليم

الاسلامية مقدمين لها كل احترام وتقدير وهذا ما يفسر لنا تعاون المسيحية كدين مع حركات التحرير الاسلامية حينما انطلقت جيوش المسلمين لتخلص الاراضى العربية السليبة من ايدى البيزنطيين والفرس فقد دفع الشعور القومى للغساسنة والمناذرة والتغلبيين للانضواء تحت راية الجيش الاسلامى وبذلك كانوا اكبر عون فى كسب معارك العراق والشام .

وعلى الصعيد الدينى فقد تجاوب المسيحيون مع الجيوش العربية المحررة وطلب رجال الدين المسيحى فى انطاكية وكذلك الاقباط فى مصر حمايتهم من الرومان وبيزنطية مما يؤكد لنا الصلة القوية بين الاسلام والمسلمين والمسيحية والمسيحيين على الصعيدين الدينى والسياسى وما يتصل بذلك من تعاون أقتصادى وصلات اجتماعية تمثلت بالاحترام المتبادل بين أتباع هاتين الديانتين السماويتين .

وقد ظهر حب المسيحية الفكرية فى حركة الترجمة العظيمة التى نمت فى العصر العباسى الثانى واثمرت عن ترجمة عيون الكتب من شوامخ الفكر اليونانى وعلى الاخص ما كتبه افلاطون وارسطو والمدرسة الافلاطونية الحديثة والواقع ان اوربا فى اواخر لقرون الوسطى عندما قامت باحياء علوم الاغريق تعرفت على الفكر اليونانى عن طريق ما كتبه العرب عن تلك الابعاد العظيمة فى حقل المعرفة الانسانية فافلاطون وارسطو وغيرهما من رجال الفكر اليونانى انتقلوا الى اوربا بصفتهم العربية او كما فهمهم وحلل مكونات افكارهم العرب انفسهم .

وبذلك اسدى المترجمون من المسيحيون فى ظل التشكيلات السياسية الاسلامية وبدافع من تقدير المسلمين لهم حكاما وعامة خدمات جلى للفكر العربى وللمعرفة الانسانية التى تستند عليها الحضارة الحاضرة بوجه عام .

وما دمنا بصدد الصلة بين المسلمين والمسيحيين فبتأثير من قوميتهما العربية حاربا سوية ليس خلال حركات التحرير الاسلامية فى العراق والشام ومصر فحسب وانما بقى التلاحم والتعاون سائدا بينهما حتى برز امتحان

خطير لتلك الصلة ايام الحروب الصليبية فقد تكاتف العرب من مسلمين ومسيحيين لصد الغزوات الصليبية التجارية التى حاولت اوربا باعذارواهية منها حماية طريق الحجاج المسيحيين والحفاظ على الأماكن المقدسة ان تلتهم خيرات الوطن العربى وتستذل اهله الا ان يقظة الروح القومى والتماسك الذى وحد بين المسلمين والمسيحيين أستطاع أن يرمى بالمعتدين فى البحر ثانية ويخلص الوطن العربى من تلك الغزوات التى جاءت فى وقت بدأ الضعف يهدد كيان التراكيب السياسية العربية .

وقد تعرض العرب المسيحيون كما تعرض العرب المسلمون لضغط الحكام العثمانيين مما اكد استمرار التماسك امام الويلات والمحن التى مرت بها الامة العربية الا أن تدخل الاوربيين اوجد بعض الفرقة بين التراكيب البشرية المسلمة والمسيحية للقومية العربية ونظرا لمخططات السياسة الاوربية سواء تلك التى اظهرت نفسها على صعيد العمل السياسى كما حدث بالسبة للفرنسيين حينما ادعوا حماية المسيحية فى لبنان أو الروس حينما زعموا حماية الارثوذكس أو عن طريق الجمعيات التبشيرية التى اخفت نواياها الخاصة بالاستعمار الثقافى والتفرقة على صعيد القيم الدينية عن طريق أتباع أساليب التعليم ونشر المعرفة وما يتصل بذلك من براءة رجال الجمعيات والارساليات الدينية التى دخلت الوطن العربى تحت تلك الاقنعة المظللة ، فان المسيحية الاوربية تختلف كل الاختلاف عن الدين المسيحى كقيم روحية وجدت فى مجتمع شرقى لان المسيحية فى اوربا بصرف النظر عن أتباعها من الكاثوليكية أو البروتستانتية جعلت من الدين واسطة لتحقيق أهداف دنيوية سداها ولحمتها السيطرة على قارات العالم الغنية بمواردها الطبيعية وثرواتها الوفيرة وتسخير الملايين من ابناء هذه القارات فى سبيل تحقيق غايات رسمت مخططاتها فى العواصم الاوربية فليس هناك من كبير فرق بين مبعوثى شركة الهند الشرقية أو الشركات التى تأسست فى أفريقيا وجنوب شرق آسيا وبين رجال الجمعيات التبشيرية التى غزت العالم تحت ستار من التعاليم الخيرة غايتها ـ كما تدعى تلك المنظمات ـ تبصير

الملايين من ابناء العالم وذلك عن طريق نقلهم من التأخر الى الحضارة ومن دنيا الخطايا الى عالم الطهر والصواب !.

وقد أستغلت المخططات السياسية الاوربية أخطاء الساسة والاداريين من العثمانيين فأخذت تستميل بعض الفئات المسيحية بقصد بث الفرقة بين أبناء الوطن العربى عن طريق تجسيم خلافات دينية كتب عنها المستشرقون بوحى من دوائر السياسة أو التجسس الاوربية ، ومن اوضح الادلة على ذلك أن المستشرق الفرنسى ماسنيون هو بنفس الوقت رئيس الدائرة الشرقية والعربية بوزارة الخارجية الفرنسية ويصدق المثال نفسه على بروكلمن وبرتن برنارد لويس وكلهم يعملون فى جهات مزدوجة يخضعون فيها للتوجيهات السياسية التى تتفق والاهداف المراد تحقيقها من وراء بحوثهم وعملهم فى دراسة التراث الحضارى للامة العربية .

وتمشيا مع هذه السياسة الاوربية ونظرا لحدوث الكثير من المآسى فى ظل الحكم العثمانى الذى دام ظله الممقوت على الامة العربية قرابة اربعة قرون فقد ظهرت بعض نواحى الانقسام بين ابناء الامة العربية وذلك لتفشى الجهل وصعوبة فهم الفرق بين الاسلام كدين سماوى له قيمه وعقائده ومعاملاته التى اوجدت وسطا مناسبا ساده الاحترام وترعرعت فيه انجح علاقات المسلمين بالمسيحيين على صعيدى الفكر والحياة وبين السياسة العثمانية التى اتخذت من القيم الدينية سندا لاضفاء نوع من القدسية والاحترام على الحكم العثمانى الذى بدأ بالتفكك والانهيار عندما أصبحت الدولة العثمانية بحق رجلا مريضا .

ولعل التجاوب الكامل بين المسلمين والمسيحيين فى المؤتمر العربى الاول الذي عقد فى باريس ١٩١٣م يعيد للاذهان التقارب الامثل بين اتباع هاتين الديانتين من العرب .

أما الديانة الثانية التى حاولت أن تحتل رأس جسر لها فى شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الدعوة الاسلامية ونعنى بذلك قيم الدين اليهودى فان اتباع هذا الدين يختلفون فى سلوكهم نحو العرب كليا عما

اتصف به المسيحيون .

وعلينا قبل ان نوضح واقع وتاريخ هذه الديانة فى فترة ما قبل الاسلام وحتى الوقت الحاضر ، التفريق بين مفهومين مختلفين كل الاختلاف الاول هو الدين اليهودي (جويش ريچلن) والثاني هو اليهودية (جوديزم) فالديانة اليهدية ديانة سماوية مقدسة انقذ الله فيها بني اسرائيل من الضلالة التى هم فيها وارسل لهم نبيا يعلمهم كيف تكون صلاتهم بربهم وما يجب أن تكون عليه صلاتهم ببعضم وبمجتمعهم وهكذا فالقيم التى احتواها الدين اليهودى تنبع من مصادر خيرة وتدعو الى احقاق الحق والضرب على ايدى المفسدين فى الارض .

الا اليهودية مسخت هذه التعاليم السماوية المقدسة ومزجتها ببعض المفاهيم الوثنية فقد تأثر اليهود بالديانات البابلية القديمة وقبل أن يتم سبى بابل لم يكن المعبد اليهودى قد اخذ شكله القائم على التعصب والغدر والخيانة الا ان اليهود مسخوا الكثير من التعاليم البابلية وحولوها الى قوى شريرة فقد أعادوا بناء المعابد اليهودية وجعلوا من تلك المعابد مراكز للابتزاز المادى باسم الدين وحولوا الكثير من القيم الخيرة الى افكار تحث على التعصب وتؤكد على أن المعبد بحاجة الى أراقة الكثير من دماء القرابين لكى تنتشى الآلهة العطشى التى لم تكن فى حقيقتها الا ردود الفعل لدى بعض المتعصبين من اليهود فى محاولتهم لتشويه القيم الدينية اليهودية الاصيلة وأعادة كتابتها بشكل يجعل من بنى أسرائيل قوما مفضلين على غيرهم تسرى فى عروقهم دماء التعصب فى الوقت الذى ينظرون فيه الى غيرهم من اهل الارض نظرة وضيعة فقد غدا الهيكل اليهودى مسرحا للجرائم ومكانا للصيرفة وملتقى للنخاسين مما يوضح لنا ثورة السيد المسيح ضد تلك الخطايا والموبقات .

وبجعل المعبد الواسطة الرئيسية فى الحياة اليهودية أنقلبت التعاليم الدينية الخيرة لدى اليهود الى مخططات سياسية واقتصادية أستخدمت القيم الدينية الخيرة كغطاء لاضفاء نوع من القدسية والشرعية على ما يرتكب

من جرائم القتل والاستباحة والابتزاز والاغتصاب وبذلك انقلب الدين اليهودى الى ما نسميه باليهودية وهى نزعةميكافيلية قبل انيوجد ميكافيلى ويكتب كتابه المشهور بـ (الامير) فقد ضربت اليهودية بكل القيم الدينية عرض الحائط واستغلت المصاعب التي من الممكن ان يتعرض لها كل شعب خلال مروره فى ادوار التاريخ المختلفة فصاغت من بعض تلك الصعوبات سياسة بنيت على الحقد غرستها فى نفوس اليهود صورت لهم العالم بصورة تطغى عليها الحقد والكراهية ففرضت عليهم ان يتكتلوا وان يكونوا عصبة لا بدافع الحفاظ على جماعتهم وروحهم الجماعية ولكن لكى يعملوا على تدمير العالم المحيط بهم توهما منهم بان قوى العالم تسعى لتدميرهم وهذا ضرب من (الشيزوفرينا الاجتماعية) التى تتصور عدوا وهميا لا يريد باساليبه فردا بعينه وانما يسعى الى تحطيم المجموع المعادى له .

وفى سبيل ترسيخ المخططات الاجرامية القاضية بتعصب اليهود وتكوينهم لمجموعة شريرة تحارب النار بالنار وتسعى للاعتداء على الابرياء خوفا من أن يعتدى اولئك الابرياء عليها أعيدت كتابة التعاليم الدينية المقدسة وتم مسخها بشكل جعل من التوراة كتابا سريا يحوى على الخطط والاساليب الاجرامية التى يراد بها تحطيم العالم ويصور بني أسرائيل وكأنهم شعب مختار وبان بداية التاريخ اليهودى لا تتصل بالرسالة الموسوية كبداية دينية متفق عليها وانما تبدأ عندما رجع اليهود من السبي البابلى حين ظهر المعبد اليهودى الذى عمل على ضم اشتات اليهود او قبائلهم وانتهت تلك التنظيمات الى داود ونجمته التى تمثل نهاياتها اليهود المنضوين تحت لوائه هذا بالاضافة الى المواعيد التى يمنى بها الفرد اليهودي وذلك عن طريق تحقيق احلام آباء اليهودية كما يسمونهم فى تسلط بنى أسرائيل على العالم .

وقد ولدت نتيجة للتفاعل بين تلك المفاهيم المليئة بالحقد والكراهية للعالم أجمع خطوط مجرمة للفكر اليهودى أهمها أن هناك مستويين لما يسمى بالاخلاق التى يظهر أثرها فى المعاملات التجارية بشكل خاص

والحياتية بشكل عام والمستوى الاول يتعلق باليهود انفسهم كمجموعة حيث يغلب طابع التقيد بالامور الخاصة بموازين الخير والشر والصواب والخطأ وما يتبعها من الحق والواجب .

أما المستوى الثانى فهو يتعلق بصلة اليهود بالعالم الخارجى وعندها تنقلب الموازين ويختلط الخير بالشر والخطأ بالصواب فيباح الغش والتزوير والابتزاز والقتل والاتهاك لانها تتم خارج نطاق الجماعة اليهودية حيث تعيش اقوام العالم الاخرى التى ينظر اليها اليهود نظرة وضيعة تصل بهم الى حد حرمانهم من الحياة والتخلص منهم حيث يخلو الجو للشعب المختار من بنى اسرائيل . وكحصيلة للحقد اليهودى الدفين وللمآسي التى ابتكرها العقل اليهودى المجرم وذلك عن طريق اعادة ما يسمى بمصاعب اليهودية فى العالم وتشويه الكتب الدينية المقدسة وانزالها الى مستوى العمل الاجرامى على الصعيدين المحلى والعالمى ، فقد اتجهت القوى اليهودية الشريرة عبر التاريخ الطويل تعيث فى الارض فسادا وتحاول ان تدمر كلما تقع عليها يدها وبذلك رسم اليهود لهم صورة الشعب المشرد لانهم هم الذين جنوا على انفسهم عن طريق المحاولات المجرمة التى تصدوا بها للعالم اجمع فقد عبدوا العجل بعد ان اكرمهم الله بالدين وانار لهم سبيل الحياة مما يتفق وما لاقاه اليهود فى صحراء سينا من تشرد ومن هلاك وجوع لو لم تتداركهم العناية الالهية فان الواقع يؤكد دون شك ان ما نزل على اليهود من غضب كان جزاء عادلا لما جبل عليه اليهود انفسهم من غل ومن كراهية لم يبقيا على صعيد اليهودية فقط وانما حولا الى قوى مدمرة تحاول الفتك ببنى البشر دون تمييز لكى يسود اليهود العالم .

وفى سبيل تحقيق الاهداف اليهودية فى السيطرة والتسلط على غيرهم من امم الارض وشعوبها وبدافع من المستويات المختلفة التى يتعاملون بها ويعاملون غيرهم بخلافها فقد احتكر اليهود عنصرين هامين من عناصر الاجتماع الانسانى الاول هو السيطرة على المادة باشكالها المختلفة من معادن ونقود والثانى دفع العقل اليهودى المجرم وراء كل الحدود فى

محاولة للسيطرة على الناحية العقلية عن طريق مغامرات فكرية مجرمة لا تهذبها القيم الدينية او الاخلاقية ولا يحدها عرف او تقليد او قانون .

وانسجاما مع هاتين الواسطتين فقد ابتكر اليهود الغش فى المعاملات التجارية والتزوير فى العقود والاغتصاب عن طريق أباحة الربا وابتزاز الاموال وبذلك أستطاع اليهود تجميع ثروات ضخمة كان لها أثرها على مر التاريخ .

وهناك من يحاول ان يفترض سامية اليهود وبانهم ينتمون الى مايسمى بالعرق السامى وعلى الرغم من عدم صحة النظرية العرقية ودحضها من قبل رجال العلوم الاجتماعية فان ربط اليهود باى عرق (ان وجدت هذه التقسيمات) لا يمكن ان يوثق بصحته لانهم لم يكونوا خلال تاريخهم الطويل شعبا أو أمة وانما كانوا مجاميع قليلة تتنقل من مكان الى آخر بانية حياتها على الغش والابتزاز فاذا ما كشف امرها سارعت بالهرب الى اماكن اخرى مثلهم مثل الغجر فى الوقت الحاضر فهل يمكن ان يرد الغجر وهم خليط عجيب من اقوام ربطت بينها اللصوصية والسرقة الى عرق من العروق المعروفة فقد يسلب اليهود بعض الافراد خلال تجوالهم ويكون هؤلاء فى سن مبكرة وبذلك يعمل اليهود على تهويدهم الامر الذى جعل من اليهود عصابة حوت اولئك الشذاذ او بعض التائهين ممن يشك فى أصولهم .

وقد يقع اليهود خلال اتباعهم الاسلوب الغجرى فى تكوين بنيتهم البشرية على بعض العناصر السامية لذا فمن الصعوبة بمكان أن تثبت صحة النظرية العرقية اولا وان تربط بين أحد هذه العروق والعصابة اليهودية من ناحية ثانية والرأى الاقرب للصواب هو ان العرب ينتمون الى الساميين بصلة قوية لانهم عاشوا وهاجروا من المعمل السامي البشرى (شبه جزيرة العرب) ولكن ليس كل الساميين ينتمون الى العرب بصلة لان الكثير من هؤلاء الساميين وعلى الاخص من امتزج باليهودية منهم لا تعرف اصولهم ويشك كثيرا فى ارجاع انسابهم الى القبائل السامية التى عاشت فى

فترات موغلة فى القدم فى شبه جزيرة العرب .

ومن أصدق الادلة على انتفاء السامية عن اليهود ووضع اليهودية للمعاملات التجارية والابتزاز والربا والتزوير فوق القيم الدينية اليهودية محاربة اليهود للدعوة الاسلامية فى الوقت الذى احترمت فيه هذه الدعوة القيم الدينة اليهودية .

فقد كان اليهود قبل ظهور الاسلام يدعون الى المسيح او المخلص وعندما ظهرت الدعوة الاسلامية قضت على تلك الافكار اليهودية التي لم يقصد منها التأكيد على القيم الدينية ومحاولة رفع المستوى الخلقى للمجتمع وانما قصد اليهود من وراء بثهم لفكرة المنقذ فى المستقبل استخدام الطريقة الميكافيلية بشيء من الحذر والدهاء لكي يخلو لهم الجو فيبتزون ويستغلون ويثرون على حساب المجموع بصرف النظر عن المكان الذى هم فيه ثم لا تنالهم يد العقاب ولا يردعهم دين او خلق لان ما يقومون به امور مشروعة خطط لها من قبل فهي كلها ستمحى عندما يأتي المنقذ الذي سيملأ الارض عدلا ونورا .

وهكذا فقد حاربت اليهودية مستغلة ما لديها من مال ونفوذ وعلى الاخص فى المدن التجارية ذات الطبقات الارستقراطية كمكة ، الدعوة الاسلامية ولما فشلت على صعيد المال وبانت صلابة المسلمين الاوائل وتضحيتهم فى سبيل نصرة دعوتهم حاولت اليهودية ان تحرك بعض تجمعاتها القبلية وعلى الاخص فى القاعدة الاسلامية الجديدة (المدنية) وعملت بالوقت نفسه على بث سموم الفرقة بين من دخل الاسلام من القبائل العربية وسارت الى ابعد من ذلك بان تحالفت مع الوثنية فى سبيل ضرب الاسلام والمسلمين علما بان اليهودية (كما هو مفروض) تلتزم بقيمها الدينية السماوية التى احترمها الاسلام لذا فالواجب والعرف يقضيان بان تناصر هذه القيم الدينية ما جاء به الاسلام نظرا لاتفاقه بالهدف وتأكيده على نفس المعطيات الا ان اليهودية بوحى من دوافعها التجارية ضربت بقيمها الدينية عرض الحائط وتحالفت مع الوثنية ثم استدارت لتطعن الدعوة

الاسلامية مما يثبت دون شك ان اليهودية تجارية فى دينها وان اليهودى تاجر قبل ان يكون يهوديا .

ولما نجحت الدعوة الاسلامية وانحسر ظل اليهودية المجرمةعن الجزيرة ومجتمعها العربى اخذ اليهود يفتشون عن سموم جديدة ينفثونها علىصعيد الفكر العربى وبذلك ظهرت شخصيات يهودية مجرمة حاولت ان تشق الاسلام اولا ثم تضرب المسلمين بعضهم ببعض واوضح دليل على ذلك عبدالله بن سبأ الذي مسخ آراء فيلون وما يتصل بها من نظرية الفيض الالهى واستغل الخلافات الدينية والفلسفية بالنسبة للمسيحية والفكر اليونانى القديم وجعل من ذلك كله وقودا لاشعال نار فتنة فكرية قدر لها ان تغوى وتغرى وتستميل بعض من قصد استمالتهم وبذلك اصيب الاسلام بافدح انشقاق فكرى فى تاريخه ما زال يعانى منه حتى وقتنا الحاضر .

ولم يقتصر موقف اليهودية المتمثل بالغش والخديعة ومحاولة الدس والتفرقة فى محاربتها للدعوة الاسلامية فحسب وانما اتخذ اليهود الموقف نفسه بالنسبة لامم الارض وشعوبها بوجه عام حتى اصبح اليهودي، تائها وعنصرا قذرا لا مكان له فى اوربا وآسيا وافريقيا .

ولم يقف رد الفعل الاوربى نحو اليهودى واليهودية عند حدود العزل او الابعاد وانما تعداه الى الاحتقار والمطاردة وذلك لان الشعوب الشرقية وعلى الاخص تلك التي تعيش فى الوطن العربي ومناطق من آسيا وافريقيا تتميز بنوع من العاطفة الكريمة التى قد تنسى بعض الاساءات فى سبيل فتح صفحات جديدة لمن، يسيء بحقها الا ان ردود الفعل هذه من قبل الامم الشرقية وخاصة الامة العربية تعتبر من مظاهر الغباء أو عدم الفهم العميق لها يحيط بها من الظواهر وما يعترض طريقها من صعوبات فى الوقت الذي استطاعت فيه اوربا أن تزيل عن نظرتها لليهودي كل جوانب العاطفة او الرفق بهذا الحيوان التائه وبذلك كشفت اليهودية على حقيقتها وادركت عمق ما تحمله من حقد وتهديم وتدمير لكل ما يحيط بها من بشر وحضارات

شرط ان تضمن لنفسها ولمصالحها الكسب والراحة على اشلاء العالم الممزقة وحضارته المنهارة .

وتعتبر قصة وليم شكسبير الكاتب الاوربي المعروف والتي اسماها (تاجر البندقية) مصداقا لما كان عليه اليهودي وما هو عليه فى الوقت الحاضر (فشايلوك) محور قصة شكسبير يكتنز المال كما يفعل اليهود فى الوقت الحاضر ويستغل فى سبيل تحقيق اغراضه الدنيئة ويضع لهذا الاستغلال شروطا قاسية استطاع شكسبير ان يصورها بحيث تعكس التفكير اليهودي باجلى مظاهره فشايلوك يريد ان يحصل عند عدم سداد ما اقرض من أموال على قطعة من اللحم ذات وزن معين تنتزع من المنطقة القريبة من قلب مدينه وفى هذا تصوير عميق للخلق اليهودي الذر لا يكتفى بالعقاب او العمل على ايجاد طريقا وسطا للتفاهم كما هو الحال بالنسبة لبني البشر الاخرين وعلى الاخص فى امور مدنية تتعلق بالبيع والشراء والتعاقد وما اليها من مظاهر لاتسىء بشكل جرمي للمجتمع والا فما هي الصلة بين رد الدين وبين عمل اجرامي يقصد من ورائه اقتطاع جزء من جسم انسان قد يعرضه للموت ؟

ولكن هذا التصرف بالذات يجسم كل جانب من جوانب الفكر والسلوك اليهوديين اللذين ظهر بهما اليهود فى اوربا .

وقد استغل اليهود ردود الفعل الاوربية التي كانوا هم السبب فى تكوينها لكسب عطف العالم على اليهود واستغلوا فى سبيل ذلك كل ما وصلت الى ايديهم من المال والنفوذ فقد اقرض (روتشيلد) مؤسس الاسرة اليهودية ذات المال ، الدول الاوربية المتحالفة ضد نابليون وبذلك استطاع ان يكسب مكانة لليهود فى اعين الانكليز وغيرهم من الاوربيين .

وقد تمكن بعض اليهود من اشغال مراكز عليا فى التنظيمات السياسية الاوربية واستطاعوا عن طريق نفوذهم ان يكسبوا لليهودية مركزا مهما فقد نجح دزرائيلي فى الدخول الى البرلمان الانكليزي وتمكن بوسائله

اليهودية ان يكسب قلب الملكة فكتوريا وان يصبح كلبها المدلل ولم يلبث دزرائيلي ان سيطر على حزب المحافظين واخضعه لمشيئته فاذا بهذا اليهودي الافاك يوجه السياسة البريطانية ويعمل فى الوقت نفسه على احراز نجاحات لليهودية عن طريق استغلال الاجهزة السياسية والعسكرية الانكليزية ويمثل مخطط دزرائيلي الذي نجح فى سرقة اسهم الخديوي اسماعيل الحقد اليهودي الدفين تجاه الامة العربية .

ومن الاسباب الرئيسية لنجاح عملية اغتصاب الاسهم المصرية فى قناة السويس تعاون اليهودية العالمية بجناحيها السياسى المتمثل فى ذلك الوقت بدزرائيلي رئيس الوزارة البريطانية والمالي المتمثل بعائلة (روتشيلد) اليهودية فقد كان البرلمان البريطاني فى عطلة وكان على ذزرائيلى ان يسمع رأي السلطة التشريعية فيما ازمع القيام به وخصوصا أن تصميمه يتعلق بأمور مالية الا ان ذلك الروتين كان سيعرض الصفقة التي ازمع دزرائيلي عقدها للخطر نظرا لوجود المنافسة الفرنسية مما جعله يفكر فى طريقة يحل بها ما وقع له من اشكال ، وهنا برزت اليهودية كحل موفق لما يزمع رئيس وزراء بريطانيا اليهودي القيام به وامتدت يده لتصافح يد اليهودي روتشيلد وتتسلم منه قيمة الاسهم التي خطط لاغتصابها دزرائيلي من قبل .

وقد يعمل اليهود على كسب الرأي العام العالمي باساليب يغلب عليها الخبث والخداع المنظم كما حدث بالنسبة الى قضية (دريفوس) الذي باع دون شك اسرارا فرنسية لجهات استخدمتها ضد المصالح الفرنسية وقد تم تجريم (دريفوس) وجرد من رتبه العسكرية وسجن الا ان اليهودية التي كانت وراء عملية بيع الاسرار الحربية الفرنسية نظرا لحقدها على الدول الاوربية وعملها على اضعاف هذه الدول عن طريق ضرب بعضها ببعض والعمل على تهديمها وارباك تنظيماتها السياسية والاقتصادية والعسكرية ، رفعت شعار (دريفوس) وقامت بتحريض الكتاب ورجال الفكر الفرنسيين واستطاعت بالفعل ان تكسب المعركة فافرج عن الضابط اليهودي (دريفوس)

واعيدت له رتبه وما له من حقوق ولكن اليهودية العالمية التي خلقت دريفوس وجعلت منه قضية تستغلها لصالحها لم تقنع بما انتهت به تلك الخطة اليهودية المحكمة وانما واصلت فى استغلالها لصالح اليهود واليهودية .

وما دمنا فى سبيل كشف الدور الذي لعبته اليهودية فى اوربا فأن التاريخ السياسى الاوربي منذ القرن السابع عشر وحتى الوقت الحاضر يتعرض لتأثير سلبي من اليهود واليهودية العالمية فقد حاول اليهود فى اوربا ـ التي كانت وما زالت محطة سياسية مضطربة تؤثر فى السياسة العالمية اكثر من غيرها من قارات الدنيا باستثناء امريكا بالوقت الحاضر ـ التخطيط للسيطرة على مفاتيح المال والسياسة والفكر فى الدول الاوربية . وقد كانت حركة اليهودية العالمية بشكل اكثر طلاقة فى اوربا الغربية عنه فى شرق وشمال هذه القارة نظرا للانظمة السياسية التي سادت فى اوربا الغربية والى حد ما فى القسم الوسط من القارة الاوربية والتي سمحت تحت ستار من حرية الفرد وبعض المفاهيم التي تسمى بالديمقراطية ان توجد الوسط الملائم الذي استغلته اليهودية العالمية فى بث سمومها على صعيد اوربي اولا وعالمي ثانيا .

واذا ما القينا نظرة فاحصة على الحركات الفكرية والسياسية التي اثرت فى اوربا وعلى الاخص تلك التي اعتمدت على القتل والاجرام والتدمير والتخريب لرأينا ان أصبع اليهودية العالمية كان ذا اثر بارز فيها فقد برع اليهود فى تخطيط العمليات الاجرامية عن طريق بناء منظمات ارهابية تركت طابعها واضحا على تاريخ اوربا المعاصر وقد دعيت تلك الجمعيات باسم (النهلستية) أو العدمية لكي يتم ايضاح الاهداف التي تسعى تلك المنظمات من وراء تحقيقها الى ابادة الخصم وتدميره كليا .

وهناك الكثير من الشخصيات اليهودية التي خططت ونفذت على صعيد التنظيمات النهلستية لحركات اهمها تلك التي ظهرت فى روسيا القيصرية قبل ثورة سنة ١٩١٧ فقد نفذت مخططات دموية لاغتيال قياصرة روسيا نظرا للطريقة التي عاملت بها الكنيسة الروسية الارذوكسية اليهود فى بلدها .

وقد استمر تأثير اليهودية فى الحركات السرية والفكرية فى روسيا واضحا وعلى الاخص بعد ظهور كارل ماركس الذي يمثل نفسه وفلسفته المعتمدة على القوة والعنفه امتدادا للتفكير اليهودي العالمي فى اتخاذه المخططات الارهابية وسيلة لاشاعة الارباك على صعيد القارة الاوربية وعلى الصعيد العالمي لكي تنجح اليهودية العالمية بوصفها القوة المنظمة فتستغل ما يسود العالم من فوضى فى سبيل اقامة صروحها الهادفة الى السيطرة على العالم واخضاعه للتسلط اليهودي .

ويمثل (ليون تروتسكي) النزعة اليهودية التي تهتم قبل كل شيء ببث حالة الذعر والفوضي على اكبر صعيد ممكن لكي تتمكن اليهودية العالمية من امرار مخططاتها المجرمة فى وسط ملائم مما ادى الى ان يقوم تروتسكي ببناء جيش خاص لتحقيق فكرته متحاشيا التنظيمات التقليدية للجيوش الاوربية، ولكن نجاح تروتسكي لم يلبث ان وضع حد له وانتهت ايامه عندما اغتيل عام ١٩٣٠ فى المكسيك .

وهناك جانب فى التخطيط اليهودي على الصعيد العالمي تميز به العمل والحركة اليهوديتيان الا وهو استغلال ما قد ينجم من صعاب ليهود العالم واعادة تصويره عن طريق السيطرة على وسائل الدعاية والاعلام وبذلك تكسب اليهودية انصارا جدد مستغلة العواطف التي يحملها بسطاء الناس لا فرق بين عامتهم وساستهم .

وتتمثل الخطة اليهودية فى استغفال الرأي العام العالمي عن طريق تشويه الحقائق والتأثير على الدوائر والنظم السياسية السائدة فى العالم مع ايقاع الكثير من المؤسسات الدينية والخيرية وخصوصا فى العالم الاوربي تحت سلطان الدعاية اليهودية فى الطريقة التي عرضت بها مسألة ما يسمى بالمقاييس التي اتخذتها المانيا النازية ضد اليهود وقد صورت تلك المقاييس عن طريق المخططات السياسية والدعائية اليهودية بشكل مذابح اجماعية تعرض لها يهود اوربا عامة والمانيا خاصة مما ادى الى استغلال الضمير العالمي ودفعه للعطف على الاكاذيب التي صاغتها مخيلة اليهودية العالمية

بشكل حقائق عن طريق استخدام وسائل الاعلام كالصحافة والسينما وما اليها من مؤثرات لها وزنها فى تكوين الرأي العام العالمي .

والحقيقة ان ما يسمى بابادة اليهود على ايدي النازيين فى المانيا قبل واثناء الحرب العالمية الثانية لا يعدو ان يكون خرافة صاغتها المخيلات اليهودية المجرمة لكي تغتال بها الضمير العالمي لان ما قام به هتلر لم يكن من اساسه الا الامتدادا للتعاليم اليهودية فالتلمود وهو الكتاب الذي حل محل التوراة القديمة مليىء بالخطط السياسية الانتهازية التى تجيز القتل والارهاب فى سبيل تحقيق الغايات التى تنسجم والاهداف اليهودية المؤكدة على اخضاع العالم لسيطرة بن اسرائيل .

كما تنص تعاليم التلمود على ان اليهود هم الشعب المختار وان اسرائيل وهبت كقاعدة للانطلاق ما بين دجلة والنيل كمجال حيوي لدولتها اليهودية المقبلة مما يؤيد الفكرة العنصرية لدى اليهود ونظرتهم الى الاقوام الاخرى فى العالم نظرة ثانوية وقد اخذ هتلر نظرته العنصرية عن اليهود انفسهم وبذلك نرى ان كتابه (كفاحى) يؤكد على ان اليهود هم من الجنس الآري ولكنهم يمثلون سرطانا خبيثا فى جسم هذا الجنس لابد من قطعة اذا اريد للجنس الآري ان تستقيم له اسباب الحضارة فى المستقبل ويسيطر على العالم وبذلك يكون هتلر تلميذا من تلاميذ الملك اليهودي داود وكتابه (كفاحي) يمثل دون شك طبعة اخرى من طبعات الكتاب العنصري الاول فى العالم وهو (التلمود) ويظهر تأثير التفكير اليهودي فيما كتبه روزنبرك فيلسوف النازية فى كتابه الشهير (اسطورة القرن العشرين) الذي ترسم فيه خطى التلمود والفكر اليهودى وجعل من اثر العرق الآرى حقيقة اعتبرها العامل المحرك للحضارة والعلم منذ اقدم العصور حتى الوقت الحاضر ويضيف روزنبرك الى اوهامه هذه بان المحاولات الاسيوية هي التى هدمت الفكر اليوناني القديم الذي كان آريا فى سداه ولحمته وان العالم اليوم يواجه حقيقة مرعبة فحواها ان الاجناس الرخيصة تسيطر على ما دعاه بالاجناس الخلاقة وعلى رأسها الجنس الآري فاذا اريد للعالم ان يظفر بحياة

حضارية ذات رقى وتقدم بالمستقبل فما عليه الا ان يسلم قياده للجنس الآري فاذا لم يتم ذلك فللجنس الآري الحق فى المجىء عن طريق القوة وهذا نوع من اضفاء الشرعية على الحركة النازية فى المانيا وما حاول هتلر القيام به للسيطرة على العالم تحت ستار من سموم العرق الآري .

واذا اضفنا الى بذور التعصب التى اخذها ادولف (هتلر) عن اليهود انفسهم وما كان سائدا فى المانيا قبل دخولها الحرب العالمية من المؤامرات التي دبرها اليهود عن طريق اضعاف قيمة المارك الشرائية واختزال العملة الالمانية الى مجرد اوراق مطبوعة امكننا أن نعرف الاسباب الحقيقية لما يحاول اليهود منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ان يجعلوا منه رداء ثقيلا يلقى على وجه الضمير العالمي وترتكب باسم ما يدعونه من مجازر لحقت باليهود الاوربيين اعمال الغدر التي مارسها اليهود منذ ان ابتلى بنو البشر بهم .

والواقع ان المناقشة الهادئة لما يدعى (المجزرة اليهودية) كما تحاول وسائل الدعاية والتمويه التي يشتريها ويستغلها اليهود ان تصفها لم تكن وليدة الظروف القريبة او تخيلات لمريض سايكوباثى كهتلر فقد عاش اليهود فى المانيا منذ مدة طويلة شأنهم فى ذلك شأن اليهود فى كل بقعة من الارض ابتليت بهم ولكن الفرق بين يهود المانيا وغيرهم من يهود اوربا هو ان القومية الالمانية القوية بصلابتها وباجنحتها الفلسفية والاقتصادية لم تفسح للفكر اليهودي لكي ينشر شبكاته فى التجسس ويخطط لعمليات الارهاب والقتل والتدمير . فقد وقفت المانيا القيصرية ضد اليهود لانهم حاولوا تهريب اموالهم والاضرار بالخزانة القيصرية فى ذلك الوقت لكي يضعفوا من قوة المانيا فى الحرب العالمية الاولى وقد اثر سلوك اليهود بالنسبة للقومية الالمانية على الصعيدين الفكري والواقعى ، فى نفسية الشعب الالمانى ففى مجال الفكر مسبت الفلسفة (الهيگليه) على يد كارل ماركس حتى ان الفيلسوف الالماني هيگل قال (لقد اوقفنى ماركس على رأسى) .

اما على الصعيد السياسى والواقعي فأن اليهودية لعبت دورا غايته

تحطيم الالمان شعبا وحكومة ومستقبلا فقد قامت فى المانيا بعد ثورة سنة ١٨٤٨ جمهورية (الفاميار) وكان مقر تلك الجمهورية فى مدينة (فايمار) تحديا للشعور الالماني وهدما لمكانة العاصمة برلين فى نفوس الالمان كما فعلت المانيا الغربية فى الوقت الحاضر عندما تحدت الشعور القومي الالماني فنقلت العاصمة من برلين الى بون .

ويمثل دستور جمهورية الفايمار محاولة لاشاعة الفوضى فى الحياة السياسية الالمانية وضرب القومية الالمانية عن طريق الاخلال بالعلاقات الاجتماعية وتشويه الكثير من المفاهيم التي درج عليها الالمان وعلى الاخص تقديسهم للدولة ومحاولة تجميع الفلسفات لكي تخدم قيام الدولة الالمانية وتركيبها واهدافها وبذلك حاولت اليهودية العالمية ان تربك الفكر القومي الالماني عن طريق اشاعة الفوضى بالنسبة لتفكيره السياسى والاجتماعي وقد فطن الى هذه الناحية بالذات الكاتب الالماني اميل لودفيك فى كتابه (الالمان شعبا وعباقرة) وعندما هزمت المانيا القيصرية فى الحرب العالمية الاولى لعبت اليهودية دون شك دورا اساسيا فى هزيمتها وختمت صفحة الحرب العالمية الاولى بالنسبة لالمانيا بتوقيع معاهدة (فرساي) والمعاهدة بذاتها تمثل تنازلا وتعويضات فرضت على دولة مغلوبة هي المانيا ولكن اليهودية العالمية لعبت دورا كبيرا فى صياغتها بالشكل الذي جاءت عليه نصوص المعاهدة وبذلك حفرت اليهودية العالمية اخدودا اخر فى جسم القومية الالمانية لم يكن من السهل ان ينسى وعلى الاخص فى الفترة القريبة التي فصلت بين الحربين العالميتين الاولى والثانية .

وفى وسط تلك الفوضى التي عمت مدن المانيا كلها وتحت وطأة التعويضات التي لم تكن تتناسب وما فقده الحلفاء فى الوقت الذي خسرت فيه المانيا كل ممتلكاتها واطماعها فى العالم ظهر (ادولف هتلر) وكان طبيعيا لرجل مثله ينشأ فى العدم والفراغ التي اصيبت به المانيا اثناء وبعد الحرب العالمية الاولى ان يفتش عن أسباب الضعف ويبدأ باجتثاثها من اصولها الواحد تلو الاخر فبدأ بمحاربة الضعف الداخلي وكانت هناك ايد يهودية

خفية تعمل من وراء الستار لابقاء المانية مجزأة فبدأ هتلر يكافحها على الصعيد الفكري مدونا خططه فى انجيل النازية او الاشتراكية الوطنية (كفاحي) فلما استتب له الامر وصار المستشار الاول وعلى الاخص بعد موت (هندبرغ) بدأ هتلر يبني المانيا كما يجب أن يبنيها كل من تشبع بالفكر القومي الالماني •

فشرع بالغاء معاهدة فرساي وطفق يبني اقتصاد الحرب الذي ينهض على تعبئة شاملة لكافة الموارد البشرية والطبيعية ونظرا لقصر فترة التعبئة فقد اوجدت الضرورة تأكيدا قويا على القومية الالمانية وذلك بخلق شعور بالعمل فى سبيل الغد الالماني الافضل مع اكتفاء ذاتي وقناعة وجدانية بان التضحية امر واجب وفى محلها على وجه الدقة والضبط •

وتجاه هذه المخططات بدأت اليهردية العالمية ترمي شباكها متجسسة ومخربة فى آن واحد وقد انخذت المخططات اليهودية سبلا تعكس الحقد والاجرام وذلك بسحب ودائعها من البنوك الالمانية والقيام بتهريب العملة والمعادن النادرة الى الخارج مما اربك الاقتصاد الالماني واضعف قيمة المارك فى الداخل والخارج •

وزاء هذه التصرفات التي لم يقصد منها طبعا المناوأة للحكم القائم انذاك او معارضته وانما هدف منها تقويضه عن طريق تهديم تشكيلاته الاقتصادية والاجتماعية فى الداخل ، شرع هتلر يتخذ بعض المقاييس للرد على التحديات اليهودية فقد قام بتجميد اليد اليهودية وكفها عن الدسائس فى السياسة والمال وقد تجمع بنتيجة ذلك جيش كبير من اليهود العاطلين وكانت الخطوة الثانية وعلى الاخص فى الوقت الذي كان يقوم هتلر فيه بتعبئة شاملة لموارد المانيا لكي تواجه حربا واسعة وطويلة المدى تحتم عليه الاستفادة من كل طاقة او مورد ، ان يفكر فى مصير اولئك اليهود الذين لم يستحقوا صفة المواطنة بل اثبتوا عكس ذلك بانهم عنصر مخرب فعرض ادولف هتلر على العالم مبدأ مفاده نقل مالدى المانيا من اليهود او قبولهم فى بلدان اخرى •

ولم يكن العالم وفى مقدمته فى ذلك الوقت الدول الاوربية واميركا باقل من المانيا نفسها خوفا من اليهود والدسائس اليهودية فقد رفض اليهود من قبل اكثر سكان المعمورة وكانت هناك محاولات لاسكانهم فى شرق افريقيا ولكنها باءت بالفشل لان الروح الافريقية لم تقبل ان تدنس على يد فئة من اليهود لفظتها الامم الاخرى .

وهنا سنحت لليهود فرصة لكي يكونوا مواطنين فى المانيا نفسها ولكن الرواسب التي خلفها التلمود وعمقتها اليهودية العالمية حالت دون ان يندمج اليهود الالمان بالشعب الالماني او يكفوا عن دسائسهم ومخططاتهم لاظهار خضوعهم للحماية الالمانية .

وبدأت سني الحرب تثقل على المانيا وكان على هتلر ان يستفيد من كل طاقة وبدأ التاريخ يكتب ما لهذا الرجل وما عليه وكثرت المؤامرات التي غذاها اليهود حتى بين افراد الجيش الالماني وهنا تخلص هتلر من بعض اليهود بان عزلهم فى معسكرات خاصة تأثرت بنقص المواد الغذائية التي ساد المانيا فى تلك الفترة نظرا لمتطلبات الحرب .

وانتهت الحرب العالمية الثانية فاذا باليهودية العالمية تشتري اكثر وسائل الاعلام بالعالم وتجمع الاف الصور وتزور الكثير من الوثائق لكي تخرج على العالم بفضائح لا يمكن ان تقترف خلال الفترة التي قيل انها اقترفت فيها خلال الحكم النازي لالمانيا .

وقد تفننت اليهودية العالمية ومن يسير فى ركابها من المتهودين وممن اشترتهم من كتاب وصحفيين فى تصوير الكثير من وسائل القتل والابادة التي لا يمكن ان تتم الا بتخطيط فكر مجرم كالفكر اليهودي .

فمما ذكره اليهود ووسائل دعايتهم ان عددا من الملايين اليهودية قد قتل او ابيد على حد تعبيرهم فكم كان عدد اليهود فى المانيا ؟ وكيف تم للنازية جمع تلك الملايين؟ وما هي الطريقة التي يباد فيها الالاف من الناس مرة واحدة؟ وهل يتفق وابسط قواعد الخطأ والصواب ان تتم عمليات القتل والابادة بالشكل الذي تحاول الدعايات اليهودية المضللة ان تبثه ؟ لان اوضح ماخلف

لنا من اثر بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ان هتلر واركان حربه بعد ان ثقلت عليهم مشكلة التخلص من اليهود العاطلين جمعهم فى مسيرة بدأت من المانيا لتنتهي فى ايطاليا . فلم تذكر وثائقيا او باسانيد صحيحة عمليات الابادة كما ذكرتها المصادر اليهودية او كما تحاول ان تجعل من اضاليلها مؤلفات وافلام متوخية ابقاء الحقد فى نفوس الاجيال اليهودية المتتابعة .

وجريا على خطة اليهودية العالمية فى خلق المآسي ثم استغلالها لصالحها حيث تنتفع قلة من المغامرين اليهود فى اغتصاب مفاتيح المال والسيطرة فى العالم ، فقد اجتمعت عصبة من اليهود تقطرت فى دمائهم حوامض الجمعيات النهليستية والحقد العنصري والشهوة العارمة في الهدم فى ٢٩ آب ١٨٩٧ م ببازل بسويسرا وبحثت فى اقامة قاعدة عنصرية تتخذ كبؤرة للانقاض على كل ما هو خير فى العالم .

وقد رأس تلك الزمرة من العقول المريضة الهدامة يهودى نمساوي اسمه هرتزل امتهن الصحافة فى اول حياته ولكنه لم يلبث ان انقلب الى داعية يهودي هدام بعد ان اخذت اليهودية العالمية تستغل قضية دريفوس لاظهار اليهود بمظهر الحمل الوديع وهو يتعرض لشواظ فى احتقار البشر الاخرين ومقتهم .

ومن الغريب حقا ان يحاول بعض من كتب عن اليهود واليهودية فى الشرق العربي او اوربا اضفاء طابع العفوية على هرتزل ووصف ظهوره بانه مجرد صدفة ساقتها الى الحركة والتخطيط المجرم محاكمة دريفوس . الا ان الواقع يخالف عدم العمق هذا فى فهم عمل المنظمات السرية الخطرة كالجمعيات اليهودية . فهرتزل يصور فى المؤلفات الاسرائيلية بانه الرأس المدبر لكل ما خطط ونفذ لبناء قاعدة يهودية ويشار اليه بحكيم آل صهيون وتظهر صوره وهو يركب أتانه وكأنه خارج لتوه فى العهد القديم للتوراة لكي يقود الاسباط فى مظاهرة ضخمة مما يتفق وسياسة العصر الحاضر .

ان شخصية تصور فى الزوايا اليهودية المظلمة بهذا الشكل لا يمكن ان تكون آتية عن طريق غير معروف دفعت على مسرح السياسة والاجرام

الا انهالا تلبث ان تكون الرأس الموجه لطغمة الدس والهدم المسماه باباء الصهيونية وكلهم عريق بالتآمر والاجرام والتهليسية فكيف يرتضون ان يكون على رأسهم صحفي مغمور كتيودور هرتزل ؟

لذا فان أقرب ما يمكن اتفاقه مع التحليل التاريخي بالنسبة لتيودور هرتزل فى الحركة الهودية العالمية هو فهم تنظيم وعمل الجمعيات النهلستية وبدقة العصابات اليهودية فهناك ما يسمى (النائمون او سليبرز) وهذا النفر من أعضاء الجمعيات والعصابات اليهودية لا يعرف عنه الشيء الكثير وقد يخفي شخصيته فيظهر خلاف ما يبطن وقد يترك دون عمل او حتى اتصال لعدد من السنين ويشجع هذا النفر من عملاء العصابات اليهودية للانضمام الى التنظيمات والتشكيلات السياسية والاجتماعية فى البلد الذى يعيش فيه فاذا احتاجت اليه جمعية او عصابة اوعزت اليه بالعمل الذى يتراوح بين الدعاية او بث الشغب او التدمير والاغتيالات .

وليس ببعيد ان يكون تيودور هرتزل احد (النائمين) من اعضاء الجمعيات النهلستية اليهودية ظل فترة طويلة يعمل فى الخفاء كصحفي فى النمسا حتى اذا طغت الظروف التى تستدعى (ايقاظه) اعيد الى الحياة والحركة النشيطة فواكب محاكمة دريفوس ثم اثار ضجة حولها فاذا به ينتقل من غايته هذه الى هدف آخر هو انشاء خلية سرية تضم يهود العالم تكون بؤرة لتجمعهم وتكثيف ما يحملونه من حقد واجرام بحق البشرية وحضارتها وعلى الاخص الامم ذات القوميات العريقة التى يخشى منها اليهود على آمالهم المحمومة للتسلط على عالم المستقبل .

وما دمنا بصدد بحث التخطيط والشبكات اليهودية باوجهها المستترة والظاهرة فان تحركات اليهود فى عالم الظلام والكواليس السياسية لقي معارضة قوية على الصعيد العالمى مما حدا باليهود الى تغيير الوسيلة وان بقي التأكيد على الهدف كما خططته الطغمة اليهودية المجرمة فى اشاعة الفوضى والارباك حيث يخرج الحقد اليهودى لكى ينتقم من سكان هذا الكوكب وكأنهم مسؤولون عما جنى اليهود بانفسهم على ابناء جلدتهم .

وبوحى من تغيير السبل او الوسائل فقد عمد اليهودالى تكوين جمعيات ونوادى تستتر تحت شعارات تدعو الى ايجاد صلات بين الاتجاهات الفكرية والدينية فى العالم لتكوين (اخوة) كما تدعي ، تساعد على قيام (صداقات) دولية تربط العديد من سكان هذه الارض كما تحاول اليهودية العالمية ان تغلف الاهداف الحقيقية لمثل هذه التكتلات المشبوهة .

ومن الصق الامثلة على هذا التخطيط المظلل (الجمعيات الماسونية) وهي عصابة دولية قصد منها اماتة الشعور القومي والخلقي لدى اعضائها وايقاعهم فريسة الخوف والطلاسم حتى يبقى كل منهم مشدودا بالجمعية وعلى استعداد للتضحية بقيمه الدينية والخلقية والقومية فى سبيل تحقيق الاهداف التى تتطلبها رغبات الطغمة الموجهة .

وتقوم طلاسم واسرار هذه الجمعية الرهيبة على مفاهيم غامضة يقال انها من بقايا الحملات الصليبية المتأخرة تركت بشكل كتابات مختزلة على جوانب هيكل سليمان فى الارض المقدسة ثم اخذت هذه الكتابات تحفظ دون فهم لمعانيها وقد استغل اليهود هذه المعميات ففسروها بالشكل الذى يصدم كل القيم الدينية والقومية وللتأكد من ضرب هذه القيم لا بد من انتزاع كرامة الانسان عن طريق ايقاعه تحت عامل الخوف بجو رهيب يجمع بين الهياكل العظمية ومناظر للموت والجحيم حيث يلف العضو الجديد بكفن ويوضع فى تابوت اعد لهذه الغاية ، ولاتمام المراسيم الخاصة بالعضوية قد تنتهك كرامات الانسان الاخرى وبذلك يقع تماما تحت تأثير الارهاب الماسونى ويقوم بتنفيذ ما يطلب منه بكل خضوع واذلال والا كشف سره او تعرض للموت .

ومما يزيد الماسونية اتصالا بالاستعمار هو ان الماسون الاول والبانى الكبير يتمثل فى ملك او ملكة انكلترا مما يوضح الصلة بين اليهودية والاستعمار لضمان عمل مشترك بينهما يهدف الى استغلال خيرات العديد من بلدان آسيا وافريقيا واوربا اللاتينية عن طريق ايقاع العديد من رجالها تحت تأثير (الصداقة الماسونية) التي تغويهم اولا فاذا انزلقت اقدامهم

صعب عليهم التراجع . لذا فليس مما يدعو الى الغرابة ان يصدر بلفور تصريحه المشؤوم لان هذا البلفور كان ماسونيا اولا ووزيرا لخارجية بريطانيا ثانيا فهو والحالة هذه خاضع لما يصدر اليه من اوامر واهواء قد تتسبب فى القضاء على وطن وتشريد اهله .

وقد سار على النهج المريض نفسه ونستون تشرشل فقد ذكر الكاتب الصحفى الامريكى جون غنتر فى كتابه (داخل اوربا) وفى القسم الخاص برئيس وزراء بريطانيا الاسبق انه عرف تشرشل بناءا ممتازا وكثيرا ما كان يرتدى ملابس البناء الخاصة به ويشرع فى معالجة الاجر ومواد البناء الاخرى لينتج منها عملا انشائيا متناسقا .

وليس المراد طبعا بالبناء ما هو مقصود بظاهر اللفظة فقط فان الماسون او جمعية البنائين تتخذ من هذا الاسم ستارا يخفى مقاصدها الحقيقية فى هدم القيم الدينية والقومية والاخلاقية لتنفع عصابة من ذوى المال والنفوذ تتحكم فى مصير العالم تمارس نفوذها عن طريق ما يسمى بروابط الجمعية الماسونية القائمة على الدرجات والتسلسل فى صفوف البناء الماسونى فالقصد الاكثر انطباقا على ما خلفته هذه الجمعية من مآسى وآثام هو محاولة الماسونية هدم العالم اولا واعادة بنائه كما يشتهى المسيطرون عليه ثانيا . وفى هذه النقطة بالذات تتعانق الماسونية واليهودية ولسنا بحاجة الى التأكيد بان تشرشل كان ذا مكانة بارزة فى الجمعية الماسونية هو والمارشال سمطس فى جنوب افريقيا واللورد كرومر فى مصر وبرسى كوكس فى العراق والسردار لي ستاك فى السودان وهربرت صموئيل المندوب السامى البريطانى فى فلسطين .

وقد استغلت اليهودية العالمية الماسونية وغيرها من الجمعيات والنوادى كنادي (الروتاري) و (اللاينز) فى سبيل بث التعاليم اليهودية الهادفة للسيطرة على العالم عن طريق حصر المال والجنس والقوة السياسية فى ايدى حفنة من اليهود وجعل هذه المنبهات القوية لبني البشر وسائل تتحكم عن طريقها الاطماع اليهودية فى تغيير تركيب العالم السياسى والاقتصادى

والفكرى مما يتفق والمخططات اليهودية التى لا تخضع لما نسميه فى اكثر مجتمعات العالم خيرا او شرا ولكنها تسير وفقا لمفاهيمها الخاصة فما يعود عليها بالفائدة هو خير وان اجمع العالم على انه شرير والعكس صحيح .

ولكن الغريب (وان كان الوطن العربى فى اول فهمه لمشاكل السياسة وما كان عليه الوضع الدولى من تعقيد بالنسبة لقضايا العرب الكبرى ولوضعهم كعرب اولا وكبشر يحاول ان يحصل على حريته ثانيا) ان يقع بعض العرب فى حبال المكائد اليهودية فقد جرت اتصالات بين الملك فيصل الاول وكان اميرا انذاك والداعية اليهودى هرتزل ثم قام حسين مؤسس الاسرة الهاشمية بمفاوضات مع الماسوني مكماهون سفير بريطانيا فى مصر انذاك وقد اوقع قسم من العرب انفسم عن رغبة او غباء فى المخططات اليهودية واصبحوا اعضاء فى الجمعيات الواقعة تحت النفوذ اليهودى او النوادى التى تمول من قبل اليهود انفسهم ومن المؤكد ان مجموعة من الحكام التقليديين فى مصر والعراق وسوريا ولبنان والاردن وكذلك امراء بعض المشيخات فى الخليج العربى اتصلوا او كانوا أعضاءفى هذه الجمعيات الخطرة .

ولعل من المناسب ان نذكر بان اليهودية العالمية فى تسييرها لهذه الجمعيات والنوادى واقامة الروابط بينها وبين شركات النفط والشركات الاحتكارية الاخرى فى العالم قد ضمنت السيطرة او التأثير على الاقل على مسرح السياسة وسوق المال ودوائره ومؤسساته فى اكثر بلدان العالم والامثلة على ذلك كثيرة منها بنوك فى كثير من اقطار المعمورة أقربها الى الذهن بنك باركليز الذى خنق اقتصاديات مصر فترة طويلة والبنوك الانكليزية والامريكية والالمانية والسويسرية والفرنسية الاخرى وكذلك بعض البيوتات المالية كروتشيلد وروزنبرك وكوهين ولفي وغيرهم ممن يمتلكون الكثير من الاسهم والسندات والموجودات النقدية والمعدنية ذات القيمة .

وليس سرا أن اسرائيل تسيطر بشكل او آخر على المؤسسات المالية

فى جنوب افريقيا وروديسيا وانها تدير اكبر تجارة فى العالم لصناعة الماس ذى الاحجام الصغيرة بينما تحاول شركة (سوليل بونيه) اليهودية مد اخطبوطها فى الابعاد المختلفة لافريقيا متعاونة مع وزارة خارجية اسرائيل التي تقدم الجنس والكحول والمؤامرات ومطبوعات حول كيفية انشاء المستعمرات اليهودية ـ الكيبوتس ـ فى اقطار افريقية حديثة العهد بالاستقلال مما يجعل من سلاح مقاطعة اسرائيل وسيلة ناجحة وقاطعة فى الوقت نفسه للقضاء على الرئة الاقتصادية التى تريد المؤسسات اليهودية ان تتنفس فيها فى قارات افريقيا وآسيا لتنفث فى الوقت نفسه سمومها ودسائسها • الا ان نجاح المقاطعة العربية لاسرائيل يحتاج الى اجهزة مخلصة وكفوءة والى ان تصاحب اجراءات المقاطعة تهيئة نفسية على صعيد الوطن العربى والصعيد العالمى لكى لا يقع البعض فى الارض العربية أو العالمية تحت ثقل الدعاوى اليهودية المظللة ولكن هذه المخططات العربية لو افترض تمام الاعداد لها فان المقاطعة تبقى بعيدة عن النجاح الكلي ما دامت هنالك شركات للنفط تعتمد على ما تقدمه الكثير من ميزانيات الدول العربية وتتصل بهذه الشركات سفارات ووكالات تجسس للعمل باسم الاقتصاد أو العلم أو حتى الروح والمحبة بالاضافة الى حاجة البلدان العربية الى ما يسمى بالقروض الاجنبية والخبرة الفنية وتهيئة الجو الملائم للسياحة والسائحين مفسح المجال امامهم للتعرف على ما لا يعرفه ابناء الوطن العربى انفسهم بل اكثر من ذلك تشجيعهم على فتح مدارس ومؤسسات تتراوح اعمالها بين التعليم والصحافة ونشر تعاليم المحبة وبين التجسس كما هى الحال فى مدرسة شملان فى لبنان •

الاسلام ومعارك القومية العربية التاريخية والمعاصرة :

تمتاز القومية العربية بانها حياة وحضارة ومصير وقد عاشت القومية العربية فى ظل حضارات ابتنتها فى الجزيرة العربية وخصوصا فى جنوبها ثم ازدهرت فى شمال الجزيرة نفسها متمثلة فى حضارات وادى الرافدين

ووادي النيل والحضارة الفينيقية فى الشام وسواحله والكنعانية فى ارض كنعان (فلسطين) ثم قبعت القومية العربية فى خيام من الشعر غطت مناطق كثيرة من شبه جزيرة العرب ولكنها (القومية العربية) لم تفقدقوة انطلاقها وان اتخذت سبلا مختلفة للحفاظ على ذاتها مثلها مثل الطاقةلا تفنى ولا تستهلك وان كانت تتخذ اشكالا مختلفة قد تتعايش مع الظروف المحيطة بها ولكنها لم تلبث ان تخرج ثانية لتعلن عن نفسها ولتلعب دورها المصيرى فى تاريخ الفكر والواقع العالميين .

وبصورة مختصرة فالقومية العربية قدر له قوة السيطرة على التاريخ والافراد وقد تصور الفيلسوف الالمانى هيگل ان الدولة الالمانية هى التى خلقت التاريخ ثم بدأت تتفاعل واياه وقد سخر هيگل من نظرية العقد الاجتماعى لان التعاقد يجب ان يتم بين اطراف متكافئة على الاقل فى الوقت الذي ينجح فيه نفر من العباقرة فى الوصول الى مراكز القيادة لانهم يمثلون ما سماه هيگل بروح التاريخ الذى يعكس فى واقعه خلود الدولة الالمانية حسب وجهة نظره .

والحقيقة ان مسألة التعاقد كما حاول ان يكتب عنها الفكر الفرنسى لا تتفق وعالم الواقع لان مسيرة التاريخ اوضحت ان هناك افرادا لهم قوة دافعة تستطيع ان تستحوذ على المسيرة نفسها فى الوقت الذى يتبع فيه هؤلاء القادة مجاميع كبيرة من البشر انفسهم ويصعب جدا ان يتم التعاقد بين عباقرة من النوع القائد وبين بشر من النوع التابع الا ان نقطة الضعف فى فلسفة هيگل هى اعتماده الدولة الالمانية لتمثل رَوح التاريخ لان فكرة الروح وعلى الاخص فى مجال الفسفة السياسية المتصل بحقل من التاريخ تعني وخيالات تبعد هذا الفكر الاجتماعي ذا البعد الزمني من ان يكون علما ينسجم مع متطلبات العلوم الحديثة وعلى الاخص الطبيعية منها .

يتبين لنا من ذلك ان هيگل وان نجح فى نقد نظرية التعاقد الاجتماعى الا انه فشل فى تفسير الاحداث التاريخية وان كان يحس بغموض له اثره فى تسيير الحدث التاريخى هذا الغموض هو الذى دفع هيگل الى فكرة

ميتافيزيقية يستطيع عن طريقها تعليل الاحداث التاريخية .

واذا درسنا الاشكال الخاص بالتاريخ وبالعبقرية والحدث التاريخى بالنسبة للواقع العربى فاننا سنجد حتما بان هناك قوة تدفع بالعرب وتهىء المجال لحضاراتهم وعبقرياتهم وتحفزهم من وقت لآخر على العمل والحركة والتضحية هذه القوة يصعب ان تحلل وفق منهج البحث العلمى لانها لا تخضع لمفهوم الحدث التاريخى فهى اقوى من أن تهزم واصعب من ان تستسلم ولم تخضع قط لقوانين الضعف والتحدى او تقع تحت السيطرة فتعاني الذل والانكسار ، كما انها ليست قوة غيبية ميتافيزيقية لها اصولها وجذورها فى عالم من الغيبيات مما يجعل واقع وحركة هذه القوة غير مفهومين وخاضعين لعامل الصدفة تماما مما يؤكد ان وجهة نظر هيگل فيما يختص بفكرة الروح لا تنطبق على القومية العربية ومن الاصوب ان توصف القومية العربية بانها اللاشعور التاريخى لاحداث الامة العربية وبذلك تتخلص من ميتافيزيقية هيگل من جهة ومن الخلط بين الاحداث التاريخية العادية التى تخضع لعوامل الضعف والقوة والانكسار والانتصار وبين قوة تسمو فوق هذه العوامل تمثل حصيلة الفكر والجهد لقدوة من العقول العربية التى لم تغير واقعها فحسب وانما بدلت وجه العالم بما انتجت وخططت وانجزت من فكر وعمل وحضارة من جهة اخرى .

فالقومية العربية اذن لا شعور تاريخي عربي يعيش فى كل ذات عربيةوقطر عربى وهى فى الوقت ذاته صفة من صفات العرب فقط ومن هنا ينشأ التمييز بين العرب وغير العرب فالنفر الاخير من غير العرب الذين يستعربون ويتبنون الصفات العربية يكونون لهم بالفعل شعورا عربيا قد يربك الامر على غير العرب فيتصورونهم عربا بالفعل ولكن هؤلاء مهما حاولوا ان يكونوا شعورا قويا ينسجم مع متطلبات الشعور العربي فان شعورهم لا يتسع الى دائرة اعمق ويظل مظهرا فى الفكر والسلوك فقط أما اللا شعور القومى الذى يعكس الصفة الاصيلة للقومية العربية فانه يبقى بعيدا عن اولئك المستعربين .

وكما اوضحنا ان القومية العربية هى طاقة عربية لا شعورية وانها تتأثر وتؤثر بالعوامل المحيطة بها فان هذه القومية استطاعت ان تبلور طاقتها بشكل حضارات عربية قديمة ثم اختزلت الى حياة بدوية واكبت حياة العرب الرحل فى شبه الجزيرة العربية الا ان المؤثرات الخارجية ما لبثت ان طغت على الطاقة الدافعة للقومية العربية . وبعبارة اوضح فان القومية كقوة لا شعورية تحاول ان تقيم نوعا من التوازن بينها وبين المحيط الخارجي ونظرا لقوتها الدافعة فانها تسعى دوما ان يكون التوازن في صالحها وهذا ما ظهر فعلا بالنسبة للحضارات القديمة التى اخذت مكانها فى جنوب الجزيرة العربية وفى الرقعة الخصبة الممتدة فى شمالها ثم لم تلبث المؤثرات الخارجية ان طغت مرة ثانية وبذلك انكمشت القومية العربية وعاشت بشكل قبائل متفرقة لكى تكون اقدر على حفظ ذاتها واشد تأثرا بالارض العربية وبالظروف الجغرافية التي تعد بحق اعظم وعاء لاقوى قوة قومية فى تاريخ العالم وحاضره .

الا ان القوة الدافعة فى القومية العربية اخذت تشعر بما يحيط بها من مؤثرات خارجية حاولت ان تتعدى حدود الموازنة بين المؤثر الخارجى وقوة المطاوعة للقومية العربية فقد استولت الامبراطوريتان الفارسية والبيزنطية على رقعة واسعة من الارض العربية واخذت تلك الامبراطوريات تبسط نفوذها على مركز الثقل العربى المتمثل انذاك فى شبه الجزيرة العربية فقد استطاعت الامبراطوريتان كسب بعض مناطق النفوذ وعلى الاخص فيما يقع بين حدود شبه جزيرة العرب وبين المناطق العربية التى كانت تحتلها قوى الفرس والبيزنطيين فى ارض العرب الا انهما لم يستطيعا التوغل فى قلب الارض العربية .

ويحاول بعض المؤرخين ان يعلل السبب فى عدم لجوء الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية لمغامرات عسكرية فى شبه جزيرة العرب الى ما نطلق عليه اليوم ببعد خطوط التموين وصعوبة ادامة الجيوش المحاربة من جهة وفقر المنطقة من جهة اخرى . والواقع ان هذه الاسباب تبدو منطقية ولكنها

لا تتفق والموضوعية التاريخية فان الكثير من السواحل العربية كانت تتمتع بمركزين الاول استراتيجى عسكرى يؤمن السيطرة البحرية على السفن المارة فى البحار بشبه الجزيرة العربية والثانى اقتصادى يتمثل بمناطق كثيرة خصبة منها جنوب الجزيرة العربية حيث تقع ارض اليمن وحيث يكون الطقس ملائما لقيام حياة زراعية مزدهرة .

والحقيقة ان تراجع الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية ينبع من خوف تلك الامبراطوريتين وغيرهم من الغزاة الطامعين من قوة القومية العربية وعلى الاخص فى مكمنها الاصيل فقد وجدت حدود فاصلة بين الفرس والروم من جهة وبين العرب من جهة اخرى تماما كما هو الحال فى العصر الحاضر حيث تقوم الحدود بين الشرق والغرب فقد توقفت جيوش الحلفاء عند نقطة معينة فى الحرب العالمية الثانية وذلك يوحى بانها أنتهت الى الحدود التى يجب ان تنتهى اليها فقد كانت هناك فواصل فى مخيلة قادة كل من الدول الشرقية والغربية فيما يختص بتخطيط الحدود بينهما ، وبذلك توقفت الامبراطوريتان الفارسية والبيزنطية من المحاولة فى ارض العرب انفسهم .

الا ان بوادر التسلل الاجنبي ما لبثت ان سلكت طريق التجارة اولا وطريق بث التعاليم الدينية الغريبة عن الارض العربية ثانيا وبدون شك فان رجال المال من قريش مسؤولون مسؤولية قومية وتاريخية لانهم فتحوا ابواب الوطن العربى امام الغزو التجارى والدينى لقوى تعمل قواعدها خارج حدود مركز الوطن العربى فى ذلك الوقت وهذا هو بالضبط مفهوم الجاهلية ومعناها جهل العرب وبالتحديد (المتنفذين منهم) بالمركبات الاصيلة للقومية العربية ووضع مصالحهم التجارية والخاصة فوق مصالح امتهم فقد انتشر التجار فى مكة وغيرها من المدن وسادت فى المجتمع المكى روح من عدم المساواة لا تتفق باية حال من الاحوال مع المفاهيم الاصيلة للقومية العربية وبدأ قسم من العرب يتعاملون مع العناصر الاجنبية دون وعى منهم واخذت القيم الدينية الاجنبية تتسلل الى تلك الارض من الوطن

العربى وأخذت تكسب المؤيدين وان جوبهت فى كثير من الاحيان بالقوة الدافعة للقومية العربية التي تميل الى البروز عندما تبدأ التحديات بتوجيه الضربات اليها • فقد نشأ نتيجة قيام المدن التجارية فى شبه الجزيرة العربية اختلال فى التوازن الاجتماعى بين قوة المدنية التجارية وبين سلطة القبيلة التقليدية وبذلك اصبح لزاما اعادة بناء المجتمع العربى بشكل يكفل توازنا اجتماعيا سليما يعود بالفائدة على الفرد والمجموع وبهذه فقد ظهرت تحديات للقومية العربية على صعيد السياسة الدولية الخاصة بمنطقتها تمثلت فى التحركات الاستعمارية للامبراطوريتين البيزنطية والفارسية وما لحق بهامن ذيول انعكست فى المغامرات التجارية والدينية التى لم تكتف بالعمل خارج حدود المجال الحيوى للقومية العربية وانما حاولت ان تهاجم مركز الاشعاع القومى انذاك بالاضافة الى تحديات داخلية بدأ اثرها فى اختلال التوازن الاجتماعي بين القوى القبلية التقليدية وبين حياة المدينة ممثلة فى المدن التجارية مما دفع بالقومية العربية الى اعادة تخطيط مركزها بالنسبة للداخل (الاجتماعى) والخارج (السياسى) ولم يكن تركيب الواقع والفكر العربيين ملائما لقيام حضارة تستطيع ان تجعل القومية العربية منها وقاء لما يحيط بها من تحديات كما حدث بالنسبة للصرخة الحضارية العظيمة ممثلة فى مجموعة الحضارات العربية القديمة فالتحديات اصعب من ان تواجه عن طريق بناء سد حضارى وعلى الاخص تلك التى اصبحت قريبة من مركز المجال الحيوى للقومية العربية واصطبغت على الاكثر بالصبغة الدينية الامر الذى حدى بالقومية العربية ان تدلل على وجودها من جديد وتوقف ما يحيط بها وما يؤثر فى تركيب مجتمعها الداخلى من صعوبات •

فالاسلام اذن رد فعل جديد للقومية العربية أستطاعت عن طريقه ان توقف ما وجه اليها من تحديات فقد اتسم الاسلام منذ اليوم الاول من انتشار دعوته بانه حركة يراد منها اعادة تركيب المجتمع والانتقال به من حالة التصادم بين القبيلة والمدينة الى صعيد جديد من التفاهم والحركة

الاجتماعيـــــين .

وبعد ان نجح الاسلام فى التغلب على عقبات التنظيم الاجتمـــاعى الجديد وقضى على المشاكل التى حالت دون قيام مجتمع مستقر ومتحرك فى آن واحد ، تطلعت الدعوة الاسلامية بعد ان شملت المجتمع بكامله وانتقلت مـــن التبشير والاقناع ، الى البنـــاء والعمـــل ثم القضـــاء على التحديات الخـــارجيـــة .

وهنا تبرز اهمية الحروب التى خاضتها الجيوش العربية المسلمة فقد حاول الكثير من المستشرقين والمهتمين فى شؤون التاريخ والفكر الاسلامى ان يصوروا تلك الحروب بشكل غزوات قصد منها الاستيلاء والسيطرة ونشر النفوذ الاسلامى بالقوة ولكن الواقع لا يبرر هذه الادعـــاءات لان الاسلام كان من الممكن له اقامة دولة فى شبه جزيرة العرب تستطيـــع ان تعول نفسها بنفسها وتكتفي اكتفاء ذاتيا فى متطلباتها الاقتصادية ومنظماتها الاجتماعية بشكل يعود عليها بالفائدة بينما تكون فى الوقت ذاته بعيدة عن التحديات الخارجية نظرا لما يحيط بالارض العربية التي انتشرت فيها الدعوة الاسلامية من حواجز وعقبات طبيعية .

فالحروب التي خاضتها الجيوش العربية المسلمة كانت فى اساسهـــا تنفيذا لما جاءت به الشريعة الاسلامية التى اكدت على ان قيمها الدينية بما حوته من معان اجتماعية يمكن ان تكون ذات نفع للبشر كلهم دون تمييز فى الوقت الذى ضمنت فيه حرية كاملة للاديان الاخرى .

ومن الطبيعى أن هذه التعاليم المقدسة كانت بمثابة عهد قطعه العـــرب على انفسهم ولا بد لهذا العهد من ان ينجز لان العربي اذا وعد وفى ، ومن جهة ثانية فان الحروب الاسلامية تعكس دون شك جانبا نفسيـــا يتلخص بان الغزوات وما يتصل بها من الحياة العدائية الحربية التى كانت منتشرة فى شبه جزيرة العرب قبل الاسلام مر على ممارستها وقت طويل بحيـــث اصبحت من العادات الاجتماعية والنفسية المستحكمة وعندما جاء الاسلام ليؤكد على قانون يزيل بواسطته التقاليد المرعية فقد تجمعت قوة عدائيـــة

لدى العرب كان من الصعب اظهارها نظرا لان القيم الاسلامية تحول دون ذلك فاذا ما بقيت هذه الاحساسات النفسية العدائية مكبوتة فانها قد توجه ضد المجتمع الاسلامى فكان لابد من توجيهها الوجهة النافعة التى تعود على المسلمين بالفائدة وتمنع بالوقت نفسه من حدوث ردة على الصعيدين الدينى والاجتماعى نتيجة لما احدثه الاسلام العظيم من تغيير جذري فى عادات العرب وتقاليدهم .

وبكل تأكيد فقد تمكن الاسلام من ان يترجم قيمه الدينية الى واقع سياسى تمثل فى الدولة الاسلامية كما نجح فى اعادة تركيب المجتمع بجوانبه المختلفة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية وبذلك يصبح الاسلام دينا يتميز عن غيره من الاديان السماوية بقابليته للتنظيم الاجتماعى ومرونته لبناء التشكيلات السياسية وزاد الاسلام على ذلك بان ترك الباب مفتوحا لحركة فكرية قوية امدها بالرعاية الكاملة وبذلك التقت الثقافات الاغريقية القديمة بالفكر العربى الاصيل كما اثرت القيم الدينية الاسلامية فى تحويل الركائز الوثنية للفلسفة اليونانية الى مستويات وقواعد خلقية اعتمدت على التعاليم الاسلامية دون ان تلجأ الى ما تميز به الفكر الاغريقى من وثنية أو خرافات وهنا يتضح الفارق بين الدين الاسلامى والديانات الاخرى فاليهودية تأثرت الى حد كبير بالتفكير البابلي القديم وعلى الاخص فى التخطيط لجوانب الدين اليهودى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية اما المسيحية فانها وقعت تحت تسلط الفكر الاغريقى وبالاخص مثالية افلاطون ومنطق ارسطو التى تبلورت فيما بعد فى تفكير الافلاطونية الجديدة والشروح التى وضعها افلوطين لكتب ارسطو بينما انفرد الاسلام بسموه فوق الفلسفة بشكل عام والاغريقية بشكل خاص بل انه ارتقى فوق هذه الفلسفة وما وصلت اليه من محاورات فلسفية اختلط فيها اللاهوت بالشك فقد ازال الاسلام الجانب الوثنى من الفلسفة الاغريقية وبذلك وضع الدين وقيمه قبل الفلسفة وما تبحثه من امور ميتافيزيقية او تلك المستندة على التأمل . ويرجع السبب فى ارتفاع الاسلام فوق صروح الفلسفة الاغريقية

الى انه دين أمة ذات قومية عريقة هي القومية العربية .

ونظرا لان القيم الاسلامية اكثر واجرأ واكثر مرونة من غيرها من القيم الدينية المماثلة فى طرح تجربتها على الواقع فقد نشأت بعض الصعوبات وبعض ردود الفعل التي اعتبرها الكثير من المستشرقين علامات مرض مثلت التفاوت بين القيم الدينية وبين واقع الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ولكن هذا اللون من التفكير يخالطه الكثير من الخطأ فان الدين الاسلامي قد وضع القيم التي جاء بها للاختبار فى عالم الواقع وطرحها كاعمق واوسع ما تكون هذه العملية فكان طبيعيا ان تنشأ ردود الفعل وتحدث بعض الصعوبات التي اختلفت من كونها شكا الى قيام حروب اهلية وحزازات تمثلت فى بعض الانقسامات الفكرية والمذهبية ولكن عوامل الانقسام هذه خضعت لظل الاسلام العظيم فقد كانت قوة العمل المشترك اقوى دوما من الانقسامات التى ظهرت فى فترات مختلفة من التفاعل بين الدين الاسلامى وحياة الواقع .

وقبل ان نسمي ما حدث للاسلام عند تفاعله بالحياة ، ردود فعل طبيعية تحدث لكل نظام مثالى يحاول ان يحدد معالم الواقع حسب ما يتميز به من مستوياتونظم واهداف، علينا ان نتعرفعلى الارض التي طرح فيها الاسلام قيمه للاختبار ونمحص التركيب البشري لسكانها وبدون تردد فان القيم الاسلامية انتشرت فى رقعة واسعة من الارض لا يمكن ان يناسب بينها وبين المساحة التي اظلتها القيم الدينية اليهودية او المسيحية . اما البنية السكانية للمجتمعات التى نشر الاسلام مبادئه بينها فانها تكونت من عرب ومستعربين وبهذا فقد استطاع الاسلام ان يسرع فى انجاز نجاحاته فى ارض الغالبية فيها من العرب لان القومية العربية عملت بشكل فعال فى مد الاسلام بما احتاج اليه من سند فى الفداء والتضحية وبذلك تلاحمت قوة القومية العربية بالقيم الدينية الاسلامية فقد عمل الدين الاسلامى على ان يكون المظلة الاخلاقية التي جنبت القومية العربية من ان تشتط في الفكر والعمل فابتعدت بذلك عن كل زيغ او انحراف او خروج على القيم الاسلامية ذات المحتوى الانسانى العميق .

ولكن الدين الاسلامي بوصفه دينا شاملا يمثل حركة خلقية عالمية سعت فى سبيل تفاهم افضل بين بني الانسان ، قد طرح بوحي فى هذه القيم المقدسة مبادىء مشبعة بالرحمة والاتساع فى شمول الاسلام لاولئك الذين يتمسكون بما نادى به من قيم • وقد اختلفت التراكيب البشرية التي دخلت فى الاسلام فى تفسير هذه المبادىء فالعربية منها اخذتها على طبيعتها واعتبرتها سندا للقومية العربية فى هدفها الرامي الى اتساع تأثير العرب فى الفكر والعلاقات الدولية القائمة على اساس من التفاهم والمنفعة المتبادلة بين الاطراف المعنية بوحي من القيم الدينية الاسلامية المتماثلة بينما جنحت التراكيب البشرية غير العربية فى تفسير جوانب الرحمة والشمول فى الديانة الاسلامية واتخذت منها مبررات لعمل تخريبي فى الفكر والواقع •

ففي مجال الفكر ظهرت الكثير من التخريجات والتفاسير الغامضة التى تتنافى وما هو موجود من نصوص الى حد التشكيك فى وجود معان باطنية لما هو ظاهر فى النصوص وبذلك قطعت كل صلة بين الدين الاسلامي وبين هذه المحاولات البعيدة عنه روحا وواقعا لان الباطن اذا انفصل عما هو متعارف عليه بداهة او عقلا فانه من الصعوبة بمكان ان تحصر المعاني التى يراد بها تفسير النص ويخرج الامر من كونه محاولة عقلية لفهم قيم ذات معان سامية الى الغاز وتخريجات تهدف بشكل فعال الى التقليل من شأن العرب فى فهم الاسلام ورميهم بالضحالة من جهة والعبث بالنصوص الدينية من جهة اخرى لذا فان اكثر الجمعيات السرية فى الاسلام تأثرت بناحية او باخرى مما يعطي فى تفاسير اصبحت بمر الزمن مبطنات لحركات تراوحت بين الزندقة والاغتيالات وان كانت كلها تدخل تحت عنوان الشعوبية •

وسقطت بغداد على يد المغول ولكن الاسلام بقوميته العربية كان اقوى من جحافل الاقوام الغازية نظرا للتفاوت الحضاري الواسع بين الحضارة العربية وبين المغول الذين لم يبدعوا الا بالحرب وكونهم فى عز حركتهم الرامية الى توحيد القبائل ضد عدو مشترك فالحضارة العربية وان انتابها ضعف سياسى الا انها كانت تمثل حضارة متكاملة ومرنة فى تلك الفترة من

التاريخ العالمى مما جعلها فى حالة جذب عظيم لهمجية المغول وغزوات التتر وان تمكنت من صدهم عسكريا وكسرت حدة اندفاعهم كما شتتت خرافة الحروب الصليبية .

ولكن هذه العملية الحربية الاخيرة قد استنفذت ما لدى القومية العربية من مرونة على الصعيد القومي فانفصلت الاجزاء المختلفة للامة العربية واصبح المسرح السياسى خاليا فظهر السلاجقة الا انهم كانوا اضعف من أن يسدوا الفراغ السياسى الهائل الذي نشأ باضعاف التركيب السياسى للحضارة العربية مما فسح المجال لظهور العثمانيين الذين اختلفوا فى اساليب عملهم عن التتر والمغول أو السلاجقة فقد جمع العثمانيون بين الغزو والسياسة فى محاولة لبناء تشكيلات سياسية جديدة ونجحوا فى اقامة قاعدة فى الاناضول الا انهم لجأوا كغيرهم من غير العرب الى فصل الاسلام عن القومية العربية ظنا منهم ان هذه المحاولة تمكنهم من استغلال مبادىء الرحمة والشمول فى الدين الاسلامى دون التفاف لمعانيها القومية النابعة من واقع الامة العربية وبذلك اختزل العثمانيون الاسلام العظيم الى واجهة سياسية لاضفاء شرعية وروحية على حكمهم الذي بدأ يتصدع بعد ان ابتعدت الشقة بين الاسلام كدين سماوي ذي مبادىء سامية عميقة وبينه كأداة سياسية عثمانية .

ومما يؤكد بعد العثمانيين عن القيم الدينية الاسلامية الاختلاف البين بين واقع الحياة العثمانية السياسى والفكري وبين مفاهيم الدين الاسلامى سواء اكان ذلك فى الاجراءات والخطوات التى اتخذت واتبعت فى تسيير دفة السياسة والحياة فى الدولة العثمانية أو فيما ظهر فى سلوك الحكام العثمانيين الذين يختلفون اختلافا بينا عن ادعاءاتهم فى تبنى مقاييس الخلافة والالتزام بالنهج الاسلامي بالاضافة الى أن المتنفذين من آل عثمان اضطهدوا القوميات الاخرى وفى مقدمتها قومية الدين الاسلامى (القومية العربية) .

ولعل حير دليل على اختزال العثمانيين للدين الاسلامي الى مجرد

ولعل خير دليل على اختزال العثمانيين للدين الاسلامى الى مجرد

وعد ذلك من وسائل الاصلاح والنهوض بالمجتمع التركي ذي السياسة التقليدية .

وقد ظهر هذا الاتجاه فى شعارات حزب الاتحاد والترقى ومحاولة رجال هذا الحزب تبني مبادىء الثورة الفرنسية . ثم ظهر التباين بين العثمانيين كدولة وكتفكير سياسى واجتماعى وبين الاسلام كما فهموه هم فى الحل العلمانى الذي جاء به كمال اتاتورك واعتبره المخرج السليم للازمة التي كان يمر بها الفكر والمجتمع فى بلاد الاناضول انذاك .

وقد اورثت السياسة العثمانية التي فسرت الاسلام بشكل يسند مصالحها ارتباكا شديدا فى الفكر والواقع الاسلاميين وان خضع المسلمون من غير العرب لما عكسه العثمانيون من تفكير ديني امتزج بالسياسة الى حد بعيد لان اكثر المسلمين من غير العرب ينظرون الى الاسلام نظرتهم الى مصدر يسمو بهم فوق مشاغل الحياة العادية فى الوقت الذي يملأ فيه الفراغ العاطفى الذي تولد نتيجة انقطاعهم عن مفاهيم وثنية ذات مدلولات فلسفية امتزجت بالكثير من الاوهام والخرافات عاشت على شكل تقاليد توارثتها اجيال كثيرة فى اسيا والشرق الاوسط لذا فان المسلمين من غير العرب اكتفوا بما مثله العثمانيون من دور على مسرح السياسة الدينية فخليفة الاستانة يمثل المحور الدينى والسياسى لكثير من المسلمين فى وقت اختلطت فيه التعاليم الدينية الاسلامية بمفاهيم السياسة العثمانية .

أما العرب فأنهم نظروا وما زالوا ينظرون الى الاسلام كعقيدة لامتهم يمثل وسيظل كذلك الجانب الروحى من القومية العربية لذا فان اية محاولة للاضرار بالقومية العربية معناها أضرار بالاسلام نفسه مما دفع بالعرب لمقاومة التسلط العثماني فقد ادرك العرب قبل غيرهم من القوميات أن العثمانيين انما يسعون من وراء رفع الشعارات الاسلامية وطرح بعضها كالجهاد وطاعة صاحب الامر فى الاستانة ايجاد ركائز يستطيع ان يبقى فوقها ومستندا عليها الحكم العثماني الذي تعرض فى تلك الفترة ذات العلاقات الدولية المرتبكة للكثير من عوامل الضعف الداخلية والخارجية . وقد

تمثل رد الفعل العربى للتحديات العثمانية بالاسلوبين التاليين :

أ ـ اسلوب العنف ويمثل ذروة هذا الاسلوب الحركة الوهابية فى الجزيرة العربية فقد حاول محمد بن عبد الوهاب ان ينتفض ضد العثمانيين وان يعيد بناء الاسلام . وقد عكست الحركة الوهابية الروح القبلية الا انها لم تستند الى فهم دقيق للظروف المحيطة بها فقد رغبت بالاصلاح الديني بوجه خاص ولكنها لم تلتفت الى عاملين اساسيين الاول هو الاختلاف فى الزمن بين صدر الاسلام وبين الفترة التي حاول فيها الوهابيون ان يعودوا الى تلك الحقبة الاسلامية المتقدمة . والثاني هو جهل الوهابيين بالصعوبات التي كانت تنتاب الوطن العربي فى ذلك الوقت وقصر وجهة نظرهم فى فهم السياسة العثمانية ومحاولة ايجاد روابط على الصعيد العربي تستطيع ان تعزل السلطان فى الاستانة وتمنع عنه تأييد العرب وكذلك المسلمين ، هذا بالاضافة الى عدم وضوح الهدف لدى الوهابيين وطغيان العمل السريع الحاسم وما صحبه من انفعالية طغت على اكثر ما انجزه الوهابيون من عمل لم يتعد نطاق الجزيرة العربية . وانتهت الوهابية كما بدأت حركة سريعة لم تترك اثرا واضحا فى الاصلاح الديني والاجتماعي الذي قامت من اجله وعادت هذه الحركة لتفسح المجال لتنظيم سياسى اتخذ منها فلسفة يقيم حكمه عليها .

الا ان الحركة الوهابية تعكس الى حد بعيد رد الفعل العربي للتحديات العثمانية من جهة وللتدهور فى الفكر والمجتمع الذي اصيب به مجتمع الامة العربية تحت تسلط الحكم العثماني من جهة اخرى .

ويتفق مع الحركة الوهابية فى عفويتها التاريخية وافتقارها الى الفكر الاجتماعي والتخطيط الثوري وفهم للصعوبات الداخلية والخارجية التي احاطت بالوطن العربي فى تلك الفترة من تاريخ الامة العربية ، الحركتان المهدية التي قادها المهدي فى السودان والسنوسية بقيادة السنوسي فى ليبيا .

وقد قامت المهدية فى السودان والتي تسمى بثورة الدراويش كرد فعل

لمحاولات الاحتلال الانكليزية لارض السودان ثم بلغت اوجها بعد نجاحها في قتل (كوردن) في الخرطوم ولكنها لم تلبث ان اختزلت الى مجرد شعور سياسي ديني تمثل في طائفة الانصار وحزب الامة السوداني الا ان هذه النهاية لم تتفق ومنطق محاولة كحركة الدراويش قصد منها بالفعل تخليص السودان العربي من التحديات الاستعمارية وكان طبيعيا ان تنقلب الحركة المهدية الى محاولة ثورية ناجحة تعم وادي النيل من الجنوب الى الشمال الا ان عفويتها وافتقارها الى الفكر والتنظيم جعلها مندفعة وسريعة وعنيفة لان جانبها العاطفي قد شحن بما فيه الكفاية وبان العمل وكأنه محاولة هادفة في سبيل تخليص ارض السودان العربية من الدخلاء الا ان الجانب العقلي للحركة لم يكن قد طعم بما يضمن الاستمرارية وبلوغ الاهداف البعيدة الاجل .

اما السنوسية في ليبيا فانها تمثل حلقة اخرى من سلسلة الثورات ذات الطابع الديني الا انها قامت بوحي ظروفها المحلية مما مكن المستعمرين الايطاليين من القضاء عليها والفتك بزعمائها لان هذه الحركة افتقرت هي الاخرى الى التنظيم والى العمل المشترك على صعيد الوطن العربي .

ب ــ اسلوب الاصلاح الديني عن طريق الحجة الفكرية ويمثل هذا الاسلوب السيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده وقد تميز هذا الاسلوب بانه محاولة لكشف زيف الخلافة العثمانية اولا والعمل على انهاض المسلمين عن طريق تعريفهم بالاسلام وقيمه الاصلية ثانيا .

وعلى الرغم من ان الافغاني ولد في (كابل) حيث تسود نزعة تقليدية في اتباع السلطان العثماني فانه ادرك في مصر ان هناك خلافا بين ما يعكسه السلطان في استانبول كخليفة وبين الاسلام كدين ذي قيم سماوية واجتماعية خالدة .

من هذا المنطلق شرع جمال الدين الافغاني يبث افكاره التي هدفت الى التعريف بالاسلام وبهديه وتعاليمه وقد سار على هذا النهج تلميذه الشيخ محمد عبده وحاول كلاهما ان يعيد الشباب للفكر الاسلامي فقد اصدرا جريدة (العروة الوثقى) في باريس في محاولة للافض الغبار عن

الفكر الاسلامي وفسح المجال امام القيم الاسلامية لكي ترتفع بالمسلمين الى متطلبات الفترة التي يعيشون فيها .

الا ان هذا الاسلوب وان ارتكز الى الفكر المنظم والعمل الهادىء الا أنه افتقر الى فهم عميق لطبيعة الحركات الاصلاحية وعلى الاقل كما تفهمها في عصر الحاضر فقد حاول كل من الافغاني ومحمد عبده ان يتبع طريق الاصلاح وأن يخطط في سبيل مستقبل افضل ولكنهما لم يعرفا البداية السليمة لمشاريعهم الاصلاحية مما حال دون ترجمة محاولاتهم الفكرية الى تنظيم سياسي يستطيعون بواسطته اتباذ اعمال جدية تتراوح بين العمل الفكري الحاد وبين الثورة التي كانت لازمة في ذلك الوقت لتبديل الكثير من المفاهيم السياسية والاجتماعية والثقافية التي كانت تعيشها الملايين من ابناء الامة العربية .

وبعبارة اوضح لم يتمكن جمال الدين الافغاني بحكم ولادته او محمد عبده بحكم تفكيره والتزامه الفكري ادراك قوة القومية العربية وما تستطيع ان تقوم به لو تمكن كل منهما من تطعيم الاصلاحات التي نادى بها بحوافز قومية تعكس ما تلاقيه القومية العربية تحت التسلط العثماني من صعوبات وتحديات .

وبهذا فقد انقطعت الصلة تماما بين الحركات الثورية التي ارادت أن تغير المجتمع العربي متأثرة بالنواحي الدينية ومؤكدة على التزام القيم الاسلامية والرجوع اليها بعد النسيان الطويل الذي انتهى بالمسلمين الى التأخر والانحطاط وبين الحركات الهادفة الى اصلاح الفكر الاسلامي وتخليصه مما علق به من مفاهيم واوهام جعلت من الاسلام مجرد واجهات سياسية لحكم قائم انذاك وتفسيرات اقترنت بالكثير من الجهل والخرافات فلم تكن والحالة هذه صلة بين العمل الثوري وبين الفكر الثوري في مطلع العصر الحديث مما جعل العمل الثوري يقضي عليه في مهده اما الفكر الثوري الاسلامي فقد اختزل الى مجرد مقالات ذات طابع ديني اصلاحي لم تكن تتعدى مجالات الاصلاح التقليدية في الوقت الذي انصرف فيه

الكثيرون من ناشئة الامة العربية عن التفاعل مع الحركة الفكرية الاصلاحية التي مهد لها جمال الدين الافغاني وتلاميذه الازهريون كمحمد عبده ومصطفى عبدالرازق مما أدى الى دفع حركة أصلاح الفكر الديني الى محاولات دينية فلسفية لايجاد فكر اسلامي وذلك عن طريق تخليص الفكر الاسلامي من شوائب الفلسفة الاغريقية والبحث فى ثنايا ما خلفه المفكرون المسلمون وعلى الاخص فى عصور النضج الفكري وفى الفترة التي ضعفت فيها التراكيب السياسية للحضارة العربية والاستفادة من هذا النهج فى البحث للتعريف بالتراث الاسلامي الاصيل وملخص القول فقد اقتصرت الحركة الاصلاحية للفكر الاسلامي الى مجرد منهج للبحث فى التراث الاسلامي والتعرف على ما يمثل هذا الفكر باصالة وامانة .

القومية العربية والعمل العربي

نظرا لما وصلت اليه ردود الفعل على الصعيد الدينى للتأخر والجمود الذى ساد الوطن العربى فى مفتتح العصر الحاضر وتشعب الجهد فى دفع ثورة تهدف الى بناء مجتمع جديد فى الوطن العربى الى ردود فعل دينية اتسمت بالسرعة وافتقرت الى التخطيط او تم اختزالها الى محاولة فكرية لاصلاح دينى عكست نفسها بشكل بحوث دينية فلسفية لم تلبث ان تحولت الى مدارس للفكر الدينى والفلسفى تأثرت الى حد كبير بالفلسفات الاوربية وفى دور الدين فى الاصلاح الاجتماعى .

وبذلك فقد اتجهت الجهود الدينية فى ايقاظ المجتمع وجهات لم تتجاوب تجاوبا كليا مع متطلبات التغيير الاجتماعى وعلى الاخص الاسلوب الجذرى الذى كان المجتمع العربى فى ذلك الوقت بامس الحاجة اليه لكي يقيم ثورة في نظم حياته وتفكيره واتاجه . وعلى الرغم من قيام الحركات ذات المحتوى الدينى التى طالبت بالاصلاح فان الكثير من مواطنى الشرق العربي ما زالوا متمسكين بشكل او بآخر بالاستانه وبسلطانها الذي اسبغ على نفسه طابعا دينيا لكي يستغل عطفه العامة من الناس فى فترة انخفضت نسبة

الثقافة فيها وانتشرت الاوهام والخرافات وآمن الفرد العربى كليا بالقضاء والقدر فقد أنعكست هذه المفاهيم على الفكر والسلوك الاجتماعيين لدى الكثير من ابناء الامة العربية بالاضافة الى عوامل اليأس والتراجع والخوف والتردد وقصر الاهداف التي كانت ملائمة للحركة العربية المحدودة فى تلك الفترة التاريخية الراكدة من تاريخ العرب . هذه المؤثرات السلبية ونظرا لما قامت به الاستانه من عمل اربك مفهوم الدين لدى مواطنى الشرق العربي فان الفرد العربي لم يكن ليفرق بين الدين الاسلامي بنصوصه وقيمه القدسية وبين استغلال الدين من قبل الحكام العثمانيين بالاضافة الى ان الحركات الدينية ذات الطبيعة الثورية لم تشمل الارض العربية بكاملها وفى بعض الاحيان لم تترك المنطقة التي نشأت فيها نظرا لقيام تجزئة قوية زادتها فترات التأخر والتردد قوة مع ضعف او موت فى وسائل الاعلام ونقل الافكار او الاخبار من منطقة الى منطقة اخرى مما افقد القيمة المتوخاة من وراء قيام حركات اصلاحية سواء تلك التي اتخذت من العمل السريع اسلوبا لتحقيق اهدافها او تلك التى انتهجت سبيل التفكير الاصلاحى وفتح المجال واسعا فى الاسلام وخصوصا الجوانب الاجتماعية منه لكي يتم التلاقح بينها وبين ما ساد اوربا من تطور اجتماعى وسياسي وفكرى واقتصادى . الا ان الصعوبات التي اعترضت الابعاد الجديدة لردود الفعل ذات الصبغة الاسلامية ووجود العدد الكبير الذى ما زال مؤمنا بحكام الاستانه كممثلين للمسلمين وللتنظيم السياسى الاسلامي اضفى على الحركات ذات الصبغة الدينية طابعا تقليديا ابتعد بها عن مجال الكفاح والحركة فى سبيل التغيير الاجتماعى والاستغلال السياسى وبذلك بدأت القومية العربية تتحمل عبء المعركة لانها تمثل روح التكتل العربي كما انها لم تدخل فى اى نوع من التصالح مع السلطة العثمانية الحاكمة بل انها بالعكس وقعت تحت ثقل التسلط العثماني واضطهدت كما كان الحال بالنسبة للقوميات الاخرى الداخلة فى تركيب الدولة العثمانية مع تميز القومية العربية بالاسلام الذي اعتبره العثمانيون او بالاحرى استغلوه في سبيل مكاسبهم الخاصة بتدعيم الحكم والسلطة .

وكان لا بد للقومية العربية وهي تبرز ثانية على مسرح السياسة في منطقتها وعلى صعيد المعترك الدولي ان تجد لها معادلة ناجحة تستطيع بواسطتها ان تكون قوة لها اثرها فى تاريخ الامة العربية وواقعها الاجتماعى وتبعا لهذه الصورة الجديدة التى سعت الى رسمها القومية العربية فانها اتبعت الاسلوب الآتي :ـ لقد جعلت الخط واضحا بين الفكر القومي الذي يضم الايمان بقوة القومية العربية وما تبنته على مر تاريخها من قيم اسلامية مقدسة مع احترام للاديان الاخرى التى عاشت فى الارض العربية وبين التفكير بالاسلام كما فهمته السلطات العثمانية وبذلك وضح الاختلاف بين القومية العربية كقوة تعمل للمستقبل وبين التفكير العثماني ومناصريه الذين يعملون لماض هو فى الحقيقة حنين الى فترة متقدمة مرت بها الدولة العثمانية وبذا حق ان يطلق على هذه القوة الهادفة الى ابقاء القديم على قدمه اسم (القوى الرجعية) .

ولم تقف حركة العمل القومى العربى عند هذا الحد وانما حاولت ان تفتح نوافذ الفكر القومى العربى على ما هو جديد فى اوربا وبذلك تمكنت من ان تجتذب ركيزتين اوربيتين الاولى هى تلخيص لمبادىء الثورة الفرنسية الخاصة بالتأكيد على الحرية والاخاء والمساواة وقد نبعت عن هذه الركيزة الفكرية الاوربية الجديدة (فكرة الاستقلال) . فالاستقلال يجب ان يتم ويجب ان تتخلص الامة العربية من السيطرة العثمانية وان تتحكم هي بنفسها فى ظروفها المادية والبشرية واضعة نصب عينيها متطلبات الشعب العربى من جهة وما يفرضه الوضع العالمى من مسؤوليات والتزامات من جهة اخرى . اما الركيزة الثانية التى اقتبستها القومية العربية من الفكر الاوربى فانها تتمثل فى التفكير الهيگلي الذي يؤكد بان التاريخ هو السفر الذي يضم أعمال العباقرة وان العبقري يستطيع أن يسموفوق التاريخ بينما يقوم المؤرخون بترجمة اعمال العبقرى نفسه جاعلين من ذلك كله تاريخا تداوله الاجيال وقد ترجمت الافكار (الهيگيلية) وما فيها من ديناميكية والعمل فى سبيل الافضل والتأكيد على صفة (القائد) مع الاهتمام بشكل اصيل بالتغيير

الاجتماعى والبعد عن الركود لان هيگل يعتبر الحركة قانونا للحياة باجمعها وقد اتفقت الفلسفة الهيكيلية مع التفكير المتعارف عليه فى القومية العربية الا وهو ابراز الاهمية المناسبة للبطل او القائد وجعله فى مركز يستطيع ان يوجه منه البشر والتاريخ على حد سواء .

وقد اثرت الفلسفة الهيگيلية فى ايجاد معيار او مقياس للتعرف على المستقبل فقد اكد هيكل بان القومية كما يفهمها تتمثل فى روح الدولة شخصية القائدالذي يجسم آلام وآمال أمته ناظرابقوة وتصميم نحو قوميته الالمانية أما بالنسبة للقومية العربية فان القائد هو الذي يمثل بالفعل المحور للحركة فى الحاضر والمستقبل ونجاحه ينبع من مقدار تمثيله لروح القومية العربية وبذلك تصبح هذه الروح هى الاساس فى المفاضلة بين شخص وآخر عند اختيار الاصلح ليقود المسيرة العربية نحو التحرر والوحدة الشاملة . وبالنسبة للفظ الاختيار فليس المقصود به الانتخاب فحسب لان البطل الذى يترجم روح القومية العربية يستطيع ان يرغم الاحداث بما فيها عمليات الانتخاب الشكلية لكي تخضع لمشيئته وتتجاوب مع ما يخططه لحاضر امته ومستقبلها . وفى الوقت نفسه فان القومية العربية لم تتأثر بالفكر والواقع فى العالم الانكلو سكسونى لانهما (الفكر والواقع) قد قاما على تجربة فى نفس الانكلو ــ سكسون خضعت لقيم اكثرها يوجه عن طريق الاخذ والرد وما يسمى بسياسة ارضاء الاطراف المختلفة ولو على سبيل المجموع بالاضافة الى بروز بعض المؤثرات السلبية التى اضعفت من أهمية التفكير السياسى الانكليزى واوجدت الكثير من التناقض بين العمل والواقع والفلسفة الانكلو سكسونية . فقد كانت انكلترا كاثوليكية ولكنها قطعت صلتها بروما لسبب متعلق بملك اسمه هنري الثامن وبحادثةشخصية لا تتعدى طلاق زوجته (كاترين) والزواج من (آن بولين) وان كان هناك العديد من المشاكل التى اوجدت فراغا بين انكلترا والبابوية فى روما اهمها العداء بين اسبانيا الكاثوليكية وقوتها البحرية التى نافست الاسطول التجارى والحربى فى بريطانيا فى ذلك الوقت الا ان رد الفعل الانكليزي

لم يكن ليعكس رغبة الشعب نفسه اكثر من اشباعه لرغبات ملوكه فقد جرت اضطهادات للكاثوليك والبروتستانت على حد سواء . أما تجربة الانكلو سكسون الثورية فانها لم تكن هى الاخرى نابعة عن تصميم فقد امتصت (حرب الوردتين) بين الاسر البريطانية الحاكمة قوة التصميم لدى الشعب البريطاني وبذلك كانت ثورة (كروميل) حدثا باهتا لم يترك اى اثر على مسرح السياستين الانكليزية والعالمية بينما ورث الانكلو سكسون اسلوبا فى العمل السياسى يهدف الى ضم الاطراف ذات المصالح ولكن اشباع رغبات كل هذه الاطراف بدأ يصعب كلما ازداد ابتعادها عن بعضها مما ادى فى نهاية هذا الخلط وتعقيداته السياسية ان تولد وسيلة عملت على ارضاء أكبر عدد ممكن من الجهات ذات الصلة بالموضوع وقد سميت هذه الوسيلة الجديدة باسم (الديمقراطية) لانها تحاول ان تترجم رأي معظم الناس فلم تعد تعني كما كانت خلال الفترة اليونانية المتقدمة (حكم العامة) وأنما اكتسبت معنى جديدا هو ايجاد المصالحة بين الاكثرية او الاغلبية من الاطراف المتنازعة . وفى مجال الفلسفة والفكر فان اكثر الفلاسفة الانكلو سكسون لم يكن لهم خط فلسفي يلتزمون به (فتوماس هوبز) يمجد الملوك والملكية بينما يعمل (هيوم ولوك) على الاهتمام بالفرد والفردية التي تبلغ مداها فى الاهمية على يد (جون ستيورت مل) .

وفى مجالات الاقتصاد فان الفكر الانكلو سكسونى اضطرب بين حرية التجارة وفلسفة اليد غير المنظورة التي نادى بها آدم سمث فى كتابه (ثروة الامم) وبين نظريات اللورد كينز التى اكد فيها على اهمية القطاع العام ورأى أن تدخل الدولة امر لا مفر منه فى سبيل انعاش الاقتصاد الوطنى وذلك عن طريق ما تستثمره الدولة من أموال فى المشاريع التى لا يقصد من ورائها فائدة بقدر ما تدفع بعجلة الاقتصاد الى الازدهار وزيادة الانتاج وقد اثر هذا التفكير الاقتصادى فيما اتخذ من اجراءات خلال فترة الثلاثينات فى الولايات المتحدة عندما ساد (الكساد العظيم) واصبحت آراء كينز المخرج لتلك الازمات .

بهذه الاسلحة واجهت القومية العربية مسؤولياتها فى العصر الحاضر فمن الناحية الفكرية جمعت بين النظر الى المستقبل العربى من خلال اهمية القومية العربية بعد ان فصلت بين الاسلام الاصيل وبين مايدعيه العثمانيون من تبنى للقيم الاسلامية وتوجيهها وجهة سياسية وشخصية ضيقة بالاضافة الى ما اقتبسته القومية العربية من فكر تجسم فى مبادىء الثورة الفرنسية وذلك لضمان استقلال البلاد العربية وما جاء به هيكل من تأكيد لاهمية القومية كعنصر من العناصر المكونة (للذات القائدة) ذات الاثر فى توجيه أمتها لذا لم تهتم القومية العربية بشكل اساسى بما أتصف به الفكر الانكلو سكسونى .

ويعتبر المؤتمر العربى الاول الذى عقد فى باريس سنة ١٩١٣ م تجسيدا للابعاد الجديدة التى أختطتها القومية العربية فى مسيرتها لضمان دور يتناسب والاهمية التاريخية للامة العربية حضاريا وتاريخيا وواقعيا ويمكن ان نفهم المقررات التى توصل اليها المؤتمر العربى الاول فى باريس على ضوء الابعاد الجديدة للقومية العربية فقد ضجرت القومية العربية من محاولات الاتراك الرامية لاستغلال قيم الدين الاسلامى المقدسة كما تأكد لديها أن الانفصال عن الدولة العثمانية هو حجر الاساس فى بناء المجتمع العربي فى المستقبل وبذا يعكس المؤتمر العربي الاول الذي دعا الى أن تكون القومية العربية هى المنطلق السليم لبناء الامة العربية وتوجيه مسيرتها نحو المستقبل وتأكيد استقلالها وأنفصالها عن تركيب الدولة العثمانية المتآكل خطوة على الطريق السليم . وينفي ماأوضحناه عن المتطلبات العربية فى ذلك الوقت والاهتمام بالقومية كمركز لتكتيل القوى العربية فى سبيل عمل مشترك ما يذكر من ان المؤتمر العربى الاول قد ابتعد عن القيم الدينية والواقع ان الدولة العثمانية نفسها ابتعدت عن الدين الاسلامى ووضح ابتعادها اخيرا فى اتباعها العلمانية فى الوقت الذى حاول فيه المؤتمر العربى الاول فى باريس ان يجد الحل السليم للمشاكل التى جمعت بين التأخر والتردد والانقسام السائدة فى الوطن العربى انذاك ، فقد اكد المؤتمر العربى الاول على القومية

العربية بالذات لانها تمثل الحد الفاصل بين الاستقلال والتبعية فتقطع الطريق على محاولات الالتفاف التى قد يستغلها الحكام العثمانيون للعبث بعواطف العامة من الناس فى وقت انخفضت او انعدمت فيه نواحى الوعى والثقافة بين ابناء الامة العربية ، لذا فمن الاصوب ان نصف الحكام العثمانيين او الدولة العثمانية بشكل اوسع بانها هى التى انحرفت عن القيم الاسلامية وليس المؤتمر العربى الاول فى باريس ، لان اعضاء ذلك المؤتمر انما كانوا يفتشون عن اسلم السبل واصلحها لبناء كيان عربى جديد وهو امر ما زال الجيل العربى الحاضر يحاول ان يجد الحل المناسب وبكل وضوح فقد توصل المؤتمر الى ان المنطلق السليم هو احياء القومية العربية باجنحتها المختلفة من فكر وتاريخ وحضارة والتأكيد على قيمتها الروحية المتمثلة فى الاسلام واحترام عميق للديانات الاخرى التى تستظل بظل القومية العربية وتعمل فى سبيل خير العرب تربطها واياهم روابط تاريخية ومصيرية مشتركة . وعلى صعيد الحركة فقد رسمت التنظيمات السياسية العربية السرية والعلانية سياسة تتراوح بين التأكيد على القومية العربية او تهيأة علائق افضل بين الوطن العربى وبين الدولة العثمانية ويرجع سبب هذا التردد الى تأثير الروح العسكرية لدى الضباط العرب ممن خدموا فى الجيش العثمانى مما ولد لديهم ولاء للدولة العثمانية . ومن وجهة النظر التاريخية فان الجيل الذي سيطر على مقاليد الامور سواء اكان منها فى الفكر او المجتمع او الحياة فى مطلع العصر العربي الحديث كان من التقليديين الذين لم يعرفوا اكثر من ان السلطان يمثل مركزا دينيا معينا لابد من طاعته حتى لقد وصل الامر بالبعض من ابناء الجيل السابق الى تكذيب كل ما ثبتت صحته عن الاختلاف بين ما يدعيه وما يقوم به السلاطين العثمانيون ورجال حكومتهم بالفعل واعتبروا تلك الاحداث من عمل الشيطان الذى يغوى الاخرين فيصور لهم غير ما عليه واقع الفساد فى الحكم وفى الحياة فى الدولة العثمانية .

ونتيجة للتغييرات الهائلة التى اتابت الوضع السياسى فى العالم قبل الحرب العالمية الاولى وتركزها بشكل رئيسى على الدولة العثمانية التى

سميت فى ذلك الوقت بالرجل المريض لا لضعفها فقط ولكن لانها لم تستطع رغم وقوع قسم من اراضيها فى اوربا ان تدخل فى حضيرة الدول الاوربية وبذلك وجدت القومية العربية نفسها امام امتحان عسير لانها لم تكن قد وجدت لها الطريق بين صعاب الماضى ومشاكل الحاضر فهى مع الدولة العثمانية وليست معها وهى تريد التأكيد على قوميتها ولكن الوسائل تعوزها لنشر الوعى القومى الا ان ذلك الوضع الشاذ لم يمنع القومية العربية من تشكيل تنظيمات سياسية تركزت فى بلاد الشام نظرا لوقوعها بشكل مباشر فى مهب ريح سياسية جعلتها (بلاد الشام) مصدر جذب لكثير من النظريات السياسية التى سادت اوربا وتسربت بعض مكوناتها الى الدولة العثمانية نفسها الا ان الجيل العربى التقليدى كان اكثر وضوحا فى تقليديته من جيل القومية العربية فقد ظهرت فى شبه جزيرة العرب دعوة لخلافة جديدة تبنتها (الاسرة الهاشمية) ونظرا لما للمركز الدينى للمنطقة التى ظهرت فيها هذه الدعوة وما اشاعته عن نفسها بانها ضد الاتراك فقد عملت الاسرة الهاشمية على أجهاض العمل القومي العربي وذلك بتبني شعاراته الداعية الى استقلال البلاد العربية تحت تسلط لاسرة الهاشمية وقد تمكن فيصل احد أفراد هذه الاسرة من ان يغتال الشعور القومي العربي فى بلاد الشام وان يستغله لصالح الدعوة الهاشمية التى تبناها والده فى الحجاز .

وهنا وقفت القومية العربية على مفرق طرق بين ان تؤكد على خطها القومي فى العمل وان تناضل فى مسيرتها حتى يسنح للروح القومية من يمثلها فيوجه التيار الجديد وبين ان تقبل بزعامة تقليدية تريد ان تمشى فى ركاب المبادىء التى نادت بها وكافحت من اجلها القومية العربية وقد اثبت التاريخ خطأ الحكم الذى قبل به دعاة القومية العربية فى ذلك الوقت عندما انحازوا الى صف الدعوة الهاشمية وبذلك تسببوا فى خلق رغبة ما لبثت ان تحولت الى نوع من السياسة التقليدية لدى اكثر الدوائر السياسية العربية وهى قبول انصاف الحلول والنظر الى التقليديين او حتى الرجعيين نظرة ان لم يكن يؤثر فيها عنصر التبعية فان مجال العطف او التعاطف مع هذا الجيل

التقليدى له انصاره ومؤيدوه .

وقد فشلت بالطبع الدعوة الهاشمية واخذ افرادها يعمل كل منهم لضمان ملك او زعامة يحصل عليها عن طريق الايقاع بمن تربطه واياهم صلات الاخوة او القرابة القريبة . وقد دللت الاسرة الهاشمية على فشلها فى العمل الثوري الخيبة التي لاقاها فيصل فى سوية وانكشفت للامة العربية النوايا التى دفعت هذه الاسرة لان تؤثر تأثيرها السلبى على التاريخ العربى المعاصر فقد طردت من الحجاز وقبل ان تطرد لعبت ادوارا تقمصت فيها شخص القيم على الامة العربية فمن اباح لحسين مؤسس الاسرة الهاشمية ان يتفاوض باسم العرب مع الانكليز وان يتفق مع مكماهون السفير البريطاني فى القاهرة على حدود الوطن العربى فى الوقت الذى كان يجهل فيه افراد الاسرة الهاشمية الحدود الطبيعية للامة العربية ؟ ثم عندما ظهرت للعالم اجمع مخططات السياسة الانكليزية الفرنسية الاجرامية ممثلة فى (معاهدة سايكس ـ بيكو) وعرف بها مؤسس الاسرة الهاشمية ، لماذا لم يتخذ اجراءا يتفق والمصلحة العربية او يكشف على الاقل زيف الوعود البريطانية مما يمكن ان يجنب العرب اكثر احابيل السياسة البريطانية التى عانى منها العرب وما زالوا يعانون منها حتى الوقت الحاضر ؟ وحقا كيف قبل افراد الاسرة الهاشمية الذين يدعون فى مناسبة او اخرى بانهم يمثلون (الضمير الثورى) للعرب بان يقبلوا مناصب تحت ظل ورعاية ان لم يكن توجيه وتسلط رجال الاستخبارات والادارة الانكليز كما حدث بالنسبة للعراق والاردن ؟.

ان هذه التساؤلات وكثير غيرها توضح دون شك ان الاسرة الهاشمية التى حاولت ان تقوم بثورة عربية لم تكن تقصد من هذه الثورة الا تمكينها من اقامة مجد شخصى للاسرة ذاتها فقد البس مؤسسها بردة الخلافة لفترة وجيزة ثم نزعت عنه وارسل ليقضى ايامه الاخيرة بين الشيخوخة والمرض فى جزيرة قبرص ولم تلبث العراق ان اعطيت هبة (لعبقرية) فيصل ومنحت

شرق الاردن لعبدالله نتيجة ما قدمه من خدمات للانكليز وما تركه من انطباعات ناجحة فى نفس لورنس عندما كان يعمل معه جنبا الى جنب فى المعارك التى خاضها ضد العثمانيين وانتهت باحتلال الانكليز لدمشق . وبدون شك فقد اثبت الواقع والتاريخ ان الاسرة الهاشمية عملت بشكل سلبى فى ابطاء مسيرة القومية العربية واوجدت مكانا للسياسة التقليدية لكي تسيطر او توجه الواقع العربي نحو العمل المستند على ما يسمى بسياسة المباحثات والمعاهدات والعمل السياسى القانع بانصاف الحلول مع تأكيد على الفكرة القائلة بان العرب امة مجزأة وان الوحدة العربية من اصعب الاهداف التى يسعى لتحقيقها العرب وان مركز العرب بالنسبة للظروف العالمية ضعيف ان لم يكن متخاذلا لذا فمن الخير (كما كان اعضاء الاسرة الهاشمية يدعون) ان يقنع العرب بما يمنح او يعطى لهم لان الدول المحيطة بهم وعلى الاخص (بريطانيا العظمى) لا قبل لهم فى محاربتها او الوقوف ضدها على الاقل .

ولما اجهضت الاسرة الهاشمية العمل العربى على الصعيد القومى ظهرت بوادر التجزئة لكى تعمل الامة العربية بشكل يحقق نجاحها ضمن حدود ضيقة اوجدتها بعض الرواسب الوطنية الا ان الحافز الوطنى بالنسبة للاجزاء العربية المختلفة كان دوما يستمد قوته من الحافز القومى فى الوقت الذى يسعى فيه الحافز القومى الى اضعاف الدافع الوطنى لكى تتم الصلة فى عمل مشترك بين الامة العربية بكاملها . ونظرا للاخطار المحدقة بالوطن العربى فى مفتتح اطلالته على العصر الحاضر فقد وجدت قواعد مختلفة للكفاح القومى اختلفت بالنسبة للظروف المحيطة بها من قطر الى قطر اخرفى الارض العربية التى تمتد من المحيط الاطلسى حتى بحر العرب والمحيط الهندى وتتوغل فى قلب القارة الافريقية محاولة الوصول الى منابع النيل ضامة اليها الصومال واريتيريا . واذا درسنا الوطن العربى بشكله المجزأ فاننا يمكن ان تتعرف على ظروف كل قطر من الاقطار العربية ولكن دراستنا تبقى ناقصة لان التجزئة وما تتبعها من وطنية واقليمية وما تشوبها من

عنصرية وطائفية تعاون على خلقها الضعف والتجزئة والركود فى الوطن العربي من جهة والاستعمار والاستغلال ومحاولة توسيع مناطق النفوذ الاجنبى من جهة اخرى ، تعنى التأكيد على الجوانب السلبية فى الجهد العربى الا ان الغاية ستكون لوجه البحث فقط • واذا حاولنا ان تتبع فى دراستنا الكثافة السكانية بالنسبة للاقطار العربية فان مصر ستكون اول بلد عربى تهتم به هذه الدراسة • ومصر كحضارة وجدت منذ فترة قد تمتد الى الالف الخامس او الرابع ق•م وتركيب سكانها خليط من عناصر افريقية وعربية الا ان العنصر العربى ما لبث ان طغى نظرا لاحقيته فى الحياة وبقيت عروبة مصر قوية وخالدة كبقاء اهراماته ونيله والواقع ان حياة القطر المصرى تتأثر بعوامل ثلاث الاول : الاهرامات وهى تلخص حضارة مصر القديمة وتعكس جهد الفلاح والعامل المصرى فانها لا تمثل كما ارادها خوفو وافراد اسرته الحاكمة مقبرة لجثثهم وانها مثلت ما يمكن لجهد الفلاح المصرى ان يعمله كما عززت النضج فى الهندسة والبناء لدى مصر القديمة • والتدليل على القيمة الحضارية للاهرامات فان ارتفاع اهرام الجيزة يبلغ ٤٥٠ قدما فى الوقت الذى تبلغ فيه اعلى عمارة فى العالم التى بنيت بعده بـ (٥) آلاف سنة (عمارة امبابر ستيت فى نيويورك فى الولايات المتحدة) ١٢٤٨ قدما فى ارتفاعها • اما العامل الثاني فهو النيل ويمثل البركة واللعنة فى مصر فى آن واحد ففي فيضه تجديد للتربة المصرية ولكن فيضانه قد يؤدى الى تدمير ما قدمه فيضه من خيرات وقد ادى النيل الى بقاء مصر زراعية وجعل من الفلاح المصرى اداة خاضعة لجبروت الطبيعة التى تمثلت بنهر النيل لذا فان اى سيطرة على مياه هذا النهر معناه احداث انقلاب جذرى فى اقتصاد القطر المصري وفى تفكير ابنائه ونظم حياتهم وصلاتهم الاجتماعية التى طبعتها الزراعة بطابع الركود والاستسلام للقضاء والقدر وما يسبب هذا الرضوخ للقوى الغنيبة من فقر ومرض وجهل وخرافات • وقد درج الكتاب فى مصر وخارجها على تسمية القطر المصرى بانه هبة النيل ولكن هذه التسمية لا تنطبق على الواقع لان النيل انانى يأخذ ما يعطى فمصر هبة

الفلاح المصرى وكفاحه بادوانه البدائية عبر السنين فى سبيل زيادة شريط الارض المزروعة وانتاج ما يكفى يومه ويدفع عنه غائلة الفقر والحرمان . اما العامل الثالث فهو العروبة ومصر بحكم موقعها الجغرافى تتصل بافريقيا حيث ينبع نهر النيل ، فى الوقت الذى تمتلك فيه صلات قوية بالجزيرة العربية ولكن صلتها بافريقيا عميقة الى حد التأثير والتأثر بينما انحصرت صلاتها بالجزيرة العربية عن طريق مضيق السويس . الا ان الواقع الجغرافى لا يمكن ان يتخذ اساسا للحكم على البنية البشرية لسكان مصر فقد دخلها العنصر العربى منذ ازمنة سحيقة واستطاع ان يترك طابعه واضحا فى مجال الحياة والفكر فى هذا القطر من ارض العرب ثم نجح العرب بمشاركتهم فى بناء الحضارات القديمة فى وادى النيل واخذت مصر تحتل مركزا حساسا فى قلب الوطن العربى ودخل الاسلام مصر فلقى قبولا شاملا وهكذا فقد جمع الفرد المصرى بين حضارته القديمة والاختلاط الافريقى العربى واضاف الى هذا المركب القيم الدينية الاسلامية وبذلك وجدت الشخصية المصرية . والسؤال الذى يراود الذهن ما هو مقدار عروبة مصر ؟ وبدون شك ان المصريين عرب لانهم عاشوا وهم يحملون هذه الصفة خلال قرون طويلة شاركوا فيها فى آمال وآلام الامة العربية فقد استطاع الظاهر بيبرس أن يصد المغول كما تمكن صلاح الدين عن طريق جمع كلمة العراق وسوريا ومصر أن يكسر شوكة الصليبيين فى معركة حطين مما يؤيد اختلاط الدم العربى فى مصر بمثيله فى العراق وسوريا . الا ان حكم المماليك لمصر وابتعادها عن السيطرة العثمانية ولد نوعا من البعد بين مصر وبقية أجزاء الوطن العربى وقد اكد محمد علي فى مصر على هذه العزلة وحاول ان يجعل من القطر المصري دولة مستقلة توقفت تطلعاتها بعد مغامرة (نافاريتو) التى نجح السلطان العثمانى فيها فى تحطيم الاسطول المصرى عن طريق زجه فى معركة غير متكافئة مع الاساطيل الاوربية . ودون ريب فقد اثرت هذه العزلة فى نفس الفرد المصري وانعكست بشكل أعمق فى كتابات بعض المفكرين المصريين نتيجة لما طبع عليه بعض المصريين من خضوع لولاة

أمورهم فقد حاول الخديوي اسماعيل جعل مصر قطعة من اوربا وبذلك عمل على قطع الصلات التى تربط القطر المصري بالوطن العربى وبالقارة الافريقية وقد ظهرت نتيجة تأثير حكم اسرة محمد علي والحملةالنابوليونية وما تركه الازهر من اثر فى الحياة الاجتماعية والفكرية والسياسية انقامت ثلاث مدارس فى مصر :ـ المدرسة الاولى اتبعت (الباب العالى)فىالاستانة فهى مدرسة تقليدية لانها رأت ان حياة مصر تتوقف بشكل رئيس على مقدار صلتها بالباب العالى وتأييدها للسلطات العثمانية وقد نشأ كرد فعل لهذه المدرسة منشقون عنها وان ساروا على هذا النهج متأثرين باسلوب التفكير الجديد فى الازهر الذى نشأ عن طريق ما بثه السيد جمال الدين الافغانى وتلاميذه الازهريون الذين فكروا فى توسيع الازهر وضم المسلمين تحت لوائه دون التقيد بالسلطان الذي ظهر جموده وتأخره ومعاداته لكل حركة ترمي الى التحرر والانفتاح فى الفكر والتجربة على ما هو جديد فى اوربا .

أما المدرسة السياسية الثانية فانها اندفعت للعمل السياسى بشعور من السعى لاستقلال القطر المصري من التدخلات الاجنبية التى فرضت عليه نتيجة لاخطاء أسرة محمد علي وعلى الاخص اسماعيل الذى اوقع مصر فى ضائقة مالية عن طريق اسرافه فى المشاريع الانشائية غير المنتجة (كدار الاوبرا) والمشروعات الاخرى التى لم تكن لتتمشى او تتفق مع متطلبات الاصلاح فى الحياة المصرية وعلى الاخص فى الريف حيث تكمن العينة الممثلة للشعب المصري باسره . وقد تنج عن السياسة العفوية الى مارسها اسماعيل ان تدخلت انكلترا وفرنسا باسم حماية مصالحها فاصبح وزير المالية فرنسى ووزير الداخلية انكليزى ووزعت الاراضى فى القطر المصرى بين افراد أسرة محمد علي وكبار ضباط الجيش الذين ينتمون الى أصل البانى او شركسي مما أدى الى تقسيم الارض المصرية الصالحة للزراعة وغياب اصحابها عنها فى القاهرة أو الاسكندرية وترك الفلاحين تحت رحمة الوسطاء والعمد الذين دفنوا الفلاح المصري فى تراب الارض (الطيبة)

التى يعمل فيها .

وأتسعت الشقة بين الحاكمين الغرباء عن المصريين وبين المحكومين من سكان مصر فاندلعت (الثورة العرابية) التي تقترب فى وجوه كثيرة من حركة الاتحاد والترقى فى اول امرها نظرا لانها طالبت باصلاحات تحت ظل الحكم القائم الا ان الخديوى والاجانب وقفوا فى وجه عرابى الذى اعتمد على تأييده فى الجيش ولم يدخل فى حسابه قوة القاعدة الشعبية التى تسنده فلم تنجح الحركة العرابية فى تحقيق مطاليبها الروتينية ولكنها حفرت أخدودا عميقا فى أرض الخوف والخضوع التي أوجدها الفراعنة والمماليك واسرة محمد علي فى لا شعور الفرد المصري . فقد تمكن ابن فلاح هو عرابى ان يقف فى وجه (مولانا الخديوى) وان يؤلب عليه قوات الجيش التى خضعت للخديوي ورضيت بما اقطعها (جنابه) من ارض وأغدق عليها من مال . والواقع أن هذه القوات لم تتجاوز بأية حال ما رسم لها من حراسة للخديوي وقصوره والسير فى المواكب والمناسبات وعلى الاخص اشتراكها فى حمل الكسوة الشريفة وحراسة مولانا وهو يقدم خضوعه للمندوب الانكليزى فى قصر الدوبارة او عند صلاته فى احد جوامع القاهرة .

وقد اثرت الحركة العرابية فى ايقاظ الوعى لدى القاعدة الشعبية وتحرك فيها شعور المطالبة بالعزة والكرامة وهما من مقومات الاستقلال وترجمت هذه المطالب بشكل عمل ثوري تبلور فى ثورة سنة ١٩١٩م التي تعتبر بحق الحد الفاصل بين عهد الخضوع والاستغلال وعهد التصدى والعمل فى سبيل مجتمع متحرر .

لذا فان ثورة سنة ١٩١٩ م فى مصر تعتبر من نقاط التحول الرئيسة فى تاريخ مصر الحديثة لانها لم تكن مجرد ثورة او مظاهرة صاخبة وانما مثلت عملا ثوريا اشتركت فيه قطاعات الشعب باسرها وامتدت الثورة الى البيوت نفسها فوضعت المرأة المصرية فى مجال الحركة والنشاط السياسيين ويعتبر التاريخ الذى امتد بعد ثورة سنة ١٩١٩ م تاريخا واقعيا مثل الشعب

المصري اصدق تمثيل لان تلك الثورة عملت بكل واقعية وحدية على تسمية القوى الشعبية والقوى المعادية لها وابانت الفرق الكبير بين الحكام والمحكومين وكيف ان الحكام خضعوا للمؤثرات الاجنبية بل دخلوا معها في حلف غير مقدس في سبيل ضرب القوى الشعبية والقضاء على مكاسبها التي تركزت في حياة افضل للملايين من ابناء وادي النيل .

وقد فوجئت الطبقة الحاكمة في مصر بالثورة كما فوجئت القوى الاجنبية التي عملت يدا بيد مع القوى المتسلطة وبذلك بدأت خطوط جديدة من العلاقات السياسية تربط الحاكمين بالمحكومين فقد اخذت أسرة محمد علي بمصر تشعر بانها باتت معزولة عن الشعب المصري وبان ايامها يمكن أن تكون معدودة مما ادى الى أن يحيط افراد هذه الاسرة انفسهم بالعديد من الاعوان والجواسيس لكي يصبحوا عيونا لهم على غالبية أبناء الشعب المصري كما زادت ثورة ١٩١٩م من تمسك اسرة محمد علي بالقوى الاجنبية وعملت في الوقت ذاته على تكديس رؤوس الاموال وتهريبها خارج البلاد وشراء العديد من الامتيازات النفطية في اميركا الجنوبية وتوظيف بعض رؤوس الاموال التي سرقت من ابناء مصر في مغامرات تجارية في اوربا وامريكا .

وقد ادى البعد بين الحاكمين والمحكومين وأقامة الحواجز بينهم بان أهملت شقوق أستخدمت من قبل الحاكمين لكي يأمنوا من غضبة الشعب المصري بعدان ظهرت حاجة الى وجود وسائل تنفذ من خلال الشقوق الضيقة التي تركت لتصل بين الحاكمين ومحكوميهم وقد استغلت هذه الشقوق من قبل ما سمي بالاحزاب السياسية .

وتدين احزاب مصر السياسية التي تهدمت سنة ١٩٥٢م الى مصدرين فكريين وسياسيين أساسيين هما العمل في سبيل ربط مصر بالدولة العثمانية وقد مثل هذا الاتجاه مصطفى كامل ومحمد فريد ابو حديد وظهرت هذه المفاهيم في مبادىء الحزب الوطني الذي أسسه ابو حديد نفسه وأن

انعطفت بعد ذلك الى مطالبة فى أستقلال مصر .

أما المصدر الثانى فانه ينبع من المطالبة بالاستقلال فقد شكل وفد للمفاوضة حاول أن يذهب الى انكلترا ويستفيد من الظرف التاريخى الذى تهيأ له سيما وأن حزب الاحرار البريطانى كان برئاسة (كلادستون) على دست الحكم الامر الذى جعل المصريين يظنون بان الفرصة سانحة لهم للمطالبة وفاتهم أن الاحزاب البريطانية على أختلافها من التوري(المحافظين) حتى الاحرار وما تضمنه من اجنحة يمينية او يسارية تتفق فى هدف واحد هو الحفاظ على الامبراطورية البريطانية وأن أختلفت فى تحقيق هذا الهدف فسلك بعضها طريق السيطرة المباشرة او الكومنولث او الدخول فى أحلاف أو محالفات ثنائية تخول بريطانيا التدخل فى شؤون ما تسميه ممتلكاتها أو مستعمراتها واستغلال موارد تلك المستعمرات الى حد أعتصار دماء أبنائها فى محاولة لتغذية (شجرة الديمقراطية) فى ارض الضباب (انكلترا) .

ومن الصعب أن نحكم على الاحزاب المصرية بانها فشلت فى كل خطواتها الا ان الموازنة بين فشلها ونجاحها يجعلنا نميل الى انها لم تستطع أن تحقق الاهداف التى تشكلت من اجلها فقد منح الاستقلال لمصر ولم يستطع حزب ما أن يعبىء الجهود لفرض هذا المطلب الوطنى على القوى الاجنبية على الرغم من وجود الكثير من الاحداث الوطنية التى كان من المناسب سياسيا أستغلالها وعلى الاخص الاختلاف فى المواطنة بين الفلاحين وهم العنصر السكانى الاصيل فى القطر المصرى وبين الاجانب من اليونانيين والمالطيين والقبارصة . فقد عملت القوى الاستعمارية الانكليزية والفرنسية على تصنيف مواطنى مصر الى درجات ورسمت خطوطا بل فراغات عميقة بين مواطن ومواطن فقد وجدت (المحاكم المختلطة) قضاتها من الاجانب لكى تفصل فى القضايا المتنازع عليها بين المصريين والغرباء عن أهل البلاد ، كما كانت أكثر الدوائر الاقتصادية خاضعة لليهود او الخواجات من الانكليز والفرنسيين .

وقد ارتكب الجيش البريطاني المستعمر حماقات كثيرة منها حادثة دنشواي التى علقت فيها جثث ابناء لشعب المصرى بوحشية لا تقل عما ارتكبه الحاكم التركى جمال السفاح فى سوريا أضف الى ان التعليم وما اليه من حقوق المواطنة الاساسية كالحريات فى الرأى والحياة وتطمين الحاجات البسيطة للفرد المصرى لم تكن متوفرة ، مما هيأ المجال واسعا للعمل السياسى الا ان الاحزاب لم تستطع ان تستغل هذه الصعوبات فتوجه ابناء مصر نحو عدو مشترك ويرجع سبب ذلك الى ان اكثر سياسى الاحزاب هم من الطبقة ما فوق المتوسطة او المتوسطة نفسها فهم بطبيعتهم يميلون الى انصاف الحلول ويحاولون بسرعة ان يتحولوا من سياسيين الى مناورين ثم لم يلبثوا ان يصبحوا نفعيين او أنتهازيين يسعون وراء مكاسبهم الشخصية أو العائلية فى الوقت الذى يؤكدون فيه بان عملهم هو افضل ما يمكن انجازه وان الشعب المصرى صعب المراس فيه العديد من عوامل الضعف والتأخر تتراوح بين الفقر والادمان على المخدرات وبين التناحر والانقسام وعدم الشعور بالمسؤولية لذا فان السياسة فى مصر تحتاج الى قوة هائلة لتغيير الاوضاع على صعيدها فاذا حاولت ان تمد نشاطاتها فى مجالات الاقتصاد وفى النواحى الاجتماعية فانها تحتاج الى طاقة فوق طاقة البشر ويضيف السياسيون التقليديون من ابناء هذه المدرسة ذات التفكير الحزبى بان شيئا افضل من لا شيء وان ما يحصلون عليه ولو انه قليل فانه يمثل كسبا قد تضاف اليه مكاسب فى المستقبل لذا فاكثر سياسى مصر فى الفترة ما قبل سنة ١٩٥٢م يحاولون ان يوهموا ابناء وادي النيل بان عمل هذا الجيل لا يتعدى بناء القواعد والاسس وأن المسؤوليات الضخام هى من واجب الاجيال القادمة وما دامت تلك الاجيال فى ضمير الغيب فان نبوءة الساسة المصريين التقليدية لم تكن موضع نقد أو رد .

أما المدرسة السياسية الثالثة فانها تبدأ فى سنة ١٩٥٢م بعد أن افلست السياسة التقليدية القائمة على المفاوضات وعلى القبول بانصاف الحلول

فقد أستطاعت الثورة المصرية فى ٢٣ تموز سنة ١٩٥٢ م أن تبدأ مسيرتها بالجيش وطبيعى أن الجيش ليس منظمة سياسية بالمفهوم التقليدى للمنظمات السياسية فهو يخضع للضبط والربط العسكريين ويعمل على تنفيذ الاوامر التى تلقى اليه الا أن السياسة لم تكن فى يوم ما ولن تكون وقفا على فئة دون اخرى وعلى الاخص السياسة فى وطننا العربى فانها حرفة يستطيع كل الهواة ان يتقدموا بطلب للعمل فيها دون ان تعوزهم شروط القبول لانها لم تصل بعد الى مستوى الدراسة أو التجربة والدراسة معا هذا مع تأكيدنا بان السياسة بصرف النظر عن البلد الذى تمارس فيه لا يمكن ان تسلس قيادها لاساتذة فى علم السياسة لان هؤلاء يتركز عملهم فى بحث النتائج التى يتركها تطبيق فكر سياسى معين على الواقع لمعرفة فشل ونجاح التجربة نفسها فاذا نجح سياسى معين فيما قام به من عمل فان الساسة والمؤرخين سيصلون حتما الى نتيجة مفادها أن هذا السياسى ناجح بالفعل بينما يوصم السياسى بالفشل اذا لم يستطع أن يتوصل الى نتائج ايجابية لذا فان فشل هتلر كسياسى لم يكن بسبب غبائه او ضعف موهبته الخطابية وانما كان لاخفاقه فى كسب الحرب العالمية الثانية .

ونظرا للتركة السياسية المتمثلة فى الاقطاع لسياسى وانتهازية واستغلال نفوذ رجال الحكم والاحزاب فى مصر قبل الثورة والتركة الاقتصادية التى انعكست فى اقتصاد زراعى قام على اقطاع ورأسمال مستغل يعتصر قابليات وجهد الفرد المصرى بينما تذهب الخيرات والمنافع الى الشركات الاجنبية وبعض العوائل ذات الاصل الاجنبى التى طغت على السوق المصرية وجعلت من مصر بلدا مستهلكا وفقيرا بينما زاد عدد الاطفال بشكل لم يتناسب قط مع البطء الشديد فى زيادة الانتاج مما أدى الى انتشار المرض والفقر والجهل والجريمة باشكالها المختلفة .

أما على الصعيد الاجتماعى فان تركته تكونت من محاولة أسرة محمد علي بمساعدة القوى الاجنبية على فصل الريف عن المدينة والتمييز بين الوجه القبلى وبين الوجه البحري والنظر الى الفلاحين بشكل لا يختلف عما

ينظر به الى حيوانات الحقل حتى ان لفظة (فلاح) أستعملت فى اكثر كتب السياسة والاقتصاد والاجتماع فى اللغات الاجنبية وذلك لعدم وجود ما يشابهها فى تلك اللغات فقد عاشت القرى المصرية بحالة من الفقر لم تكن لتشبه قرى اخرى على وجه المعمورة ما خلا الحياة التى يعيشها الريف فى شبه القارة الهندية . وقد اثرت هذه الحالة الاجتماعية فى التركيب النفسى للفرد المصرى فقد اخذ نظرا (لطول ادمانه على الفقر) يعتقد بان الفقر قدر محتوم وبان هذه الدنيا الفانية يجب ان لا يطلب فيها الانسان اكثر مما يكفى ضرورياته مع ايمان مطلق بالقضاء والقدر والعمل فى سبيل الاهداف القصيرة الاجل مع توقع المكروه والموت فى كل لحظة وقد تسببت هذه المفاهيم وما قام به الاستعمار من ظلم واضطهاد فى انتشار المخدرات وذلك لبناء عالم خيالى يستطيع فيه الفرد ان يجد متنفسا له ينقله الى محيط غير المحيط الذى يعيش فيه وقد شجعت السلطات الاستعمارية الانكليزية انتشار المخدرات وذلك للقضاء على كل حافز يدفع بشباب وادى النيل نحو المطالبة بحياة أفضل .

هذه هى الصعوبات التى واجهتها ثورة سنة ١٩٥٢م فى مصر وقد ادرك الثوار المصريون بان التنظيمات السياسية التقليدية لم تكن لترتفع الى مستوى المسؤولية وكان عليهم ان يتحولوا من قوة عسكرية الى قوة سياسية وقد حدث هذا التحول بشكل لم يدع مجالا للتاريخ لكى يكتب فى غير صالح الثورة المصرية فى تموز سنة ١٩٥٢م . وقد ادرك الساسة المحاربون بان مسؤولياتهم يجب أن تمتد فى ثلاثة أبعاد البعد العربى لان مصر جزء من الامة العربية والبعد الافريقى فمصر ترتبط بافريقيا تاريخيا وجغرافيا ثم البعد الدينى حيث تتصل مصر المسلمة بالعالم الاسلامى وقد كان على رجال الثورة أن يرتبوا هذه الابعاد حسب أهميتها وبان لهم انهدف دور مصر فى أفريقيا وصلتها بالعالم الاسلامى لا يمكن ان يكون اساسيا وهاما يمكنها من الانطلاق من محيط الشرق الاوسط حيث ترتفع الى مسؤولياتها الدولية الا بعد أن تثبت جدارتها على الارض العربية وقد فات الحكام التقليديون

ممن سبقوا الثورة ادراك الصلة بين مصر والامة العربية وحاولوا دوما أن يؤكدوا على وحدة وادى النيل ولكنهم فشلوا عندما وقفت جهودهم عند الحدود المصرية الا ان الثوار السياسيين الجدد أتجهوا بابصارهم الى الارض العربية عبر سيناء وتمكنوا من أن يثبتوا مركز مصر فى الوطن العربي فقد خرجت مصر الجمهورية منتصرة فى (معركة السويس) عام ١٩٥٦م وتمثل هذه المعركة بالذات انتقال مصر من تفكيرها التقليدى وصلتها بافريقيا وبالعالم الاسلامى الى صلة عضوية بالامة العربية وقد ساعدمركز الجمهورية العربية المتحدة كقوة عربية لها اهميتها فى منطقة الشرق العربى أن تلعب دورا رئيسا فى الشرق الاوسط وفى افريقيا وعلى صعيد الامم المتحدة او عن طريق مؤتمرات التضامن الاسيوية الافريقية • وتسعى الجمهورية العربية المتحدة فى الوقت الحاضر الى الوفاء بالتزاماتها فى الارض العربية وفى المجالات السياسية كمنظمة الوحدة الافريقية ومنظمة الدول الافرو اسيوية وعلى صعيد الامم المتحدة كماتحاول وبجهد وتخطيط أن ترتفع باتتاجها الى حد الزيادة فيه على مشاكلها وذلك للانتقال بمجتمع وادى النيل من الزراعة الى الصناعة ومن الصناعة الخفيفة الى الصناعة الثقيلة فالذرية واستكشاف الفضاء حيث يتحقق حلم الشعب العربى فى مصر فى حياة أفضل له وللعروبة التي يعمل من أجلها ، ولو لم يكن للثورة المصرية فضل يذكر لكان ما عملته على نقل اكثر من ثلاثين مليون مصرى الى الشعور العميق بالعروبة والتزاماتها اخلد عمل يسجله لها التاريخ • واذا احتلت مصر مركز الثقل العربى فى القارة الافريقية فان العراق يحتل نفس المركز بالنسبة للشرق الاوسط بكامله وتتشابه الظروف الحضارية الى حد كبير بين مصر والعراق فحضارة العراق تمتد الى آلاف متقدمة قبل ميلاد السيد المسيح حيث ظهرت حضارة كان لها مكانة فى تلك الفترة السحيقة تمتعت بطاقة حضارية تغلبت على عوامل الزمان والمكان انتقلت من جيل الى جيل آخر واستطاعت أن تواكب العصر الصناعى وستظل تشهد على عظم المدنية التى تمتعت بها بلاد ما بين النهرين والتى كانت بحق

المهد الاول لاقدم حضارة عرفها التاريخ • لقد عرضت حديثا فى متحف اللوفر فى باريس قطع اثرية تمثل مراحل مختلفة من التاريخ العراقى وقد مثلت تلك القطع الاثرية ما مر به العراق من حياة ثقافية وفكرية واجتماعية ولكن العرض لم يكمل الا بعد أن أضيفت اليه آثار عراقية يحتفظ بها متحف اللوفر فى باريس فى الوقت الذى ضم فيه جناح المعروضات آثارا اسلامية تصور ما تركته انظمة الحكم والفكر تحت ظل الاسلام من اثر فى بلاد الرافدين •

وهذه المعروضات تلخص تاريخ العراق فقد جمعت بين الماضى الحضارى والفترة الاسلامية فى الوقت الذى اضيفت فيه قطع وجدت فى بلد اجنبى هو فرنسا مما يوضح أن الاوربيين حاولوا دوما ان يؤثروا بشكل أو بآخر فى توجيه الفكر السياسى والثقافى والاقتصادى والاجتماعى وكان تأثيرهم يتفق تماما ووجود قطع الآثار العراقية فى مكان بعيد عن موطنها الذى عاشت فيه سنين طوال •

ولكى يكمل تلخيص تاريخ العراق لا بد من أن تضاف نماذج للحاضر العراقى وللمستقبل تكون بشكل انجازات ومخططات يسعى أبناء الرافدين الى تطبيقها او التوصل اليها فى فترات زمنية تتناسب مع مفهوم تلك المخططات وما هو موجود فعلا من موارد وطاقة بشرية ووعي فني وعملي وما يدفع هذا كله من تصميم وتأكيد للوصول الى مستقبل أفضل عن طريق الفكر والعمل المنظم والتضحية فى سبيل المجموع •

ومن وجهة نظر الواقع فان ارض العراق تجمع بين متناقضات عدة فهى جبلية لا تلبث ان تصبح هضبة ثم تنخفض الى مستوى البحر فى الجنوب حيث تطغى حركة المد والجزر ويوحد بين هذه الاقسام المختلفة التضاريس نهران حضاريان هما دجلة والفرات وعلى الرغم من أن هذين النهرين ينبعان من مناطق خارج الحدود العراقية الا انهما يسعيان الى التقارب وتكوين مسيرات مائية موحدة ايذانا بوحدة الارض التى يجريان فيها ثم يسيران متحدين حتى يتحديان الخليج العربى بتكوينهما شط العرب

وكما اهتم التاريخ القديم بالعراق فقد اهتمت الكتب السماوية المقدسة بارضه وانهاره فقد ذكر اسم الفرات بتأكيد عظيم كما ان جنة عدن اشير الى مكانها فى البقعة التى يلتقى فيها النهران بينما تعتبر منطقة الناصرية فى العراق الجنوبى وعلى الاخص تابعتها (اور) التى تزخر بالآثار القديمة وتحكي حفرياتها قصة اقدم حضارة على سطح هذه الارض ، المكان الذي توقفت فيه سفينة (نوح) بعد الطوفان الغامر الذى تعرضت له منطقةالشرق العربى فى تلك الازمنة التاريخية المتقدمة .

ولكن هذه الحضارة الراسخة الجذور فى الماضى وما تضمه من ادوار أسلامية ما زالت بحاجة الى أن تكتب فصولها الحديثة بشكل يتناسب والمد الحضاري العظيم القديم مع انتقاء دروس حضارية تساعدنا فى فهم الواقع الحاضر للعراق؟ والحقيقة ان الآثاروشظايا الصوان والكسر الحجرية والمدن المندرسة تختزن العديد من الدروس التى تلقى ضوءا كشافا على العلاقات السياسية والفكرية والاجتماعية فى العراق الحديث . واول هذه الدروس أن الارض العراقية لا تنحصر فيما بين النهرين وانما تندفع في جميع الاتجاهات لكى تضم الارض التى يجرى فيها النهران وفروعهما حيث تمتد ارض العراق الى الشرق والشمال الشرقى حتى تصطدم بالجبال الصخرية العالية فترتد نحو الغرب، والجنوب منسابة فى رمال الصحراء كى تتصل وعلى الاخص فى جنوبها بشبه الجزيرة العربية . وهذا الوضع الجغرافى المتميز لم يظهر بشكل عفوى وانما نشأ نتيجة التفاعل بين سكان العراق وتاريخهم القديم فقد عملت الصحراء الجنوبية على تقديم المادة البشرية للعراق بينما وقفت جبال الشرق والشمال الشرقى بوجه القوة المحركة لطموح سكان العراق فى القديم لذا فقد مثل كل من الانبساط الصحراوى والحاجز الجبلى مصدر صعوبة وسلبية عادت على العراق بالقلق وفقدان الاستقرار الهادف النشيط . فالصحراء الممتدة فى الجنوب وضعت المدن والمدنية فى العراق تحت رحمة غزوات البدووالما كانت البداوة تمتلك القدرة على تجديد حركتها بشكل افضل من الحياة الحضرية فقد

تتابعت تأثيرات الغزو البدوية مما افقد حياة المدن فى العراق أي نصيب من الاستقرار والتعود على حياة المدنية . وليس بجديد ان اكثر المدن فى العراق انشأت على حدود البوادي مما جعل تأثير البداوة عميقا عن طرق الانساب أو الفوائد الاقتصادية والسياسية المتبادلة وحافظ على الصلة القائمة بين رجال القبائل من جهة ومتحضرى المدن من جهة ثانية مع تأكيد على الاصل القبلى للفرد العراقى يفقد بدونه ذاته المتميزة التى تأبى أن تذوب فى طاحونة الحياة فى المدنية ، وبمعنى اوضح فقد ظلت القبيلة وباديتها بمثابة (الهو) لانا الفرد العراقي بينما عكست المدينة ذاتا عليا مصطنعة لا يرتبط العراقى بها الا عن طريق المصالح والمنافع المادية التى لا ترتفع بأي حال من الاحوال الى منزلة الهو القبلية بالنسبة اليه .

أما الحاجز الجبلي فانه عمل كحافز واقعى وتاريخي لصهر العناصر الحضرية والبدوية فى وسط العراق وجنوبه والوقوف بشكل مشترك ضد الغزو الخارجى . ولم تقف جبال الحدود فى وجه تصميم سكان العراق فى القديم فقد عبرت التشكيلات العسكرية العراقية فى تلك الفترات القديمة هذه الحواجز الجبلية فى محاولات ناجحة لتوسيع رقعة الارض العراقية الا ان الحدود ما لبثت ان عادت عقبة تصد الزحف العراقى نحو عوالم اوسع تتفق ورسالة العراق الحضارية . ولعل التركيب السياسى والعسكرى فى العراق القديم والذي تميز بقيام حكومات قوية لها القدرة على تجهيز جيوش عظيمة فى المنطقة الشمالية مما يؤكد قوة العدو وراء الحاجز الجبلى والحاجة الى اتباع سياسة التصدى لوقف ما قد تتعرض له ارض العراق من عدوان مفاجىء تنجم عنه مضاعفات تفقد الوحدة العراقية تماسكها الداخلى وقدرتها على العمل على الصعيدين السياسى والعسكرى وتعود بالتالى على التوازن السياسى فى العالم القديم بالضرر نتيجة لما قد يعترى بلدا له من الاهمية الثقافة والحضارية والكثافة السكانية كالعراق من ضعف أو ارباك في جوانب حياته السياسية والعسكرية والفكرية التى كانت تحتل مركزا من مراكز الاهمية فى ذلك العالم ذى التاريخ القديم . ونظرا لما شعر به

العراقيون من ضغوط بحكم موقفهم الجغرافي وحاجتهم الى بذل المزيد من الجهود في سبيل ابقاء من يحيط بهم بحالة من الخوف او الترددالشديد مثل الاتيان بعمل من شأنه الاعتداء على الارض العراقية ، فان بناء حضارات لها رقي الحضارات القديمة في العراق لم يكن شيئا هينا وانما كان عملا جبارا استنزف طاقة واستعدادا هائلتين فقد حمل العراقيون القدماء السيف في يد والمحراث في اليد الثانية لكي يدافعوا ويبنوا في آن واحد . ولكن حالة التأهب هذه لم تلبث ان اضعفت التركيب السياسي والاداري للمجتمع العراقي واخذ يقع تحت ثقل عوامل السيطرة الخارجية انتهت به ليصبح قطرا ضمن منطقة نفوذ الدولة الفارسية القديمة التي حاربها وانتصر عليها ثم وقف منها موقف الند حضاريا وعسكريا وسياسيا . الا ان الخاصية الاصيلة للشعب العراقي انه وان يخضع لقوة غاشمة داخل حدوده او ظالمه من خارج هذه الحدود فانه لن يستسلم لهذه القوى بل يعمل على تجميع قواه والتخلص من القيود التي فرضت عليه . ولما كان الحافز الاصيل لدفع طاقة العمل والثورة في العراق ينبع من تصميمه القومي وشعوره بمسؤوليته العربية التي تحتم عليه مقاومة التسلط الاستعماري فقد ابتكر الفرس وكذلك البيزنطيون بالنسبة لبلاد الشام اقامة سد من العرب انفسهم يمنع تلاقي القوة العربية من جهة ويمكن هذه القوى العربية على العرب من الانفراد بالعراق وغيره من اقطار الامة العربية وطمس كل شعور قومي فيها من جهة اخرى .

وقد عانى العراق في ظل الحكم الفارسي القديم من وضع قاس لانه كان ضيعة فارسية بعيدة عن حاضره الحكم الفارسي مما زاد في المصاعب السياسية والادارية وتردي الوضع الاقتصادي فقد افقر الفرس العراق وعاشوا على موارده الاساسية دون ان يعملوا على العناية بارضه لكي تواصل در خيراتها كما ادى التناحر بين الديانات الفارسية كالمزدكية والمانية والزادشتية واجبار العامة من الناس على قبولها ان يعيش العراق سلسلة من الكوارث والمآسي زادتها الاوبئة والفياضانات والبطالة وطرق

جباية الضرائب سوءا وترديا .

وتجربة العراق تحت ظل التسلط الفارسى هي اقدم تجربة يمر بها قطر عربي تحت نفوذ استعماري الامر الذي اثر فى رد الفعل العراقى تجاه المخططات الاستعمارية ومكنه من ان يكتشف الايادى التى تحاول جره الى حفر الاستعمار ووضعه فى مناطق النفوذ وكأن التاريخ هو الاخر يعرف هذه الميزة للشعب العراقي فيسعى الى تعريضه الى هذه التجربة القاسية ثم يترك له التغلب على هذه المحنة . والواقع ان تاريخ العراق منذ ان دب الضعف الى كيانه فى اواخر الحكم العربي الاسلامي المتمثل بالدولة الاسلامية سلسلة من المآسي والنكبات والكوارث وحمامات الدم مما جعل العراق موطنا لحركات التطرف لكي تنم عن طريقها أمتصاص نزعات الالم والرغبات الجامحة التى ولدها الضغط الاجنبى ممثلا بالتسلط والاستعمار واستغلال القوى البشرية والموارد الطبيعية .

لذا فقد نشأ العراقي حذرا متوقعا مندفعا مترددا طيبا منطويا انانيا يعمل للمجتمع وبشكل اخصر فهو مجموعة من المتناقضات واشد ما يتميز به الفرد العراقي انه لا يكتفي بان يحزن ولكنه يعيش حزنه فيبثه بشكل اغان ذات نفس طويل ومد فترات الحزن عن طريق تعقيد وتضخيم النقاط التي يقف عندها كاسيا اياها بدوافع من الحزن والخوف من المجهول والمستقبل وبشكل اوضح فان العراق الحديث تدخل فى نسيج تاريخه المعاصر عوامل منها :

١ ــ التسلط العثمانى : وقد اثر هذا العامل فى اختلاط مفهوم القيم الدينية لدى القابلية من أفراد المجتمع العراقي فلم يستطع الكثرة منهم ان يفرق بين الاسلام الدين الحق وبين التفسير العثماني للدين واتخاذه وسيلة سياسية لتدعيم قواعد حكمه التى اخذت تتعرض لكثير من الهزات عندما تعرضت الدولة العثمانية لضغط التغيير الفكري والسياسى الذي ساد اوربا بنتيجة حركات الاصلاح الدبني والسياسى والاجتماعي والثورات السياسية التي هزت قواعد الحكم التقليدى فى اوربا . وثلث العديد من

العروش ودوائر السياسة التقليدية .

٢ ــ وقوع العراق فى منطقة تنافر قوميتين احدهما تمثلت فى الدولة العثمانية والثانية الدولة الفارسية وقد سيطرت الدولة العثمانية بشكل استعماري على العراق وضمته الى مناطق نفوذها وبذا اصبح ابناء العراق من رعايا السلطان وان لم يكونوا فى الواقع الا كمية مهملة فى حساب الادارة العثمانية الا ان الدولة الفارسية ما لبثت هي الاخرى ان طالبت بحصتها فى العراق ظانة انه فريسة سهلة لانه خضع للدولة العثمانية وقد دفع الوضع الجديد بعدد من سكان العراق ليلعبوا دور من يستغل أحد هذين الغريمين فيضرب به الغريم الاخر فى سبيل كسب شخصى او منفعة ممثلة فى حكم او جاه وقد نتج عن الوضع الجديد ان اصبح افراد عديدون من المجتمع العراقى يميلون الى هذا الجانب او ذاك فى الوقت الذي بقيت اكثرية ترى ان اللامبالية هي اسلم حل للظرف الذي يخيم على القطر العراقي فهم بذلك اكثر قابلية للكسب وعلى الاخص عندما تبدأ كل من القوتين تكره عملاءها فى الداخل وتنبع حاجة الى استخدام عناصر (نظيفة) تعود بالفائدة على الجهة التي تستغلها او تستخدمها .

ولم يقف الارباك فى الحياة السياسية والاجتماعية العراقية عند هذا الحد بل تعداه الى نزاع مسلح وصدام عسكري بين العثمانيين والفرس كانت ساحة الحرب فيه ارض الرافدين واكثر الضحايا من ابناء العراق انفسهم فاذا رجحت كفة احدى القوتين المتخاصمتين فان الكفة الراجحة تسعى الى افناء من قاومها وحرق بيوتهم والاستيلاء على اموالهم وحريمهم انسجاما مع اخلص التعليم الميكافيلية التي تحث على الابادة .

وطبيعى ان من يعيش الصدام المسلح لابد وان ينحاز بكليته الى القوى المنتصرة والا تعرض للقتل او الابادة والذكى من يستطيع ان يخفى مشاعره ويموه ما يراه صوابا فاذا ما دنت اللحظة المناسبة اظهر ولاءه وبذلك يضمن كسب عطف سادته الجدد .

٣ ــ استقلال العراق والمراد به تحرره من نفوذ الدولتين العثمانية

والفارسية والا تكون أرضه ساحة حرب لهاتين الدولتين كما ان موارده الطبيعية تبقى ملكا لابنائه . وسنحت الفرصة بعد أن تهدمت القوة العسكرية العثمانية فى الحرب العالمية الاولى الا ان طرق الاستقلال ما لبثت ان اصبحت خطره بعد ان دفنت فيها العديد من الالغام منها اتفاقات الحسين ـ مكماهون ، معاهدة سايكس بيكو ، خط الشرق السريع وتأمين طريق الهند وما يجره هذا كله من صراع بين بريطانيا والمانيا ، نفط العراق ومساعى المستر كولبنكيان (الحميدة) واثر امتيازات دراسى فى فتح موارد الذهب الاسود فى الشرق الاوسط أمام الاطماع الاجنبية ، النزاع الداخلي فى العراق بين اولئك الضالعين مع العثمانيين او الفرس ، تقسيم العراق الى ولايات ثلاث البصرة وبغداد والموصل ، ثم هناك البادية والحاضرة والسياسة العشائرية التي اتبعها العثمانيون فى ضرب شيوخ العشائر بعضهم ببعض فى سبيل اضعافهم اولا وسهولة السيطرة على الوضع العشائرى ثانيا .

وخلا الجو للدول الاوربية وعلى الاخص بريطانيا وفرنسا لاقتسام الوطن العربى عامة ولم يكلف الساسة الاوربيون انفسهم برسم خرائط لمناطق غنائمهم المقبلة وانما اكتفوا بخارطة واحدة لعب (القلم الاحمر) دوره فى تقسيم مناطق نفوذ كل دولة والاسلوب التى ستحصل عليها .

وكان العراق من (حصة) بريطانيا التي استغلت كل خبرتها الاستعمارية فى الهند ومخططات السياسة الانكليزية منذ عهود هنري الثامن والملكة اليزابيث الاولى وفكتوريا وما اضيف اليها فى ١٠ داوننك ستريت من اساليب المكر السياسى والتفنن فى وسائل الاستغلال والتسلط تحت اقنعة يقبلها الرأي العام (الاوربي) .

وقد وقعت المنظمات الدولية ـ كما هي دوما ـ تحت تأثير ثقل الدول الغالبة ووافقت عصبة الامم على اقرار مبدأ الانتداب وبذلك اصبحت الدول المستعمرة وصية لها شرعية زودتها بها (عصابة) الامم واجبها الاساسى لا يتجاوز (اعداد) الاقطار التي انسلخت عن جسم الدولة العثمانية لكي تصبح اهلا للاستقلال وعند ذلك تتركها الدول المنتدبة لتدير شؤونها وفق

حاجاتها ومطامحها .

وقد يرى البعض ان المبدأ سليم نظرا للطريقة التي صيغ بها ولكن الواقع ان الاقطار التي برزت على المسرح السياسى بعد الحرب العالمية الاولى لم تكن مجرد توابع للدولة العثمانية وانما كانت دولا عريقة فى الحضارة لها قوميتها وارضها ولغتها واديانها وسكانها مما يؤهلها للاستقلال الذي لم يكن فى ذاته الا رد اعتبار هذه الاقطار التى دفعها حظها المنكود لكي تصبح جزءا من ارباك هائل هو الامبراطورية العثمانية .

وقاوم العراق وكان طبيعيا ان تبدأ المقاومة فقد انتقل العراق من الاستعمار العثمانى الى الاستغلال البريطانى ومن ورائه دول عصبة الامم الاوربية وتردت الحياة الاقتصادية والثقافية بشكل لم يسبق له مثيل فقد حاول الساسة الانكليز ممن عاشوا حياتهم فى الهند ان يطبقوا اسوء ما تعلموه خلال سني استعمارهم لشبه القارة الهندية ولكن الشعب العراقي يختلف عن غيره فهو لم ولن يخضع لمستعمر أو طاغية ولا يمكن ان يفسر سكوته بالخوف او الاستسلام ولكن كثرة الضربات التي تلقاها العراقيون افقدتهم سرعة العمل والحركة فاذا ما وضحت الصعوبات امامهم اندفعوا الى تذليلها .

وقد بدأت الثورة فى المدينة (العاصمة بغداد) واخذت الزمرة المثقفة تنظم المظاهرات والاضرابات وشعر الحاكم البريطاني فى بغداد بحراجة موقف الحكومة البريطانية المستعمرة فى العراق ولكن الادارة البريطانية لم تكن لتتراجع بسرعة نظرا لماضيها فى ظلام الاضطهاد والتسلط مما اوجد حاجة ماسة الى عمل اكثر حدية الا ان فقدان التنظيمات السياسية والوعي الثقافى فى انعراق يضاف اليهما انعدام وسائل الاتصال بين أجزاء القطر المتباعد مما ارباك توقيت الثورة ولكن ارادة الشعب العراقي كانت أقوى من عوامل الضعف والتردد فاذا بثورة ١٩٢٠م تكتسح الاستعمار والمستعمرين واشتعلت نار المطالبة بالاستقلال فى اجزاء عديدة من القطر العراقي مما دفع الحكومة البريطانية الى اعادة موقفها من العراق .

والواقع ان ثورة سنة ١٩٢٠م فى العراق لاتقل فى روعتها عن الثورة الارلندية مع وجود تقارب كبير بينهما فكلتا الثورتين ترجمت ما يحس به شعب كل منهما مع تصميم وعناد وعنف فى مقاومة عدو غادر هو انكلترا ويخطىء فى حق التأريخ وحق العراق وحق نفسه من يظن ان ثورة ١٩٢٠م مجرد حركة عشائرية عفوية .

فاما كونها عشائرية فذلك واضح لافتقار العراق فى تلك الفترة المتقدمة من تكوينه الحديث الى تنظيم سياسى مدعوم بوعى فكري وثقافي الا ان عفويتها تعبير لا محل له فى عالمي الواقع والتاريخ لان معظم ثورات البشرية منذ سبارتكوس حتى الوقت الحاضر تلعب العفوية دورا فعالا فيها فالثورة الفرنسية التى تعد حدا فاصلا فى الفكر والواقع فى اوربا والعالم لم تكن فى بدايتها اكثر من حركة للتخلص من ضريبة الملح والمطالبة باعادة توزيع الضرائب بشكل يتفق ومدخولات طبقات المجتمع فى فرنسا الملكية .

ومن وجهة النظر الموضوعية فان ثورة سنة ١٩٢٠م فى العراق افتقرت الى وعي ثوري تمهيدي وتنظيم يسند العملية الثورية فى الوقت الذي تسعى اجهزة ثورية اخرى لتوثيق الصلة بين المدن والعشائر ومد الثوار بالاسلحة والعتاد والمواد التموينية كما تسعى هذه الاجهزة نفسها الى طرح مساوىء ومظالم الاستعمار البريطاني على الصعيدين العربي والعالمي .

أما فى المناطق التي التهبت فيها الثورة وهي الفرات الاوسط فانها كانت بحاجة الى تنسيق فى العمل الثوري وتمويله والتخطيط لادارة دفة الحرب وتعبئة القبائل بشكل مجموعات صغيرة تمتلك القدرة على الحركة السريعة والتدمير دون التعرض الى قوات العدو . ومن المؤكد ان هذا الاسلوب فى القتال وعلى الاخص فى منطقة الفرات الاوسط وفى احراش المنطقة وغابات نخيلها وتجاوب المقاتلين مع مواطنيهم من ابناء المنطقة كان سيعمل على كسب المعركة فى ساحة قتالها بدلا من تحويلها الى مصالحة سياسية انتهت بقيام حكومة عراقية فرضت من خارج حدود العراق .

٤ ــ مهزلة الحكم الوطني وامتيازات النفط .

وكما هو دأب الاسرة الهاشمية فى وأد الحركات التحررية العربية فقد عين فرد من اعضاء هذه الاسرة لكي يكون اداة للنفوذ البريطاني فى العراق يعمل على تهدئة القوة الثائرة فى هذا البلد فى الوقت الذي يتصرف فيه كفناع للتدخل البريطاني • فقد وافق السير برسى كوكس بعد ان الحت سكرتيرته الشرقية (المس بيل) باستيراد فيصل ووضعه على دست التنظيم السياسي المصطنع •

والغريب ان الاسرة المالكة فى العراق لم تسلم بالفرضية القائلة بان التاريخ سيحكم عليهم ويضعهم فى المحل الذي ينتمون اليه سلبا او ايجابيا لذا يترتب عليهم ان يتصرفوا وفقا لخطوط واضحة من العقل والضمير • ولكن العكس هو الذي حصل فأن افراد العائلة المالكة فى العراق ظلوا فى مخططاتهم الاجيرة يعتبرون انفسهم غرباء على العراق واهله لذا ازداد اعتمادهم على حاشيتهم وغرباء اخرين منهم وتوثقت صلاتهم بالقوى الاستعمارية لكي تستخدم عند الضرورة فقد كانوا يتوقعون نهايتهم • لذا حاولت الاسرة خلال تاريخ تسلطها ان تعبث بالموارد العراقية فتم الاستيلاء على الارض الصالحة للزراعة من قبل العائلة المالكة ووضعت تحت ادارات خاصة وثم تهريب العديد من الاموال والمعادن النادرة والاثار القيمة الى خارج القطر العراقي حيث البنوك والمتاحف السويسرية او البريطانية •

أما التعليم والتقدم الزراعي والصناعي والاهتمام بالصحة والتنظيم الاجتماعي فانها كانت فى قائمة المهملات لان الزيادة منها ــ كما كان يظن أفراد الاسرة المالكة ــ معناه التطويح بالموازنة القائمة بين التقدم وبين قابلية المجتمع لاستيعاب التقدم وكان الامر لا يتعدى وجود مريض هو العراق تعطى او تمنح له جرعات دواء تسيطر عليها أفراد العائلة المتنفذة فقد آمنت الاسرة المالكة بان المجتمع العراقى لا يمكن تغييره وان قابليات الفرد العراقي محدودة وهو بطبعه لا يميل الى العمل والتضحية وانما يسعى نحو الكسب القريب الهدف تهمه مصلحته الخاصة فى الوقت الذي يتكالب المثقفون من ابناء المجتمع العراقي على المناصب همهم الحصول على (زعامة) ولو كان

ذلك على حساب الشعب الذي نبعوا منه فقد يتجسس ويكذب ويوقع احدهم بالاخر لكى يخلو له الجو وبذلك اصبح مفهوم السياسية والانتهازية واستغلال النفوذ والحصول على الوظائفه او اجازات التصدير والاستيراد واحتكار السلع والمواد الغذائية والعبث بالقضاء واستغلال النفوذ والاثراء غير المشروع من الظواهر المألوفة للعمل اليومي للسلطة الحاكمة واجهزتها الادارية وانقلبت المقاييس فى الحياة والمجتمع فلم يعد هناك مجال لعمل فكري او ابداع فني لان الفكر والتحصيل العلمي اصبحا من جوانب الحياة الهامشية التي تودى الى ضياع الوقت لان النجاح او المركز الاجتماعي لا يرتبط بهما من قريب او بعيد فقد يكون الزواج التجاري واجادة النفاق والقدرة على التلون واقتناص الفرص دون خلق او وازع من دين او ضمير هي السبل المؤدية الى بلوغ الاهداف المطلوبة وباقصر زمن وجهد .

وليس غريبا ان تؤثر على هذا الخلط بين قيم الخير والشر فى نظرة الناس الى النجاح والفشل وحثهم من يسعى فى سبيل كسب علمي او اجتماعي ان يتعلم فن النفاق والخداع وحضور المجالس الخاصة والجلسات العائلية وندوات المتاجرة بالضمائر والذمم والاموال والمناصب .

اما اذا اراد البعض من ذوي الرؤوس الصعبة ان يثبتوا مكانتهم بما لهم من معرفة وشخصية تعرضوا لردود فعل من المجتمع نفسه قد تتراوح بين رميهم بالغباء او الجنون او الاستهزاء منهم اذا لم تقم السلطات الحكومية بمحاربتهم او وضعهم تحت طائلة روتينها .

وبذا اصبح الروتين يعني فى المفهوم العادي الوظيفة واصبحت السرقة والرشوة والغباء والغش والنفاق من صفات الموظف والتاجر والمدرس والمحامي الناجحين .

أما النفط فانه جانب اساسى لاكمال صورة العراق الحديث ومنذ ان استخرجت هذه المادة الثمينة والعراق لا يعرف معنى العمل السياسى والاداري المنظم فى الوقت الذي يتعرض فيه اقتصاده الى هزات عنيفة واهمال للموارد الطبيعية الاخرى مما اربك المخططات الاقتصادية الهادفة الى زيادة الانتاج

والاكتفاء الذاتي ومواجهة مطالب التصنع . ولو لم اتهم من قبل المهتمين بالاقتصاد بنوعيه السياسى واللا سياسى بانني متحامل او متطرف لطالبت بارجاع عقارب الساعة الى الوراء واغلاق آبار النفط فى العراق فاحفظ لهذا البلد ثروة ضاعت فى دنيا المضاربات المالية والاحتكارات العالمية بينما يحترق قسم منها (الغاز الطبيعي) ليتم رسم المأساة التي يعاني منها الذهب الاسود فى شعب لم يتمكن من الارتفاع الى مسؤولية حصوله على هذا المورد الحيوى الهام .

والنفط العراقى يرتبط بالفقر والتردى فى المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي عاشها العراق المعاصر . ففي الحقل السياسى شددت الدول الاوربية وفى مقدمتها انكلترا التى تمتلك أكثر أسهم الشركات المحتكرة لنفط العراق على أبقاء العراق ضمن منطقة نفوذها وأمتدت أيدى عملائها وبعثاتها الدبلوماسية لكى تحرك كل صغيرة وكبيرة فى الاجهزة السياسية سواء أكان ذلك فى مجال العمل الحكومى أو على صعيد الصلات الاجتماعية وما يتصل بها من نوادى وجمعيات تخدم اغراض التاج البريطانى أما فى المجال الاقتصادى فان النفط وصناعته المعقدة لم تكن تتناسب مع ما كان عليه العراق من تأخر فى نواحى الصناعة المختلفة مما ادى الى قلة الانتفاع بالايدى العاملة المحلية وظهور ردود فعل سلبية بالنسبة لمفاهيم الصناعة والتصنيع . زد على ذلك أن عائدات النفط لم تكن لتتناسب مع متطلبات التخطيط الاقتصادى فى العراق وأنما خضعت الى مضاربات بورصة الاحتكارات الاجنبية فى السوق العالمي للنفط فى الوقت الذي قلت فيه الرساميل التى اعيد استثمارها فى صناعة النفط بغية رفع الارباح التى كانت معفوة من الضريبة وفقدان مبدأ الملكية بالنسبة للدول المنتجة وبعد ان أطلقت أيدي شركات النفط فى طول الارض العراقية وعرضها .

وعلى الصعيد الاجتماعي فان شركات النفط العاملة فى العراق غذت النزعات الطائفية والعنصرية وأخذت تنفق عليها فى الوقت الذي اتهجت فيه خططا تمنح حق التوظيف للاجانب وبعدهم يأتي أفراد أقليات عراقية وعلى الاخص اليهود

الذين لعبوا دورا مجرما خلال فترة الانتداب البريطاني وبذلك سدت شركات النفط ابواب العمل فى مرافقها على أصحاب النفط أنفسهم خلقت منهم طبقات اجتماعية متنافسة حالت دون قيام تفاهم مثمر بين ابناء المجتمع فى العراق • وبتعبير آخر فقد كانت شركات النفط حكومات داخل الحكومات من ذوات السلطة والتسلط وان كانت ذات أثر اقوى واعمق فى آن واحد •

وفى الوقت الذى تمثل فيه كل من مصر والعراق العمود الفقرى للامة العربية فان بلاد الشام بسواحلها والمغرب العربي باقطاره ليبيا وتونس والجزائر ومراكش وموريتانياوشبه جزيرة العربوالسودان واليمنوجنوبها والخليج العربي هي الاضلاع التي تكون مع عمودها الفقرى الهيكل العظمي للقومية العربية بما يتجسم فيه من روح تستقى حياتها من تاريخ وحضارة وآلام وآمال العرب فى ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم •

وقد مثلت بلاد الشام وسواحلها حركة نشيطة فى سبيل العمل القومى العربى وابدت نكرانا للذات ضرب أروع الامثلة فى التضحية وتكوين فكر ثورى عربى مشترك على الرغم من صغر الارض التى تحتلها وقلة عدد نفوسها فلم يستطع الاستعمار العثمانى أخماد جذوة القومية العربية فى بلاد الشام وسواحلها فقد شهدت ساحات دمشق وبيروت العديد من الشهداء ممن أغتالتهم السلطات العثمانية لانهم آمنوا بحق الامة العربية فى الحرية والحياة والتقدم •

ونظرا للصعوبات التى تعرضت لها بلاد الشام وسواحلها فقد جاء كفاحها موحدا ضد التسلط العثمانى ضرب اروع الامثلة فى الفداء من أجل رفع لواء القومية العربية فقد انطلق العمل العربى فى مراحله الاولى من بلاد الشام وتأسست العديد من الجمعيات ذات الصبغتين المدنية والعسكرية مما لا يدع مجالا للشك بان بلاد الشام هى الداينمو الذىحرك الوعي القومي لولا أن أجهضت اندفاعاتها القومية موآمرات أسهمت فيها قوى سوداء منها الاسرة الهاشمية والاستعمار الاوربى باموال

ودوائر استخباراته ومستشرقيه وجمعياته التبشيرية •

وقد تعرضت بلاد الشام وسواحلها الى شباك السياسة الاوربية بعد الحرب العالمية الاولى فقد أجرمت معاهدة سايكس ـ بيكو بوضع سوريا ولبنان فى مناطق النفوذ الفرنسية بينما (منحت) فلسطين للاستعمار الانكليزي !

وقد ادرك الاستعمار الاوربي قوة الدفع القومي فى بلاد الشام وسواحلها وانتفع بالاخطاء التى ارتكبها العثمانيون خلال فترة تسلطهم فعمدوا الى أسلوب تمزيق الصف القومي باستغلال بعض النزعات الطائفية والمذهبية التي غذاها الاستعمار نفسه فكما تدخلت روسيا القيصرية فى الشرق العربي باسم (حماية الارثذوكس) طالبت فرنسا بحماية الموارنه فى لبنان وبذلك أضطرب العمل القومى وبرزت الحدود المصطنعة باسم الحفاظ على التوازن الطائفي والمذهبي تلك الدعوة الزائفة التي اختزلت بلاد الشام وسواحلها الى مناطق متنافرة برزت فيها أسماء من تحت رماد التفرقة والتصارع منها : موارنة ، كاثوليك ، دروز فقد ضعف الرباط القومي الذي جعل من هذه القوى ذات القيمة الثانوية فى مجال الحركة والعمل مجرد مسميات لا تجد ما يترجمها فى عالم الواقع •

وبتشجيع من القوى المستعمرة وبفعل الفراغ الذى وجد بفقدان الخيمة القومية فقد استغلت الاتجاهات الاقليمية والطائفية أسلوب العمل السياسى فانشأت (الكتائب) وحزب الرجوع الى الوطن الام فرنسا فى لبنان بينما ظهرت فى سوريا حركة الحزب القومى السورى التى استهدفت الى فصل سوريا عن الوطن العربى فى الوقت الذى ضمت فيه هذه الحركة الاقليمية المجرمة أجزاء من الشرق الاوسط لاعتبارات مذهبية ضيقة مما انتهى بها الى التطرف والاغتيالات السياسية عجلت بنهاية الحزب فى سوريا وأن بقيت بعض ذيوله فى لبنان واوربا بعد أن انتظمت فى حلقات للتجسس والتهريب والاغتيالات مترسمة الطريق الوعر الذي تسير فيه منظمات الارهاب الدولية كمنظمة الجيش السرى الفرنسية وملافيا

الصقلية ـ الامريكيـــة .

أما الجناح العربي فى الوطن العربي المتمثل بالشمال الافريقي فانـــه شكل وما يزال يشكل مقدمة مهمة من مقدمـات الوجـود العربي وقـد تعرض كغيره من الاجزاء العربية لنير الحكم العثمانى والتسلط الاوربى مثلا فى الاستعمار الفرنسى الذى حاول أن يطمس عروبة المغرب العربى الا أن المقاومة العنيفة التى حفزتها الروح القومية لدى عرب هذه المنطقة أحبطت المخططات الاستعمارية سواء أكان فى ليبيا أو الجزائر أو المغـرب وأن تسبب الاستعمـــار فى العبث باللغـــة العربية وشوهت المعـالم العربية فى أقطار الجناح الغربى من الوطن العربى ضمانا لانفصال تام بين مشرق الوطن العربي ومغربه .

أما الجزيرة واليمن وجنوبه والخليج العربي فانها الاجزاء الام للقومية العربية من وجهة النظر الحضارية وقد قفزت شبه الجزيرة العربية الى مرتبة الاهمية بعد أن اكتشفت آبار النفط الغنية فى اماكن شتى مـــن الجزيرة العربية مما اثار حمى المنافسة بين الشركات الاوربية المحتكرة ودفعها لاقامة ستار يفصل الجزيرة العربية عن الحياة ومن الوطن العربى والعالم الخارجى لكي تعمل الشركات فى جو استعمارى يلائم أطماعها التى لاتقف عند حدود وبذلك تم الاتفاق بين شركات النفط المحتكرة والقوى التقليدية والرجعية لكى تبقى القديم على قدمه فى الوقت الذى تحصل فيه على امتيازات نفطية تعود عليها بارباح خيالية مع أفقار تام للشعب العربي وجزيرته وقتل روح التطلع فيه نحو حياة أفضل تعود بالضرر على الاستعمار والرجعية والارباح الخياليـة للشركات المحتكرة والاسر الحاكمة ومن معهم من سلاطين وامراء ومرتزقة .

ولم يكن اليمن باحسن حالا من شبه الجزيرة العربية فقد كانت أسرة حميد الدين بالية فى فكرها وتفكيرها وكانت العاصمة صنعاء تغلق فـى وجه العالم الخارجى عن طريق سورها وفى ساعات مبكرة من ليل القـرن العشرين فهل نحن نشهد مسرحية عن القرون الوسطى تلعب فيها شخوص شكسبير كالملك لير وماكبث وهاملت الادوار الرئيسية أو نحن امام واقـع

متخلف ؟ والحقيقة ان اليمن السعيد الذى يحتل مركزا استراتيجيا واقتصاديا مهما يعيش فى عزلة عن منطقته وعن العالم ولم يكن هناك من طريق فى طول اليمن وعرضها خلال الفترة التى قامت فيها ثورة اليمن الا الطريق الممتد من صنعاء العاصمة الى الحديدة فى الوقت الذي أنقسم فيه الشعب اليماني الى عشائر وطوائف تغذى نار فتنتها اسرة حميدالدين لتزداد أنقساما وبذلك تحتفظ الاسرة المالكة بنفوذها ولو على حساب دم الشعب وقوته .

أما الخليج العربى فانه منطقة عربية غنية وخطيرة فى آن واحد ، وثروتها النفطية الهائلة تهلع لها قلوب وجيوب الدوائر الاستعمارية الاوربية فتبدأ بالتنافس وحبك المؤامرات والمغامرات فى سبيل الاستئثار بالموارد النفطية للخليج العربى .

وقد أتخذت المنافسة فى فترة ما بعد الحرب العالمية الاولى أسلوب (الاحتكار المركز) عن طريق الاتفاق بين الرؤوس الاستعمارية المحتكرة الكبيرة والسيطرة على السوق العالمية للنفط وبذلك تم لملوك البترول ومحتكريه من التلاعب بالاسعار وفرضها بشكل يسد الباب على من يحاول دخول حقول الاستثمار مع فرض سياسة افقار على الدول المنتجة لهذه المادة الحيوية .

ولم تكن الشركات المحتكرة لوحدها فى ميدان القرصنة النفطية وأنما ضمنت كعون لها دوائر السياسة والحرب فى الدول الاوربية التى تتنفع بدورها مما تقدمه الشركات المحتكرة وبذلك ظهرت اللعبة الاستعمارية التى سمت اقطار الخليج العربى بالمحميات ضمانا لاستغلال السلطة البريطانية والعبث بحياة ومستقبل الخليج العربى . والواقع ان ما تعانى منه منطقة الخليج من فقر وتناقض فى مستويات المعيشة بين الحاكمين والمحكومين وانعدام للتعليم وانتشار للمرض يجعلنا نفهم الحماية بشكل اخر هو ان المحميات بحاجة الى حمايتها من التسلط السياسى والاقتصادي الانكليزي .

اما خطورة منطقة الخليج العربي فى معركة العرب المصيرية فانها تنبع من كون الخليج نفسه النافذة التى تطل منها القومية العربية فى العراق على العالم الخارجى

ومن الخطورة بمكان ان يفتقر العراق الى منفذ على الخليج فى الوقت الذي يتعاون فيه الاستعمار البريطانى مع قوى اجنبية لجعل الخليج العربى بحيرة اجنبية عن طريق محو عروبته وتشجيع الهجرة الاجنبية اليه مما يجعل مسؤولية العراق والاقطار العربية الاخرى من الاهمية والصعوبة بمكان للابقاء على العروبة قوية فى اقطار الخليج من جهة وتأمين شريان حيوي للمواصلات والتجارة العربية من جهة اخرى •

ولكى تكمل الصورة التخطيطية للوطن العربى لا بد وان نذكر الارض العربية التى تمتد فى قلب القارة الافريقية لتثبت للعالم اجمع ان القومية العربية هى اول من حمل لواء الحرية وعمل على دعم الاخوة بين البشر كافة وبذلك نجحت قوة الدفع القومى العربى فى فتح نوافذها على القارة الافريقية لتمر منها الصداقة العربية والتعاون فى سبيل التحرر والمستقبل الافضل فقد امتزجت الدماء العربية بدماء الافارقة فى طول القارة الافريقية وعرضها دفاعا عن عزة افريقيا وحرية ابنائها والوقوف بحزم فى وجه ما يدبر ضدهم فى عواصم الدول الاوربية حيث المال والجنس واللصوصية والجاسوسية •

ويمثل السودان المنفذ الحيوي للقومية العربية التى تعانق عن طريقة الافارقة لكى تتعاقد الايدي والعزائم فى مجالات العمل لصالح افريقيا والانسانية اجمع •

والواقع ان السودان قطر متسع بمساحته وعدد سكانه ووفرة موارده الا ان هذا القطر العربى ذا المسؤولية الافريقية فى الوقت نفسه تنتظره مهام جليلة تجعل منه همزة الوصل التى تربط بين الكفاح فى سبيل الحرية والمستقبل الافضل فى الوطن العربى وكفاح الافارقة الهادف الى حكم انفسهم واسترجاع ثروات القارة الافريقية التى نهبت على يد الاستعمار وشركائه وجمعياته التبشيرية • وبعبارة اوضح اذا كانت مصر هى مفتاح القارة الافريقية الذى يدخل منه الضوء والحرية الى القارة الافريقية فان السودان

هى الوسط الناقل الذي يتم عن طريقه ايصال اقباس الحرية والتقدم والثورة الى اقطار افريقيا التى عانت وما زالت تعانى من الاستعمار الاوربى الذي يتراوح بين السيطرة السياسية والاستغلال كما كان الحال فى كينيا وغانا والجمهورية العربية المتحدة وبين الاستيطان وحكم الاقلية كما هو الوضع المريض السائد فى جنوب افريقيا وروديسيا وانكولا وموزامبيق حيث يعامل الافارقة كحيوانات الحقل المريضة فى الوقت الذي ينعم فيه المستعمرون البيض بفردوس مفقود تحدث عنه الخيال وجسمته مخيلات الفلاسفة لاستحالة وجوده فى عالم الواقع .

الفصل الخامس

اليوم والمصير : فى سبيل عمل للغد

عنوان هذا الفصل مأخوذ من كتاب للمفكر الالمانى (ازولد شبنجلر) نعى فيه على الحضارة الاوربية تدهورها وانحطاطها فقد وصف اليوم الاوربى ، ويريد به الحاضر ، بانه قاتم ويزداد قتامة لكي يفسح مجالا لظلام المستقبل الذي عبر عنه شبنجلر باسم (الغد) .

والواقع ان نبوءة (شبنجلر) لها سند من الواقع والفكر فى اوربا وامريكا وبعبارة مختصرة فان الفكر الاوربى وقد بلغ الحد الاعلى فى نجاحاته لابد له ان ينحدر فى طريق التدهور والانحطاط ، ويمكن اكمال الصورة التى رسمها شبنجلر فى كتابه (اليوم المصير) بما ذكره هيگل عن روح الحضارة التى تحل فى امة من الامم فتدفعها الى اعلى مراتب الرقي ولكن هذه الروح لا تلبث ان تترك تلك الامة لتحل فى امة ثانية ، وبذلك يسير فكر كل من هيگل وشبنجلر فى خط واحد يؤكد بداية النهاية بالنسبة للحضارة الاوربية .

وهذا التنبوء مع وجود الكثير من نواحى الخيالية فيه وعلى الاخص فى العصر التكنولوجى الحاضر الذي تسد ثغراته فى الفكر والواقع بما يتحقق من تطور وتقدم واختراع فى مجالات العلوم النظرية والتطبيقية الا ان هذه النجاحات فى حقول العلم والصناعة والسيطرة على المادة تركت فراغا كبيرا فى نفس الفرد الاوربى ادى الى ازدياد شعوره بعدم الاستقرار النفسى وزعزع اركان المجتمع فى اوربا على اختلاف ايديولوجيات هذا المجتمع ، وقد فسرت الصعوبات التي تقف فى وجه التقدم المتكافىء ماديا وروحيا فى اوربا

بواسطة ما يسمى بفكرة (التقاعس الحضاري) وفحوى هـذه الفكرة ان التقدم فى مجالات السيطرة على المادة عن طريق الصناعة والانتاج على نطاق واسع جعل من التطور المادي حقيقة سريعة الحركة تملك القابلية على التمدد الواسع فى جميع الاتجاهات فى الوقت الذي يعجز فيه التطور المادي الاوربى الكبير عن سد الفراغات العاطفية والروحية فى حياة المجتمع الاوربى بالاضافة الى ان التطور المادى لم يكن ليصاحبه تطور فكرى بنفس سرعته مما ولـد ازدواجا فى الشخصية لـدى الفرد والمجموع فى اوربا بشكـل عـام وفى الولايات المتحدة الامريكية بشكل خاص فالتقدم الآلي وتطور الانتاج من وسائل وادوات واختلاف التصاميم فى مجالات الصناعة المتعددة التي تحاول ان تتغير تبعا لظروف المكان والزمان وحاجة السوق لم تكن لتنسجم مـع ازدياد فى الحصيلة الثقافية لدى الفرد العادي فى اكثر مجتمعات اوربا وامريكا وقد ستر هذا الضعف تحت ما يسمى بالاختصاص فثمة الحجة القائلة بان التعمق فى المعرفة هو من عمل النفر الذي يكرس اكثر حياته وقسما كبيرا من وقته فى سبيل الخوض فى المسائل الفكرية المعقدة .

وهذا هو بداية الانحطاط الحقيقي لان الهوة بين التطور المادي والتقدم الفكري وخصوصا على مستوى عامة الناس فى المجتمعات ذات الثقافـة الاوربية والامريكية ستزداد عمقا لان (النخبة المثقفة) تعمل دوما على اغناء حصيلتها من المعرفة فى الوقت الذي يتسع فيه جهل او غباء الاكثرية الكاثرة مما يسمى بالافراد العاديين فى اوربا وامريكا الامر الذي سيقود حتما الى (ثورة للاغبياء) تسيطر على العالم الاوربى الثقافى باسم سد الفراغ العاطفي وهدم العقلانية والتعلم او بالعكس تنتقم النخبة المثقفة من الاغلبية التى عانت منها ومن المصالحة معها فتلقى بها فى البحر او تعمل على ابادتها .

فالثقافة فى العالم الاوربى بايديولوجياتها المختلفـة فى طريقهـا الى الانحطاط فمن هي الامة التي ستحل فيها روح التقدم والحضارة بعد أن تخرج من نطاق المجتمع الاوربى سواء أكان فى اوربا او اميركـا ؟ وهنـا تبرز امكانيات عديدة لابد ان نستثنى منها الاقطار الاوربية بكاملها لانها

تمثل بشكل او لاخر فعلا او رد فعل اوربى، يمتد هذا التأثير الى جنوب شرق اسيا حيث تتصارع المشاكل الاقتصادية والسياسية مع الايديولوجيات الفكرية مما يجعل الدول الاسيوية فى وضع بعيد عن مجال جذب الروح الحضارية اما افريقيا واميركا اللاتينية فانهما تمثلان قارتين تمتلكان العديد من اسباب الثروة الطبيعية مع وفرة فى الايدى العاملة غير المدربة الا ان هاتين القارتين على الرغم من وفرة مواردهما لا تمتلكان الدافع القومي الذي يجعل من كل منهما وعاءا مهيئا لاستقبال الروح الحضارية بعد خروجها من جسد الحضارة الاوربية وتركها للمجتمع الاوربى الاميركي •

بقيت الامة العربية اذن كمرشح طبيعى لاستقبال الروح الحضارية والعمل على احتضانها وبذلك اتفق مع (سبجلر) فيما ذهب اليه من ان الحضارة الاوربية فى طريقها الى الغروب فى الوقت الذي ارى فيه قابلية الامة العربية لاستيعاب الروح الحضارية واستضافتها لكي تتم الاهداف، التى تعمل الحضارة دوما من اجلها وهى التأكيد على تقدم الانسان والانسانية بخطى اوسع مما هى عليه فى الوقت الحاضر لكي يتم التغلب نهائيا على الخوف والفاقة والجريمة والمرض والتأخر •

ولكن الامة العربية تبدو وكأنها ليست متكافئة مع الدور الذي تم تخطيطه لها فى هذا الفصل بعد ان اوضحنا تدهور الحضارة الاوربية وقابلية الامة العربية للاستفادة من الفرصة التاريخية المتاحة لها لضم روح الحضارة اليها ومساعدتها فى نشر رسالة الحضارة الانسانية فما هي العوامل السلبية التى تباعد بين الامة العربية وبين مسؤولياتها الحضارية فى المستقبل :ـ

١ ـ التفكك السياسى فالوطن العربى ما زال يعيش واقعا فرض عليه فقد وجدت الحدود المصطنعة لكي تباعد بين قطر عربى وقطر عربى آخر وقد تظافرت عوامل عدة على ابقاء الوطن العربى مجزءا فقد تعرضت الارض العربية الى هزات عنيفة تمثلت فى نتائج المطامع القديمة للدولتين الفارسية والبزنطية مما بذر بذور الشقاق بين العرب انفسهم واستخدمت الطاقات العربية فى ضرب بعضها والعمل لمصلحة المستعمر المستغل كما حدث بالنسبة

للمناذرة وللغساسنة .

وقد استطاع الاسلام العظيم ان يوحد العرب ويجعل منهم امة متماسكة استطاعت أن تمتد بوحى من رسالتها المقدسة وبدافع من الاستعداد النفسى العربى المتمثل بالشجاعة والتضحية بالذات فى سبيل التأكيد على قيم القومية العربية فقد تمكنت الجيوش العربية من اكتساح قوات الاحتلال الفارسية والبيزنطية مع الاختلاف الكبير بين العدد وبين التسليح والخطط الحربية لكل من الجيوش العربية وجيوش الامبراطوريتين الفارسيةوالبيزنطية ولعل من أهم اسباب النصر الحاسم الذي احرزته قوة العرب الحربية هو ايمانها بانسانية القيم الدينية الاسلامية من جهة والتجاوب مع الشعور القومي الذي اضطهد من قبل الامبراطورية الفارسية والبيزنطية من جهة اخرى فقد استطاعت القومية العربية التي بقيت رازحة تحت ثقل التسلط البيزنطى والظلم الفارسى من الظهور ثانية فالتقت مع الاندفاع العربى الجديد وبذلك سجل التاريخ الحربى العالمى اروع الانتصارات فى جبهات العراق والشام ومصر انهزمت او تداعت فيها قوى مسلحة لم تكن لتقل فى قوتها وثقلها فى السياسة الدولية انذاك عن مثيلاتها من القوى العسكرية للدول الحديثة وعلى الاخص روسيا وامريكا .

وقد ترجم الانتصار العسكري الى واقع سياسى تبلور بشكل تنظيم اداري الا ان العرب لم يتمكنوا من وقف التيارات التى عملت ضدهم وتفسر خاصية الضعف العربي هذه بانها نفسية تتعلق بالتركيب العقلى والخلقى للفرد العربى وبعبارة اوضح فان العرب بعد ان تم انتصارهم فى معارك متكافئة ظنوا أن تلك الانتصارات وفوق الارض العربية تكسبهم شرعية لكي يمارسوا حقوقهم كاملة دون ان يكون هناك مجال لشك او تدخل من جانب القوى التى تم الانتصار عليها ثم ان تلك القوى قد خسرت المعركة العسكرية التى يعتبرها الانسان العربي الحد الفاصل فى احقاق الحق وفى تأكيد الافضل لذا فان بقايا تلك القوى المحطمة لا اهمية لها !

وبوحى من هذه النظرة التى تتجاوب والخطوط العامة للنفسية والخلق

العربيين فقد اهمل العرب جانبا اساسيا هو الحفاظ على المكاسب التى حصلوا عليها وبذلك تسربت القوى الغريبة من خلال هذه الشقوق واخذت تعمل بقوة وتصميم على هدم الكيان العربى ولما لم تستطع ان تقوم بحركة قوية من الداخل فقد عملت على التحالف مع اعداء الامة العربية فى الخارج وانتهى امر هذا التحالف بوقوع الحروب الصليبية التى جاء توقيتها متناسبا مع ادوار الضعف التي مرت بها التشكيلات السياسية والادارية العربية ثم بدأت مؤامرة اخرى للقضاء على الوطن العربي تمثلت بغزو المغول والتتر لبغداد واكتساحهم لكل ما شادته الامة العربية خلال السنين الطوال من معرفة فى مجالي الفكر والواقع .

وقد تبع انهيار الحضارة العربية بقيمها الاسلامية تفكك اجتماعى خطير ضعفت فيه الروح القومية وسيطرت عليها النزعات المحلية والطائفية الضيقة وعلى الرغم من ان القومية قدر ومصير الا انها تحتاج الى ارتفاع بالنسبة للمسؤولية الفردية وعلى الصعيد القومي لكي تستطيع ان تترجم روحها الى عمل او فكر لذا فقد بقيت القومية العربية بشكل لا شعوري يعيش فى ضمير الشعب العربى فى الوقت الذي يدفع فيه الانسان العربي لاستعادة مجده .

وقد جاءت فترة التسلط العثمانى ممثلة لطمة اخرى وجهت الى القومية العربية فمن المناسب تاريخيا وواقعيا التأكيد بان القومية العربية كانت فى طريقها الى استعادة قابليتها على العمل لو لا ان ظهر التسلط العثمانى على مسرح السياسة فى الوطن العربى فقد تمكن العثمانيون من تجريد القومية العربية من امضى اسلحتها وهو الاسلام مما سبب شعورا بالارباك وتزعزع الولاء الفكري لدى اعداد كبيرة من ابناء الامة العربية فبدافع من قوميتهم يجب عليهم ان يقاوموا الاستعمار التركي ولكن دعوة الاتراك بوجود الصلة الدينية بينهم وبين الاسلام ولد قوة ثانية لدى الفرد العربى وازنت اذا لم تعرقل اندفاعه فى سبيل احياء واقعه القومي .

وبذلك عاشت الغالبية من افراد الامة العربية فى مجال جذب قوتين صعب

عليهم التوفيق بينهما وقد أثر هذا الانقسام فى الولاء فى بناء شخصية الاجيال العربية التى تلت فترات الضعف والانحلال هذه كما لم يبرأ منها الجيل العربى المعاصر على الرغم من انقضاء فترة طويلة على انهيار الدولة العثمانية وانحسار ظلها القاتم عن الوطن العربى فقد تنطلق صيحات تنادى بما نادى به العثمانيون وزعزوا عن طريقه ثقة العرب انفسهم وبذلك تتجه بعض القوى فى الوطن العربى صوب هذه الصيحات ظنا منها انها صادرة عن مصادر تؤمن بالافكار القيمة التى تنادى بها وكما كانت هذه الاساليب فى الماضى تصدر عن عروش ومكامن للقوة تمثلت فى حكام مطلقى النفوذ ولم تتمكن تلك الدعوات من النفاذ الى اكثر من بث الارباك والتفرقة بين ابناء الامة العربية ومس بعض الاوتار العاطفية فى شخصية الانسان العربى فى الماضى فان هذه الاساليب ما زالت بنفس اهدافها القديمة تستخدم لضرب القومية العربية المتحررة من جهة ولاضفاء نوع من الشرعية على وجود العروش التي تفصلها عن شعوبها فجوات واسعة من جهة اخرى .

فقد نادى السلطان عبد الحميد بفكرة الجامعة الاسلامية فى الوقت الذي كان فيه نفس هذا السلطان بعيدا عن كل ما يمت الى الاسلام والمسلمين بصلة مع كونه شخصية سايكوباثية ترى فيمن تتعامل معه من اشخاص وجمادات مصادر للخطر توجه لتهديم ذات السلطان عن طريق اغتياله او التخلص منه وما زالت الممرات السرية الرهيبة فى قصر يلدز (مقر السلطان عبد الحميد) شاهدا حيا على العقلية التى عاش بها ذلك الحاكم من آل عثمان فى الوقت الذي تنطلق فيه صيحات مماثلة تحت اقنعة اخرى ولكن الوسائل مهما أختلفت فان القصد واحد وهو على طرفي نقيض مع كل حركة عربية يراد بها بناء كيان عربى يستطيع ان يتحمل مسؤولية حضارية تجعل منه مصدرا حضاريا مشعا يعكس اصالة الحضارة العربية فى الماضى وقدرتها فى الحاضر على تجديد ذاتها واجتياز العقبات التى يضعها الحاقدون على اختلاف اشكالهم ومخططاتهم ناسين ان القومية العربية اقوى من ان

تنالها الاعيب الافراد لانها واقع يتحدى التسلط الفردى والتخطيط الحاقد في الوقت الذي تمتلك فيه القومية العربية قابلية الكشف عن اعدائها والتغلب عليهم وسوقهم الى محاكم التاريخ لكي تتم تعريتهم تماما وبذلك يقبعون في ركن مظلم ليصبحوا عبرة لمن تسول له نفسه العبث او التطاول على قوة مصيرية كالقومية العربية ولم يرحل الاستعمار العثماني بنفس السهولة التي تمكن بها من السيطرة على الامة العربية . لقد دخل هذا الاستعمار الوطن العربى بعد ان تمت له الغلبة على السلاجقة ولكنه حاول ان يعتصم بالوطن العربى بعد ان عاش حكام الاستانة وموظفوها وولاتها في البلاد العربية على (المكونات الاساسية) للارض العربية واشاعوا الجهل والخرافة والمرض والفقر والتسيب فى صفوف ابناء الامة العربية .

ولما انكشف زيف الدعوة العثمانية التى اتخذت من الدين ستارا سياسيا لاخفاء اهدافها الاساسية وظهر الوجه الحقيقى للعثمانيين ممثلا فى سياسة التتريك التى انتهجها (حزب الاتحاد الترقى) كان طبيعيا ان يقدر العرب موقفهم على ضوء تلك التطورات الدموية والاجرامية للسياسة الطورانية وبالفعل فقد اخذت حركة التحرير العربية تسير فى خط قومى كان من نتائجه تأسيس العديد من الجمعيات ذات الصبغة المدنية او العسكرية وانعقاد المؤتمر العربى الاول فى باريس .

الا ان المحاولة التى سارت فيها الثورة العربية لم تسلم من انتكاسات وعلى الاخص عندما بدأت القوتان الرجعية ممثلة فى ترسبات مشبعة بالفكر والسياسة العثمانيين ومن تبعها من ابناء الامة العربية مع اتجاه مضاد سار فيه المثقفون من ابناء الوطن العربي مؤكدين على شخصيتهم القومية وأهدافهم الموصلة الى وحدة التراب العربى .

وبالنظر لطول الفترة التى عاشها الشعب العربى تحت تسلط العثمانيين وعدم وضوح الرؤية لدى الفرد العربي نتيجة للدعاوى الباطلة التى بثها الحكام العثمانيون من جهة والجهل السائد بين العرب من جهة اخرى فقد بقى عدد من ابناء الشعب العربي متمسكين بالحكم العثمانى او على الاقل بالتبعية للحكام من آل عثمان ظنا منهم ان السياسة الطورانية ناتج لحركة

سياسية قامت بها جمعية مناهضة للسلطان نفسه .

وقد ادى الارباك الذي ساد العديد من ابناء الامة العربية فى مرحلة حرجة من مراحل التصميم على طريق للعمل العربى مع صعوبة الاتصال بين الجمعيات العربية ذات الاتجاه القومي وبين القواعد الشعبية ان ظهر فراغ كبير استطاعت بعض العناصر التى اسبغت على رجعيتها رداء قوميا ودينيا من ملء هـذا الفراغ واتتهاز الفرصة للعب دور مصلحى انتفعت منه تلك القوى فى بناء مجد شخصى للافراد وللاسر التي كانت وراء عملية أستغلال الفراغ . ومـن اصدق الادلة على وجهة النظر هذه ان فيصل احد أفراد الاسرة الهاشمية استطاع ان يخدع الجمعيات العربية فى سوريا فجعلها تؤيد والده وبذلـك اجهضت محاولة كان المقدر لها ان تكون فاتحة لعمل عربي ثوري يستطيع ان يقضى على التناقض الفكري القائم انذاك ويعبد الطريق امام بناء الشخصية العربية المتحررة والمستقلة فى آن واحد .

وفى الوقت الذي كان فيه الوطن العربي يصارع الاستعمار العثمانـى وما يتصف به من دعوات مضللة وسياسة طورانية تدعو الى تتريك القوميات الاخرى الداخلة فى تركيب الدولة العثمانية ظهرت قوة استعمارية جديدة تمثلت فى مخططات الاستعمار الاوربى .

والواقع التاريخى يؤكد ان العثمانيين كانوا يعتقدون بانهم الامنـاء على الارض العربية مما ادى الى ابقاء حدود الوطن العربى دون تغيـير على الرغم من الفوضى الادارية والسياسية والاقتصادية والثقافية التى جمعت فى تركه مثقلة ما زالت الامة العربية تشكو من سلبيته مضاعفاتها حتى الوقت الحاضر .

اما عملية القرصنة التى مثلت على مسرح السياسة العالمية والتى ذهبت ضحيتها اجزاء من الارض العربية فقد اشترك فيها التسـلط العثمانـى والاستعمار الاوربى ثم الضعف العربى . ويمثل الاستعمار الاوربى تكالب الدول الاوربية لايجاد مناطق نفوذ لها فى افريقيا واسيا وامريكا اللاتينية . ومن الصعب ان تفصل المحاولات الاستعمارية فى هذه القارات عن بعضهـا

لانها كلها مثلت أغتصابا بالارض دونما شرعية والعمل على أفقارها وأستعباد اهلها والعبث بمصيرهم فى الوقت الذي ينعم فيه ابناء المستعمرات بالخيرات التى اغتصبوها ويعيش اهل الارض المغتصبة غرباء او اجراء فى وطنهم .

وقد اقترف الاستعمار الاوربى اظلم انواع الاغتصاب فى الوطن العربي ، فقد أتتهت الدولة العثمانية بدخولها الحرب الكونية الاولى وبدأت الدول الاوربية تطالب باسلاب الحرب وكانت الارض العربية تابعة للسلطان العثماني آلت اليه بالوراثة او الاغتصاب لذا فانها يجب ان تنزع عنه وتقدم للجهة التى تم لها الانتصار فى قتال العثمانيين ألم تتم تسمية الدولة العثمانية بالرجل المريض لكي يتسنى للدول الاوربية اقتسام (الاقطاعيات) التابعة له قبل موته مما دفع الدول الاوربية للعمل بجد لرسم المخططات الكفيلة لضمان حصتها من تركة الدولة العثمانية .

وبوحى من هذا الشعور فقد تم عقد المعاهدات السرية بين الدول الاوربية تخطط بموجبها ما تحصل عليه كل دولة من الغنائم بعد الحرب دون ان تدخل تلك الدول فى حسابها حق العرب فى ارضهم كبشر اولا وكمواطنين لقومية من اعرق قوميات العالم حضارة وتاريخا ومقدرة على تحمل المسؤوليات الثقافية المستقبلة ثانيا . فنتجت عن تلك المحاولات السياسية المشبوهة معاهدة سايكس بيكو التى وقعها نكرتان الاول انكليزي والثانى فرنسى وبموجبها (حددت) مناطق نفوذ كل فى من هاتين الدولتين وما يدخل ضمن هذه المناطق من اقطار عربية !

ولما كان العرب فى بداية نهضتهم الحديثة وليس لديهم القدرة الكافية على العمل السياسى فانهم لم يستطيعوا كشف تلك اللاعيب الاستعمارية حتى وقعوا فعلا فى الفخ ولكن الغريب ان الفرصة سنحت للعرب للخروج من المأزق الذي اعد لاذلالهم بعد ان كشفت معاهدة سايكس ـ بيكو واتضح ان الحلفاء الاوربيين لم يقصدوا فى سياستهم المعادية للدولة العثمانية الانتصار للقوميات المضطهدة والعمل على تخليصها من السيطرة العثمانية وانما عملوا على اضعاف العثمانيين لكي يتسنى لهم اغتصاب الارض العربية

واقتسامها كغنيمة بادرة بينهم .

والتاريخ دون شك يحمل المثقفين العرب مسؤولية تجزئة الارض العربية من جهة وضياع بعضها من جهة اخرى لان ذلك الجيل ممن يعول عليهم لم يرتفعوا قط الى مستوى المسؤولية التى تطلبها عصرهم منهم فقد كانوا موزعين بين من يرى التفاهم مع العثمانيين او الانحياز الى الدول الاوربية اما جماعة الوسط فانهم كانوا كثرة عددية دون رأى واضح المعالم طبع الوسط بطابعى اللاابالية والانتهازية فى الآن نفسه . فلما عرضت عليهم حلول جاهزة تتولى بموجبها افراد الاسرة الهاشمية فى العراق ومحمد علي فى مصر واسر على نفس الشاكلة فى ارجاء مختلفة من الوطن العربى قبلوا بما طرح عليهم فى الوقت الذي عادت فيه الاجنحة العربية المطالبة بالابقاء على الصلة مع الدولة العثمانية او الانحياز الى الدول الاوربية لتتخبط بالوسط مبقية على وجهات نظرها مما ميز الصف العربى على الصعيدين الوطنى والقومى بالضعف والارتباك .

وبعد ان تكشفت للامة العربية الادوار التى لعبتها الاسر ذات الصبغات الملكية فى مقدرات الوطن العربى نشأت امتدادات جديدة للفكر العربى السياسى وليس ذلك بامر يصعب فهمه بالنسبة للعرب انفسهم او من يهتمون بالمنطقة العربية من خارج حدود الوطن العربى فقد أقحمت الاسرة الهاشمية نفسها على مسرح السياسة العالمية فى الوقت الذي لم يكن لدى مؤسسها او افراد العائلة كلهم أي وعى سياسى او فهم لتعقيدات السياسة فى العالم وعلى الاخص فى الفترة المضطربة التى بدأت بضعف الدولة العثمانية وانتهت بظهور ما يسمى بالانتداب . فقد اندفعت الاسرة الهاشمية بوحي من مطامعها لكى تلعب بمقدرات الامة العربية ودون ريب فان اتفاقيات (حسين ـ مكماهون) بينت البون الشاسع بين رجل ما زال يعيش فى وسط تغلب عليه الروح العشائرية يفهم العالم من خلال ما يحفظ من شعر ونثر وما يعيش من تجربة محدودة تتعلق بوسطه الذي حوى كل شيء الا الثقافة السياسية بوجه خاص وبين سفير دولة اجنبية هو مكماهون جمع

بين الدهاء السياسى وبين الخبرة العملية التى اكتسبتها السياسة البريطانية الاستعمارية خلال استغلالها للهند والعديد من الاقطار التى وقعت تحت السيطرة والظلم البريطانيين .

فقد اثبت مؤسس الاسرة الهاشمية بانه يجهل حدود الوطن العربى وجازت عليه مسألة (الجمع بين العرب واليهود فى فلسطين) كما انه لم يكن بوضع يمكنه من مفاوضة الانكليز بشكل ند لهم . فكيف صدق حسين مؤسس الاسرة الهاشمية ان بريطانيا ستلتزم باقوالها الشفوية او بما توصل اليه مع المستر مكماهون فى الوقت الذي كان يجهل فيه كل من الطرفين الغير المتكافئين لغة الطرف الآخر فى وقت أعتمد فيه كل جانب على ترجمته الخاصة لبنود الاتفاقية واخيرا يمكن ان نطرح السؤال التالي وهو : من خول الاسرة الهاشمية حق التفاوض عن العرب ؟

وللتاريخ فان الاسرة الهاشمية باخطائها وجهلها واطماعها فتحت باب الوطن العربى امام الاستعمار الاوربى لانها اكسبته شرعية خاصة لكى يتدخل فى شؤون الوطن العربى الداخلية .

فاذا سلمنا بان قصد الاسرة الهاشمية كان التخلص من الظلم التركى فان الطريقة التى تم بها ذلك التخلص لم يكن ليتمشى ومفهوم اقامة وحدة عربية ذات روابط قومية تؤكد شخصيتها كقوة مستقلة .

فقد حاولت الاسرة الهاشمية اذن ان تخرج الاستعمار التركي عن طريق ادخال استعمار آخر لم يقتصر على دولة بعينها كما كان الحال بالنسبة للدولة العثمانية وانما فتح الباب امام استعمار ساهمت فيه الدول الاوربية بكاملها وما زال الوطن العربى يشكو منه ومن الرواسب التي خلفها .

وقد نسجت على المنوال نفسه اسرة آل محمد علي فى مصر فلم تكن هذه الاسرة لتتحسس آلام الشعب المصرى وتقدر موقف مصر من العروبة لانها كانت ألبانية الاصل بعيدة عن العروبة والارض العربية فقد افسدت اسرة محمد علي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية وجعلت من القطر المصري ركاما تندر فيه الحركة ويصعب خلاله العمل او ما يؤدي الى التقدم

والحياة الفضلى فى المستقبل ففى الوقت الذي كان فيه حسين رأس الاسرة الهاشمية أميا فى ابجديات السياسة لم يكن محمد علي ليعرف القراءة والكتابة لا بلغته الاصلية وليس باللغة العربية او لهجتها الدارجة فى مصر وبذلك ارتفع سياج منيع بين اسرة محمد علي وعامة الشعب دفع بهذه الاسرة لكي تقرب بعض الغرباء عن ارض وادي النيل فتحتضنهم وتجعلهم على رأس الجيش او تترك تحت رحمتهم الفلاح المصرى واطيانه وكل اماله وآلامه مما ادى الى نشوء طبقة من ملاكى الارض من الغائبين اكثرهم من الترك او الشراكسة منحت اليهم الارض المصرية دون ان تربطهم واياها رابطة قومية او حياتية ودون ان يعرفوا قيمة الارض الطيبة فى كسب حاجات الانسان الاساسية والكمالية لذا فقد عاشوا بعيدا عن الارض التى وهبت لهم بواسطة اسرة محمد علي بينما اقيمت جسور من المحاسيب وعملاء الملاك الغائبين وممثليهم لكى تعتصر اخر قطرة من دم الفلاح المصري وتدفنه فى الارض التى شقى فى تخليصها من النيل والزمن .

وتاريخ اسرة محمد علي فى مصر طافح بالغرور والعجرفة والغباء والظلم وارهاق الشعب وفتح ابوابه للاستعمار وجعل اقتصاده ضعيفا مما حول مصر الى مزرعة قطنية للمصانع الانكليزية .

وهناك ظاهرة مريضة عكستها اسرة آل محمد علي توضح بجلاء موقف هذه الاسرة للمهتمين بالسياسة والبحث السياسى فى الوقت الحاضر تسمى (الخديوى اسماعيل) فقد يؤكد بعض المتصلين بالسياسة والاصلاح الاجتماعي فى ايامنا هذه بان ذوى النفوذ من الممكن ان يتصرفوا تبعا لظروف عصرهم وبذلك يتمكنوا من الظهور بمظهر الحكام الثوريين الذين ينشرون الاصلاح على صعيدى البناء الفكي والمادي .

فقد حاول اسماعيل الخديوى ان ينحو هذا النحو ويصبح (ملكا عصريا) ويعمل على جعل مصر قطعة من اوربا ولكن الواقع اثبت بانه فشل فى كل ما سعى اليه وتركزت مشروعاته فى نواح غير منتجة كدار الاوبرا والحفلات الباذخة التى اقيمت بمناسبة افتتاح قناة السويس .

والحقيقة ان الخديوى اسماعيل لم يستطع ان يبعد عنه عقليته التقليدية التى توارثها عن اسرة محمد على فقد اعتبر نفسه حاكما مطلقا او قوة فوق قوى البشرية فى الوقت الذي لم يكن فيه اكثر من(شيخ حارة) كما كان يصوره الصحفى المصرى يعقوب بن صنوع فى جريدته اللاذعة (ابو نظارة) وقد استدان الخديوى لارضاء غروره فلم يكن هناك تخطيط اقتصادى او على الاقل ادراك سليم لموارد مصر وما تستطيع استيعابه فى تلك الفترة من مشاريع وعمل نوع من التناسب بين القدرة الفنية ورؤوس الاموال والموارد الخام من جهة وبين النضج الاجتماعى ومتطلبات المركز الاقليمى والسياسي الخاص بمصر من جهة ثانية مما اسلم البلاد ثانية للاستعمار وانتهى حكم الخديوى بتعيين انكليز وفرنسيين فى مناصب وزارية وعلى الاخص فى مجالى الداخلية والشؤون المالية ثم وقع الانسان المصرى تحت سيطرة القضاء المختلط الذى قصد منه خلق نوعين من المواطنين الاول يحتل المركز الافضل الذي خصص للاجانب بينما يترسب المواطن المصرى فى المراكز المتخلفة .

ونظرا لموقف اسرة محمد علي الغامض فيما يخص صلاتها بالدولة العثمانية والعالم الاسلامى والامة العربية فقد نشأت انحرافات فكرية تريد ان تربط مصر باية عجلة فكرية شرط ان تكون على منزلة ثقافية مقبولة دوليا ومن تلك الدعوات المنحرفة الفرعونية والصلة اليونانية ثم الاقليمية المصرية وليس بمستغرب ان اكثر من دعا لمثل هذه الانحرافات فى الفكر والواقع كانوا يحسون بانهم تتاج اقلية فى مصر وبان ولاءهم يرتبط بقوى أجنبية خارج حدود أرض وادى النيل . وأنطلقت صيحات أخر فى العراق ولبنان وسوريا منادية بفكر وواقع محليين فقد اشتدت حساسية بعض العراقيين نظرا لوقوعهم فى مهب الريح التركية الفارسية فاتجهوا بولائهم صوب أحدى هاتين القوتين ولكن الدعوة لم تنطلق كما حدث بالنسبة الى مصر عندما دعا نفر الى الفرعونية واصالة الحضارة المصرية القديمة ثم ربطوا بينها وبين حضارة اليونان والحضارة الاوربية الحاضرة . اما فى

لبنان فقد اثر موقعها الساحلي في تكوين فكرها الحضاري وانعكس على مفاهيمها في السياسة وعلاقاتها الاجتماعية التي وقعت نفسها تحت ثقل الانقسامات في الاتجاهات الفكرية او الدينية . والواقع ان لبنان مفتوح اكثر من اي قطر عربي اخر للتأثير الاجنبي وتحاول الكثير من الفئات التقليدية العربية وصفه بانه سويسرا الشرق العربي ! فهل تحتاج الامة العربية الى سويسرا في قلب وطنها يمكن ان يستخدم في الجاسوسية او التهتك الاجتماعي او التجمع الرجعي لضرب الحركة العربية المتحررة ؟ والحق ان وضع لبنان لا يخدم العروبة بقدر ما يضر بالوحدة الداخلية اللبنانية فقد اثرت النزعات المعادية للقومية العربية التي حفزها العثمانيون بسياستهم التسلطية واستغلها الاوربيون لكي يضعفوا الصف العربي بجره الى معارك جانبية وتفتيت قواه وظهور نزعات منحرفة نادى قسم منها بالفينيقية لكي يدلل على انفصال لبنان حضاريا عن الوطن العربي الام ناسيا ان الفينيقية موجة عربية استوطنت سواحل بلاد الشام فاختلطت بحسب موقعها الجغرافي مع اقوام عدة كانت تعمر سواحل البحر الابيض المتوسط . ولما فقدت الدعوة الى (فينيقية لبنان) أهميتها قامت صيحة جديدة مؤكدة على ان لبنان اوربي تربطه بفرنسا صلات حضارية قومية وثقافية وبذلك انشأ حزب الكتائب لكي يترجم هذه الفلسفة المنحرفة الى تنظيم وحركة ذات أهداف سياسية غايتها الكبرى اقتطاع لبنان من دنيا العروبة .

وبالنسبة لسوريا فانها تحتل مركزا حساسا في الوطن العربي نظرا لحدودها مع تركيا من جهة وكونها سندا لعروبة لبنان تمده باسباب حياته القومية من جهة أخرى . ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى الوقت الحاضر تشكل سوريا خطا دفاعيا حيويا عن الوطن العربي بوقوفها في وجه المخططات الصهيونية وبعبارة موجزة فان القطر السوري يمثل حلقة الوصل بين العراق ولبنان والاردن وفلسطين كما تقوم الموانىء السورية بتسهيل حركة التصدير والاستيراد العربية لذا فقد نشأت محاولات لعزل سورياعن

الامة العربية تمثلت فى حركة الحزب القومى السورى الذى يعكس فى حقيقته واجهة سياسية متطرفة لمشروع اوربى عريق فى اهدافه الاستعمارية هو (مشروع الهلال الخصيب) فقد ادعى هذا الحزب ان الشعب السورى يكون قومية بمفرده فى ارضه المسماة (سورستان)وتمتد القومية السورية حتى تدخل فى حسابها جزيرة قبرص ثم عدلت الحدود السورية لتضم قناة السويس لا على اساس قومى متحرر وانما يرجع ذلك الى متطلبات اقتصادية صرفة لا تعدو كونها موردا ماليا مهما بالنسبة لامتدادات القومية السورية ! وقد فشل الحزب القومى السورى على الرغم من اخذه بالتشكيلات العسكرية فى التنظيم وأشاعة روح الجندية التى تربط أعضاء الحزب ببعضهم ثم بالحفنة التى تمسك بخيوط المؤامرات السياسية والاستغلال وما يشد اليها من مناورات سياسية اتخذت فى بعض الاحيان سبيل العنف والاغتيالات . الا ان طرد الحزب من سوريا وانكشاف عمالته للقوى الاجنبية واحلافها فى الشرق العربى أدى الى تواري حركة حزب القوميين السوريين عن المسرح السياسى العربى .

ومن المفيد أن ندرس الوضع السياسى العربى فى نهاية فترة التسلط العثمانى لانها ستلقي ضوءا كاشفا على ما تم من فكر وواقع سياسيين كان لهما اثرهما فى تكوين الشخصية العربية التى نحس بصعوباتها وتطلعاتها فى الوقت الحاضر .

وبدون شك فقد اسهم العثمانيون بشكل سلبى فى شق الصف العربى وفى بث عوامل التفرقة بين ابناء القطر الواحد كما حدث بالنسبة للعراق وبلاد الشام كما انهم رسموا الفرق واضحا بين المدينة والبادية وبذلك شعرت القبائل التى تتحرك على نهايات المدن تربطها بها عوامل حضارية ودينية وأقتصادية بان المدينة تحاول ان تتسلط على تلك القبائل وأن تستغلها لمصلحتها وذلك طبعا من رواسب الادارة العثمانية القائمة على التفسخ والظلم والتعسف وبشكل خاص فيما يتعلق بفرض الضرائب وطريقة جبايتها وقد كونت هذه الصورة السلبية للادارة المدنية فى عقول الكثير من

ابناء القبائل انطباعا سيئا جعلهم يعملون ضد المدينة محاولين نفض سلطتها عنهم فلما انحسر الظلم العثمانى عن اقطار الوطن العربى وخصوصا تلك التى تجمع بين البداوة والمدينة فى تركيبها الاجتماعى بدأت القبائل تقطن مناطق الريف الا انها احتفظت بنفس الشعور القديم مما جعل من القرية وهى الوحدة الاجتماعية التى ورثت (حياة القبيلة وتقاليدها) على غير اتفاق مع المدينة التى تجاورها وبالتالى مع انظمة الحكم المتركزة فى المدن الكبرى أو العواصم .

وقد غذيت نواحى الخلاف بين القرية والمدينة بحيث تطرفت القرية فى كرهها للمدينة وحياتها رامية اياها بالخروج على التقاليد والاعراف أو استباحة الكثير من المحرمات مما لا ينسجم وقواعد الشرف والتراث المتوارثة وزادت القرية فى تطرفها بان تبنت وجهات نظر وصلت بها الى حد الطائفية أو الانقسام المذهبى لكى تؤكد ذاتها المستقلة وتربك الاتصال الفكرى والاجتماعى بين المدنية والريف حيث يوجد فراغ حياتي كبير لم تستطع الشكيلات السياسية فى اوائل تكوين هذه الاقطار العربية من سده ومحاولة صهر الريف والمدن فى بوتقة الشعور المشترك مما ميز الحياة فى الريف عن مثيلتها فى المدينة وجعل من الريف مصدر تعب ومصاعب للحكومات المركزية وزاد من صعوبة صلة الريف بالمدينة محاولة المدن فى أكثر الاقطار العربية التوسع على حساب معونة الارياف وجهل سكان هذه المناطق الذين افترض بهم العمل لسد حاجات التوسع الهائل فى حجم المدن وازدياد كثافة سكانها فى الوقت الذي لم يكن ليشعر أبناء الريف بصلتهم العميقة بالمدن بل بالعكس شعر الريفيون بالتحرج الشديد عند دخولهم للمدن واطلقت عليهم اسماء وصفات خاصة لكى يتم تأييد المفاهيم الاجتماعية المتناقضة بين الريف والمدينة بمسميات تكتسب صفة الثبوت .

أما العامل الثانى الذى اثر فى التركيب والعمل السياسيين فى الوطن العربي وثقل تأثيره ليعيش فى وقتنا الحاضر بشكل صعوبات أو تناقضات فانه يتصل بصفة اكيدة بموقف الاسر المالكة التى لعبت ادوارا سلبية فى حكم

اقطار عديدة من الوطن العربى فقد سيطرت أسرتان منها وهما اسرة محمد علي والاسرة الهاشمية على مقاليد الامور فى أكبر بلدين عربيين هما مصر والعراق ولم تكن تلك الاسر لتتمتع بالاهلية والكفاءة مما يمكنها من لعب دورها بشكل اكمل فى سياسة وادارة الاقطار التى وقعت تحت حكمها فقد دخلت اسرة محمد علي الى مصر عن طريق الصدفة وتمكنت من اخضاع ارض وادي النيل لسيطرتها دون ان تعمل على جعل قوى الشعب العاملة فى القطر المصري ترتفع بمفاهيمها العامة عن الحياة بجوانبها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية فلم يكن هناك عمل مشترك بين الحكام وعامة الناس يقصد منه خير الشعب المصري فقد انشأ محمد علي المعامل الحربية وقام ببعض الاصلاحات التى كانت موجهة لبناء مجده الشخصى وقد أتجه الحاكمون فى مصر الى أحاطة أنفسهم بالاعوان والحاشية والخدم مما خلق فراغا كبيرا حاول (أحمد عرابي) عن طريق الجيش ومصطفى كامل ومحمد فريد عن طريق استعداء الرأي العام الاوربى ضد الحكم الفردى فى مصر وسعد زغلول بواسطة التنظيمات السياسية وعلى الاخص تشكيله الوفد الذى ذهب لمفاوضة الانكليز ثم أصبح فيما بعد حزبا سياسيا يعكس وجهة نظر الشعب المصري حتى وفاة مؤسسة سعد زغلول ، هذه المحاولات قصد منها القضاء على الفواصل بين الحاكمين والمحكومين والعمل على جعل الحاكم أكثر دمقراطية عن طريق ربطه بالشعب أو وصل الشعب به .

أما الاسرة الهاشمية فانها جاءت بتزكية من السلطات البريطانية المحتلة بعد أن عملت تلك السلطات على ايجاد تكافؤ بين الشخصيات العراقية المختلفة وبذلك توازنت القوى بين من كانوا يستطيعون أن يصلوا الى مراكز الحكم والسلطة من العراقيين فى الوقت الذى حاربت سلطات الاحتلال البريطانى المجموعة المتنورة المخلصة التى كان بمقدورها ان تأخذ بيد البلاد وعلى الاخص بعد ثورة سنة ١٩٢٠ م الى شاطىء الاستقرار والتقدم .ولكن السلطة المحتلة انذاك لم تترك للعراقيين تدبير شؤونهم الخاصة بالمسؤولية السياسية وتوزيع السلطة بين الاطراف المعنية وانما قامت بتضخيم

الخلافات ونقلها من مجالها الفردي على صعيد التكتلات التى تميزت بارتباك السياسى او الطائفية او كليهما معا لكي تثبت للعراقيين انهم لا يستطيعون حكم انفسهم وان الافضل بالنسبة اليهم ان يستوردوا حاكما من خارج الحدود ترضى عنه الفئات التى جعلتها السلطات البريطانية مختلفة فيما بينها وكانت السياسة البريطانية المتأثرة بمدرسة الهند قد فهمت نتيجة خبرها فى حكم شبه القارة الهندية ان اسلوبها الناجح لتعميق الخلافات بين الجوانب المختلفة الاتيان باحد الجوانب وجعله فى مركز السلطة حتى ينم التنافر بينه وبين الاطراف المعنية الاخرى وبعبارة اوضح فقد عمدت سلطات الاحتلال البريطانية فى العراق على استغلال ما ترسب فى العراق من خلافات نتيجة عهود الظلم والاستبداد الطويلة وتزعزع ثقة العراقيين بانفسهم نتيجة وقوعهم فى منطقة حرب بين قوتين تختلفان جذريا فى كل شيء وان اتفقتا فى محاولتهما للسيطرة على الارض العراقية وبذلك فقد عمدت السلطات البريطانية المحتلة للقطر العراقى الى زيادة وجهات الخلاف حدة عن طريق الاتيان برئيس وزراء يمثل اتجاهين الاول خاص بمركزه الاجتماعى والدينى والثانى يعكس طابعا رجعياوسلبيا فيمايتعلق بالاتجاهات السياسية التى بدأت تؤثر فى منطقة الوطن العربى انذاك وعلى الاخص نمو الفئات المفكرة ذات الاتجاه القومى المتحرر • وقد أدى عمل السلطات البريطانية الى نشوء نوع من الحساسية بالنسبة للتركيب الاجتماعى فى العراق مما جعل الطريق ممهدا للخطوة البريطانية الثانية وهى الاتيان بحاكم غريب عن الارض العراقية يكون فى اتجاهه جامعا بين ما تريده الاطراف التى خطط الاستعمار لاختلافها مع كونه ينتمي الى أسرة ذات أصل دينى ويقيم فى أرض مقدسة فى الوقت الذى لم يكن هناك اتصال بين الاسرة الهاشمية وبين ما تدعى من انساب ثم هى لم تحافظ على الاراضى المقدسة وامتدت ايادى افرادها لتصافح الصهيونية واليهودية وما اليها من قوى الاستعمار العالمى مما دفع بالقوى الاستعمارية (عرفانا بالجميل) ان تمنح العراق والاردن للاسرة الهاشمية فى الوقت الذى عملت فيه على استغلال

عملائها من افراد هذه الاسرة لكى تضرب بهم حركات التحرر فى الوطن العربى أو تتستر وراء سمعتهم لدى بعض العامة من غير المتعلمين فتجعل من افراد اسرة الهاشميين انداداً للمثقفين العرب الثوريين محاولة فى ذلك اقامة توازن بين هذه الاتجاهات الفكرية الثورية والرجعية الا ان أتجاه الفكر والواقع فى الوطن العربى صوب المصدر الثورى وما يحمله من فكر ناضج واخلاص فى سبيل وحدة العرب وتقدمهم عصف بالسياسة البريطانية ذات الموازنات التقليدية فقامت ثورة سنة ١٩٥٢م لكى تقضى على القوى التى خلقها الاستعمار فى مصر مثلة بالملك المصرى والسياسيين التقليديين الذين يحسنون المفاوضات فيقنعون بما يلقى اليهم من فتات موائدها كما قوضت ثورة سنة ١٩٥٨م فى العراق اركان السياسة التقليدية فمحقت الملكية وبذلك واجه الشعب العراقى لاول مرةفى تاريخهمسؤولياته الكاملة وأخذ يعمل على ايجاد الوسيلة السليمة التى يستطيع عن طريقها جمع صفه الوطنى بعد فترة طويلة من التفكك والضعف والغباء السياسى وأنعدام ثقة الحاكمين بالمحكومين فى الوقت الذى ينطلق فيه العراق فى الاجواء العربية ليتسنم مسؤوليته السياسية الكاملة على صعيد العمل القومى المشترك الهادف الى الوحدة الشاملة .

ونتيجة لتأثير رواسب الحكم العثمانى من جهة وما لاقته القوميةالعربية من ضغط عليها فى اواخر حكم العثمانيين وفشل الاسر المالكة فى الوطن العربى التى حاولت أن تبقى فى مركز السلطة والحكم فانتهجت فىسياستها اسلوب المحافظة على الوضع كما هو وابقاء القديم على قدمه فى الوقت الذى لم تسمح فيه للتقدم فى الفكر والاجتماعوالاقتصاد والصناعة بشكل خاص ان تدخل بشكل واسع الى الاقطار العربية من جهة اخرى ، فقد درج العديد من الكتاب العرب والاوربيين على وصف الوطن العربى بانه زراعى فى اقتصاده وفى تفكيره وفى نواحى حياته المختلفة التى ترتبط بالزراعة كحرفة وكحياة وان حظه فى الحضارة الحديثة ودوره فيها ثانوى ان لم يكن ولد ضعيفا .

ومن وجهة نظر الواقع التاريخى فقد حالف الاستعمار اولئك الذين فتحوا ابواب الوطن العربى له وعلى الاخص أفراد الاسر التى حكمت بعض أقطار الامة العربية فتوزعت السلطة بين الملك وحاشيته وبين سفير تلك الدولة المستعمرة ممن تعرف على القطر الذي عاش فيه مكملا لسلطة الانتداب أما الطرف الثالث فيتمثل بالقوى الرجعية من شيوخ القبائل التقليديين وأصحاب الاقطاعيات الواسعة او ممن يتميزون بانتفوذ التجارى وبعض من استغل مكانته الدينية فى سبيل ارضاء شهوته الى المال او السلطة .

هذه الفئات هى التى كانت تسير سياسة اكثر الاقطار العربية حتى تلك التى لم تحكم من قبل أسرة مالكة كسورية ولبنان فقد لعبت نفس الاصابع التقليدية الثلاث فى التأثير على سياسات الدول العربية الاخرى ومحاولة شراء الفئات المختلفة لكى يتم اتساع مناطق نفوذ الاسر الحاكمة فى الوطن العربى فقد كان الملك عبدالله فى الاردن والساسة التقليديون فى العراق فى الفترة الملكية يحاولون أخراج فكرة الهلال الخصيب الى حيز الوجود يساعدهم فى ذلك الاستعمار البريطانى فلما فشلت تلك المحاولات أخذوا يتجهون بسياساتهم نحو آفاق عالمية لكى يتم القضاء كليا على قوى التحرر فى الداخل وتصبح القوى الثائرة تحت رحمة الاسماء الضخمة (كحلف الاطلسي) وحلف (جنوب شرق آسيا) و (حلف بغداد) !لا ان هذه الاحلاف لم تكن لتنجح فى ترجمة أهداف السياسة التقليدية الضالعة مع الاستعمار الاوربى وعلى الاخص فى خنق قوى التقدم الداخلية فى الوطن العربى واوضح الادلة على فشل تلك السياسة فى الهاء القوى المتحررة عن معركتها ضد الرجعية والتأخر والاستعمار وتسليط ضغوط عن طريق الاحلاف عليها وأقامة الاتحاد الهاشمى بين العراق والاردن ومد الحزب القومى السورى بالمال والسلاح مع الاتفاق الكلى بين القوى التقليدية والملكية وبين كل من الاحزاب الانفصالية كحزب الكتائب اللبنانى والتكتل الاستعمارى الرجعى فى مصر تحت توجيه اسماعيل صدقى والعمل

على كسب أمراء الخليج العربى وضمان مساعدة الاسر المالكة الاخرى وشركات النفط المحتكرة فى حملة موحدة متكاتفة ضد القومية العربية والقوى التحررية التى تعمل وتضحى من أجلها .

وبهذا الوضع السياسى المشوه خاضت الدول العربية حربا حدية ضد الصهيونية العالمية وما يسندها من القوى الاستعمارية ممثلة فى الاسلحة والاموال والجنود والضباط من اوربا عامة وبريطانيا والولايات المتحدة الامريكية بشكل خاص .

حدث هذا كله فى سنة ١٩٤٧م وهذه السنة لا تقف لوحدها فى سفر التاريخ العربى او العالمى فان الارض التى دارت فيها معركة فلسطين هى أرض عربية لم تطأها قدم يهودية او صهيونية فهى الوعاء الجغرافى لحضارة عربية تسمى بالحضارة الكنعانية فى وقت لم يكن فيه العبريون فى الخرافة أو التاريخ لانهم لم يعبروا حتى ذلك الوقت نهر الفرات ليكتسبوا أسمهم ويتشردوا فى الآفاق .

وعاشت فلسطين كغيرها من الاقطار العربية على هامش التاريخ وحسب متطلبات الصدفة فى الفترات التى ركد فيها الشعور العربى نتيجة للضربات المتلاحقة التى تعرض لها ابناء العروبة مما افقدهم المرونة والقدرة على العمل ولكنهم بقوا محتفظين بالحافز القومى لان القومية العربية روح أقوى من المكان ومن الزمان ومن الملوك والرؤساء فهي تمثل قدرا ومصيرا يحيى بشكل منفصل عن الطاقة المحدودة للفرد العادى وحتى طاقات الدولة المنفردة بمجموعها لذا فقد بقيت القومية العربية حية فى الارض الفلسطينية شأنها فى ذلك شأن الشعور القومى فى الاقطار العربية كافة الا ان محاولة العثمانيين تفتيت القومية العربية وعمل الاستعمار الاوربى على شق الفكر القومى الى واجهتين تقليدية وتحررية واطماع افراد الاسر الحاكمة فى الوطن العربى التى هدفت الى وضع مصالحها الخاصة والشخصية فوق المصلحة القومية ، شل حركة القومية العربية بشكل عام .

من هذا نستطيع ان نتبين عدم وجود الصلة بين فعالية العمل القومى

العربى المشترك وبين معركة سنة ١٩٤٧م فلم تحدد القومية العربية زمن المعركة وظروفها ولم يكن الاستعداد لها يتفق وما بناه الصهاينة منذ القرن السابع عشر من ممكنات فى مجالات السياسة وتجميع الاموال وتكديس السلاح وخلق ظروف المعركة النفسية والاجتماعية وكسب ود الدول الاستعمارية لكى تؤتى النتائج المترتبة على المعركة الحربية ثمارها فقد كانت فلسطين ارضا عربية خاضعة للاستعمار العثمانى ثم وقعت فى قبضة الانتداب البريطانى واشتعلت فيها نار المقاومة للسلطات الانكليزية كما كان الحال بالنسبة للاجزاء الاخرى من الوطن العربى ثم برزت الصهيونية كقوة وبديل للانتداب البريطانى هدفها اقامة ما دعاه وعد بلفور المتضمن فى كتاب وجهه الى البارون اليهودى روتشيلد (أقامة وطن لليهود) وبذلك فقد وقعت معركة غير متكافئة بين الحكام التقليديين للوطن العربى فى ذلك الوقت وبين قوى صهيونية تدعمها اليهودية العالمية والنفوذ البريطانى السياسى والمالى الاميركى لان القومية العربية التى تمثل روح العمل العربى الشعبى الهادف لم تكن لترضى ان تزج فى معركة لا تتجاوب فيها مع من يدير تلك المعركة من قوى ملكية ورجعية واقطاعية تحاول ان تحصل لنفسها على مكاسب شخصية فى الوقت الذى تتعرض فيه القومية العربية ممثلة بابنائها لافدح الخسائر والنكبات تجاه جيوش يهودية أو متهودة قد اتمت فترات تسليحهاوتدريبها. ويخطىء من يظن ان الجيش اليهودي نسخة اخرى لليهود الذين عاشوا فى الوطن العربى فقد انضم فيلق من اليهود للجيش البريطانى فى الحرب العالمية الثانية بالاضافة الى الجنود اليهود الذين عملوا مع جيوش الحلفاء فى جبهات اوربا المختلفة تساندهم قوى الاستعمار العالمى المتمثل برجال السياسة من الانكليز والامريكيين والفرنسيين وممن يعطفون على اليهودية العالمية ويتصورون انفسهم مسؤولين عماتسميه المصادر والوكالات اليهودية بحملة القضاء على العنصر اليهودى ابان الحكم النازى لالمانيا ويؤيد هذا الحشد من الامكانيات بيوت المال والاقتصاد وشركات النفط العاملة فى البلاد العربية وممن اشتريت ذممهم

من الحكام وبعض الملوك ورجال السياسة فقد كان (كلوب باشا) قائدا عاما للجيش الاردنى فى الوقت الذى كان فيه الملك عبدالله القائد الاعلى للجيوش العربية التى دخلت لخوض معركة بناء الامجاد الشخصية للملوك بعض اجزاء الوطن العربى فى ذلك الوقت فكيف يمكن الاطمئنان الى ان الاسرار والخطط العسكرية لم تكن لتتسرب الى الصهاينة واركان حربهم عن طريق (كلوب) أو المستشارين العسكريين الانكليز الموجودين فى الجيوش الاردنية والعراقية والمصرية انذاك ؟

والحقيقة انه تم تخطيط مهزلة حرب فلسطين فى الوقت الذي كانت فيه قوى الشعب العربى العاملة تعرف جيدا انها بعيدة كل البعد عن حكامها وماوكها وبان هناك فجوة متسعد وعميقة بين الساسة التقليديين وبين عامة الشعب الذين يغذون الجيوش العربية بمادتها الاساسية (الجنود) .

فلما زجت القوى العربية فى معركة غير متكافئة اتضحت الفروق الكبيرة فى التسليح والاستعدادات وظهرت بكل تأكيد نواحى التفكك فى وحدة الصف العربى وفى التفاوت بالنسبة لقتال الجبهات فقد يركز اليهود كل هجومهم على الجبهة الاردنية أو العراقية أو السورية أو المصرية وبذلك يستطيعون أصابتها بالضرر الكبير فى الوقت الذى تقف فيه بقية الجيوش العربية موقف المتفرج .

وكان أهم ما تميزت به محنة الحرب الفلسطينية الاسلحة الفاسدة التى ذهبت ضحيتها من بين أفراد الجيش المصرى اعداد كانت لا تقل عن من فقد منهم فى سوح الحرب .

وعلى الرغم من ان القومية العربية قد ارغمت بقواعدها الشعبية الممثلة بالقوات العسكرية على خوض معركة لا تمتلك فيها زمام المبادرة فقد اخذ الشعور القومى بعد ان تعرض لمصاعب النكبة القاسية التى يعيشها السير بخط مضاد للخط الذى رسمه الحكام والملوك التقليديون مما أدى الى ظهور لعبة المطالبة بالهدنة او الهدنات المتقطعة لكي يسهل على الصهيونية والاستعمار كسر شوكة الجيوش العربية والتخفيف من حدة الاندفاع

القومي فى الوقت الذي يستطيع فيه الملوك والحكام التقليديون من أستعادة سيطرتهم على القوات العربية التى ارسلت الى فلسطين .

والدرس الذى انتهت به محنة فلسطين هو ان القومية العربيةما زالت قوية تستطيع أن تعمل متحدية صعوبات تفكك الصفوف الوطنية فىالاقطار العربية فى الوقت الذى تتحول فيه هذه القومية نفسها الى قوة دافعة ذات طاقة ثورية هائلة لا تستطيع العناصر التقليدية أو الرجعية أو العميلة ان تسيطر عليها أو توجهها بالشكل التي تريده وبذلك ظهر زيف ادعاءات الاسر المالكة فى البلاد العربية بانها تعمل فى سبيل ما سمته (بقضايا العرب الكبرى) والحقيقة ان اكبر القضايا العربية هى التخلص من الحكام والملوك التقليديين وما يتصل بهم من حلقات أستعمارية ورجعية توقف مسيرة الامة العربية فى تقدمها نحو مستقبل افضل .

فقد كانت محنة فلسطين محكا رسم الخط واضحا بين القوى التقليدية ذات السلطة والنفوذ المفتقر الى قواعد شعبية عربية تستطيع ان تسنده وبين القوى الثورية المتطلعة نحو الغد فى الوقت الذى باعدت فيه نتائج الحرب الفلسطينية بين الزمرة المتسلطة والمستغلة وبين عامة ابناء الامة العربية التى اخذت على عاتقها تحقيق الرسالة الحضارية للقومية العربية وقد ساعدت معركة سنة ١٩٤٧م بوجه خاص فى القضاء على الوهم الذى كان متمكنا من نفوس عدد من الاوساط غير المثقفة أو المتعلمة فى الوطن العربى والذى يتلخص بان الملوك والحكام لهم صفات ميتافيزيقية يستمدونها من قوى خفية لذا يجب على عامة الناس طاعتهم والامتثال لاوامرهم وبمعنى اوضح فقد بدأ الفرد العادى بعد ان فشل الحكام والملوك العرب خلال سني المحنة من ان يكسبوا الجولة وذلك بحكم ضعفهم وعمالتهم للمخططات الاستعمارية ، يشعر بانه هو المسؤول عن بناء واقعه على الصعيدين الوطنى والقومىوانه ليس بحاجة الىاشخاص من الحكام يتم استيرادهم من خارج حدود الوطن العربى لكى يصبحوا بين عشية وضحاها مالكين لاخصب اراضى المنطقة فى الوقت الذى ينشرون

فيه سطوتهم وسلطانهم على الارض العربية وابنائها فيجعلون من أهل البلاد تابعين ان لم يكونوا اجراء فى ارضهم وبلدهم • ومن اصدق الامثلة على تشويه صورة الملك والحكم الملكى فى البلاد العربية نجاح الثورة العربية فى مصر سنة ١٩٥٢م فقد تعود الفرد المصرى نظرا لطول عهود الاستبداد ان يخضع للحاكم وان يقدم له الهبات والعطايا فان لم يستطع لقصر ذات يده منها فما عليه الا ان يختار افخم الالفاظ واجل الكلمات لكي يصف بها ذلك الجالس على العرش او فوق منصة الحكم وبذلك كثرت كلمات التبجيل والاحترام فى اللهجة المصرية واخذت تلقى بمناسبة او غير مناسبة بينما أتسعت النكتة لكى تعمل هى الاخرى على توازن نفسى لدى الفرد المصرى يمتص بواسطته ما يشعر به من ضعف او هوان تجاه الملك او صاحب النفوذ.

وعلى الرغم من من الوسائل التى اتبعت لتهديم الانسان العربى فى مصر وما اتصل بها من التشجيع على ادمان المخدرات تحت سمع وبصر قوات الاحتلال البريطانية ودخول هذه الآفات الى اماكن عدة فى بيوت ونفوس المجتمع المصري فقد استطاعت نفس المادة البشرية التى عبث بمقدراتها من قبل أصحاب الجلالة والرفعة والفخامة ان تثور فى يوم ٢٣ تموز سنة ١٩٥٢م وان تنفض عنها غبار آلاف من السنين عاشها المصريون يقاسون من الفقر والجهل والمرض والحرمان والتسلط الاجنبى •

معركة فلسطين وتغيير مستقبل الواقع العربى :

تمثل فترة ما بعد الحرب الفلسطينية مرحلة حاسمة فى تاريخ الامة العربية فقد ظهرت القوى من ملكية مستبدة ورجعية من جهة وقومية متحررة من جهة اخرى وبذلك حددت معالم المعركة السياسية فالسلطات التقليدية ذات النفوذ يدعمها الاستعمار وتساندها الرجعية هذه القوى السوداء تعمل على ابقاء القديم على قدمه جاعلة من التقدم بنواحيه المختلفة الاجتماعى والاقتصادى هبة تمنح من قبل الحكام التقليديين للقوى الشعبية عندما تنضج دون ان تعلم

القوى ذات النفوذ والتسلط ، أن مسألة النضج على الصعيد الشعبي مسألة نسبية يعود امر تقديرها للشعب المتمثل بالامة العربية ولكن الذى حصل ان القوى التقليدية ازدادت تصلبا فى موقفها فى الوقت الذى ازدادت مطالبة القوى العربية على صعيد الشعب بحقوقها الحياتية والقومية واخذت الهوة تطول وتعمق بين هاتين القوتين فى الوقت الذى حاولت فيه القوى التقليدية ان تقيم جسورا من الحكم البوليسى والارهاب لابقاء الهرم الاجتماعى قائما بشكل تستطيع القوى السوداء ان تجلس على قمته.

وانفجر الوضع الجديد واستطاعت القوى الشعبية العربية ان تكسب معركة الثورة وهى تسير اليوم نحو بلورة اهدافها واختيار اسلم طريق يقودها نحو وحدتها الحتمية .

الا ان الصعوبات التى تواجه القوى التحررية فى الوطن العربى التى تمتلك الان القوة السياسية تنحصر فى أن هذه القوى انبثقت من الطبقة الوسطى وتركيب هذه الطبقة فى المجتمع العربى شأنه شأن اكثر المجتمعات النامية خليط من العسكريين والمثقفين وصغار التجار والعمال والفلاحين فلابد اذن لمثل هذه المركبات الانسانية من رابطة فكرية تكون دعامة لشعورها القومى وبذلك تصبح القومية العربية بعد ان تضم مستلزماتها الفلسفية والسياسية والدينية خيمة ينضوى تحتها الركب العربى المتحرر دون ان تبدأ الفئات المختلفة الثقافة والتجربة فى الانسياق وراء بعض التخريجات التى قد تجر القوى المتحررة الى معارك جانبية على صعيدى الفكر والواقع وبذلك تفقد القومية العربية التى دقت ناقوس اليقظة بالنسبة للامة العربية فترة تاريخية مناسبة لتقدمها تتناسب والهدف القومى ذى الرسالة الحضارية العربية فى المستقبل .

فالمشكلة الاساسية التى تجابه الوطن العربى بوجه خاص والبلدان النامية بمجتمعاتها المتطورة بشكل عام هى ايجاد فلسفة واضحة المعالم للطبقة الوسطى التى بدأت تتحمل زمام المسؤولية فى كافة نواحى النشاط الانسانى الاجتماعية والاقتصادية والفكرية لان الطبقة التقليدية لم تعد تلائم

روح العصر الذى نعيش فيه فقد ابتعدت عن الحياة بسبب عمرها الزمنى وغلبته على عمرها العقلى بالاضافة الى حنينها الى الماضى الذى لم يكن فى حقيقته الا سرابا خادعا واحداثا مضطربة لا تترك على صفحات التاريخ الا ظلالا باهتة . اما الطبقات التى تعيش على الكفاف فانها تنغمر فى كسب ما يكفى حاجاتها وما دامت حاجاتها فى تزايد فان الوقت بالنسبة لها أضحى ضئيلا بشكل لم يعد يمكنها من توسيع مدركاتها الفكرية وأساليب تفاعلها مع الواقع بالاضافة الى ضجرها من العصر وما يسوده من تقدم سريع وتعقيد فى تركيب الحياة واسلوب تفاعل مكوناتها المختلفة .

فالطبقة الوسطى مهيأة للحركة والثورة والبناء بحكم ظروفها التي تجمع بين المرونة فى العمل والنظرة الى المستقبل بشكل اكثر واقعية من الطبقتين الاولى التي تعيش فى ماضيها والثالثة التى لا تخرج عن نطاق حاضرها الا لتعود ثانية نظرا لكثرة ما تواجهه من مصاعب فى حياتها وفى كسب ضروريات عيشها .

الا ان ما يؤخذ على الطبقة الوسطى فى المجتمعات الناميـــة هو ان طموحها يفوق كثيرا مالديها من طاقات وبعبارة اخرى هناك فارق كبير بين ما تستطيع عمله وما تريد ان تعمله وما ينشأ من فراغ بين هاتين الموجهتين لواقع وفكر الطبقة الوسطى يؤثر كثيرا فى تماسكها بل يجعل منها فى بعض الاحيان قوة مفككة اذا ما قورنت بالطبقة التقليدية او الطبقة العامة اللتين تبدوان اكثر تماسكا نظرا لتشابه مركبات كل منها من جهة ووضوح الفترة الزمنية التى تعيشان بها .

فالاتهازية اذن من الصفات المميزة دون شك للطبقة الوسطى على الرغم من ارتباك مفهومها لدى استعمالها فى المجالات الاجتماعية او السياسيـــة والواقع ان هذا الارباك ناتج عن عدم فهم طبيعة الطبقة الوسطى لان هذه الطبقة تحاول دوما ان تجعل من اهدافها نهايات مرنـــة تخضع للمؤثرات الزمانية والمكانية وليس فى ذلك من خطر اذا كانت الخطوط العامة باهدافها ثابتة لان الاتهازية اذا اريد بها اتهاز الامكانيات المتاحة فى سبيل عمـــل افضل أو مستقبل احسن فى تهيأته لفرص نجاح اعظم تعود على المجموع

بالفائدة وتعمل على تحقيق الاهداف الكبيرة للمجتمع فان الخط المتبع انذاك يكون اكثر قبولا اما اذا قصد بالانتهازية المساومة على المصلحة العامة فى سبيل الكسب الفردى فان المفهوم يتغير كليا ويصبح دالا على العبث بمقدرات الافراد او المجتمعات الا ان هذه الحالات وان كانت ليست نادرة فانها لابد وان تكشف نفسها وبذلك يفقد الفرد من الطبقة الوسطى مكانته الاجتماعية ويصبح غير مؤهل للعمل السايسى او الفكرى .

ولكي نعمل على تجنب الانتهازية العبثية او ذات المصلحة الخاصة وعلى الاخص فيما يتعلق بالطبقة الوسطى التى تخطط مستقبل الامةالعربية السياسى والاجتماعى والاقتصادى والفكرى فما علينا الا ان نرسم حدودا واضحة للفكر العربى بكافة جوانبه ونجعل من هذا المخطط وسيلة لقياس قابليات الافراد الذين يحاولون ان يقوموا بدور فى معركة البناء الحالية فنقدر كفاءتهم وفهمهم من جهة ثم اخلاصهم لمبادىء القومية العربية من جهة اخرى ، وبذلك تتجنب القومية العربية النكسات التى تصاب بها من وقت لآخر .

وبدون شك فان الوحدة بين سوريا ومصر سنة ١٩٥٧م كانت اعظم عمل مر فى تاريخ الامة العربية منذ ان اتحدت قوى سوريا ومصر تحت قيادة صلاح الدين الذى خلف نور الدين زنكى والي الموصل فى العراق والتى تمكنت من كسر شوكة الصليبيين فى حطين، فان انبثاق ظاهرة العمل القومى الموحد فى وقت كان الشعور السائد فيه ان الوحدة العربية وما يتبعها من آمال وآلام انما اصبحت لعبة سياسية تتخذ منها الفئات الرجعية وحكامها التقليديون فى الوطن العربى ستارا لاخفاء أوضاعهم الداخلية الهزيلة ، أثبت امكانية الخروج من الحلقات المفرغة المتصلة بالاستعمار ودوائر استخباراته وشركات نفطه الا ان الاتصال بين مصر وسوريا جاء كضربة موجهة الى ذلك العمل القومى الجبار أستغلت نتائجه العكسية لدعم وجهات نظر الساسة التقليديين فى استحالة قيام عمل مشترك على الصعيد القومى مع تأكيد دعاة الانهزامية والتبعية والخوف فى

الوطن العربى على نواحى الضعف فى شخصية المواطن العربى وتقصى ما يستطيع ان يقوم به فى الوقت الذي يصرون فيه على ان السبيل السليم فى العمل للقضايا العربية هوربط الوطن العربى بالدوائر الاستعمارية والاعتماد على افتراضات مشبوهة ومواثيق ميتة كميثاق سعد آباد وما ينادى به فى الوقت الحاضر تحت أسم الحلف الاسلامى !

وليس من الصعوبة بمكان ان تناقش دعوات التقليديين والرجعيين ودعاة الهزيمة لان مسألة المواثيق والاحلاف اثبتت عدم جدواها منذ اللحظة التى برزت فيها تلك الوصفات على المسرح السياسى فى منطقة الشرق العربى فان هذه التدابير السياسيه قد خطط لها من قبل الدوائر الاستعمارية وترك امر تنفيذها الى رجال السياسة وموظفى سفارات الدول الاجنبية ومن يستطيعون كسبه من اصحاب النفوذ السياسى والاجتماعى فى الاقطار التى يريدون اتمام تلك المخططات فيها . هذا فى الوقت الذي ينعدم فيه تشابه الظروف بين الاقطار المختلفة التى يراد لها ان تنظم تحت لواء حلف، او ترتبط بمواثيق ومعاهدات ناسين او متناسين ان للوطن العربى قضايا قومية مثل فلسطين والاسكندرونة وعربستان لا يمكن ان يقبل فيها حل سياسي لانها حدود قومية ذات صبغة حضارية ومصيرية فى آن واحد فهل يمكن للاقطار التى يراد خلق حلف مشترك منها ان تعتبر مسألة فلسطين او عربستان او الاسكندرونة مسألة حياة او موت كما يراها العرب انفسهم ؟ والحقيقة ان الشعور القومى هو السبيل الوحيد الذي يصلح ان يكون مقياسا للعمل فى سبيل القضايا العربية دون اعتماد او تبعية على قوى السياسة فى الشرق او الغرب .

ونعود ثانية فنؤكد بان الفكر القومي يحتاج الى وضوح فى تركيبه ويقودنا هذا المفهوم الى ايجاد الركائز التى ينهض عليها مثل هذا الفكر ويمكن تسميتها حسب الترتيب التالى الاشتراكية ، الوحدة ثم الانسانية .

ويعنى هذا الاستعمال للتعابير السابقة ان الاشتراكية تأتى فى المقدمة فاذا نضجت اهدافها التى تتلخص فى التحرر الاقتصادى والاستغلال السليم لموارد الاقطار العربية فان الوحدة تكون معقولة فعلا لان الجو النفسى قد تهيأ لها ولكي تجمع الوحدة بين الهدف السياسي والنزوع الى خير بني البشر عن طريق الفكر العربى الناضج فأن الانسانية تأتي كمرحلة مثالية بعيدة عن الطوبائية لانها ترتكز على الوحدة فى الوقت الذي توازن فيه المفهوم السياسى للوحدة العربية وبذلك يستطيع الانسان العربى ان ينجز مسؤولياته الحضارية على صعيد عالمي .

وبدون صعوبة فان لفظ الاشتراكية قد ارتبك استعماله فى اكثر المجتمعات النامية وعلى الاخص فى المجتمع العربي فقد اعتبرت الاشتراكية وسيلة للشيوعية بينمااعتبرها الشيوعيون وانصار الفكر الماركسى وسيلة للنكوص الى الرأسمالية ، فاللفظة اذن حائرة بين قوتين تشدانها وتحكمان عليها دون ان يكون لها حق الدفاع عن مفاهيمها بنفسها ومما يزيد الموقف صعوبة ان البعض يحاول وصم الاشتراكية بالفشل نظرا لمصاعب نشأت عن طريق التطبيق الاشتراكى وهذا دون شك خلط بين الفكر الاشتراكى والواقع الاشتراكى .

فالاشتراكية وهذه محنتها تطبيق قبل ان تكون نظرية فقد عاش الناس وفق المفاهيم الاشتراكية فى فترات تميزت بالاخوة والمحبة بين الناس فقد أكدت المسيحية على الاشتراكية كما حرمت استغلال الناس عن طريق الفوائض والكسب غير المشروع فقد قال القديس اوغسطين ان (الفلوس لا تلد) وتميزت حياة الكثير من الطوائف المسيحية كالدومنيك والفرنسيسكان والبندكتيين باشكال مختلفة من التقشف تشبه الى حد كبير مبدأ توزيع الثروة بين الافراد فى محاولة لاخضاع رأسمال ممثل فى الغذاء وما يسد الحاجات الضرورية والكمالية للمجتمع مع ضمان الهدف الروحي او تربية الذات السليمة .

وقد كان الاسلام العظيم مؤكدا على الاشتراكية بشكل لم يجعلها

وقفا على الاديرة وحياة التقشف وانما نزل بها الى الحياة العامة فجعل العمل فى سبيل الخير العام او صالح الامة يفضل على المكاسب وحتى الاحتياجات الفردية فالمسلمون اخوة وهم سواسية وعليهم واجبات ولهم حقوق والعمل فى مجتمعهم حق والسعى فضيلة والتضحية شرف وهذه كلها تبين ان المجموع يقدم على الفرد • هذه هى الفلسفة الاسلامية ذات الانعكاسات الاجتماعية والاقتصادية حتى لقد تم التأكيد على ان الناس يشتركون فى امور ثلاثة هى : الماء والعشب والنار وهذه المسميات على بساطتها تحمل الكثير من معانى العمل المشترك والسعي فى سبيل الخير العام •

وقد ظهرت دعوات للاشتراكية فى اوربا اتصفت بالطوبائية نادى بها سان سيمون واتباعه فى فرنسا الا ان اشتراكيتهم تميزت بالخيالية وبانشاء ما سماه سيمون (المسيحية الجديدة) وقد حاول روبرت اوين المصلح والاقتصادى الانكليزي ان يصل بمجتمعه الى حد نجاح النظرية الاشتراكية ولكنه فشل وانتهت حياتهمعدما بعد ان جرب سبيلا لنجاح فكرته فى الولايات المتحدة •

اما الجمعية الفابية فى انكلترا فانها سلكت طريقا اكثر واقعية من سان سيمون او روبرت اوين لانها فكرت فيما نسميه فى الوقت الحاضر (القطاع العام) ويختص القطاع العام بالادارة السياسية ذات القوة والنفوذ ويعنى ذلك بشكل اوسع تدخل الدولة فى امتلاك واستثمار ما يسمى بادوات الانتاج فقد نادى الفابيون بتأميم المرافق العامة كالسكك الحديدية والمنتزهات واماكن العلاج وما يتبعها من طب وعقاقير وكذلك جوانب الحياة الاقتصادية التى يعود نفعها على اكبر عدد ممكن من الافراد فهى والحالة هذه لا يمكن ان تترك تحت رحمة شخص او فئة تثرى على حساب المجموع •

وسارت الاشتراكية فى هذا السبيل بمحاولات خيرة قام بها الناس خبروا مساوىء الحياة ففكروا فى طرق افضل لحل مشاكل الانسان الاقتصادية

عن طريق وضع المال والثروة فى خدمة المجتمع .

وبرزت الماركسية لكي تؤكد بشكل حتمي وحدى النزاع الطبقى واتصار طبقة من الطبقات لانها تسمى (البروليتاريا) فهي بذلك تملك وسائل الانتاج وان كانت تملك فانها متحررة من الملكية ! هذا على الصعيد النظرى اما على الصعيد العملى فان البروليتاريا ما زالت اجيرة ـ كما هو الحال فى اكثر الدول الشيوعية ـ للدولة ممثلة فى البيروقراطية الادارية والحزبية فى الوقت الذي نصت فيه التعاليم الماركسية على ان الدولة وسيلة وليست غاية فهي ستذبل حتما ثم تصفر وتموت فتذروها الرياح !

ونظرا للوضع العالمى المضطرب وقلق الكثير من المهتمين فى الشؤون السياسية والاقتصادية وعلى الاخص فى الفترة التى سبقت الحرب العالمية الاولى فقد احتاج هؤلاء كما شعر غيرهم ممن اثقلت كواهلهم صعوبات الحياة وعاشوا حياتهم كلها يعانون من الفقر او التلسط ، الى مفاهيم حدية ومتطرفة للخروج من الصعوبات التى هم فيها .

فالطبقة الوسطى فى اوربا كانت بحاجة الى الثورة السياسية اما الطبقة المستغلة فانها كانت بحاجة الى ضمان حياتها الاقتصادية ومركزها الاجتماعى ولما لم تستطع النظرية الماركسية ان تقدم الحلول الجاهزة لتلك المطالب فقد برز العنف كرد على احتياجات الثورة السياسية فى الوقت الذي استعيرت فيه لفظة الاشتراكية لكى تستعمل كمخدر لمطالب الطبقات العاملة والفلاحية التى لم تدخلها الرفاهية كما كان يحاول وصفها دعاة الفكر الماركسى .

واستغل الماركسيون والنهلستيون المفاهيم الاشتراكية وجعلوا منها ولاول مرة فى تاريخ الفكر الانساني نظرية محددة تعني خضوع الموارد الاقتصادية والطاقات البشرية لاهداف ترسم من قبل حفنة من المتنفذين فى الحزب او الاجهزة السياسية ذات القوة والنفوذ فاذا حدث تناقض بين متطلبات الفئة المسيطرة وبين انجازات الطبقات العاملة والمنتجة فان هذا التنافس يحل عن طريق استعمال القوة لكي يتم تحريك القوى المنتجة

بشكل يكاد يكون تلقائيا لمتطلبات الفئة المتربعة على صعيد القوة السياسية وادواتها المتمثلة فى القمع العسكرى والارهاب .

وقد اساء النظام الرأسمالى الى الاشتراكية وعلى الاخص فى الولايات المتحدة الامريكية فقد فهمت لفظة الاشتراكية بانها محاولة لايقاف تطوير تصاميم السيارات والادوات المنزلية وما اليها من لوازم يستعملها الفرد العادى فى اميركا فى الوقت الذي تزداد فيه فكرة الضمان الجماعي وتدخل الدولة عن طريق مشاريعها التى تختلف من اقامة متنزهات حتى انجاز مشاريع فضائية ضخمة التكاليف . وليس ببعيد عن الاذهان كيف خرجت الولايات المتحدة من كساد الثلاثينيات القاتل فقد اقترح الاقتصادى البريطانى المشهور اللورد مينرد كينز على فرانكلن ديلانو روزفلت رئيس الجمهورية الامريكية انذاك ان تلعب الدولة دورا اكبر فى العملية الانتاجية عن طريق توظيف وصرف كميات اكثر من المال تكون كالدم الجديد الذي يغذى ويحرك الاقتصاد الاميركى الراكد خلال تلك الفترة . ومن المؤكد ان الولايات المتحدة الامريكية تسير باقتصادها اليوم نحو نوع خاص من الاشتراكية سيكتسب تعبير الاشتراكية الامريكية عندما يصبح من غير المستطاع للشركات الامريكية ذات الرئات المالية المتضخمة ان تتنفس ويكون الفرق عندئذ بين العمال وبين المديرين وارباب العمل فى طول الولايات المتحدة وعرضها قليلا مما يترك مجالا ضيقا أو يتلاشى المجال عند ذلك تنهدم خرافة (التفاوض الحر) بين القوى العاملة والقوى المديرة والمتلكة .

القرن العشرون ونظمه السياسية وصلتها بالاشتراكية :

من الميزات الرئيسية للقرن العشرين وخصوصا النصف الثانى منه وجود التشابه الشديد فى النظم السياسية والاقتصادية بين كل من الولايات المتحدة الامريكية وروسيا ففى الاولى تتحكم فئة من اصحاب رؤوس

الاموال الضخمة فى مقدرات الملايين من ابناء الشعب الامريكي جاعلة من المجتمع تابعا ذليلا لرؤوس اموالهم اما فى روسيا فان الفئة التى تسيطر على مفاتيح القوة والسلطة فى المجتمع لا تتعدى كونها قلة من الافراد يمثلون العصب الموجه للحزب الروسي ومن غير المستحيل ان نأخذ المتنفذين فى الحزب الروسى ونضعهم على رأس الهرم الاجتماعى والمادى فى الولايات المتحدة فى الوقت الذي يستبدل هؤلاء مراكزهم مع الفئة التى تسيطر على القوة والمال فى المجتمع الامريكى وبدون شك فان ضمان سير كل من هذين المجتمعين حسب طريقته المألوفة لن يتغير بهذا التبديل ما خلا بعض الصعوبات اللغوية وتلك المتعلقة بطريقة النطق بالاسماء والاختلاف فى بعض الاذواق الفردية .

ونستطيع ان ندرك من هذا التشابه ان النظامين الرأسمالى والشيوعى كلاهما يحارب الاشتراكية وقد يتحدان فى حلف غير مقدس لضرب الاشتراكية وخنق التطبيق الاشتراكى فالرأسمالية تخشى الاشتراكية لانها تقف بقوة ضد استغلال الانسان للانسان كما انها تحارب التفاوت الطبقى وتضمن تكافؤا للفرص يستطيع بواسطته الفرد العادى أن يجد له طريقا فى الحياة يتفق وما يمتلكه من القابليات والاستعدادات وما يحصل عليه من مؤهلات دون ان ينظر الى صلته ببعض من المسيطرين على صمامات القوة والثروة فى المجتمع كما تحول الاشتراكية دون أستخدام المال أو التفاوت المادى لفرض وجهة نظر خاصة بالنسبة للحريات الاساسية للانسان فقد نص الدستور الامريكى على أن حق الانتخاب يجب ان يربط بمقدار التزام الفرد فى الولايات المتحدة بدفع ما يستحق عليه من الضرائب وقد أستغل هذا المبدأ فى جنوب الولايات المتحدة حيث تكثر العناصر الملونة فقد حاول المتطرفون من البيض فى الولايات الجنوبية أن يباعدوا بين الزنوج وبين دفعهم للضرائب عن طريق خفض اجورهم من جهة ووضعهم فى مآزق مالية من جهة اخرى وبذلك سقط حق الملايين من الملونين فى جنوب الولايات المتحدة فى ممارسة الانتخاب وبالتالى أسماع

صوتهم وما يقاسونه لكى يشعر الرأي العام الامريكى والعالمى بما هم عليه من صعوبات وما يتعرضون له من معاملة لا تتفق والطريقة التى تعامل بها الحيوانات فى الحدائق الخاصة بها . وتذهب الاشتراكية فى تحديها للنظام الرأسمالى الى ابعد من الناحية الاجتماعية وذلك عن طريق مطالبتها بتحطيم الشركات الكبيرة التى أصبحت تعانى من تضخم شديد من أعمالها ونفقات هائلة فى مصروفاتها وعلى الاخص المختفية منها مما دفع بالعديد من هذه الشركات الى محاولة الاحتكار للاستئثار بالسوق وقتل الروح المحركة للرغبة الفردية او مد نفوذها الى اقطار بعيدة عن الدولة التى تتبعها وبذلك تنتقل سموم الاستغلال من الصعيد الوطنى لتلتهم قابليات وموارد شعوب لم تسمح لها ظروفها الداخلية والظروف الدولية المحيطة بها الى تطوير نفسها بشكل يجعلها ندا للاقطار المتكاملة النمو .

ومما زاد فى صعوبة موقف الاشتراكية فى العالم بالاضافة الى أنها تتبع الواقع فتخضع بذلك نتائج التطبيق الاشتراكى للظروف المتأثرة بها متجنبة فرض النظرية المحددة على الواقع بشكل قد يصل الى حد العبث والاكراه بكل القيم لكى يصبح الواقع مطابقا للفكر النظرى كما هى الحال بالنسبة للشيوعية ، وانها قديمة قدم الفكر والمجتمع الانسانيين ووجود جذور لها فى مجتمعات مختلفة فانها لم تستطع ان تتسلم زمام المبادرة فتخضع التشكيلات السياسية وما يتصل بها من اجهزة توزيع السلطة لنفوذها المباشر وان استطاعت ان تسيطر على الفكر والمجتمع وما يتصل بهما من تعريف للشؤون الاقتصادية واقرار للعدالة الاجتماعية .

فاذا أستعرضنا تاريخ الاشتراكية الطويل فاننا نراها تمثل ردود الفعل ضد أى تسلط سياسى يقصد به توجيه المجتمع عن طريق أستعمال قوتى المال والتسلط وبذلك مثلت الاشتراكية المساعى الجماعية للرد على التحديات الفردية فقد قامت الدعوات الهادفة لاصلاح المجتمع وعلى الاخص فى منطقة جنوب شرقى آسيا فى محاولة للحد من تسلط الافراد وتسخيرهم لخطوط القوة والحكم فى المجتمع مثلت الاشتراكية فى آسيا اكثر من مجرد رد

فعل فهى نكران للذات وتجرد من مباهج الدنيا وتعكس قصة بوذا الذي نفض عنه غبار الدنيا وسار طالبا للحقيقة جانبا من الفكر الاشتراكى الاسيوى فقد سمى بوذا أتباعه بالفقراء فى الوقت الذى نبذ فيه حياة الامراء التى كان يعيشها فلما حاول أبنه التعرف عليه وتم له الوصول الى حيث يقيم بوذا ومريدوه أشار الاب على أبنه أن يلبس ملابس الفقراء وأن يحمل الوعاء الذى يجمع فيه العطاء من الناس .

وفى الفكر الاوربى كانت الاشتراكية موجودة على درجات تفاوتت من مرحلة فكرية الى مرحلة فكرية أخرى فقد بلغت الحياة السياسية فى اليونان أعلى مراحل نجاحها خلال فترة حكم المدن اليونانية التى ابتكرت للفكر العالمى لفظة الديمقراطية ولكن الفكر اليونانى اختلف كثيرا عن واقعه لانه كان فكرا أرستقراطيا حاول أن يؤكد على نماذج مثالية أو قلة من النماذج الناجحة فى الوقت الذى ترك فيه قاعدة الحكم تعمل على تركيبها عوامل خضعت لموجهات الصدفة والتسلط .

والواقع ان افلاطون كان متأثرا فى فكره وكذلك ارسطو من بعده بدافعين رئيسين الاول هو عصر بريكليس الذى كان يسمى بالعصر الذهبى فى اثينا والثانى هو فشل اثينا فى الحروب (البلوبونية) التى رجحت كفة اسبارطة ذات النظام العسكرى فى حياتها ولكن الحل الذى افترضه أفلاطون وطوره من بعده تلميذه ارسطو وضع مركز الثقل فى العبقرية أو مجموعة العبقريات التى تمتلك طاقة فوق طاقة البشر تستطيع بما لها من مميزات ان ترتفع بالمجتمع الى مستوى فى الواقع وفى الفكر يتخلص فيه من الصعوبات اليومية والمعقدة . ولكن الفكر الاثينى اغفل ناحية هامة هى ان قاعدة الحكم لا تقل اهمية عن القيادة الملهمة بالاضافة الى انها التربة التى انبتتها وبكل تأكيد لو ان بركليس عمل على ان ينمى مسوءولية فى الحكم على صعيد القاعدة الشعبية لكان اضمن له فى استمرار سلطته وسلطة اثينا كقاعدة فكرية وسياسية يونانية .

وقد خلت الفترة التى ارتفع فيها اسم الاسكندر المقدونى من محاولات

فى سبيل اتخاذ مقاييس اشتراكية لان حركة الاسكندر السريعة لم تكن لتعطى مجالا للتاريخ او الواقع لكى يتفاعل معها وجاءت فترة الامبراطورية الرومانية وهى الاخرى سارت على نهج الاسكندر المقدونى فى سياسته التوسعية ولم تفكر قط فيما نسميه اليوم بالاشتراكية لان مبدأ الشجاعة والتسلط كان هو المقياس لقيام اداة الحكم والقوة مفعما بقوة تختلف، عما لدى البشر تدفع به الى ان يسيطر وان يجعل من نفسه حاكما مطلقا • اما رعاياه فانهم اقل شأنا منه وهم لا يملكون الا ان يكونوا خاضعين لمشيئته وتلبية ما يصدره من اوامر وقرارات • وتمثل شخصية يوليوس قيصر اعلى ماوصلت اليه محاولة تجسيم النفوذ الفردى والسيطرة الذاتية فى الامبراطورية الرومانية ولكن الاعتماد على مثل هذه الشخصيات الخارقة والنادرة فى تكرارها بالنسبة للتاريخ وللاجتماع الانسانى فسح المجال امام ردود فعل عكسية وعلى الاخص بالنسبة لمن استذلتهم او استعبدتهم روما عن طريق سيطرتها على مناطق نفوذ سياسية بعيدة عن عاصمة امبراطوريتها (روما)•

فقد بدأت العناصر المغلوبة على امرها تتجمع مكونة من ردود الفعل الفردية حركة جماعية قصد منها التخلص من السيطرة الرومانية •

وتمثل المسيحية دون ريب جانبا من جوانب العمل الهادف الى نزع سيطرة روما وهى بذلك تعكس حركة اشتراكية ذات تعاليم دينية مقدسة استهدفت خلاص الكثير من الطبقات الفقيرة والمعدمة وعلى الاخص تلك التى كانت تكسب قوتها عن طريق جهدها العضلى • ويمثل المسيحيون الاوائل الفقر والفاقة والتشرد ولكنهم استطاعوا على الرغم مما كانوا يتصفون به من ضعف مادى ونبذ اجتماعى ان يكسبوا الجولة ضد الامبراطورية الرومانية لانهم كانوا يمثلون دون شك روح المقاومة لسلطة روما مما يفسر ازدياد عدد المسيحيين بازدياد سيطرة روما ومحاولتها تعذيب هؤلاء المسيحيين او التنكيل بهم عن طريق حرقهم او القائهم للاسود فى مهرجانات عامة كانت الحد الفاصل بين سيطرة روما القوية وبين حركة دينية اشتراكية لم يكن ينقصها الا ازدياد قوة المقاومة لها لكى تمتلك

اسباب النجاح فى عصر كان الاتجاه السائد فيه نحو اشتراكية عادلة يقصد منها رعاية الطبقات المغلوبة على امرها وفتح ابواب الفرص امامها لكى تستطيع ان ترتفع الى ما يناسب قابلياتها وانتاجها فى المجتمعات التى تعيش فيها .

وبذلك استطاعت المسيحية ان تنتشر نظرا لفهما روح العصر الذي عاشت فيه اكثر مما فهمته القوة السياسية للامبراطورية الرومانية . وقد عاشت الاشتراكية بشكل متلازم مع التعاليم الدينية المسيحية ممثلة فى الوصايا العشر التى تنص احداها على الا تسرق ومفهوم السرقة لا ينحصر فى الجريمة كما تفهمها قديما وفى الوقت الحاضر وانما يتعداها الى مفهوم اجتماعى هو الحث على عدم اغتصاب الثورة او تجميعها نتيجة للاستحواذ والسيطرة على ثروات الغير وما يتبع ذلك من استغلال للنفوذ يفتح المجال امام طبقة بعينها لتسود المجتمع بكامله .

ولكن انتقال المسيحية من حركة اشتراكية شاملة الى محاولة كنسية ضيقة جعل من فكرة توزيع الثروة بشكل يتناسب وحاجات الافراد فى المجتمع عن طريق تكافوء فرصهم ، مجرد مظهر لسيطرة فئة من رجال الدين المسيحيين على مقاليد امور الكنيسة جعل منهم سلطة لا تختلف فى واقعها عن اباطرة روما التى ثارت المسيحية ضدهم وبذلك بدأت حركات الاصلاح الدينى التى بلغت اوجها على الصعيد السياسى متمثلة فى ثورة سنة ١٧٨٩م فى فرنسا .

ومنذ ان نجحت تلك الثورة فى هدم الملكية فى فرنسا برزت المحاولات الاشتراكية ممثلة فى فكر سان سيمون وتلميذه فورييه وغيرهم من رجال الاصلاح الاجتماعى الفرنسى ثم قامت الجمعية الفابية فى انكلترا التى مثلت دون شك رد الفعل لدى المجتمع الانكليزي تجاه الحكم الملكى المزمن فى الجزر البريطانية .

وعلى الرغم من ظهور الحركات المتطرفة التى حاولت ان تحصل على حقوق الطبقات المستغلة عن طريق تعميق التفاوت الطبقى والتهيأة لثورة

طبقية كما هو الحال بالنسبة للفكر الماركسى فان الاشتراكية مازالت تعيش لتنصف اولئك الذين هم بحاجة الى الانصاف وتعكس فى الوقت ذاته الضمير الاصلاحى للطبقات المغلوبة على امرها . وبشكل ادق فان السبب وراء استمرار الفكر والواقع الاشتراكيين مع وجود الحركات المتطرفة هو ان الاشتراكية تمثل المحرك الاصيل الذي ينتصر للفئات العاملة او التى تم استغلالها بشكل لا يحاول اثارة الحقد عن طريق تغليب طبقة على طبقة وبذلك يفقد المجتمع توازنه الى الابد او بواسطة افقار الاغنياء واغناء الفقراء وهي وجهة نظر اثبت الواقع خطأها لانها لا تنظر الى المجتمع بطبقاته المختلفة كواقع حي يراد له أن يتفاعل وأن يثمر وأن يطرح جانبا التفاوت الهائل بين الطبقات فى الوقت الذي يمنع فيه التسلط والاستغلال او الاثراء غير المعقول او المشروع .

وبعبارة اوضح فان الفكر المتطرف سواء أكان على الصعيد الاجتماعى او السياسى يحاول ان ينظر الى طبقة بعينها فيتصورها وكأنها جزيرة تعيش فى البحر الاجتماعى وبذلك يعمد الى اقتطاع هذه الجزيرة او الطبقة الاجتماعية ياسيا ان عمله هذا يخالف الواقع الاجتماعى حيث يصبح التفاعل بين جزيرته الطبقية الموهومة وبين مركبات المجتمع الاخرى واجبا بعد ان يتم للفكر المتطرف رفع ما يحاول رفعه الى منزلة الصدارة الاجتماعية . وزيادة على ذلك فان استمرار الاشتراكية فى الفكر وتطبيقها واكتسابها حيوية متجددة وعدم ضعفها امام الحركات المتطرفة يعود الى الاشتراكية تؤكد على المجتمع بالدرجة الاولى جاعلة من اصلاحه الهدف الرئيس لجهودها فاذا تم ما نسميه بالتخطيط الاجتماعى فان الجوانب السياسية والاقتصادية تأخذ هي الاخرى بالنمو ولا تلبث هذه الاتجاهات المختلفة ان تجتمع لتؤكد قيام المجتمع السليم الذي تسعى اليه الاشتراكية .

أما الاتجاهات المتطرفة فانها تهتم بالابعاد الاقتصادية او السياسية وبذلك تفقد هذه الابعاد واقعها الاجتماعى وتتحول الى مجرد واجهات لسلطة سياسية كما هو الحال بالنسبة للفكر الماركسي والتطبيق الشيوعى

او سيطرة الرأسمال وشركاته المحتكرة كما هو واضح فى المجتمعات ذات الانظمة الرأسمالية .

وعلى الرغم من ان الاشتراكية لا تلتزم بالقوالب الجامدة ولا تضع العربة امام الحصان كما يقول المثل الانكليزي فانها لم تستطع ان تنجح على صعيد العمل السياسى .

وبعبارة اوضح فان الاشتراكية اكدت منذ ان ظهرت كحقيقة اساسية فى حياة المجتمع الانساني على اهمية الواقع والانسان قبل الهدف والنجاح ، فان هذه التعاليم ذات الجذور الانسانية والمفاهيم الاجتماعية والاقتصادية لم تستطع ان تصب نفسها فى خطوط سياسية تمسك بموجهات القوة والسلطة في المجتمعات المختلفة .

ففى العالم الاوربى تراوحت الاشتراكية بين حركات اصلاحية وفكرية وبين ردود فعل حاولت ان تصلح ما اختل من التوازن الاجتماعى والسياسى والاقتصادى ثم ظهرت فى اوربا بشكل دعوات خيرة كان هدفها الاخذ بايدى الطبقات المستغلة فى سبيل مستقبل افضل ينبع من خلال تعاون بين الاطراف الاجتماعية ذات العلاقة بمعارك الحياة والمجتمع .

اما فى عالم الفكر الشرقى فانها تجلت بشكل دعوات للاصلاح الاجتماعى اتصلت بها بعض المفاهيم الدينية والخلقية ولكنها لم تصل الى حد السيطرة المطلقة على مفاتيح السياسة والسلطة بل بالعكس صبغت الاشتراكية في الشرق قديما اولئك النفر المؤمن بها باشكال مختلفة من التجرد والتقشف والزهد والعزوف عن السلطة والحكم والمادة .

ومن الملاحظ بالنسبة للواقع والفكر الاشتراكيين بصرف النظر عن المكان الذي يترعرعان به ان حاجات الافراد تبدأ بالتفاعل مع الخطوط الاشتراكية التى يحاول المجتمع السير على نهجها لكي تتم اشباعات افضل للفرد والمجموع فاذا بدأت هذه التفاعلات تأخذ جانب العمل الجماعى وتحاول ان تترجم نفسها بشكل ثورة اجتماعية تقفز الى المسرح فى تلك اللحظة التاريخية الحرجة بعض العناصر المتطرفة فتدفع بالثورة فى الطريق

الذي تفرضه عليها حوافزها الذاتية او تصاميمها الفكرية ذات الطاقة الاندفاعية العالية ثم تبدأ صفحة جديدة فى مجتمع الثورة نفسه لا تلبث ان تجعل من هذه العناصر طبقة تعيش لنفسها بعيدة عن ان تترجم الالام والآمال التى علقتها عليها القواعد الشعبية .

ومعنى ذلك ان العناصر المتطرفة وان استغلت النضج الاشتراكى فى المجتمع الا انها لا تلبث ان تنفصل عن المفاهيم الاشتراكية التى ارتفعت على اكتافها وبذلك تنقلب القوة المسيطرة الى مجموعة تستخدم التسلط والارهاب فى سبيل بقائها فى مراكز السياسة والحكم فى الوقت الذي فقدت فيه اية صلة تربطها بالاشتراكية التى مهدت وفتحت الاذهان الى الثورة وما يصاحبها من تغيير اجتماعى يترجم متطلبات القواعد الشعبية ونزوعها نحو غدها الافضل . ومن الادلة على عدم نجاح الاشتراكية فى حركتها الرامية الى احداث تغيير اجتماعى يستند ويوجه من قبل طاقات تؤمن كليا بالاشتراكية ما حدث للثورة الروسية عام ١٩١٧م .

فقد خرجت روسيا متأثرة بما قاسته فى الحرب العالمية الاولى وظهر ان السلطة التقليدية فى روسيا القيصرية اصبحت بعيدة كل البعد عن المجتمع ذى الجهد العضلى والدخل المحدود فى روسيا وعلى الاخص بعد ان فشلت المحاولات ذات الصبغة الدينية واهمها تلك التى قادها رجال الدين فى صبيحة يوم احد من سنة ١٩٠٥م .

فقد تصورت قوى الكنيسة ان القيصر نيقولا الثانى سيستجيب لنداء التعاليم الارثوذكسية فيعمد الى اتخاذ مقاييس لاصلاحات شاملة فى الادارة واوجه الحياة العامة ولكن اجهزة السياسة القيصرية لم تكن لتفهم مغزى تلك المحاولة الدينية فاستخدمت القوة المتناهية للقضاء على تلك المحاولة الكنسية مما ادى الى وقوع العديد من الضحايا وتسميه يوم المحاولة باسم (الاحد الدموى) . وقد عملت الكارثة التى وقعت سنة ١٩٠٥م فى روسيا القيصرية وما تبعها من عدم اهتمام بسلطة الكنيسة الارثوذكسية ، والاستخفاف بمكانة هذه الكنيسة فى المجتمع الروسى ان تكتلت الجهود

للقضاء على القيصرية وامتزجت بغيرها من المحاولات العلنية والسرية وما كتب من فكر ثورى وبذلك تهيأت تربة المجتمع الروسى الى حركة تغيير اجتماعية شاملة كان من نتائجها انهيار قيصر روسيا فظهرت على المسرح السياسى مجموعة تؤمن بالاشتراكية منهجا ووسيلة للاصلاح الاجتماعى تمثلت فى حكومة (كرينسكى) الا ان عناصر تمثل فيها التطرف ما لبث ان استغلت النضج الاجتماعى بمفاهيمه الاشتراكية وحولت الاهداف الاصلاحية الكبيرة الى وسيلة قصد منها الوصول الى مراكز السلطة والحكم عن طريق القوة والميكافيلية المتطرفة وبذلك قضى على ما تم انجاحه فى المجتمع الروسى من محاولات اشتراكية لفتح صفحة جديدة فى حياة المجتمع والفكر فى روسيا .

ومن الامثلة الاخرى لاخفاق الاشتراكية فى تحقيق ذاتها عن طريق السيطرة على خطوط السياسة والحكم ما حدث فى فرنسا خلال ثورة سنة ١٧٨٩م فقد سرقت نتائج الوعى الاشتراكى الفرنسى عن طريق تولى بعض الشخصيات المتطرفة لمقاليد السلطة والانتقال بالحكم الى تسلط وارهاب دموى امتد من روبسبير حتى نهاية نابليون الثالث وقيام اولى الجمهوريات الفرنسية .

وفى بريطانيا يصعب ان تتتبع خط نجاح الاشتراكية لان التكوين النفسى والاجتماعى والتاريخى للفرد الانكليزي تطغى عليه مسحة ثقيلة من الغموض والتداخل تعزي من بعض الاحيان الى جو بلاد الانكليز المبد بالغيوم ولكن مهما كان اثر هذا الجو على الفكر والواقع الانكليزيين فأن الجمعية الفابية كانت ذات اثر مباشر فيما ظهر فى بريطانيا من قوانين الاصلاح الاجتماعى وما اتبع من ضمانات خاصة بالطبقات المعدمة وفسح المجال لها لتعبر عن ذاتها بواسطة المظاهرات والاضرابات والانتخابات ، فان الانجازات الاشتراكية ذات الصلة بالحركة الفابية ما لبثت ان سرقت واستغلت من قبل حزب الاحرار البريطانى اولا ثم ابتلعها حزب العمال لكي يجمع بين شخصية المحافظين وسلوك الجمعية الفابية مما يربك فى كثير من

الاحيان من يحاول فهم سياسة حزب العمال البريطانى التى تتفق كليا مع حزب المحافظين فى محاولتها للابقاء على حطام الامبراطورية البريطانية وان سلكت فى سبيل هدفها هذا طرقا تختلف عن تلك التى يتمسك بها حزب المحافظين البريطانى .

وعلى صعيد الولايات المتحدة فان المقاييس الاشتراكية وجدت لها اكثر من فرصة للنجاح على الرغم من التشكيلات والاحتكارات الماليةوالاقتصادية المتمثلة فى البنوك الضخمة والشركات ذات الرأسمال المخيف والاصابع الممتدة فى كل صغيرة وكبيرة فى المجتمع الامريكى وما يتصل بمنافع تلك الشركات من بشر او يابسة بصرف النظر عن بعدهما او قربهما من الولايات المتحدة ، ظهرت بشكل اصلاحات اجتماعية او على صعيد السلطة السياسية فى الدنيا الجديدة فقد برزت الى الوجود نقابات العمال وحركات الاصلاح الاجتماعى على الرغم من ارتباطها بالشعور الكنسى كما نجحت بعض المحاولات السياسية الرامية الى التأكيد على حق العمل والحركة الاجتماعية لكافة افراد المجتمع الامريكى بصرف النظر عن جنسهم او لغتهم أو شعورهم الديني .

ولكن هذه النجاحات التى تمثل تصويرا لا بأس به للمفاهيم الاشتراكية ما لبثت ان سرقت او استغلت لمصالح فردية أو حزبية فقد سيطرت حفنة من ذوى النفوذ ممثلة فى عصابات الاجرام على مقاليد الامور فى نقابات العمال الامريكية واخذت هذه الزمر الانتهازية والمسلحة بالقوة الارهابية تعبث بمقدرات الملايين من عمال امريكا فى الوقت الذي لا تقدم لهؤلاء العمال سوى فوائد ضئيلة تنتزع عن طريق ما يسمى (التفاوض الحر) بين العمال أو ممثليهم على وجه الدقة وبين ارباب العمل .

أما على الصعيد السياسي فان الحزبين التقليديين فى امريكا وهما : الحزب الديمقراطى والجمهورى قد استغل كل منهما النجاح الذي اصابته الاشتراكية فى الولايات المتحدة وتمثل الشعارات الحزبية وعلى الاخص تلك التى يرفعها من وقت لاخر الحزب الديمقراطى الامريكى مثل السياسة

الجديدة (نيو ديل) التى استطاع بواسطتها فرانكلين ديلانو روزفلت ان يتغلب على الجمهوريين فى امريكا وان يبقى فى الحكم الفترة التى اراد ان يبقى بها وكذلك الشعار الذي رفعه جون كندى الافق الجديد (نيو فرانتير) والذي تغلب بواسطته على منافسيه من الجمهوريين ، استغلال الاشتراكية فى سبيل كسب نجاحات فردية او تنظيمية ولكن الفارق بين التعبئة الذهنية والاجتماعية لتلك النجاحات ذات الطابع الاشتراكى وبين الحركات السريعة على صعيد الفرد والتنظيم السياسى التى يقصد منها سرقة او استغلال ثمار النجاح الاشتراكى فى المجتمع الامريكى لا يلبث ان ينقلب الى حاجز يفصل المجتمع عن السلطة ويدفع بكل منهما الى اتخاذ طريق يختلف فى اسلوبه وهدفه عن ذلك الذي يتخذه الطرف الاخر .

ومجمل القول ان الاشتراكية عملت خلال تاريخ الانسانية الطويل على تمثيل الدوافع العملية الخيرة ولكنها لم تنجح فى محاولتها للسيطرة على موجهات السياسة والقوة وما يتبعها من حكم وادارة .

وبشكل اوضح فان الاشتراكية بتأكيدها على التطبيق قبل النظرية وتجاوبها كليا مع التطور فى الحاجات والمطاليب الانسانية ابعدت عن نفسها صفة التزمت وقبلت ان تكون كالجندى المجهول او ذلك الحى الذي لا يريد ان يذكر اسمه فى الوقت الذي استغل او سرق فيه متطرفون وانتهازيون ثمار النجاحات الاشتراكية وبذلك وجهت مركبات التطور الاشتراكى نحو خدمة مصالح ذاتية او حزبية مما شوه الى حد كبير مفهوم الاشتراكية ووصمها بالطوبائية من قبل الفكر والمفكرين من ذوى النزعات المتطرفة لانهم يعلمون جيدا بان الاشتراكية هى التى تهدد بكشف الزيف فى شعاراتهم واعمالهم فماركس وانجلز كانا يخشيان الفكر الاشتراكى اكثر مما يخافان من الرأسمالية ، لان الرأسمالية تحمل فى طياتها بذور فنائها اما الاشتراكية فانها تضم فى بنائها دوافع تطورها فى الوقت الذي تمتلك فيه صفات تجعلها اكثر ملائمة وانسانية فى تفهمها ودفاعها عن الفرد والمجموع .

اما الرأسماليون فانهم يخافون من الاشتراكية لانها تقضى على الاستغلال

الذي يترجم فى القاموس الرأسمالى بانه (حرية الرأسمال) وبذلك يحاول الرأسماليون عن طريق الفكر والواقع ارباك مفاهيم الاشتراكية والخلط بينها وبين الشيوعية والدكتاتورية والتسلط والاستحواذ غير المشروع على اموال الغير عن طريق ما يسميه الرأسماليون بالتأميم فى الوقت الذي يتبعون فيه وسائل اقسى بكثير من تأمين بعض المرافق ذات النفع العام اثناء التطبيق الاشتراكى لابعادها من ان تكون فى حوزة فرد او نفر مما يعود بالضرر على المجموع .

ففى الولايات المتحدة تخضع الاستثمارات لضريبات تصاعدية خانقة (قصد منها اعادة توزيع الثروة فى المجتمع!) فى وقت تدين فيه الولايات المتحدة بنجاحاتها صناعيا وزراعيا الى مشاريعها ذات الصبغة التسلطية الحقة كقانون مساعدة الولايات الفقيرة عن طريق سرقة أموال الولايات الغنية او ما يسمى بروح (الحكم الفدرالى) وكذلك فرض بعض القيود على مساعدة الحكومة الامريكية للمدارس التى لا تخلط بين السود والبيض وضمان حياة العمال عن طريق التشريعات العمالية وفوق كل هذا الفائدة التى جنتها الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية من وراء تأسيسها لما يسمى (بسلطة وادى تنسى) التى غيرت الى حد كبير مجرى نهر تنسى وبذلك روت مساحات شاسعة من الارض البور مما رفع من مستوى الانتاج الزراعى فى الولايات المتحدة ولكن على حساب آلاف العوائل التى شردت واغرقت بيوتها ومحيت أراضيها لكى يتم ضمان نجاح المشروع .

الفكر والواقع الاشتراكيين فى الوطن العربى :

ليس هناك من دراسة منظمة لتتبع خطوات الفكر والواقع الاشتراكيين فى الوطن العربى ولكن جوانب من المحاولات الاشتراكية أحتلت أماكن مرموقة فى الكتابة التاريخية وفى الكتابات ذات الصلة بالمجتمع والحياة الاقتصادية .

والواقع أن الملاحظ بالنسبة للفكر العربى هو تأكيد الاشتراكية فيه على النواحى الانسانية قبل أهتمامها بمشكلات الفرد العادية وبعبارة أوضح

فقد اعتبرت الاشتراكية السلوك الامثل للانسان بصرف النظر عن الظروف المحيطة به بل بالعكس فان الانسان العربى تبدأ قيمتهالاصيلة بالظهور كلماكان الظرف المحيط عصيبا وشحيحا .

وبذلك لونت الاشتراكية بصفتها الواقعية نظرة الانسان العربىبالنسبة لصلته بالانسان الآخر وتعامله مع الطبيعة فى سد حاجاته وما ينظر اليه من متطلبات فى المستقبل . وليست هذه النظرة بالنسبة للاشتراكية فى التفكير العربى التى تؤكد على أنسانية فى سلوك الفرد الا حصيلة حضارات قديمة أتحد الانسان فى الوطن العربى مع أخيه الانسان لمجابهة صعوبات الطبيعة فلما أستتب الامر للحضارة ولماكنتها السياسية ممثلة فى الدولة وأجهزتها الادارية تولد لدى العامة من الناس شعور بنبذ كل ما يمكن أن يؤدى الى زيادة جمع الانسان للثروة أو السلطة ثم العمل فى الوقت نفسه على مد يد العون فى جميع الاحوال والسير بهذه السياسة الى حد التضحية الكلية ضمانا للارتفاع فوق المستوى المادى أو النفعى الضيق .

وبصفة أكثر وضوحا فان انسان الحضارات القديمة فى الوطن العربى ذلك الذى أبتعد عن المال والسلطة حاول أن يتخذ من الاشتراكية سلوكا عاما يترجم ما يشعر أو يفكر به فى الوقت الذى كانت كل جهود الافراد مدفوعة لما انسميه بالتكافل الاجتماعى ومساعدة من يحتاج الى المساعدة ضمانا لحياة أجتماعية مثمرة .

وخلال فترة الجاهلية حاولت الرأسمالية أن تتسلل بقيمها المستندة على أستغلال الانسان للانسان فى سبيل جمع الثروات الضخمة فقد شرعت قوى اليهود التجارية فى توجيه الواقع نحو الكسب غير المشروع والابتزاز وما يتصل بهما من ظلم وسرقة وأغتصاب وارتباك فى فكر الانسانوسلوكه ونظرا لتفكك المجتمع العربى خلال فترة الجاهلية وغياب الروح الجماعية الاصيلة فقد تمكنت قوى المال والاستغلال اليهودية من تسميم بعض العقول ودفعها نحو وضع المال والثروة قبل الانسان والمجتمع وبذلكسادت حياة تجارية فى مدن الجزيرة وبالاخص مكة التى ررخت تحت حكم فئة

اوليجاركية تضم مجموعة من متنفذى السياسة القبلية وأصحاب رؤوس الاموال للسيطرة على العلاقات الاقتصادية وجعلها تتحكم فى الصلات الاجتماعية وبالتالى تتربع على كرسى السلطة .

ونظرا للاختلاف البين بين أنسانية الاشتراكية العربية ورأسمالية القوى اليهودية والرجعية العربية فى ذلك الوقت ومحاولة القوى المادية السوداء استغلال الانسان العربى والعبث بمقدرات الامة العربية فقد جاء الاسلام الخالد كلطمة قوية للقوى الرأسمالية المستغلة يهدف فى الوقت ذاته الى أعادة النهج الاشتراكى واعتبار الانسان قاعدة للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية فى المجتمع العربى الذى افتقر الى مثلها منذ أن أسلمت الصدفة قياده الى فئات غريبة جعلت حافزها العمل على أستغلال العرب وثرواتهم باسم حرية رأسمال فى المجتمع .

نستنتج من ذلك أن الاشتراكية بمعناها المؤكد على تكافؤ الفرص وفتح مجالات العمل للجميع دون فارق معتمد على عائلة أو مركز أجتماعى أوقرب وبعد عن السلطة ذات المال والنفوذ ، كانت هى القوى الدافعة وراء سلوك الانسان العربى سواء أكان ذلك فى الحضارات القديمة أو بعد نجاح الدعوة الاسلامية ما خلا الفترة التى حاولت فيها الرأسمالية ممثلة فى اليهود والطبقة التجارية المستغلة التى كانت متمركزة فى مكة أن تتسلل الى الفكر والواقع العربيين .

وقد أكد الاسلام العظيم على أن أنسانية الانسان ليس مجالها الفرد نفسه وذلك عن طريق التقشف والزهد والتصوف والانقطاع عن المجتمع حيث يسهل اتخاذ مقاييس تستطيع فيها نفس الانسان ان تسمو فوق المطالب المادية والذاتية ، وأنما جعل الاسلام من صلات الفرد بالمجتمع ومن سلوك كل الاطراف ذات العلاقة بالحياة وجوانبها الاخلاقية والفكرية محكا لمبلغ الانسانية فى الانسان مما يؤكد دون شك على ان الاسلام لم يقف عند حد الاشتراكية ذات الطابع الفردى كما كان الحال بالنسبة لاشتراكية الحضارات القديمة وانما حاول ان ينقل الاشتراكية الى مجال العلاقة بين

الفرد والمجموع وباختصار فقد حث الاسلام على أقامة مجتمع اشتراكي يستذل فيه رأس المال وتتكافأ فيه الفرص لا لتعود بالنفع على فرد أو فئة وأنما ليعم العدل الجميع ولينتقل التنافس من المضاربة والتضاد الى محاولات يقصد منها الارتفاع بفوائد الجهد الانسانى بحيث تحقق أكبر نصيب من النجاح فى الوقت الذى يخضع هذا النجاح فيه لمقاييس خلقية ذات طابع دينى يترجم قيم الدين الاسلامى فى واقع الحياة العملية .

ولكن فترة الرأسمالية القصيرة التى وجدت طريقا الى حياة العرب الاجتماعية والاقتصادية فى العصر الجاهلى تركت مفاهيمها لتعيش فى جوانب النسيان والاهمال الى جانب الاشتراكية المتبعة فى الحياة بشكل التزامات أجتماعية خيرة وفى مجالات العلاقات المالية كضوابط خلقية وانسانية . وبذلك عانت فترة الحضارة العربية الاسلامية من التصادم بين أنتهازية الرأسمالية واصالة الاشتراكية فى الوقت الذى ارتفعت فيه الصيحات للحد من الثروة والاثراء فى المجتمع وتكرار عمق ووخامة العاقبة التى سينتهى اليها من يكتنزون حطام الدنيا جاعلين من المال وسيلة للارتفاع بحياتهم ومركزهم فوق منزلة أترابهم فى الوقت الذي يتمتع فيه هؤلاء بقابليات خلاقة اذا تم منح الفرص لها وتكافؤها فانها ستصل الى غايات تتناسب وتلك القابليات .

ولما استيقظت الامة العربية فى مطلع نهضتها الحاضرة وجدت نفسها فى مؤخرة الركب الحضارى فى العالم ووجدت أمامها طريقا طويلا لتسلكه فى سبيل مستقبل أفضل .

وفى هذا المفترق بالذات كان العرب يواجهون صعوبتين رئيستين الاولى كانت الاستقلال على صعيد الوطن العربى بكامله والثانية محاربة التخلف لدفع الامة العربية فى طريق التطورالحضارى المنشود .ولما لم تكن للعرب فى مطلع محاولاتهم الحضارية الحاضرة القوة القادرة على العمل فى سبيل هدف مزدوج وقفز الاستعمار الاوربى يزيد المشكلة تعقيدا فقد

أتنقلت معركة المصير فى الوطن العربى الى معارك ذات صبغة وطنية أو محلية أو أقليمية ضيقة لم تسلم على حدودها المصطنعة . أما فى مجال التخلف فان الصعوبة بدت وكأنها تتم فى وقت ضيق وبجهد قليل فالوطن العربى يتميز بثروات طبيعية هائلة وتربة خصبة وليس اسهل من استغلال تلك الثروات والاستفادة من خصوبة الارض لكى يعم الرخاء وعلى الاخص فى الاقطار العربية التى يقل فيها عدد السكان بينما تتوفر العديد من فرص النجاح والحياة الرافهة كالعراق وارض الشام وبلاد المغرب العربى .ولكن الواقع أثبت عكس هذه الرغبة المتفائلة التى بنيت على غباء أو مغالاة من أشاعوا السهولة والسير والبساطة فى استغلال الارض واستخراج الموارد الطبيعية دون أن يحسبوا الاثر النفسى لهذه الدعوات التى اقل ما توصف به انها أدت الى التردد والركود والتوقع وهى أمراض مازال المجتمع العربى يشكو منها حتى هذا اليوم . فالتردد يظهر فيما يشرع فيه من اعمال والركود يسود مجال الرغبة فى الانتاج والاستثمار اما التوقع فانه الزيادة فى التفاؤل استنادا الى طاقة الارض الانتاجية وما يمكن ان تدره بعض الموارد الطبيعية فاذا لم تتفق نظرات التفاؤل هذه مع واقع الانتاج وبدا البون بينهما شاسعا فالضجر او سبل التفكير الملتوية لا تلبث ان تظهر لكى تزيد الصورة قتامة وتهز اخر ما بقى للانسان العربى من ثقة فى مستقبله .

وبكل تأكيد فان البلدان النامية عموما واقطار الوطن العربى بشكل خاص كان عليها ان تحارب فى جبهتين الاولى خارجية ضد الاستعمار والسيطرة الاجنبية والثانية داخلية ضد التخلف والركود والوصول الى المستوى الاقتصادى للبلدان المتكاملة النمو . ومن الملاحظ ان طول فترة كفاح البلدان النامية فى سبيل نيل أستقلالها الذاتى وتحررها امتص العديد من رجالها وقابلياتها التى كانت ستستعملها فى فترة البناء الحاضرة ، بالاضافة الى أن الاستقلال السياسى لا يصبح ذا قيمة اذا لم يواكبه أستقلال أقتصادى وتطوير شامل للحياة الاجتماعية والفكرية لكي تسير

المجتمعات النامية بخطوط متوازية تصب كلها فى بحيرة التطور العظيم فى المستقبل • ولما لم تمتلك المجتمعات النامية الخبرة الكافية فى تدبير جوانب حياتها الاقتصادية فقد تركت هذه المجالات الحيوية تحت رحمة الصدفة أو الحاجة الا أن صفحات جديدة فى حياة العديد من المجتمعات النامية قد فتحت مما ترتب عليه اتخاذ أجراءات تكفل اشباع الحاجات الاجتماعية المتزايدة والوفاء بالالتزامات المترتبة على الدول النامية فى الحقلين الداخلى والدولى مما فتح ابواب معركة التحرر الاقتصادى على مصراعيه وهنا برزت صعوبات جديدة فى وجه العديد من الاقطار النامية فى العالم ازدادت تعقدا عندما بدأ تفاوت كبير بين واقع ما تستطيع الطاقات الانتاجية تقديمه وبين ما يتوقع ان تقدمه مما أدى الى اصابة الاجهزة السياسية والاقتصادية فى كثير من مجتمعات الدول النامية بخيبة أمل كبيرة دفعها الى التماس طريق يوفر لها الزيادة المطلوبة فى الانتاج ويواجه فى الوقت ذاته ما قد يظهر من حاجات أو تغيير فى السلوك الاقتصادى قد يعصف بالتوازن السياسى أو الفكرى ويعرض المجتمع للكسات أو المصاعب •

ومن وجهة النظر الموضوعية ذات الانعكاس الواقعى يمكن تحديد أبعاد المشكلة الحضارية الراهنة التى تمر بها معظم البلدان النامية حديثا وأقطار الوطن العربى بالتعرف على منحنيات الخطوط العامة للتقدم الحضارى فى القرن العشرين الامر الذى سينتهى بنا حتما الى مواجهة ظاهرة التفاوت فى الحركة الحضارية لكل من البلدان المتكاملة التطور وتلك التى ما زالت تسعى لبناء الظروف التى تجعل منها اكثر قبولا فى المحيط الحضارى العالمى الراهن •

ولكن التفاوت الحضارى الكبير الذى يهدد أمن العالم فى الوقت الحاضر لا يعكس مجرد أختلاف بين مجاميع من دول المعمورة تباعدت بينها مجالات العمل الحضارى فى سبيل الافضل والمستقبل وأنما يترجم لنا المعضلة الحقيقية لعصرنا الراهن والمتمثلة بوجود نماذج حضارية فرضت عن طريق الاستعمار او تكوين عرف حضارى يخضع لما تمليه عقدة

التعالى لدى الدول المتكاملة النمو فى الوقت الذى تشعر فيه الدول النامية بانها ضحية مؤامرة حضارية قصد منها ضرب القيم الحضارية التقليدية لهذه الحضارات عن طريق جرها الى معارك لا تمتلك فيها الدول النامية حديثا ما يؤمن لها الكسب أو على الاقل الخروج بشرف التعادل • لذا فان أكثر المجتمعات النامية تتمسك بما ورثته لكى يتسنى لها حفظ ذاتها على الاقل بعد أن يئست من تكوين مركز حضارى لها •

فالمعضلة الحضارية فى عصرنا الحاضر لا تكمن تعقيداتها فى التناقض الحضارى الراهن بين بلدان العالم اليوم لان التباين فى مسيرة المجتمعات الحضارية من بديهيات التاريخ نظرا للاختلافات الظاهرة بين الاقطار نفسها وما يترتب على ذلك من تفاوت فى الاستعدادات والمطاوعة الحضارية بشكل يقرب مما هو واضح لدى الافراد من فروق ولكن جذور التعقيد فى القرن الحالى تنطلق من الحاجة الى خط بداية حضارى يتم الاتفاق عليه دوليا وهو امر يصعب تحقيقه فى الوقت الحاضر نظرا للانقسامات الايديولوجية الحادة فى الفكر العالمى من جهة وفقدان الثقة بين البلدان المتكاملة النمو وتلك التى ما زالت تتحسس طريقها للنمو من جهة ثانية •

وعند هذا المفترق الحضارى المشحون بالخوف والتردد والتشاؤم تطل الاشتراكية كحل موفق للتخفيف من تناقضات العالم الحضارية هادفة فى الوقت ذاته الى تقليل الصراع بين المجتمعات المتفاوتة النمو عن طريق أعادة توزيع ثروات العالم بعد تأمين فرص العمل والنجاح لكتل من البشر أضناها الخوف والترقب •

فالاشتراكية بهذا المعنى وعلى صعيد انسانى تعيد الكرامة للانسان فى أفريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية مؤكدة بان استغلال الانسان لاخيه الانسان لايجر على العالم الا الخراب والدمار لان الاستغلال والاغتصاب شأنه شأن اية نزعة لا أنسانية تبدأقوية بفعل نزعة الشر فيها الا انها لا تلبث أن تفقد قوتها مخلفة فيمن تعرضوا لهذه التجربة القاسية احقادا تعيش

للانتقام وبذلك سيتعرض العالم وحضارته لهزات عنيفة هى فى حقيقتها معارك جانبية لا تعود على المعرفة الانسانية الا بكسب مادي واقعه الفكرى ضئيل أو مشوه .

وعلى صعيد الوطن العربى بوجه خاص والاقطار النامية بوجه أعم فان الاشتراكية هى الرد الامثل لما تقاسيه هذه المجتمعات فى فترة تمتد فيها جهودها نحو المستقبل الافضل لانها لا تؤمن بالطفرة مما قد يربك التراكيب التقليدية للبلدان النامية فى الوقت الذى تفتح الطريق واضحا للعمل فى سبيل غد حضارى يتجاوب وطموح الاقطار الحديثة النمو .

وبالنسبة للامة العربية فان بحث الدور الذى يمكن للاشتراكية ان تلعبه فى مجتمعها يقودنا للتعرف على صعوبات ثلاث : الاولى زيادة الانتاج الزراعى والثانية التوسع بالتنمية الصناعية اما الثالثة فانها تتعلق بالتوعية الاجتماعية وخلق وجدانية أشتراكية .

فزيادة الانتاج الزراعى صعوبة تتميز بصفتها الشاملة لاكثر مجتمعات العالم الحديث الكامل نموه منها وذلك الذى لم يزل يسعى لتحقيق هذا الهدف وليس هناك تقسيم أصدق على عالم اليوم من تسمية بعض الاقطار بالفقيرة والبعض الاخر بالغنية وترك قسم من بلدان العالم يتراوح فى فقره او غناه بين هذه المحاور المتطرفة .

والواقع أن الزراعة مشكلة واجهت الانسان منذ ان عرف الحياة الزراعية فقد ورد ذكر الزراعة فى سفر التكوين فى العهد القديم الذى أشار الى الرعى والزراعة ممثلين فى هابيل واخيه قابين اللذين اختلفا فيما بينهما مما دفع قابين المزارع الى قتل أخيه هابيل الراعى . وتبين هذه القصة الصراع بين البداوة والحضارة لان من المتفق عليه بالنسبة للادوار التى مر بها الاجتماع الانسانى ان دور الرعى يسبق دور الزراعة لذا فقد أستطاعت الزراعة أن تجد لها مكانا فى الاجتماع الانسانى أفضل من ذلك المكان الذى احتله الرعاة .

ولكن قصة العهد القديم لا تقف عند حد تبيان الاختلاف بين الفلاحين والرعاة وانما تجرم قايين ممثلا للمزارعين بانه واتباعه سينتقم منهم (سبعة أضعاف ثم جعلت لقايين علامة لكي لا يقتله كل من وجده فخرج قايين من لدن الرب وسكن فى ارض (نود) شرقى عدن ، ثم يسترسل العهد القديم فيقول عن قايين انه بنى مدينة ودعاها كاسم ابنه (سفر التكوين الاصحاح الرابع ١٥ : ١٦ : ١٧ : ١٨) .

يتبين لنا مما اورده العهد القديم ان الزراعة لم تأت بشكل سهل كما هو الحال بالنسبة للرعى فقد ولدت بعد آلام مخاض قاسية تمثلت فى قتل الاخ أخيه وهى أمور تصدق على دنيا الزراعة فى القرن العشرين وفى اكثر المجتمعات تقدما ثم ان قايين على الرغم من ارتكابه جريمة لم يؤخذ منه الحق بقتله وانما ترك لكى يتعذب وبذلك يصبح الانتقام منه سبعة أضعاف الفعل الذى ارتكبه مصورا مايلاقيه المشتغلون بالارض من تعب وكد وعناء ولعل أحدى الاضعاف السبعة التى يقتل فيها المزارع ممثلا بقايين هو بناء الحياة المدنية وفى ذلك تعاسة تنبع من حقيقة واقعه هي ان هذه الحياة لابد وأن تجمع بين المزارعين وبين من يستغلونهم مما يفسح المجال واسعا لكى يؤدى الفلاحون الغرم الذى ترتب عليهم نتيجة تلك الهفوة المرتكبة من قبل قايين تجاه اخيه هابيل .

ومن وجهة النظر التاريخية فان الزراعة أستطاعت ان تفسح المجال واسعا امام قيام حياة مدنية مجتمعها يتخذ من الشكل الهرمى طريقة لبنائها فقد تميزت المجتمعات فى الحضارات القديمة وعلى الاخص تلك التى نشأت فى منطقة الشرق باكمله بانها قامت على اكتاف الفلاحين ولكنهم وان عملوا على تقديم ثمار جهودهم وواصلوا كدهم فى سبيل أستثمار الارض والحصول على خيراتها فانهم بقوا فى اسفل السلم الاجتماعى فى الوقت الذى ارتفع فيه آخرون فوق ظهورهم حتى استطاعوا ان ينتصبوا فوق قمة الهرم ويمسكوا بالسلطة والمال .

وطبيعى ان الزراعة اختلفت فى الشرق عنها فى الغرب ولكن اوربا

وهى العينة الممثلة للعالم الغربى لم تسلم من تأثير الزراعة فى حياتها الاجتماعية والسياسية فقد رزحت القارة الاوربية خلال القرون الوسطى تحت سيطرة الاقطاعيين وهم الملاك من اصحاب الاراضى الشاسعة الذين جمعوا بين ملكية الارض والمركز الاجتماعى والسياسى المتميز وبذلك لعب الاقطاعيون دورا كبيرا فى حياة الاوربيين سواء أكان ذلك على صعيد المجتمع متمثلا فى السيطرة التى يفرضها السيد الاقطاعى على تابعه او امتلاكه لهذا التابع وعلى الصعيد السياسى منعكسا فى السلطة التى يمارسها الاقطاعى ضمن نفوذ الارض العائدة اليه وبذلك عانت اوربا الكثير من ضروب الظلم والتعسف وعلى الاخص عندما بدأ الاقطاعى يفقد سيطرته واحتاج الى ما يؤكد صلة تابعة به فاستخدم ابشع صور القوة والتحكم والاغتصاب .

ثم برزت على مسرح الحياة فى اوربا دول وممالك قوية استطاعت ان تبدل مبدأ الحماية الذى كان موصولا بين التابع والاقطاعى بمبدأ المواطنة وبذلك اصبح الفلاح ذا حرية محدودة فى الارض التى يزرعها ولم يترتب على عمله هذا سوى ما يدفعه الى السلطة فى وطنه نظير الحماية أو تقديم الخدمات العامة التى اختلفت بين العناية بالفلاح وبحقله وبين تسويق الحاصل ودفع الانتاج الزراعى عن طريق المساعدة او الحماية او تأمين الاسواق على الصعيدين المحلى والخارجى .

وجاءت الثورة الصناعية فى اوربا فاخذ الفكر الاوربى يتجه صوب الصناعة نظرا لانها اكثر مطاوعة لآمال ومطامح الطبقة الوسطى الاوربية بالاضافة الى سهولة التحكم فى ظروف الصناعة عن طريق السيطرة على وسائل الانتاج وتحسين ادواته وتهيئة الظروف الملائمة لانجاح العملية الانتاجية عن طريق تقليل النفقات وزيادة الارباح .

وقد ادى انتقال مركز الثقل فى المجتمعات الاوربية من الزراعة الى الصناعة وعلى الاخص فيما يتصل بالحياة والانتاج ان تغير مفهوم الزراعة لدى الكثير من الاوربيين مما فسح المجال لما يسمى بالزراعة الصناعية التى اكدت على انتاج السلع ذات الكسب النقدى السريع المرتبط بعمليتى الانتاج والتوزيع ثم اخذ المصنع فى أوربا يسيطر على الحقل سيطرة تامة

ويسعى الى تقليل الجهد الانسانى فبرزت بوضوح ونجاح محـــاولات (مكننة الزراعة) وشرع باستعمال الآلات الزراعية على نطاق واسع فى كل مراحل عملية الانتاج الزراعى وبدأت محاولة صعبة لتحويل الفـلاح الاوربى الذى ارتبط لسنين عدة بالارض بادواته البسيطـة وانتاجهـا الاستهلاكى المحدود الى مزارع يستطيع ان يتحكم بالحقل ويستغل فـى الوقت ذاته أحدث ما توصلت اليه المكاسب التكنولوجية الهادفـة الى تحسين العملية الانتاجية فى الحقل . وبعبارة اكثر وضوحا فقد اعتبـر الحقل معملا يزاول فيه الانتاج بنفس الخطوط التى يتم وفقها العمل فـى المصنع مع محاولات جدية للتحكم فى العملية الانتاجية والاستفادة من الطبيعة فى زيادة المحاصيل المنتجة وتنويعها بحيث تتفق وما يتطلبه الانتاج مـن جودة وتنوع وسرعة بصرف النظر عن الارض والظروف المناخية المحيطة بها .

ونستطيع أن نتبين التقدم الهائل لما حدث فى الانتـاج الزراعى اذا تعرفنا على الحقول الزراعية فى اواسط وغرب الولايات المتحدة الامريكية فعلى الرغم من التخلف الفكرى والثقافى للمزارعين فى وسط وغـرب الولايات الامريكية المتحدة فان وفرة الانتاج والتحكم فى نوع المحاصيل وزراعة ما يمكن نقله وتسويقه ، تعكس بعض المفاهيم الجديدة للتطـور الذى حدث فى بناء شخصية المزارع الجديد فى العالم الغربى وتبين البون الشاسع بين المزارعين الامريكيين فى الوقت الحاضر وبين اسلافهم عبيـد الارض والاقنان ممن عاشوا فى اوربا خلال فترة القرون الوسطى ، وحتى اولئك النفر من المهاجرين الامريكيين الذين وفدوا الى ما يسمى فى ذلـك الوقت بالدنيا الجديدة .

ويعود الفضل فيما حدث من تغير سريع وهائل فى اساليب وأدوات الزراعة الاوربية الى اقتراب الشقة بين الزراعة والصناعة وأستخـدام وسائل الصناعة وأدواتها فى تطوير العملية الانتاجية والتخلص من سيطرة الارض بظروفها القاسية على الانسان وتحويل الفلاح من مزارع يخضع لما تمليه عليه طبيعته القاسية الى مستثمر مزود بالمعرفة الفنية والادوات التـى

تجعل منه سيدا للارض متحكما فيما يريدها ان تنتج وبالقدر الذى يراه مناسبا وحاجة السوق .

ومن وجهة النظر الاكثر موضوعية فان الزراعة فى العالم الاوربى واميركا قد مرت خلال فترات طويلة من الصعوبات والمشاكل التى أنعكست على المجتمع عندما كان يستند استنادا كليا فى حياته وحضارته على ما يسمى بالزراعة البدائية ثم بدأت الصورة تتغير ولكنها بقيت تحتفظ باطاراتها التقليدية . فالفلاح الاوربى وان تخلص من سيطرة الاقطاعى واصبح يعمل بالارض بحرية يحسده عليها اسلافه الا انه بقى خاضعا لما يسمى بـ (العقلية الزراعية) ولم تحدث الانطلاقة الكبيرة فى عالم الانتاج الزراعى الا بعد ان فصل بين الزراعة كحرفة وبينها كحياة ثم اتجه المصنع نحو الحقل وهنا بدأت صفحة جديدة فى عملية الانتاج الزراعى وأستطاعت الآلة دخول كل مرحلة من مراحل العمل الزراعى وبدأت الحياة فى الحقل تميل نحو الدقة والسيطرة التامة على كل جوانب العملية الانتاجية فى الزراعة . وكلما أزداد التحكم فى الارض وأنتاج الحاصل كلما أمكن تقدير ما تنتجه الارض فعلا وبذلك دخلت فكرة (الكمية) فى عالم الانتاج الزراعى وشرع بطرح المخاوف والصعوبات وما يتبع ذلك من تردد فى معرفة ما سيحصل عليه قطاع الزراعة من انتاج خلال المواسم الخاصة به .

أما المصاعب التى تتعرض لها عملية الانتاج الزراعى فى العالم الاوربى بوجه عام وفى اميركا بوجه خاص فانها تكمن فى الموازنة بين الصناعة والزراعة من جهة وفى السيطرة على مستويات الانتاج الزراعى من جهة أخرى نظرا لان الآلة قد أستخدمت على صعيد واسع لكى تؤمن أستغلالا كليا للارض مما دفع بعض الحكومات فى اوربا والحكومة الامريكية بالذات الى تنظيم أنتاج المحاصيل الزراعية عن طريق الحد منها بمساعدة المزارعين لكى يخفضوا من مساحات الارض المزروعة وبذلك تتم المحافظة على حركة متوازنة للعرض والطلب تساعد فى رسم سياسة خاصة بالاسعار تعود على

الدول ذات العلاقة بالكسب والفائدة .

أما فى الوطن العربى وفى الارض التى ما زالت تحتفظ بآثار الخلاف بين هابيل وأخيه قابين فان اللعنة التى أنصبت على رأس قابين انجرت على أبنائه من بعده لان منطقة الوطن العربى تكثر فيها فرص النجاح الخاصة بالانتاج الزراعى ولكن الزراعة وأدواتها ما زالت تعيش بنفس المستوى الذى عاشت به على أيام الاخوين هابيل وقابين .

فالارض فى الوطن العربى تمثل النعيم والجريمة والعقاب فى آن واحد فهى مصدر الحياة والحضارة منذ بزغت شمس الحياة الاولى على الارض العربية ثم حدث الصراع بين البداوة والحضارة فاقتتل البدو مع من أستوطن منهم وبذلك حدثت الجريمة الاولى كما يصورها العهد القديم فى ارض الوطن العربى وكانت بسبب الارض وملكيتها وحاصلاتها ثم بدأت فترة العقاب متمثلة فى مجاميع ضخمة من الفلاحين حملت كتلا ضخمة من الطين سارت بها فى طريق فرش بالشوك والمأساة عبر قرون طويلة من الزمن .

فقد عاش الفلاحون فى اكثر ارجاء الوطن العربى قديما وفى فترات طويلة من حياتهم تحت ويلات الظلم والارهاب والاستغلال لم يتخلصوا منها الا فى الفترة التى سادت فيها تعاليم الديانة الاسلامية ثم اظلم وجه التاريخ فى منطقة الوطن العربى وبدأ الفلاحون فى هذا الجزء من المعمورة يعيشون كما كان اسلافهم فى القرون السحيقة من تاريخ الامة العربية .

ومن وجهة النظر الموضوعية فان مشكلة الارض فى الوطن العربى تمثل مأساة العرب لان هذه الارض كانت وما تزال محورا للرزق والحياة فى الوطن العربى وقد اقفرت فى فترات مختلفة وبدلا من أن تستغل بطريقة تؤمن أستمرار قابليتها على الانتاج لجأ المستعمرون خلال حقب طوال الى عصر خيرات هذه الارض وتركها رملية جرداء لا تحمل من أسباب الحياة الا تاريخا ضاع اكثره فى زوايا النسيان ومياها غارت فى باطن الارض تدعو من يعمل على استخراجها واحياء ما مات من ارض العرب عن طريق تأمين سقيها وبزلها والعناية بها .

وليس بجديد ان الارض العربية تقع فى المنطقة المدارية الشمالية وتمتاز بقلة امطارها مما ادى الى انتشار الجفاف وازدياد الصحراوات واهتمام الانسان العربي بشكل كلي على تلك الاشرطة الخصبة التى تقع قرب الانهار او فى المناطق التى يؤمن فيها سقوط الامطار .

ولاعادة رسم المأساة الزراعية فى الوطن العربى علينا ان نحدد خطوط هذه المأساة ونبين واقعها بالنسبة للمجتمع العربي المعاصر واول هذه الخطوط هو الخلط بين الزراعة كحرفة وبينها كحياة فما زال الرأي السائد فى معظم اقطار الوطن العربى هو ان الارض تعتبر المصدر الرئيسي للانتاج والفكر والبناء الحضارى وبذلك ينشأ ارباك شديد لما يفهمه الفكر الاوربي عن الزراعة وما يدركه ابنا الوطن العربي عن الصلة التى تربط الانسان بالارض .

فالفرد العربى ينظر الى الارض كمحور لحياته حيث يستغلها فى كسب حاصلاته متخذا منها سكنا له ومقبرة لموتاه وبذلك تحتل الارض وما يتصل بها من زراعة ومحاصيل مكانة قد تكون قدسية فى ذهن الفرد العربى بينما يعتبر الفرد الاوربى الارض مجرد واسطة للانتاج الزراعى بشكل خاص .

ونشأ عن هذا الاختلاف بالنسبة لنظرة الفرد فى كل من المجتمعين الاوربى والعربى ان اصبحت الارض فى الفكر والواقع الاوربيين مجرد واسطة للانتاج وبذلك تفتحت السبل امام عمليات الانتاج الزراعى واستخدمت نتائج التكنولوجيا الحديثة فى تطوير وتسهيل وزيادة الخدمات فى كافةخطوات العملية الانتاجية الزراعية .

اما فى المجتمع العربى فان الارض كانت وما زالت مصدرا للحياة بجوانبها المختلفة من اقتصادية وسياسية واجتماعية فمن وجهة النظر الاقتصادية اعتبرت الارض مصدر الكسب الحلال وبذلك نشأت التقاليد التى تجعل من الزراعة مصدرا للبركة والفائدة وما يتصل بها من نظرات تختص بالقضاء والقدر والقناعة والرضا والصبر والتباطوء والخوف والتردد تجمعت كلها فى سلسلة من العقد احيطت بها الذات العربية فانقلب العمل فى الارض من مجرد حرفة الى حياة للنكد والشقاء وتسليم مطلق لما يضمره الغيب واعتياد على المكاره

وتردد او خوف عند العمل فى سبيل افضل كراهة ان يؤدي الطموح الى ضده فينقلب الى طمع يحسد عليه الانسان وبذلك يتبخر الخير عنه وعن اسرته ان لم يتبخر عن سلالته ايضا .

وترتبط بالعامل الاقتصادى جوانب اخرى منها استعمال الادوات القديمة واساليب الزراعة البدائية وتردى وسائل الخزن والنقل وما اليها من مستلزمات الزراعة الحديثة .

اما الجانب السياسى فانه ينعكس على فكرة الملكية فى المجتمع العربى فقد اصبحت الارض وسعتها وغلتها مجالا للمفاضلة بين انسان وآخر ثم تطورت هذه الملكية فى نطاق أسر لم تتأخر فى تحويل ملكيتها للارض الى سلطة سياسية ساعدتها كى تمارس ضروبا من القوة لم تلبث ان ظهرت فيما مارسه افرادها من ذوى الاقطاعيات كتلك التى وجدت فى مصر والعراق وسوريا .

ونظرا لما للارض من اهمية اقتصادية ساندتها سلطة سياسية فقد تكونت نتيجة لهاتين الدعامتين مكانة اجتماعية تمثلت فى مركز الاسر ذات الاراضي والاطيان التى مارست ثقلا اجتماعيا من خصائصه التأثير على حركة الافراد ضمن منظومة المجتمع واستغلال المقاييس الاجتماعية التى وجدت بفعل ملكية الاراضى فى سبيل تسخير من يفتقر الى الملكية واستغلالهم لكى ينتفع نفر من افراد الاسر وبذا يتركز نفوذهم التقليدى .

وقد انقلبت سبل التأثير الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى مارستها الاسر ذات النفوذ المعتمد على ملكية الاراضى ، الى عقبة قللت من الانتاج الزراعى وجعلت من العمل فى الارض لعنة لا يصيب من ورائها الفلاحون الا النكد والاعياء والفقر . فاذا اضفنا الى التعقيدات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ما نسميه بالبطالة الموسمية وتعطل الكثير من الايدى العاملة واقتصار عملها على موسمى الزرع والحصاد مع نقص فى خصوبة الارض وصعوبة فى النقل وما يعترى الانتاج الزراعى من آفات وصعوبات فى الرى والبزل وما يعانيه الفلاح فى الوطن العربى من ضيق فى وجهة نظره تجاه المجتمع والمستقبل وضعف فى قواه الجسمية نتيجة للامراض المتوطنة كالملاريا

والبلهارزيه والانكستوما وامراض العين مع كثرة فى عدد الاطفال وضعف الام وجهلها وانعدام ابسط وسائل الصحة والراحة فى بيوت الفلاحين ادركنا مبلغ التشويه فى الصورة التى ترسم للارض ودورها الانتاجى فى الوطن العربى .

وقد ادت هذه العوامل مجتمعة الى النظر الى الفلاح والزراعة فى الوطن العربى نظرة وضيعة من الناحيتين الاجتماعية والسياسية فما ان فتحت الطرق التى تصل الريف بالمدينة وشرع باستخدام وسائط النقل الحديثة حتى بدأت جموع الفلاحين تهجر الارض التى عاشت فوقها قرونا عدة لكى تحث خطاها صوب المدينة وبانت على صعيد التغيير الاجتماعى معضلة الهجرة من الريف الى المدينة ولكن هذه الظاهرة اهملت فى اول امرها نظرا لانخفاض مستوى العلم والفهم الاجتماعيين فى الوطن العربى من جهة وخوفا من ان تستغل آثار هذه المعضلات فى سبيل كسب سياسى او اقلاق (للهدوء السياسى) من جهة اخرى .

والواقع ان طوفان الهجرة الى المدينة قد اهمل فى الاقطار العربية كلها بدوافع اختلفت من بلد الى اخر ففى لبنان وسوريا ترك امر التفكير فيها نظرا للانقسامات الحادة التى قد تنفجر بين آونة واخرى أما فى مصر فان الجهرة كانت بطيئة بسبب من قوة الاقطاع اولا والفارق الكبير بين الريف والمدينة ثانيا مما جعل من الريفيين او سكان المحافظات فى الصعيد والصحراء الغربية مادة بشرية لا تصلح اطلاقا للحياة فى المدينة فهم وان زاروا القاهرة والاسكندرية فانهم لا يلبثوا ان يعودا ثانية قبل ان يصبحوا ضحية النكتة او الاستغلال الامر الذي ولد فى نفوس الكثير من ابناء الريف فى مصر وعلى الاخص قبل قيام ثورة ٢٣ تموز سنة ١٩٥٢م شعورا بالخوف والحذر والتردد ينتابهم هذا التعقيد النفسى عندما يطرأ على بالهم مجرد فكرة السفر ثم تأتى مسألة بقائهم فى المدينة والمكان الذي ينزلون فيه وهى صعوبات مالبثت ان تحولت الى خط اجتماعى عميق فصل ريف مصر عن مدنها مخلفا العديد من العقبات فى اقامة مجتمع جديد فى القطر المصرى . فقد تعاون

الاقطاع وسلطات الاحتلال الاجنبية من انكليزية وفرنسية وتركية فى ايجاد نوعين من اوالمطنين تفاوتت درجات مواطنتهم على الرغم من انهم ابناء بلد واحـــد .

ولم يكن العراق باقل نصيبا من صعوبات الهجرة من الريـف الـى المدينة بل بالعكس فقد قاسى هذا القطر من مشاكل الهجرة الا ان تكوينه السكانى اضفى على ترك اهل الريف لاراضيهم طابعا خاصا تأثر بانقسـام مواطنى العراق الى اهل المدن وسكنة الريف وهم قبائل مستوطنة واخـرى ما زالت لا تميل الى الاستيطان نظرا لغلبة حياة الرعى عليها فهى متصـلة بالبادية اكثر من ارتباطها بالحياة الحضرية .

وطبيعى ان صعوبات الاستيطان القديمة للعشائر العراقية لها صـلات قوية بالنسبة لما حدث من هجره من الريف الى المدينة كما ان دراسة هـذه الصعوبات له صلة واضحة بمحاولات فهم الطوفان البشرى الذي يمم شطر المدن العراقية حتى اصبحت بغداد تضم اكثر من مليون وربع المليون نسمة حسب اخر احصاء فى العراق سنة ١٩٦٥م وهو رقم يقف عقبة فى وجه اي تخطيط اقتصادى او اجتماعى لان العاصمة العراقية تضم بهذا المعنى اكثر من ربع سكان القطر العراقى البالغين ثمانية ملايين نسمة فى الوقت الـذي تتضاءل مدن العراق الاخرى فى النفوس بينما تفتقر فيها الامكانيات الى الايدى العاملة الامر الذي سيجعل من بغداد عبئا على المدن العراقية الباقية وسيزداد هذا العبء اذا اتسعت الزيادة بالسكان على ما هى عليه فى الوقت الحاضر .

ومن وجهة النظر الاجتماعية بالنسبة للعراق فان التحول السريع الذي حدث من القبيلة الى الريف ومن الريف الى المدينة لم يكن ليتم فى فترات ذات طول كاف تستطيع ان تتجنب بحركاتها المتتابعة ما قد ينشأ من تعقيدات او صعوبات تحول بين هذه التغييرات العميقة فى الحياة والمجتمـع وبـين انتقال سريع فى اغلب مناطق العراق من القبيلة الى المدينة رأسا دون ان يمر بفترة الريف مما سبب تناقضا خطيرا بين القيم التقليدية لسكان الاحياء

الجديدة فى المدن العراقية وبين متطلبات حياة المدن .

ومن أدل الامثلة على ذلك الميزات الاجتماعية التى يتصف بها سكان اكبر حى فى مدينة بغداد يطلق عليه اسم (مدينة الثورة) وهى محاولة جرت لاعادة اسكان العديد من اهل الريف فى منطقة واسعة بلغ تعداد نفوسها مؤخرا اكثر من ثلاثة ارباع مليون نسمة يلتزم معظمهم بتقاليدهم العشائرية المتوارثة فى الوقت الذي يتعاملون فيه وفق المستويات والقوانين المدنية ممثلة فى حرفهم ذات الاتجاهات المدنية الصرفة ودوائر قضائهم ومدارسهم التى تعمل جاهدة على تبديل المكونات العشائرية لسكان مدينة الثورة وجعلها تنسجم وخطوط المجتمع والحياة فى عاصمة العراق بغداد .

أما فى الاردن فان مشكلة الهجرة لا تكون ظاهرة اجتماعية صعبة الحل فان نفوس القطر القليلة وفقر المدن وخلو الكثير منها الى ما يجعل المقارنة بين الريف والمدينة معدومة افقد الهجرة دوافعها الاصيلة المتمثلة فى التفاوت الثقافى والاجتماعى والاقتصادى بل على النقيض من هذا فان نقل البدو من طورهم الاجتماعى التقليدى الى حياة تخضع لتقييدات مدنية جرى بتشجيع من السلطات السياسية والادارية الاردنية ويرجع هذا الى الرغبة فى تكوين قوات مسلحة اردنية اعتمدت كليا على القبائل البدوية فاذا انتهت فترة الخدمة فى الجيش فان اولئك الذين تعودوا الحياة الرتيبة وانفصلوا لفترة لبست بالقصيرة عن صلاتهم القبلية لا يريدون الرجوع ثانية الى حياتهم البدوية مما جعل منهم لبنات اجتماعية يصلح ان تتحمل مسؤولياتها فى مجتمع حضرى .

بقيت مناطق عربية اخرى مثل السعودية والخليج العربى وامارات وشمال افريقية العربى وبالنسبة للسعودية فان الحياة فيها بصرف النظر عن كونها بدوية او حضرية ما زالت تتبع قوالب اجتماعية وفكرية تكاد تكون متقاربة لان الافراد لا يهاجرون الى المدن بشكل فردى كما هو الحال لدى بعض الاقطار العربية كالعراق والاردن وبلاد الشام وانما يحتفظ المستوطنون البدو

بتشكيلاتهم وتقاليدهم العشائرية على الرغم من انهم يعيشون فى المدن السعودية المزدحمة السكان نسبيا مثل جدة ومكة والطائف والدمام لذا فان اكثر التجار واصحاب الحرف فى هذه المدن هم من غير أهل البلاد مما يؤكد على استمرار البداوة بين سكنة التشكيلات المدنية فى شبه الجزيرة العربية .

اما مناطق الخليج العربى فان حياة سكانها انقسمت كما هو متعارف عليه تقليديا بين البادية والبحر الا ان ظهور النفط والصناعات النفطية وتشابك قيمة هذه المادة الحيوية مع صعوبات استعمارية سياسية واجتماعية وفكرية ادى الى بروز مدن بدأت تشكل اهمية على صعيد اماراتها اولا وعلى صعيد منطقة الشرق العربى ثانيا وليس هناك من مشكلة تتصل بالهجرة من الريف الى المدن فى هذه الامارات بقدر ما هناك من صراع بين قومية ذات حق وواقع فى المنطقة ومحاولات اجنبية ذات صلات استعمارية لطمس معالم هذه القومية وحقها وواقعها .

وفى الوقت ذاته تجابه شمال افريقيا العربى صعوبات الهجرة من الريف الى المدينة الا ان بلدان الشمال الافريقى تختلف مشاكلها باختلاف اقطارها ففى ليبيا مازالت المدن تفتقر الى حياة مدنية مركزة يظهر الفارق واضحا بين حياتها والحياة فى الريف ونظرا لمدخولات هذا القطر من النفط فان المؤشر الاجتماعى سيميل حتما صوب حياة المدن سيما وان اكثر عائدات النفط تصرف فى مجال الاعمار والخدمات فى المدن والاماكن ذات الاهمية الاجتماعية او السياسية .

اما تونس والجزائر ومراكش وموريتانيا فان خضوع هذه البلاد تحت وطأة النفوذ الفرنسى رسم خطا عميقا بين الريف والمدينة بل بالعكس ابقى سكان البادية على حياتهم التقليدية ان لم تكن البدائية كما هو واضح لدى قبائل الطوارق فى المناطق الشمالية للصحراء العربية الكبرى فى وقت فتحت فيه فرنسا باب الهجرة امام سكان افريقيا الشمالية العربية للسفر الى فرنسا لكي تضمن حصولها على ايد عاملة رخيصة وتخنق الكفاءة العاملة الوطنية

وتعمل على تهجيرها عن مواطنها الاصلية مما يجعل من مشاكل الهجرة والاختلاف فى تركيب وحرف المواطنين العرب فى الشمال الافريقى ومستويات معيشتهم وتحصيلهم الثقافى مميزات تختص بها اقطار تونس والجزائر ومراكش وموريتانيا وان اتصلت بالمشكلة الكبرى التى يعانى منها الوطن العربى فى الوقت الحاضر والمتمثلة بتدفق اهل الريف فى اقطاره المختلفة الى حيث تعيش حياة تختلف ان لم تكن تناقض معها كليا .

ويمكن اعادة عرض مشكلة الهجرة من الريف الى المدينة بشكل ملخصة ان الوطن العربى وعلى الاخص فى الفترة بين الحربين العالميتين الاولى والثانية بدأ يتعرض لموءثرات سياسية واجتماعية واقتصادية جعلت منه مركزا تضاربت فيه قيم لنظم اجتماعية قديمة او تقليدية واخرى تتصف بالتجديد وبسرعة التغير الاجتماعى وتحاول ان تخرج من العزلة التى فرضت نفسها على الامة العربية لكي تعمل فى رحاب اوسع نحو مستقبل افضل .

ولم يكن الوطن العربى حين واجه مسؤوليات الحضارة الحديثة يكون تركيبا سكانيا تتقارب فيه المستويات الاجتماعية وعلى الاخص فى اسلوب تفكيرها ومعيشتها فقد اختلف السكان العرب بين البادية والريف والحواضر بما فيها المدن الكبيرة وبذلك كان رد الفعل العربى مختلفا من الناحية الحضارية لمتطلبات حضارة القرن العشرين اختلافا ينبع من البعد الحضارى بين تركيبه الثقافى والاجتماعى وبين مستويات الحضارة فى العالم الاوربى .

وقد ساهم فى احداث الفجوات الحضارية بين الوطن العربى من جهة وبين الحضارة الحديثة من جهة اخرى ظهور الاستعمار الاوربى فقد استجابت المدن فى الارض العربية بشكل يتناقض عن استجابة الريف بينما انعزلت البوادى واخذت تمثل روح المقاومة للسيطرة الاوربية بما تتضمنه من استعمار سياسى واقتصادى وفكرى مما ادى الى اختلاف بين حياة الريف التى اعتبرت معارضتها للاستعمار الاوربى وسيلة لحفظ ذاتها امام

تياراته الغريبة وبين حياة المدنية وانسجامها مع متطلبات الحياة الاجنبية وعد هذا اللون من الحياة على الرغم مما فيه من نفوذ اجنبى وانتهاك واغتصاب لخيرات وثروات البلاد العربية ضربا من ضروب التحضر والمدنية !

الا ان الفترة التى بدأت بنهاية الحرب العالمية وحصول اقطار كثيرة فى الوطن العربى على استقلال سياسى فقط ادى الى انهيار مركز البادية كجبهة معارضة للنفوذ الاوربى باجنحته الاستعمارية والحضارية فى الوقت الذى اخذت فيه المدن تشكيلاتها السياسية تنظم المعارضة السياسية وفق اسلوب العمل السياسى الحديث وبذلك بدأت حركة استيطان بالنسبة لسكان البادية فى الوقت الذى شرع فيه سكان الريف فى الهجرة الى المدن .

وقد حاولت سلطات الاستعمار البريطانى التى احتلت بعض اجزاء الوطن العربى بعد أن انحسر ظل الاستعمار العثمانى عنها معالجة مشكلة الهجرة من الريف الى المدينة بشكل تكسب فيه ود القبائل البدوية فى الوقت الذى ترسم الخط واضحا بين الريف والمدينة مما يخلق نوعين من المواطنين يتميز كل منهم بصفات اجتماعية وسياسية واقتصادية ومستويات ثقافية تعمق الخلافات بين أهل الريف وسكنة المدن فى الوطن العربى .

ويتضح هذا الاتجاه البريطانى فى قانون دعاوى العشائر الذي طبقته السلطات البريطانية المحتلة فى العراق ابان فترة الانتداب وبقى نافذ المفعول حتى قيام نورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨ م مما يؤكد ان السياسة الاستعمارية الانكليزية قد تمكنت بالفعل من شطر السكان فى العراق ووضعهم فى حقلين جاعلة منهم مواطنين فى ريف تحكمهم علاقات اجتماعية تقليدية بينما يخضع مواطنو المدن لما يشرع من قوانين وانظمة . الا ان التفاوت الكبير فى وجهات نظر ومستويات معيشة كل من سكنة المدن واهل الريف فى الوطن العربى خلال الفترة التى بدأت بعد الحرب العالمية الثانية ادى الى قيام هجرة شاملة من المناطق ذات الحياة القروية الى اماكن السكن فى المدينة ولم تكن هناك دراسات كافية للحد من الهجرة او تنظيمها على الاقل لكى تتفق والتقدم فى مجالات نشر التعليم وزيادة الانتاج وعلى الاخص الصناعى منه وانما تركت

امور الهجرة الى عامل الصدفة لكى يتحكم فيها فى الوقت الذي زاد التأكيد فيه على السلطة التقليدية المتمثلة بشيوخ القبائل ومن اعتمدتهم الفئات الحاكمة التقليدية لكى يمارسوا ضغوطا على من يتصل بهم فى مناطق الريف فيمنعونهم عن الحركة تدفعهم فى ذلك اسباب سياسية على الاكثر لان القصد من ابقاء سلطة شيخ القبيلة لم تكن لتعدو مناصرة السلطات التقليدية الحاكمة عن طريق تعاون شيوخ القبائل من ذوى الاتباع الكثيرين معها وبذلك تتمكن الفئات التقليدية من ضمان استمرار سطوتها .

وعلى الرغم من المحاولات ذات الطابع التقليدى فى الوطن العربى فى مفتتح تطلعاته للحضارة الحديثة وخصوصا ما قصد منها بشكل عفوى ارباك الهجرة من الريف الى المدن فان بعض العوامل التى فرضتها روح العصر حتمت على السلطات التقليدية فى الوطن العربى اتخاذ بعض المقاييس مثل فتح الطرق وتسهيل المواصلات او اقامة بعض المدارس مما انعكس اثره بشكل واضح على الحياة فى الريف وجعل طريق الهجرة من الريف الى المدينة واضحا وميسورا ان لم يكن فى متناول الواقع فان التعليم الحديث وكون المعلمين ممن تثقفوا فى المدن نفسها فان رسم مستقبل الحياة بالنسبة للمتعلمين لابد وان يدخل فى اعتباره انتقالهم الى حيث تنتظرهم الحياة فى المدن لكى يكملوا دراستهم اولا ويستطيعوا ان يستغلوا ما تفتح لهم من قابليات وما صقل من استعدادات ثانيا .

حتى لقد عد اولئك المتعلمون الذين يبقون فى قراهم واريافهم من الفاشلين وبدأت الفروق الحضارية واضحة بين الاجيال المختلفة فى الريف نفسه وخاصة اولئك المتعلمين واجيال ابائهم واجدادهم وبدأت روح مقاومة غذاها ابناء الجيل الجديدة فى الريف انقلبت الى رغبة فى الهجرة الى المدن .

وقد كانت الهجرة فى الفترة التى سبقت التحولات السياسية الخطيرة فى الوطن العربى المتمثلة بثورتى العراق عام ١٩٥٨م ومصر عام ١٩٥٢م موسمية ومعنى ذلك ان يترك قسم من ابناء الريف قراهم فى فترات التعطل

وعدم مباشرة الارض لكى يعملوا فى المدن ثم يعودا ثانية فى اوقات جمع الحاصل او التهيوء لموسم زراعى جديد بالاضافة الى بعض انواع هجرات دفعت اليها جوانب تقليدية فى المجتمع نظرا لحدوث بعض التناقضات بين سلوك الفرد والتقليد المتعارف عليه من قبل المجتمع ذاته • وقد ساعد الاختلاف فى المستويات الثقافية والتحصيل العلمى على دفع بعض الافراد للهجرة من الريف الى المدينة فى الوقت الذي كانت تمنعهم فيه بعض النواحى السياسية والاجتماعية وخصوصا تلك المتمثلة بالعمل المشترك بين سلطات الحكم التقليدية وبين القوة التقليدية المتعارف عليها فى المجتمعات الريفية ذات الطابع القروى فى حياتها واسلوب تفكيرها •

الا ان ظهور التغييرات السياسية ذات الاثر العميق فى حياة الوطن العربى نقلت الهجرة الى صعيد جديد اتصف بعدم وجود الحواجز التقليدية فقد تم القضاء على القوى الموروثة فى المجتمعات الريفية فى الوقت الذى سهلت فيه طرق المواصلات واصبح بالامكان الانتقال بسرعة وبطريقة مرنوق بها من الريف الى المدينة مما ادى الى ظهور ما نسميه (الهجرة الجماعية) التى جعلت من حركة الانتقال من الريف الى المدينة صعوبة اخذت بحس باثرها المجتمعات فى الوطن العربى •

وكان طبيعيا بعد ان تركت المعضلة لتتحول من مجالها الفردى الى مجال جماعى ظهر بشكل حركة دائبة اسفرت عن ترك الريف وارتفاع عدد سكان المدن ونقص فى المواد الانتاجية الزراعية ان يشرع فى فهم ما نطلق عليه اسم الهجرة من الريف الى المدينة اولا ثم معالجتها ثانيا •

والواقع ان معالجة هذه المشكلة تكون وفق اسلوبين الاول هو اسلوب الاكراه ويعنى ذلك فرض قيود على المهاجرين من الريف الى المدينة او تحديد الهجرة ووضع بعض العقبات فى سبيل الابقاء على اهل الريف فى قراهم لان هجرتهم معناه نقص شديد فى الانتاج الزراعى يقابله ازدياد فى حجم المدن فى الوقت الذى تميل فيه موازنة اقتصاد المدينة نحو الصناعة مما يحتم تحويل العملات النادرة التى يصعب الحصول عليها فى البلدان النامية

حديثا الى استيراد المواد الاستهلاكية الامر الذي يؤدى حتما الى ارباك سياسة التصنيع والبطء فى التفاعل مع الحضارة الحديثة .

ونشيا مع اسلوب الاكراه فى معالجة مشكلة الهجرة فان بعض المقاييس يمكن اتخاذها اهمها تزويد الفلاحين بهويات خاصة تذكر فيها حرفهم ثم يؤشر فى حقل خاص فى هذه الهويات عدد سفراتهم الى المدينة مع تحديد مدة اقامتهم للحيلولة دون تركهم لقراهم وهجرتهم عن اراضيهم . الا ان هذا الاسلوب يصطدم بعقبات جمة منها فقدان الاجهزة الادارية واجهزة التوعية التى تعمل على تبسيط فكرة الهجرة وتبيان اثرها بالاضافة الى الدقة والاخلاص من تتبع سفرات اهل الريف مع استحالة هذه المقاييس فى مجتمعات حديثة التطور تتضارب فيها القيم الاجتماعية من جهة وينعدم ان لم يضعف اثر التنظيم فى الحياة والمجتمع مما قد يفسر الاجراءات المتخذة عكسيا وبشكل يعود بالضرر على المجتمع او ما يسمى بوحدته الداخلية من جهة اخرى .

اما الاسلوب الثانى فانه اكثر واقعية وملائمة لظروف البلدان النامية حديثا بوجه خاص ونعنى بذلك الاصلاح الزراعى والمقصود بهذا التعبير اصلا تضييق الشقة بين الريف والمدينة عن طريق زيادة الانتاج من جهة ورفع مستوى الحياة بجوانبها المختلفة السياسية والادارية والاجتماعية فى الريف بحيث تنعدم الفوارق بين ما يسمى بالريف وما يدعى فى المدنية فى الوقت الحاضر وتضمحل ان لم تتلاشى الهجرة الجماعية فى الوقت الذى تقل او تنقطع فيه الهجرة الفردية من جهة اخرى .

هذا هو المفهوم الاجتماعى للاصلاح الزراعى اما المفهوم الاقتصادى فانه ينصب على زيادة الانتاج الزراعى عن طريق استغلال الارض استغلالا كليا وفق اساليب علمية تستخدم الالات والمكائن الزراعية وتعمل فى الوقت ذاته على نشر الوعى الفنى بين الفلاحين عن طريق محاولات التثقيف الزراعى وانشاء تعاونيات ترتبط ببنك تسليف زراعى للانتقال بالزراعة من حرفة مرهقة ضئيلة الانتاج الى عالم تتفاعل فيه المعرفة الفنية والالات الزراعية فى [illegible]

والجانب الاقتصادى الخاص بالاصلاح الزراعى يحتل المكانة الاولى فى كل محاولة أجريت فى الوطن العربى منذ أن تنبه العرب الى أهمية التخطيط فى الزراعة والانتقال بها من طورها البدائى المتسم بالصدفة والتوقع الى دور يخضع لتحديد دقيق فى الانتاج وفيما يستغل من الدخل القومى فى دفع عملية الانتاج الزراعى وعلى الاخص زراعة المحاصيل ذات الفائدة النقدية التى تصلح للتصدير وتكون عمودا فقريا للصناعة التى أخذت هى الاخرى فى النمو فى البلدان المتطورة حديثا بوجه عام والوطن العربى بوجه خاص .

والواقع ان مشكلة زيادة الانتاج الزراعى من المعضلات الدقيقة التى تجابه العالم اجمع والبلدان النامية على وجه الخصوص وقد بدأ اثرها يظهر بشكل اكثر شدة بعد أن أرتفعت نسبة المواليد وأزدادت وتغيرت حاجات المجتمعات النامية فى العالم وبعد ان بدأت التغييرات الاقتصادية والاجتماعية فى عالم اليوم تأخذ طريقها الى اكثر المجتمعات الحاضرة فقد أثرت هذه التغييرات فى رفع مستوى الطبقات الفقيرة وذات الدخل المحدود وزادت فى قوتها الشرائية الا ان ما حصل فى البلدان المتكاملة النمو يختلف عما حدث فى المجتمعات النامية ففى الحالة الاولى اصبحت الطبقات الفقيرة ذات اتجاه صناعى بعد ان وصلت الى مركز الطبقات المتوسطة ثم اخذت هذه الطبقات فى معظم البلدان المتكاملة النمو كتلك الموجودة فى اميركا الشمالية وغرب اوربا واليابان فى قيادة التقدم الصناعى وتسويق الانتاج والدخول فى مضاربات سياسية واتصالات دبلوماسية قادتها الى سياسات مسدودة الطرق انتهت بالحرب فى سبيل تأكيد مركز الطبقات الوسطى الاجتماعى والسياسي والاقتصادى .

اما فى المجتمعات النامية فان الطبقات الفقيرة عند انتقالها الى مركز أعلى فى السلم الاجتماعى سيطر عليها ما يسمى بـ (التقليد الطبقى) نجم عنه أندفاع معظم الطبقات ذات الدخول المحدودة كي تنفق الزيادة فى دخولها

للحصول الى سلع استهلاكية اكثر ، مما ترك ضغطا شديدا على احتياطى الذهب والعملات النادرة فى البلدان النامية تولد عن سعى السلطات الساسية فيها الى سد أكثر متطلبات الطبقات التى بدأت ترتفع فى مستواها المعيشى والحيانى خوفا من أن يؤدى الوقوف بوجه اندفاعات الطبقات الوسطى الجديدة الى قيام تعقيدات سياسية تزيد من حساسية الصلة بين المجتمع والسلطة فى البلدان النامية .

هذه اذن هى جوانب الاصلاح الزراعى تبدأ بالتغيير الاجتماعى وتنتهى بزيادة الانتاج فى المحاصيل الزراعية عن طريق تخطيط جديد للانتاج وادواته ووسائله وتسويق الحاصل على الصعيدين المحلى والعالمى الا ان هناك جانبا جديرا بالاعتبار ونحن ندرس معضلات الاصلاح الزراعى هو أن الجانب الاجتماعى يبرز فيه قبل الاقتصادى مما يستدعى تدخل الدولة أو ما يسميه (جنر مردل) فى كتابه (النظرية الاقتصادية والدول النامية . ترجمة ابراهيم الشيخ ومراجعة حسين الحوت ص١ـص ٨٥) بالمجتمع المنظم لكى يتم التخطيط الاجتماعى لعملية الاصلاح الزراعى دون أن تعترضه عقبات فردية او انحرافات تستغل لمصلحة جهة اجتماعية خاصة مما ينعكس بشكل سلبى على الاصلاح الزراعى كعملية تحويل اجتماعية واقتصادية ضخمة . فاذا تم التخطيط للاصلاح الزراعى اجتماعيا ونجحت السلطات ذات المسؤولية والاختصاص والقوة فى رسم ابعاد المشاريع الاصلاحية فان الجانب الاقتصادى لا يلبث ان يبرز مما يستدعى تعاونا بين ما نسميه بالقطاع الحكومى والقطاع الاهلى .

وليس تدخل الدولة بامر غريب او بدعة يأتى بها بعض رجال الاقتصاد ممن مروا فكريا او واقعيا بظروف الكساد العظيم التى واكبت قيام الحرب الكونية الثانية لان أصابع السلطة تدخلت قبل ذلك بوقت طويل وفى مجتمع يؤمن بحرية رأس المال هو مجتمع الولايات المتحدة فان تنفيذ مشروع وادى تنسى وادارته او مايسمى بـ (ت.ف . أي) ليظهر بجلاء أن الحكومة الامريكية كانت على صواب عندما حولت مجرى نهر تنسى فى

سبيل أستصلاح اراض أكثر عن طريق الانتفاع بمياه النهر مع ما تركه ذلك الاجراء من اثر فى هدم واغراق الكثير من بيوت الفلاحين • ويحدث الشيء نفسه عند اقامة مشروعات الرى الكبرى فى اكثر بلدان العالم لان مجارى المياه التقليدية تسير وفق تسهيلات التضاريس مما يجعلها تمر فى الاراضى السهلة او المنبسطة تاركة مساحات شاسعة بامس الحاجة الى الرى تنتظر جهد الانسان وتصميم المجتمع وتطور العلم والتكنولوجيا •

الاصلاح الزراعى والوطن العربى :

أن الاسلوب الذي اتبع فى الوطن العربى بالنسبة للاصلاح الزراعى لا يشكل أي شذوذ فيما يتعلق بالخطوات التى اتخذت فان الاصلاح الزراعى كنظرية وتخطيط لا يقتصر على قارة او مدرسة فكرية خاصة لان اصلاح الارض للزراعة أنما هو محاولة عملية شأنها شأن كل مقياس يقصد من ورائه تغيير اجتماعى يتأثر الى حد بعيد بالاجواء المحيطة به ويؤثر بها فى الوقت ذاته لذافان دراسةظروف الاصلاح الزراعى فى الوطن العربى من الاهمية بمكان للتعرف على الصعوبات الحاضرة والامال المستقبلة التى يعلقها المجتمع العربى على تطبيق محاولة هامة كالاصلاح الزراعى •

وبوجه عام فان الاقطاع فى الوطن العربى كان سائدا باشكاله السياسية والاجتماعية والاقتصادية ففى مصر كان الاقطاع اجتماعيا ونعنى بهذا حكم الطبقة ذات المركز الاجتماعى المتصل بالانتاج الزراعى والتسلط السياسى اما فى بلاد الشام فان الاقطاع السياسى انصب على فسح المجال لاصحاب الاقطاعيات لكى يصيبوا سهما فى دوائر السياسة والسلطة •

أما فى العراق فان الاقطاع كان اقتصاديا ذا ابعاد عشائرية وسياسية فقد هدف الاقطاع فى العراق الى السيطرة على مفاتيح الانتاج الزراعى واعتبرت المناطق الخصبة فى جنوب العراق أماكن مقفلة بوجه السلطات المسؤولة حتى قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ م فقد مارس شيوخ الاقطاع فى العراق سلطات واسعة تراوحت بين الانفراد بحكم تابعيهم وبين منعهم من السفر والحصول على ابسط ضروريات الحياة •

وقامت الثورات السياسية الحديثة فى الوطن العربى المتمثلة بثورتى العراق ومصر فى ١٤تموزعام ١٩٥٨م ومصر فىعام ٢٣ تموز سنة١٩٥٢م وكان طبيعيا أن تمتد الثورات العربية الى مجالات الاصلاح المختلفة وفى مقدمتها اصلاح الارض ورسم سياسة جديدة للانتاج الزراعى الا ان الصعوبات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى الوطن العربى من جهة وطول فترة الاقطاع وما يتصل به من رواسب اجتماعية وسياسية ونفسية من جهة اخرى جعل محاولات الاصلاح الزراعى مجرد واجهات اختفت خلفها المحاولات بالامال والحاجة الى الدراسة والتفهم الواقعى المخلص لمشاكل الاصلاح الزراعى تنج عنه نقص خطير فى المحاصيل الزراعية مع ازدياد الطلب عليها .

لذا فان الاصلاح الزراعى فى مصر نجح فى ضرب حكم الطبقة الاقطاعية ومعها القوى التقليدية وفتح المجال امام تجربة جديدة فى الحكم تمثلت فى الجيل الجديد وما تحصلهمن مسؤوليات بينما ضعف تأثيرالاقطاع فى بلاد الشام وسواحلها واحتاجت الدوائر السياسية فى اماكن السلطة فيها الى دم جديد تمثل فى جيل من اهل الخبرة والاختصاص اصبح نذا لمصادر النفوذ التقليدية .

أما العراق فانه كان أكثر الاقطار العربية تأثرا بمحاولة الاصلاح الزراعى لان اقتصاده كان مرتبطا كليابالانتاجالزراعى فلما نسفت الاطارات الاجتماعية والسياسية للاقطاع فى العراق انهار الجانب الاقتصادى منه . ما ادى الى نقص خطير فى انتاج المحاصيل رافقته هجرة جماعية من الارياف الى المدن وازدياد فى طلب المواد الاستهلاكية نتيجة تحسن الاحوال المعيشية للجماعات المهاجرة وارتفاع نسبة المواليد .

يتضح من هذا العرض ان الاصلاح الزراعى فى الوطن العربى ظهر كحقيقة واقعة بعد نجاح التغييرات السياسية الجذرية فى الارض العربية ثم حدث انتقال من المفهوم السياسى للاصلاح الزراعى الى واقع اقتصادى

هدف من ورائه زيادة الانتاج وتوزيع الاراضى بين الفلاحين الا ان انخفاض الانتاج وازدياد الطلب على مواد الاستهلاك والمواد الغذائية اختزل عملية الاصلاح الزراعى الى مجرد مقاييس سياسية قصد من ورائها تصفية المراكز التقليدية للاقطاع ودفع الفلاح نحو العمل عن طريق تبنى السلطة له سياسيا واجتماعيا ومده بما يحتاج اليه من معونة فنية او معرفة علمية قدمت فى احيان كثيرة دون تخطيط . ولوضع المشكلة بشكل افضل علينا كمجتمع عربى ان ندرك ما يأتى :-

١ - ان محاولات الاصلاح الزراعى فى الوطن العربى نشأت بفعل ضغط الظروف التى تغيرت اثر ثورات سياسية جذرية هدفت الى تبديل الاوضاع السياسية التقليدية لكى تستطيع الامة العربية اللحاق بركب الامم المتقدمة التى نجحت فى تركيز سياستها فى الداخل ولم يبق لها الا ان تلعب دورها الهام على الصعيد الدولى بعد ان تفرغت له .

٢ - ان الوطن العربى ورث عهودا طوالا من تحالف الاقطاع مع قوى الضعف والقوى التقليدية لذا فان هدم هذا التحالف فى سبيل التخلف لابد من ان يخضع للتخطيط والاستعداد الفنى والنفسى وهما امران افتقر لهما الوطن العربى نظرا لافتقاره الى تجربة ذاتية او دراسة منظمة فى هذا المجال وصعوبة او استحالة استيراد (حلول جاهزة) لمشاكل تتصل بعملية الاصلاح الزراعى التى تعد من الصق مظاهر الاجتماع الانسانى المتعلقة بالمجتمع نفسه وما يتصل به من تاريخ وحضارة وقيم دينية وتعقيدات نفسية واقتصادية تجعل من كل محاولة للاصلاح الزراعى شيئا مرتبطا عضويا بالتفاعل بين المجتمع والحاضر والمستقبل .

٣ - كانت الحاجة ماسة عندما بدأت عمليات الاصلاح الزراعى ان تكون الدولة البديل الناجح للمركبات التقليدية المتمثلة بالاقطاع والاداة الزراعية البطيئة . الا ان تعدد مصاعب الاجهزة الحكومية انذاك وحاجتها الماسة الى الخبرة والاجهزة الكفوءة المخلصة اعاد المشكلة الى حيزها السياسى جاعلا منها محاولة لكسب سياسى موقت .

٤ ــ لقد تم توزيع الاراضى على الفلاحين وهذه الخطوة ضرورية (لان الارض للفلاح) وهو شعار قصد منه احداث تغييرات عميقة فى مجتمع ذي تربة تقليدية كالمجتمع العربى لكي ترتبط الملكية بالعمل اولا ويبتعد الرأي العام العربى عن الاستثمار فى الارض ليتجه نحو استغلالها فى الصناعة ثانيا وبذلك يبدأ تغيير جذرى فى وجهة نظر الفرد والمجتمع فى الوطن العربى يصب الاهتمام على الصناعة ودفع الطاقات العربية فى سبيل المستقبل ، الا ان توزيع الاراضى فى الوطن العربى جرى على اساس تقسيم الارض الصالحة للزراعة فعلا والتى تحملت المتاعب الحضارية وصعوبات التخلف والاستعمار والافقار عن طريق الاستغلال المتعمد ، وكان الاكثر اتفاقا والاسلوب الواقعى العلمى ان تؤول ملكية هذه الارض للدولة فى الوقت الذى تستصلح اراض جديدة عن طريق الاجهزة الحكومية المختصة التى تخطط للري والبزل واعمار الاراضى ثم تحول ملكية الاراضى الجديدة الى الفلاحين فى الوقت الذى تكون فيه مساحات الارض التقليدية مزارع نموذجية يتم فيها تدريب الفلاحين على اساليب الزراعة الحديثة عن طريق تزويدهم بالعلوم الزراعية بنوعيها النظرى والعملى ودفع مرتبات لهم لقاء عملهم فى الارض والمشاركة فى الحلقات الدراسية التى تشرف عليها الجهات المسؤولة موزعة على انحاء كل قطر عربى فى الوقت الذي تتم فيه تأليف جمعيات ووحدات ذات صفة انتاجية واستهلاكية فى آن واحد لاعداد فلاح المستقبل . الا ان ما حدث حقا هو توزيع الاراضى الصالحة للزراعة فعلا مع اختفاء السلطة التقليدية وعدم احلال بديل محلها الامر الذي ادى الى ان يخلط الفلاح بين مفهومى (الملكية الحرة) و (المسؤولية فى زيادة الانتاج) وبذلك انخفض الانتاج وانفتح باب الهجرة الى المدينة مع زيادة فى طلب السلع الاستهلاكية وفرص العمل فى الوقت الذي قل فيه العرض وتحول مؤشر العمل الى الوظيفة مما ولد (تخمة) فى الوظائف الرسمية وشبه الرسمية وعلى الاخص تلك التى تقوم على الروتين الكتابى وتعتمد على تكرار التجربة والخمول الذهنى ناقضتها حاجة ملحة الى امكانات فنية او علمية تركت الوطن العربى تحت

رحمة عطاء المنظمات الدولية لكى تمده بالخبرة الفنية والاموال اللازمة فى الوقت الذي ضعفت فيه القوة الشرائية للنقد المحلى نتيجة لندرة السلع واشتداد الطلب عليها مع حاجة قصوى الى نقد نادر تسبب عن ذلك كله تضخم فى كميات النقد المتداولة دون ان تصاحبها حركة سريعة للصفقات وادخار على صعيد الفرد الامر الذى اضطر معظم اجهزة السلطة فى الوطن العربى الى دعم الاقتصاد العربى عن طريق القيام بمشاريع ذات تكاليف عالية لكى تقضى على ركود السوق وتوفر فرصا افضل للانتاج والعمل . الا ان معظم الجهود الحكومية فى الوطن العربى مالت نحو مشاريع الري والسيطرة على القوى المائية ومما يحتاج الى فترة طويلة لكى يترجم انجازاته بشكل فوائد تعود على الافراد مما وصم المحاولات من قبل اجهزة السلطة بالوطن العربى بالتباطوء واستغلال النفوذ وعدم الفهم . لقد نشأت هذه التعقيدات او معظمها بسبب خطأ ارتكب فى تنفيذ عملية الاصلاح الزراعى دون ان يكون هناك تخطيط مسبق يعتمد على دراسة مدعمة بفهم للواقع العربى وتجربة مستمدة من مواكبة للظروف التى تحيط بالامة العربية فى حاضرها وتعوق مسيرتها الحضارية فى المستقبل .

والخروج من هذا المأزق يكون باعادة النظر فى سياسة الاصلاح الزراعى فى الوطن العربى ومعالجة المشاكل الناجمة عن تطبيق هذه العملية على ضوء واقع كل قطر عربى نظرا لخضوع صعوبات الانتاج الزراعى لضغط العوامل المحلية بشكل مباشر على عكس محاولات التصنيع فانها يجب ان تفهم على صعيد قومى نظرا لان التصنيع بجوانبه النظرية والتطبيقية يخضع قبل كل شيء للدراسة المنظمة التى ترتكز على مفاهيم اقتصادية وصناعية ونفسية ترسمتها معظم المجتمعات الاوربية والامريكية وكل ما تحتاجه الامة هو الاتفاع بالتجارب التى مرت بها البلدان المتقدمة .

اما المشكلة الزراعية الخاصة بالاصلاح وزيادة الانتاج فان جذورها تمتد فى تربة الاقطار العربية نفسها لذا يجب ان تفهم وفق مكونات تربة هذه الجذور، والواقع ان النجاح فى زيادة الانتاج الزراعى امر من الصعوبة بمكان

فى الاقطار العربية لان الهدف بالنسبة للوطن العربى هو الفلاح الانسان وليس ارضه والمحاصيل التى يزرعها مما يدفعه الى التضحية بالارض فى سبيل الانسان العربى الا اننا سنصطدم حقا بانخفاض الانتاج وهذا يستدعى منا ان نقف وسطا بين العناية بالانسان العربى وبالارض العربية ولبلوغ هذا الهدف النظرى علينا ان نكون جمعيات زراعية ذات طابع انتاجى تتولى ملكية الارض وادوات الانتاج فى الوقت الذي تدار فيه الجمعية منها من قبل مجلس ادارة ينتخب من اعضائها باشراف السلطات المسؤولة وتكون الجمعية مسوءولة عن عدد اعضائها ومعدل انتاجهم فى الوقت الذى تقوم فيه هذه الجمعيات باقامة بنوك تستخدمها فى التسليف وفى مساعدة المشاريع ذات الصبغة الزراعية مع خضوعها الى هيئة تخطيطية مركزية للانتاج الزراعى تقوم برسم الهياكل العامة للانتاج الزراعى مع تقديرما يمكن ان تقدمه المصارف الحكومية من مساعدات للبنوك الخاصة بالجمعيات وما تحتاجه من ادوات والات زراعية على ان تتقاضى الجهات المسؤولة نظير خبرتها واموالها حصة من الانتاج تقدرها هيئة التخطيط الزراعى مع خضوع التصدير وعمليات التحويل الخارجى للجهات المختصة لكي تنصرف الجمعيات الزراعية الى زيادة الانتاج وتكوين مجتمع زراعى جديد والحد من الهجرة الى المدينة .

التصنيع والوطن العربى :

ليس بعسير فهم اهمية الصناعة فى الاقطار النامية من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية لان الزراعة والاصلاح الزراعى لا تمثل الرد القوى والسريع على الصعوبات التى تشكو منها الاقطار الحديثة النمو فان القيام بمشروع للزراعة يستدعى الكثير من الوقت والعديد من الجهود لكى يقطف عامة الناس ثماره فى مجتمعات لا تؤمن بالمشاريع الطويلة الاجل نظرا لما لاقته من صعوبات وما سمعته من وعود بدأ قائمتها الاستعمار والقوى التقليدية فى محاولة قصد منها تبسيط المهم ورفع قيود ثقيلة فوق تطلعات الشعوب النامية فى سبيل مستقبل افضل .

وفى لغة العلم الحديث فان المحاولة لزيادة الانتاج الزراعى لا يمكن ان

ترفع مستوى الانتاج على مدار السنة باكثر من ٤ او ٥ ٪ وهى نسبة كبيرة فى ارض متعبة كالارض فى معظم الاقطار النامية حيث تم استغلالها بشكل لا ينسجم وما تستطيع الارض فعلا تقديمه مما يحتم على معظم البلدان النامية استخدام المخصبات الكيماوية والالات الحديثة التى يجب ان تستورد من الخارج وبعملة صعبة هى احوج ما تكون اليها فى عملية البناء الضخمة التى تضطلع بها اكثرية البلدان النامية وعلى الاخص تلك التى حصلت على استقلالها السياسى .

لذا فان الحل السليم للتخلف والركود والتردد والفقر فى المجتمعات الحديثة النمو بوجه عام والمجتمع العربى بوجه خاص هو الالتجاء للصناعة وذلك عن طريق انتخاب اكثر المعادن توفرا وجعله محورا لعملية التصنيع مع توفير الكفاية الفنية ونشر الوعى الفنى والعملى ورفع القوة الشرائية للافراد وتسهيل المواصلات لكى يتم النجاح للمحاولة الانتاجية . والامثلة عديدة على هذا الاسلوب فقد نجحت بريطانيا فى صناعة المنسوجات الصوفية والقطنية جاعلة من هذا الانتاج مركزا اساسيا لبناء هياكل اقتصادها ثم لم تلبث العملية الانتاجية ان تطورت فى جميع الاتجاهات لتخلق من بريطانيا دولة صناعية من طراز متقدم .

اما امريكا واليابان وروسيا فانها سارت فى الطريق نفسه وان اختلفت فى اساليب وصولها الى هدفها المتمثل فى زيادة انتاجها الى حد التصدير وضمان منافسة بضائعها فى السوق الدولية والمحاولة للسيطرة على هذه السوق او التحكم فى حركتها تجاريا ثم نقل التأثير الى مجالات السياسة والدعاية . فقد ركزت الولايات المتحدة على صناعة الصلب وبرز فيها ملوك صناعة الصلب فى العالم . اما اليابان فانها اهتمت بالصناعات الكهربائية حتى غدت على رأس دول العالم فى انتاجها من المعدات والمولدات والادوات الكهربائية فى الوقت الذي تفتقر فيه اليابان الى معدن تجعل منه قاعدة لبناء صناعتها . ويصدق القول نفسه على روسيا اذا اتخذت من صناعات الاجهزة الخاصة بالفضاء الخارجى محورا لرفع مستوى صناعتها بعد ان بقيت من

الاقطار الاوربية التى لم تفتح نوافذها للثورة الصناعية وبقية تعيش بعقلية تقليدية .

وبالنسبة للوطن العربى فان الصناعة التى يمكن ان تمثل المحور والقاعدة الصناعية هى صناعة النفط والصناعات البتروكيمياوية نظرا لتوفر النفط فى مناطق عديدة فى الارض العربية فى الوقت الذي يكثر فيه الطلب على النفط ومشتقاته والمنتجات المتصلة به بالنسبة للسوق العربية وعلى صعيد السوق الدولية .

الا ان النفط الذي يمثل طاقة وثروة للامة العربية يتميز تاريخ استثماره بالكثير من الاثار السلبية التى تراوحت بين محاولات السيطرة والاغتصاب عن طريق استغلال النفوذ السياسى للدول الكبرى وبين الدخول فى احتكارات دولية بين شركات النفط المحتكرة فى سبيل تحديد سعر للنفط فى السوق العالمية والتحكم فى الكمية التى ستطرح منه للبيع وما يمكن ان يستثمر منه من اماكن استخلاصه فى انحاء العالم التى تخضع لامتيازات حصلت عليها الشركات المحتكرة فى غفلة عن الضمير العالمى . وفى الوقت الذي تبلغ تكاليف استثمار النفط من الارض العربية اقل بكثير من مثيلاتها فى اماكن اخرى كفنزويلا مثلا فان الامة العربية لا تحصل من عائدات النفط الا على النزر القليل فليست هناك ضرائب تفرضها الدول المنتجة للنفط على ما يستعمل من مواد ومصروفات تستخدم فى عمليات التنقيب والاستثمار او ما ينتج ويسوق من النفط نفسه ومشتقاته ، بالاضافة الى ان الزيادة او النقص فى العائدات لا يتفق ومتطلبات التخطيط الاقتصادى فى الوطن العربى وانما يخضع الى ما تدبره الشركات المستغلة من مخططات للتلاعب باسعار النفط على صعيد السوق الدولية والاستفادة من فرص الطلب عليه ولا يستبعد ان تلجأ الشركات نفسها لاسباب سياسية او اقتصادية لطرح كميات كبيرة من النفط لكى تضعف الطلب عليه فيقل سعره فى السوق العالمية مما يضع سلاحا بيد الشركات المحتكرة تستعمله ضد الدول المنتجة اذا رأت ان هناك اتجاها للاستقلال والتخطيط فى سياساتها النفطية .

والواقع ان النفط اذا اريد له ان يكون مدار التركيز الصناعى فى الوطن العربى فانه يجب أن يبقى فى الارض العربية وأن تلغى أمتيازات الشركات المحتكرة شرط ان يتم ذلك عن طريق اجماع عربى تتولى توجيهه هيئة نفط عربية هى نفسها جزء من مجلس اقتصادى عربى يخضع لجامعة عربية اكثر فعالية ونشاطا مما هى عليه اليوم لكى تنجح هيئة النفط العربية فى التخطيط والتصنيع والنقل والتسويق للنفط وايجاد مبيعات جديدة له مع ايداع ارباحه فى بنك يطلق عليه اسم بنك النفط العربى الذي سيتولى بدوره الانفاق على عمليات المسح والحفر والاستثمار والنقل وتمويل مشروعات مثل انشاء اسطول عربى للنقل واقامة مشاريع للاسمدة والغاز والصناعات البتروكيماوية ومعامل للادوية وتشجيع البحوث فى مجالات علم الطبقات الارضية (الجيولوجيا) وهندسة النفط وتسويقه والدعاية له فى الداخل والخارج مع التوصية بادخال النفط كمادة تدرس فى المدارس الثانوية والكليات الفنية والعلمية ذات المساس بالموضوع وتوفير الخبرة اللازمة لعمليات تنقية النفط وصناعة مشتقاته عن طريق ارسال البعوث الى الخارج وزيادة الكفاءات اثناء التدريب بالشكل الذي تراه هيئة النفط العربية مناسبا .

ودون شك فان الصناعة فى عالم اليوم تعتمد على طاقة تحركها ويمثل النفط او مشتقاته هذه الطاقة وليس بالامكان ان يترك الانسان العربى يحرق حزم الحطب الجاف للحصول على النار فى الوقت الذي تعوم فيه ارضه على بحر من النفط يستطيع تزويد نفس هذا الانسان بطاقة قد لا تصدق قوتها مما يجعلنا نؤكد بقوة بان البدء فى تحويل النفط من مورد يخضع للاحتكارات العالمية وتجميع الثروات العظيمة الى مادة تستغل فى سبيل بناء هياكل الصناعة العربية الحديثة هى الخطوة السليمة فى طريق تحرير الاقتصاد العربى اولا وتسخير طاقة النفط الهائلة لتسند مستقبلا صناعيا ضخما ثانيا .

الا ان الظروف والملابسات التى ولدت فيها عمليات استثمار النفط العربى والفرق الكبير وبين الاستعدادات الفنية والعلمية العربية من جهة

والتعقيد والتخصص العالى فى الصناعات النفطية من جهة ثانية ولد نوعا من التردد والخوف لدى البعض فى المجتمع العربى وبدأ يتصور اعادة النظر فى السياسة النفطية على صعيد محلى أو عربى امرا قد يؤدى الى محاذير سياسية او اقتصادية فان ما حدث لمصدق فى ايران سنة ١٩٥٠م ما زال ماثلا للاذهان سيما وان الرجل يقيم بالاكراه فى بيته منذ سنة ١٩٥٣م ولكن الظرف قد تغير واهم ما طرأ من تبديلات ازدياد الطاقة الاستهلاكية للبلدان المنتجة للنفط مع ارتفاع فى مستوى مفاهيمها الفنية والعلمية مع الاستفادة من توازن القوى المتنافرة فى العالم ونجاح دول العالم الثالث فى تكوين جبهة سياسية واقتصادية قوية وهى امور افتقدتها الدول المنتجة للنفط فى الخمسينات من هذا القرن •

فاذا تم تعريب النفط وصناعاته فان عهدا جديدا فى دنيا الصناعة العربية لاريب وان يصبح ماثلا للاذهان لان العمل والانتاج العربيين يوضعان لاول مرة فى تاريخ العرب الطويل امام مسؤولياتهم الكاملة المتعلقة بالصناعة والمستقبل الافضل وبذلك يبدأ الجمود والتحجر بالانحسار عن عالم الصناعة فى الوطن العربى ضمانا بان تسير متطلبات التصنيع الاخرى كالمسح الجيولوجى والاعداد المهنى والنفسى والاجتماعى للمجتمع العربى جنبا الى جنب مع المقاييس المتخذة فى أنماء وتوجيه الصناعة النفطية وبذلك تستثمر بواكير عهد صناعى يعمل على تغيير مفاهيم الانتاج والعمل والمستقبل فى الارض العربية •

تكوين وجدانية اشتراكية :

ان زيادة الانتاج الزراعى والتنمية الصناعية وما يتبعهما من ثورة فى مجالات العلم والصحة والمواصلات تبقى مجرد واجهات لبناء اجوف يخلو من الروح الحقيقى التى تعنى فى واقعها اقامة تكوين سياسى يعمل على [illegible] واجهات التغيير الاجتماعى العربى حدود حركتها فى وسط يجعل التفاعل تاما ومثمرا بين الانتاج الزراعى الوافر والتنمية الصناعية المضطردة وربطهما بالحياة والمجتمع والتقدم عن طريق توفير الاطارات النفسية والاجتماعية

الملائمة التى ترتفع فوق عوامل الانتهازية والتأخر والخوف والردة .

ودون ريب فان تكوين وجدانية اشتراكية سيتطلب منا ان ندرس التجارب العربية على الطريق ذاته واول ما يقف فى سبيل دراستنا تحديد النقطة التى يمكن اعتبارها محاولة جدية نحو هدف بناء وجدانية اشتراكية.

وهناك بالطبع شروع بمحاولات لم تستطع نظرا لصعوبات فى بناء المحاولة والظروف المحيطة بها ان تغير مجرى الاحداث كالحركة التى قام بها الضباط من ابناء العراق سنة ١٩٤١ م فقد اثبتت هذه المحاولة على الرغم من افتقارها الى التخطيط والتركيز السياسي والفلسفي ومد خطوط الالتقاء مع القواعد الشعبية والقيام بتعبئة نفسية وسياسية ، ان الاحاسيس العامة من الممكن أن تترجم الى عمل سياسى هادف .

اما اذا اخذنا بمبدأ الاستفادة من الخبرات الثورية فى منطقة الشرق الاوسط فان محاولة ألدكتور محمد مصدق فى ايران عام ١٩٥٠ م تعتبر محاولة رائدة لبناء فكر ثوري جديد الا ان الاسباب التى حالت دون نجاح محاولة سنة ١٩٤١ م فى العراق هي نفسها التى انتهت بحركة مصدق فى اوائل الخمسينات من هذا القرن الى الخيبة ملخصةفى الموقفالمتردد الذى أتخذته كل منهما فى القضاء على السلطات التقليدية .

لذا يمكن أعتبار ثورة مصر فى ٢٣ تموز عام ١٩٥٢م نقطةالتحولتجاه تحقيق الهدف الثوري ذي الوجدانية الاشتراكية وبالفعل فقد عملت الثورة فى مصر على نفض غبار الخوف والتخلف عن الملايين من ابناء وادي النيل وفتح نوافذ المجتمع هناك للشمس والعروبة والتقدم .

وقد أكبرت الثورة فى أرض النيل اداة تحقيقها : الجيش المصرى ، الا ان مهمته الضخمة انتهت عند كسر الاقفال التي خلفها الخوف والفقر والتردد فوق عقول المصريين وطاقاتهم مما يفسح المجال لعهد بناء تشاد خلاله شخصية الانسان الجديد باطاراته الاجتماعية ألمرنة المتجاوبة المتطلعة نحو الغد الافضل وهنا شرعت الطاقات الجديدة التى صنعت ثورة الثالث والعشرين من تموز فى أرض وادى النيل فى غربلة المخلفات السياسية فى مصر ولكنها لم تجد الا

التنافر والاستغلال ومحاولات توزيع الارباح والمكاسب ومراكز الوظيفة والوزارة مع تطرف وتخاذل هدفا الى كل شيء خلا المصلحة العامة والعمل فى سبيل مستقبل يرتفع بارض النيل واهلها الى مصاف الدول المتكاملة النمو • كما ظهر خطل مزمن بالنسبة للسياسة التقليدية فى مصر قبل ثورة سنة ١٩٥٢م انصب على عدم فهم الدور الذي يمكن ان تلعبه مصر فى المحيط العربى واهمية هذا الدور فى كسب معارك الاستقلال والمستقبل •

وتجنبا لهذه الهفوات فقد انطلق الوضع الجديد فى مصر نحو بناء سياسى ذى فلسفة محددة المعالم وتنظيم قوى واهداف واضحة • الا ان عمق الرواسب فى المجتمع المصري ونفوذ الجيل التقليدي حال دون نجاح التجربة السياسية الجديدة مما عرض الثورة فى مصر لامتحان على صعيد البناء استطاعت رغمه ان تثبت قابليتها على الحركة فى مجال التعبئة السياسية والفكرية فولد الاتحاد الاشتراكي العربي فى الجمهورية العربية المتحدة • ومن الضعف وعدم التبصر اعتبار هذا التنظيم الجديد وريثا او بديلا لما ساد مصر من حياة سياسية تقليدية فالتسمية نفسها تعكس روحا جديدة كان ابناء وادي النيل تواقين اليها فالاتحاد افضل ما يمكن أن تتركز وتدور حوله الحياة فى مصر نظرا لما اصابها سياسيا واجتماعيا وفكريا من نكسات اصلها يمتد فى تربة التفرق والتناحر بين من كان يسمون انفسهم بالساسة ورجال الدولة فى مصر فى عهدها ذي السياسة التقليدية فقد ندر أن تجد فيه اتفاقا فى رأى أو عمل بين الاحزاب والفئات السياسية على الرغم من تأكيدها ــ نظريا ــ على المصلحة العامة ورفع شأن الوطن ، وقد يختلف رجال الفئة الواحدة وتبدأ الاجنحة فى الظهور لان معظم الأحزاب والتكتلات السياسية انما دعت اليها ظروف طارئة لم تستطع بعدها ان تستمر فى فاعليتها فقد تغيرت الظروف المحيطة بها كما ان اكثر متنفذي الاحزاب التقليدية فى مصر من ذوي النفوذ او المتصلين بهم وممن يحتلون مراكز اجتماعية ومالية معروفة لذا فان اشتغالهم فى العمل السياسى كان مجرد (تفضل) او تنازل منهم فى سبيل الاستحواذ على مركز فى الماكنة

السياسية والادارية وبذلك يستطيع السياسى الحزبي فى مصر الرجعية ان يستغل الظروف ويوجهها لمصلحته او مصلحة اسرته والمنتفعين معه .

اما لفظة (الاشتراكى) فانها تعكس بكل اصرار صفة العصر الذي نعيش فيه دون تطرف او رجعية لان هذين الانحرافين قد يلتقيان فى جبهة غير مقدسة ضد مطامح المجتمع فى الغد الافضل فالتطرف يريد ان يزيد الوضع سوءا لكي يستغل الظرف لمصلحته الخاصة فيثير طبقة ضد اخرى دون ان يضع فى حسابه مستقبل المجتمع والاهداف التي تتوق اليها الغالبية من ابنائه . اما ألرجعية فانها تصر على ابقاء القديم على قدمه خوفا مما قد يحمله المستقبل من صعوبات او مفاجئات لذا فانها تلتقي فى اهدافها مع التطرف فى الدعوة الى اشاعة الروح التقليدية ألتي لم تعد تتجاوب بأي شكل مع متطلبات المجتمعات النامية فى سبيل الغد الافضل مما يجعل من الاشتراكية الحل الامثل لترجمة امانى الغالبية من ابناء المجتمع وتحطيم حلف التطرف والرجعية لدفع المجتمع فى طريق المستقبل ، مع التأكيد بان الاشتراكية ليست مجرد تعبير لفظي وانما هي تخطيط فكري يقوم على اساسين هما (الكفاية) و (العدل) ويعني ذلك زيادة الانتاج وضمان توزيعه بشكل يتناسب والطاقات الفكرية والانتاجية والا فان العدالة فى التوزيع تصبح توزيعا للفقر والفاقة بين أفراد المجتمع .

اما على صعيد التنظيم فقد جربت مخططات مختلفة انضجها جعل التنظيم على اساس حرفى : عقلى وعضلى ونبذ فكرة التنظيم باتخاذ التوزيع الجغرافى وسيلة لبناء وحدات الاتحاد الاشتراكي ومستوياته المختلفة . وقد ظهرت الحاجة فى الجمهورية العربية المتحدة الى دراسة وتفرغ لدفع الاتحاد الاشتراكي فى طريق العمل الخلاق . ولتحقيق جانب الدراسة فقد انشأت مدرسة فكرية خاصة لتخريج قادة للوحدات والقطاعات المختلفة للمستويات التنظيمية للاتحاد الاشتراكي من جهة واستيعاب ما يجد على الاشتراكية والفكر الاشتراكى فى العالم من جهة اخرى فى الوقت الذي تدرس فيه احتياجات المجتمع فى الجمهورية العربية المتحدة ودور الاتحاد

الاشتراكي فى حل المعضلات والمشاكل الاجتماعية وحماية مكاسب ثورة سنة ١٩٥٢م وخلق الانسان الاتحادى الاشتراكى الذي يرتفع فوق مصالحه الخاصة ويبتعد عما ينزل به الى مستوى السياسة التقليدية فى مجتمع ما قبل الثورة ولتلافى الصعوبات المستقبلة بالنسبة لاولئك الذين يمتلكون جذورا تشدهم الى الماضى التقليدي فيحنون اليه او ما قد يظهر نتيجة صب الجهود السياسية فى ارض النيل فى تصميم واحد وما قد يطرأ على هذا البناء من تحجر وبيروقراطية سياسية ووظيفية وبذلك يبتعد التنظيم الموحد عن القاعدة الشعبية التي تمده باسباب الحركة والحياة كما حدث للاحزاب المنفردة بالتوجيه السياسى والفلسفي فى اوربا .

الا أن الاتحاد العربي الاشتراكي فى الجمهورية العربية المتحدة وضع هذه المشكلات تحت فهمه العميق فاهتم بالامور التالية :

١ ــ انشاء معهد يختص بالدراسات الاشتراكية المتعلقة بالاتحاد الاشتراكي العربي وهضم الجديد فى الفكر الاشتراكي وما يمكن ان يترجم الى فوائد على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي بالاضافة الى اعداد الكوادر المثقفة التي تستطيع أن تكون همزة الوصل بين الفكر الاشتراكي والقواعد الشعبية مع تخطيط صلات مرنة يستطيع عن طريقها الاتحاد الاشتراكي العربي أن يمتد فى كل اتجاه ويتفاعل مهما امتد فكره وتنظيمه.

٢ ــ احتضان الاتحاد الاشتراكي العربي للشعب فى وادي النيل وفتح الفرص المتكافئة لطبقات من الناس كانت تعيش فى زوايا النسيان والفاقة والمرض والجهل وكأنها طين فوق طين وبذلك كسر الاحتكار السياسي الذى جعل من العمل السياسي اقطاعا خاصا بطبقة معينة جمعت بين النفوذ التقليدي السياسي والاجتماعي والاستغلال الاقتصادي والعمالة للنفوذ الاجنبى مما جعل السبيل واضحا أمام القوى العاملة فى المجتمع لكي تأخذ حقها بنفسها وتنقل مركز الثقل فى المجتمع من منخفاضته التقليدية الى حيث القوة صاحبة الشرعية والمستقبل .

وبوضع قوى الشعب العاملة على طريق الغد الافضل تحقق حلم

كانت فئات الشعب فى مصر تعيشه فى خيالها وآلامها مما يجند للاتحاد الاشتراكي العربي عناصر تضحي فى سبيل حريتها التي ولدت بعد أن أصبح الاتحاد الاشتراكي حقيقة واضحة .

٣ ــ وما دامت القواعد الشعبية هي صاحبة الحق الشرعي فى السلطة وفى دفع دواليب المجتمع الاجتماعية والاقتصادية فقد أصبح من الخطورة بمكان تثقيف هذه القواعد لكي تستطيع التفاهم مع قياداتها مما يحول دون ايجاد ثغرات ينفذ منها الاختلاف او التنافر بين القيادة وقواعدها مما قد يعرض القواعد للدس والدعايات المعادية يقصد منها فصلها من قيادانها والتشكيك بها .

وتمشيا مع تثقيف القواعد الشعبية فقد استفيد من وسائل الاعلام فى عرض المشكلات الاجتماعية والعربية والدولية والفكرية وتبسيطها لكي تستوعب من قبل اكثرية العناصر المكونة للقواعد الشعبية .

٤ ــ بناء مستقبل الاتحاد الاشتراكي العربي على أكتاف الشباب لانهم بحق ذخيرة المستقبل ، والواقع أن صورة الغد يرسمها ما يفكر به الشباب اليوم مما جعل ألاتحاد الاشتراكي يركز على الشباب لبناء المستقبل فقد تم الاهتمام بالكتب وبرامج ألتعليم واستغلال اوقات الفراغ واقامة معسكرات الشباب ومد أفرادها بالثقافة التى تؤهلهم لمراكز القيادة فى المستقبل وبذلك دخل الاتحاد الاشتراكي كل بيت وكل حقل ومعمل بل وكل رأس وقلب وجهد لكي تنفتح التجربة فى الجمهورية العربية المتحدة على الصعيدين العربي والافريقي .

وهنا تبرز الصعوبات التي تحول دون انفتاح تجربة الاتحاد الاشتراكي ألعربي على ألصعيد ألافريقي حيث يجب ان تنجح على مستويين هما التنظيم والهدف فى الوقت ألذي تخضع فيه تجربة هذا التنظيم الشعبي السياسي لهدف كبير على صعيد أفريقيا يتمثل فى وحدة الحركة والثورة والبناء ألافريقية ألتي ستعمل متعاونة مع القومية العربية بجوانب الفكر والعمل ألمتكاملة الخاصة بها لانتزاع مكان الصدارة فى اوربا والولايات المتحدة اللتين تحتكران السيطرة على صمامات الحضارة الحاضرة .

لذا فمن الاهمية بمكان دراسة امكانية مد تجربة الاتحاد الاشتراكي العربي الى الاقطار العربية الاخرى فى سبيل تكوين وجدانية اشتراكية الا ان اختلاف نظم الحكم فى هذه الاقطار يشكل العديد من العقبات كما أن تباين المستويات الثقافية وعلى الاخص مقدار استيعاب وهضم بعض بلدان الوطن العربي لمتطلبات الحضارة المعاصرة قد يحول دون الاستفادة من تجربة مشتركة على الصعيد القومي .

الا ان هذه العقبات لا تحول دون قيام تجربة شاملة بين الدول العربية ذات الانظمة المتحررة . وبالفعل فقد جرت محاولة لبناء تنظيم شعبي عربي فى العراق على غرار الاتحاد الاشتراكي العربي فى الجمهورية العربية المتحدة ولكنها لم تنجح فى اصابة أهدافها القومية والوطنية فاختزلت العملية الى مجرد محاولة خضعت للخطأ أكثر من خضوعها للتجربة مما أدى الى ضعف التنظيم المقترح واصابته بالعقم والانغلاق والعكسية فى ترجمته لامانى الشعب العربى فى العراق ويعود ذلك لاسباب منها :

١ ـ ان الاحزاب فى العراق على الرغم من تفكك واقعها الفكري والتنظيمى الا أنها تتميز باشخاص لهم وزن طائفى او اجتماعى أو فكرى يرتفعون به فوق التنظيمات الحزبية التي يتعاملون معها على العكس مما كان موجودا فى مصر قبل الثورة فقد خضعت الشخصيات السياسية للتشكيلات الحزبية التي تنتمي اليها مما ولد فكرة (الالتزام) لدى الرأي العام فى العربية المتحدة فى الوقت الذي ظهرت نزعات التأكيد على الذات والفردية فى العراق وانتقلت لكي تربك تجربة الاتحاد الاشتراكي الناشئة .

٢ ـ لقد مرت بالعراق منذ ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨م بعض المراحل قاسية سوهت واقع حياته ومجتمعه وتركت عليها اثارا سلبية وعكسية ظهر دورها واضحا على تجربة الاتحاد الاشتراكي فى العراق .

٣ ـ لم تكن التجربة فى الجمهورية العربية المتحدة والخاصة بالاتحاد الاشتراكي العربي وليدة يوم وليلة ولكنها عكست محاولة ضخمة تأثرت بعوامل سلبية وايجابية ساعدتها على أن تبلور ابعادها فى تنظيم شعبي شامل . الا أن التجربة فى العراق حاولت ان تسير بنفس السرعة وعلى صعيد

المرحلة نفسها التي بلغها التنظيم فى الجمهورية العربية المتحدة دون اعتبار لصعوبات ارساء الاسس ودراسة التعقيدات التي تقف فى سبيل الاستفادة كليا بالتجربة التى قطعت شوطا ناجحا فى العربية المتحدة .

٤ ــ لقد افترض بالاتحاد الاشتراكي فى العراق ان يتسع فى شموله وحركته لكي يعيد بناء المجتمع من جديد مهيئا اياه للانطلاق على الصعيد القومي فى الوقت الذي كان يفتقر فيه الاتحاد الاشتراكي نفسه الى كوادر تساعده على الحركة والعمل ضمن حدوده التنظيمية والفكرية مما حمل التجربة على حداثتها عكسية الانجازات الاقتصادية والثقافية وجعل منها واجهة أعتبرت مسؤولة عن البطء والارباك فى جمع الصف الوطنى والنجاح على الصعيد القومي .

هذه الصعوبات لا تعني ان التجربة مستحيلة التطبيق بل العكس هو الصحيح فالعراق بميراثه التاريخى والحضارى وموقعه الجغرافى احوج ما يكون لتنظيم شامل يجمع وحدة صفه ممهدا بذلك لحركة اوسع شمولا تلتقى عندها المحاولات التي اجتازت فترات التردد فى الاقطار العربية الاخرى .

وبدون شك فان الطريق طويل وصعب يستدعي جهودا مخلصة وواعية لها نصيبها من الدراسة والتجربة والتضحية فان هناك العديد من الطاقات العربية فى الوطن العربى بكامله تنتظر ان يدفع بها من مجال الانطواء الى الانفعال فالحركة والتفاعل . والواقع ان الصعوبة الاساسية فى الوطن العربى لا تمكن فى عدم استغلاله لموارده الطبيعية الضخمة او تركها تضيع منه فحسب وانما تنعكس هذه الصعوبة فى عدم انتفاع الامة العربية بالطاقات العربية المجمدة التى تكون العصب المحرك وراء معركة الوحدة والبناء فى الوطن العربى . اما تحقيق حث الطاقات العربية المجمدة ودفعها للالتقاء فى عمل مشترك فانه سيبقى مسؤولية القوى الثورية فى الوطن العربى التى يجب ان تدرك قبل غيرها ان المعركة التى تخوضها ليست مقتصرة على بناء تنظيم سياسى كالاتحاد الاشتراكى العربى فقط وانما هناك جبهات اخر تتمثل فى القضاء على جيوب منها التخلف فى الحياة والمجتمع والاستعمار

بانواعه السياسى والاقتصادى والفكرى والتبشيرى ومن ورائه دوائر الاستخبارات والتجسس والتباطؤ فى بناء الفكر العربى المتميز عن طريق توضيح الصلة بين القديم والحديث وتعرية دعاة الرجعية والتخلف والتعصب والتطرف .

هذه هى مسؤوليات الانسان العربى الجديد ذى الوجدانية الاشتراكية يعلم من اين يبدأ ؟ والحقيقة ان نقطة البداية التقليدية كانت تتخذ من الماضى بداية للحاضر وبذلك تضيع فى تعقيدات الماضى قبل ان تصل الى مشارف الحاضر . لذا فمن الاصوب ان نبدأ من الحاضر نفسه ثم نمتد فى خطين فكريين الى الماضى والمستقبل . ومعنى ذلك اننا نفسر الماضى على ضوء متطلبات الحاضر ثم ننطلق بهذا الواقع الجديد نحو المستقبل فنكون قد وفرنا الكثير من الجهد فى تعرفنا على ما يجب او لا يجب ان نأخذه من الماضى فى الوقت الذى نفسح المجال فيه لطاقاتنا العربية لكى تتجه نحو المستقبل الحضارى الافضل .

ومن وجهة النظر الاكثر واقعية يجب علينا أعادة تقييم حاضرنا على ضوء متطلبات الحاضر نفسه مستفيدين من تجارب ماضينا بدلا من ان ندور فى حلقة مفرغة بدأت خطوطها الفكرية فى المؤتمر العربى الاول فى باريس عام ١٩١٣م ولم تتوفر لما طرح فى ذلك المآتمر من أسئلة وأجوبة تتفق وحاجات الحاضر والمستقبل العربى على الرغم من مرور فترة زمنية طويلة زادتها سرعة الحضارة المعاصرة طولا كما انعكست سلبيتها على واقع الوطن العربى ومستقبله .

وجماع القول ان الامة العربية يجب ان تتبنى الحضارة الحديثة وعلى الاخص جوانبها التكنولوجية لتطور نواحى العلم والفن فى الوطن العربى واضعة نصب عينيها العمل العربى الموحد على الصعيد القومى ، بقى على الماضى ان يدرك هذه الحقيقة وعليه ان يلحق بهذه الحاجات المتطورة فمن غير المشكوك فيه ان الجيل العربى الجديد عليه ان ينطلق نحو المستقبل فى الوقت الذى يتحتم فيه على الماضى ان يلحق به على نفس الطريق لان مسؤولية الامم تقاس بما تحققه فى مستقبلها وليس ما حققته فى ماضيها فقط او ما لم تستطيع تحقيقه فى حاضرها .

ثبت المحتويات

	صفحة
تمهيـــد	٣

الفصل الاول

العرب والتجربة التاريخية والحضـارية

موقع الدولة العثمانية واثره فى سياستها	.. ١٠
العرب والعصر الحديث	.. ١٨
	.. ٢٨

الفصل الثاني

الانسان العربى ومعادلته الفكرية

تجارب العرب المرة وكتابة تاريخ لهم	.. ٤٩
الفكر بين الشرق والغرب	.. ٥٣
	.. ٥٦

الفصل الثالث

العرب بين التجارب والنكسات الحضارية

	.. ٩٦

الفصل الرابع

الاسلام والديانات الاخرى والقومية العربية

الاسلام ومعارك القومية العربية التاريخية والمعاصرة	.. ١١٨
القومية العربية والعمل العربى	.. ١٥١
	.. ١٦٦

الفصل الخامس

اليوم والمصير فى سبيل عمل للغد

معركة فلسطين وتغيير مستقبل الواقع العربى	.. ٢٠٤
القرن العشرون ونظمه السياسية وصلتها بالاشتراكية	.. ٢٢٨
الاصلاح الزراعى الوطن العربى	.. ٢٣٦
التصنيع والوطن العربى	.. ٢٧٤
تكوين وجدانية اشتراكية	.. ٢٧٩
	.. ٢٨٣

مراجع مختارة

ابو زيد ، احمد ـ البناء الاجتماعى ج١ ـ سنة ١٩٦٥ ـ دار النشر القومية ـ القاهرة ـ ص ٢٣٢

انكن ، هيوج دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية ـ محمود زايد ـ سنة ١٩٦٣ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ص ٢٣١

ارسطو ـ السياسة ـ احمد لطفى السيد ـ سنة ١٩٤٧ دار الكتب ـ القاهرة ـ ص ٤٤٧

ارسطو ـ الكون والفساد ـ سنة ١٩٣٢ ـ لجنة التاليف والنشر ـ القاهرة ـ ص ٣٣٧

ارسطو ـ فى النفس ـ عبدالرحمن بدوى(المحقق) ـ سنة ١٩٥٤ ـ مكتبةالنهضة ـ القاهرة ـ ص.٢٩

افلاطون ـ الجمهورية ـ نظلة الحكيم ومحمد مظهر سعيد ـ سنة ١٩٦٣ ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ص ١٩٠

افلاطون ـ المحاورات ـ زكى نجيب محمود ـ سنة ١٩٥٤ ـ لجنة التاليف والنشر ـ القاهرة ـ ص ٣٠٢

افلاطون ـ رجل الدولة ـ اديب منصور ـ سنة ١٩٥٩ ـ دار بيروت ـ بيروت ـ ص ١٣٨

بدوى ، عبد الرحمن ـ نيتشه ـ طبعة ٤ ـ سنة ١٩٦٥ ـ النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ص ٢٩٠

بدوى ، عبد الرحمن ـ الاصول اليونانية للنظريات السياسية فى الاسلام ـ سنة ١٩٥٤ ـ دار الكتب ـ القاهرة ـ ص ١٧٤

برديائيف ، نيقولاي ـ العزلة والمجتمع ـ ترجمة فوءاد كامل عبد العزيز ـ سنة ١٩٦٠ ـ النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ٢٥٤

بروكلمان ـ العرب والامبراطورية العربية ـ ترجمة نبيه امين فارس ومنير بعلبكى ـ طبعة ٣ ـ سنة ١٩٦٠ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ص ٢٢٤

بروكلمان ـ الامبراطورية الاسلامية وانحلالها ـ نبيه امين فارس ومنير بعلبكى ـ طبعة ٣ ـ سنة ١٩٦١ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ص ٣٢٠

بروكلمان ـ الاتراك العثمانيون وحضارتهم ـ ترجمة نبيه امين فارس ومنير بعلبكى ـ طبعة ٣ ـ سنة ١٩٦١ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ص ١٩٠

بروكلمان ـ الاسلام فى القرنة التاسع عشر ـ نبيه امين فارس ومنير بعلبكى ـ طبعة ٣ ـ سنة ١٩٦١ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ص ٢٠٧

بروكلمان ـ الدول الاسلامية بعد الحرب العالمية الاولى ـ ترجمة نبيه امين فارس ومنير بعلبكى ـ طبعة ٣ ـ سنة ١٩٦٢ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ص ١٨٢

البغدادى ، ابن طاهر ـ الفرق بين الفرق ـ سنة ١٩٢٤ ـ الهلال ـ القاهرة ـ ص ١٩٢

بوتول ، جاستون ـ تاريخ علم الاجتماع ـ ترجمة د. محمد عاطف غيث ـ سنة١٩٦٤ ـ الدارالقومية ـ القاهرة ـ ص ١٥٨

بيربى ، جان جاك ـ جزيرة العرب ـ ترجمة نجدة هاجر ـ طبعة ١ ـ سنة.١٩٦٠ ـ المكتب التجارى ـ بيروت ـ ص ٣٠٣

توينبى ، ارنولد ـ مختصر دراسة فى التاريخ ج١ ـ ترجمة فوءاد محمد شبل ـ طبعة١ ـ سنة.١٩٦٠ ـ لجنة التاليف والنشر ـ القاهرة ـ ص ٤٨٨

توينبى ، ارنولد ـ مختصر دراسة فى التاريخ ج٢ ـ ترجمة فوءاد محمد شبل ـ طبعة١ ـ سنة١٩٦١ ـ لجنة التاليف والنشر ـ القاهرة ـ ص ٥٠٢

توينبى ، ارنولد ـ العالم والغرب ـ نجدة هاجر ـ طبعة ١ ـ سنة ١٩٦٠ ـ المكتب التجارى ـ بيروت ـ ص ١٠٢

توينبى ، ارنولد ـ الحرب والمدنية ـ أحمد محمود سليمان ـ سنة ١٩٦٤ ـ النهضة العربية ـ القاهرة ـ ص ١٨٩

جيمس ، وليم ـ ارادة الاعتقاد ج١ ـ ترجمة محمود حبالله ـ سنة١٩٤٦ ـ دار احياء الكتب ـ القاهرة ـ ص ١٤٣

حتي ، فيليب ـ تاريخ العرب ـ مطول ـ ٣ اجزاء ـ طبعة ٣ ـ سنة ١٩٥٥ ـ دار الكشاف ـ بيروت

حسن ، محمد سلمان ـ التطور الاقتصادى فى العراق ج١ ـ المكتبة العصرية ـ صيدا ص ٧٢٨

حسنى ، عبد الرزاق ـ العراق قديما وحديثا ـ طبعة ٢ ـ سنة ١٩٥٦ ـ العرفان ـ صيدا ـ ص ٣٢٠

حسين ، طه ـ الفتنة الكبرى جزآن ـ طبعة ١ ـ سنة ١٩٥١ ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ص ٥٢٥

الحصرى ، ساطع ـ الاقليمية ـ طبعة ٢ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ص ٢٥٤

الحصرى ، ساطع ـ اراء واحاديث فى القومية العربية ـ طبعة ٣ ـ سنة ١٩٥٩ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ص ١٥٠

الحصرى ، ساطع ـ دراسات عن مقدمة ابن خلدون ـ سنة ١٩٤٣ ـ الكشاف ـ بيروت ـ ص ٣١٩

الخشاب ، مصطفى ـ دراسات فى الاجتماع الاقتصادى ـ سنة ١٩٥٧ ـ لجنة البيان العربى ـ القاهرة ـ ص ٢٣٤

دارون ، جارلس ـ اصل الانواع ـ ترجمة اسماعيل مظهر ـ سنة١٩١٨ ـ المطبعة المصرية ـ القاهرة ـ ص ٣١٢

درويش ، يحى حسن ـ السياسة الاجتماعية ـ طبعة ١ ـ سنة ١٩٦٢ ـ القاهرة الحديثة ـ القاهرة ـ ص ٢٩٥

الدينورى ، ابن قتيبة ـ الامامة والسياسة ج١ ـ طبعة ٣ ـ سنة ١٩٦٣ ـ الحلبى ـ مصر ـ ص ٢٠٩

ديورانت ، ويل ـ قصة الحضارة ج١ـم١ ـ زكى نجيب محمود ـ طبعة ٢ ـ سنة ١٩٥٦ ـ الادارة الثقافية ـ الجامعة العربية ـ ص ٢٠٤

ديورانت ، ويل ـ قصة الحضارة ج٢ـم١ ـ محمد بدران ـ طبعة ٣ ـ سنة ١٩٦١ ـ الادارة الثقافية ـ الجامعة العربية ـ ص ٥٠٢

ديورانت ، ويل قصة الحضارة ج٣ ـ م١ ـ زكى نجيب محمود ـ طبعة ٢ ـ سنة ١٩٥٧ ـ الادارة الثقافية ـ الجامعة العربية ـ ص ٤٦٥

ديورانت ، ويل قصة الحضارة ج٤ ـ م١ ـ محمد بدران ـ طبعة ٢ ـ سنة ١٩٥٧ ـ الادارة الثقافية ـ الجامعة العربية ـ ص ٣٤٨

ديورانت ، ويل ـ قصة الحضارة ج٥ـم١ ـ ترجمة زكى نجيب محمود ـ طبعة٢ ـ سنة١٩٥٨ ـ الادارة الثقافية ـ ص ٢٢٠

ديورانت ، ويل ـ قصة الحضارة مج ـ ثلاثة اجزاء ـ ترجمة محمد بدران ـ طبعة ٢ ـ سنة٩٥ـ٦١ـ١٩٦٢ ـ الادارة الثقافية ـ الجامعة العربية ـ ١٢٤٠

ديورانت ، ويل قصة الحضارة م٣ ـ ثلاثة اجزاء ـ ترجمة محمد بدران ـ طبعة٢ ـ سنة٦٣ـ٩٦٤ ـ الادارة الثقافية ـ الجامعة العربية ـ ص ١٤٤٥

ديورانت ، ويل ـ قصة الحضارة م٤ ـ خمسة اجزاء ـ محمد بدران ـ طبعة ٢ ـ سنة ٥٧ـ٩٦٤ ـ الادارة الثقافية ـ الجامعة العربية ـ ص ١٨٩٩

ديورانت ، ويل قصة الحضارة م٥ ـ اربعة اجزاء ـ ترجمة محمد بدران ـ سنة ٥٨ـ٩٥٩ ـ الادارة الثقافية ـ الجامعة العربية ـ ص ١٣١٩
الرافعي ، عبد الرحمن ـ ثورة ١٩١٩ (تاريخ مصر القومي) ج١ـ٢ ـ طبعة ٢ ـ سنة ١٩٥٥ ـ النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ص ٣١٤
الرافعي ، عبد الرحمن ـ مصطفى كامل (تاريخ مصر القومي) ـ طبعة ٤ ـ سنة ١٩٦٢ ـ النهضة
الرافعي ، عبد الرحمن ـ تاريخ الحركة القومية في مصر ـ طبعة ١ ـ سنة ١٩٦٣ ـ النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ص ٥٢٨
المصرية ـ القاهرة ـ ص ٣١٧
الساعاتي ، حسن ـ التكنولوجيا والمجتمع ـ طبعة ١ ـ سنة ١٩٦٢ ـ دار المعرفة ـ القاهرة ـ ص ١٨٦
سباين ، جورج ـ تطور الفكر السياسي (جزآن) ـ ترجمة حسن جلال العروسي ـ طبعة ٣ ـ سنة ٦٣ـ٩٦٤ ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ص ٤٥٥
شبنجلر ، اوزفالد تدهور الحضارة الغربية ٣ اجزاء ـ احمد الشيباني ـ طبعة ١ ـ سنة ١٩٦٤ ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ ص ١٥٣٤
الشهرستاني ـ الملل والنحل اربعة اجزاء ـ سنة ١٣٧١ هـ المطبعة الادبية ـ القاهرة
عبد الحميد ، سعد زغلول ـ تاريخ المغرب العربي ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ص ٥٢٠
الامام علي ـ نهج البلاغة ـ شرح ابن ابي الحديد ـ سنة ١٩٥٩ ـ دار احياء الكتب ـ القاهرة ـ ٦ اجزاء
عنان ، محمد عبد الله ـ المذاهب الاجتماعية الحديثة ـ طبعة ٣ ـ سنة ١٩٥٦ ـ مطبعة مصر ـ القاهرة ـ ص ٣٠٥
العمري ، أحمد سويلم ـ الشرق الاوسط ومشكلة فلسطين ـ سنة ١٩٥٤ ـ الانجلو المصرية ـ القاهرة ـ ص ٤٣٥
عوض ، لويس ـ دراسات في النظم والمذاهب ـ سنة ١٩٦٢ ـ المكتب التجاري ـ بيروت ـ ص ٢٦٨
غالي ، بطرس ـ مبادىء العلوم السياسية ـ سنة ٦٢ـ٩٦٣ ـ الانجلو المصرية ـ القاهرة ـ ص ٦١٧
الغزالي ، ابي حامد ـ المنقذ من الضلال ـ جميل صليبا وكامل عياد ـ طبعة ٦ ـ سنة ١٩٦٠ ـ جامعة دمشق ـ دمشق ـ ص ١٢٦
الغزالي ، ابي حامد ـ الرد على ففضائح الباطنية ـ تحقيق جولدتسهير ـ سنة ١٩٥٦ ـ ليدن ـ بريل ـ ص ١١٢
الغزالي ، ابي حامد ـ مقدمة تهافت الفلاسفة ـ تحقيق سليمان دنيا ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ص ٤٢٠
فروم ، ايريك ـ المجتمع السليم ـ ترجمة محمود محمود ـ سنة ١٩٦٠ ـ الانجلو المصرية ـ القاهرة ـ ص ٢٥٢
فرويد ، سيجموند ـ ما فوق مبدا اللذة ـ اسحق رمزي ـ سنة ١٩٥٢ ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ص ١٤١
فرويد ، سيجموند ـ اللذات والغرائز ـ ترجمةمحمد عثمانجاتي ـ طبعة ٣ ـ سنة١٩٦١ ـ النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ص ١٤١
فرويد ، سيجموند ـ القلق ـ ترجمة محمدعثمان نجاتي ـ سنة ١٩٥٧ ـ النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ص ٢١٤
فيبر ، ماكس ـ [يراجع عن حياته وكتبه : المشكلات الاجتماعية في حضارة مبتذلة ـ د. عبد الجليل الطاهر ـ طبعة ١ سنة ١٩٥٣ ـ دار المعرفة ، بغداد ـ الصفحات

٢٢٨ وما بعدها و٢٦٦ وما بعدها . ويراجع ايضا تاريخ الفكر الاجتماعى والمدارس الاجتماعية ـ د. حسن شحاته سعفان ـ طبعة ٣ ـ سنة ١٩٦٥ ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة ـ ص ٢٧٢ وما بعدها . ويراجع ايضا : مجلة كلية الاداب مقال « علم الاجتماع بين الفينوفيولوجية والتجريبية » د. عبد الجليل الطاهر ـ العدد الرابع اب ـ سنة ١٩٦١ ـ الصفحة ٢١٣ وما بعدها] .

الفاسى ، علال ـ محاضرات فى الغرب العربى ـ سنة ١٩٥٥ ـ معهد الدراسات العربية العالية ـ ص ١٩٧

فروست ، رايموند ـ تنمية المجتمعات المتخلفة ـ احمد قاسم جودة ـ سنة ١٩٦٤ ـ دار الكرنك ـ القاهرة ـ ص ٢١٥

كاسيرر ، ارنست ـ مقالة فى الانسان ـ د. احسان عباس ـ سنة ١٩٦١ ـ دار الاندلس ـ بيروت . ص ٤١٤

كامبس . جدن. س المدخل الى علم الاقتصاد ـ ترجمة د. حميد القيسى ـ سنة ١٩٦٤ ـ مكتبة الوفاء ـ الموصل ـ ص ٣٣٤

كوفيليه ، ارمان ـ مقدمة فى علم الاجتماع ـ ترجمة السيد محمد بدوى ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ص ٢٣٤

كولبورن ، رستون ـ اصل المجتمعات المتحضرة ـ ترجمة لمعى المطيعى ـ دار النشر القمية ـ القاهرة ـ ص ١٥٣

كينز ، ماينرد ـ النظرية العامة فى الاقتصاد ـ ترجمة نهاد رضا ـ سنة ١٩٦٢ ـ دار الحياة ـ بيروت ـ ص ٤٢٥

لطفى ، عبد الحميد ـ علم الاجتماع ـ سنة ١٩٦٥ ـ الثقافة الجامعية ـ الاسكندرية ـ ص ٣٨٤

لورنس ، د. ه. ـ اعمدة الحكمة السبعة ـ طبعة ١ ـ سنة ١٩٦٣ ـ المكتب التجارى ـ بيروت ـ ص ٤٤٣

ماكيفر وبيج ـ المجتمع ـ ترجمة على احمد عيسى ـ النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ص ٤١٢

المسعودى ، ابى الحسن ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ جزآن ـ محمد محى الدين عبدالحميد ـ طبعة ٤ ـ سنة ١٩٦٤ ـ السعادة ـ مصر ـ ص ٨٤٤

مطاوع ، ابراهيم عصمت ـ تطوير مجتمعنا الريفى ودور المدرسة فيه ـ دار الفكر العربى ـ مطبعة القاهرة ص ٣٣٤

مكاي ، دورثى ـ مدن العراق القديمة ـ ترجمة يوسف يعقوب مسكونى ـ طبعة ٢ ـ سنة ١٩٥٢ ـ شفيق ـ بغداد ـ ص ٢٠٤

مناف ، منعب ـ ثورة على القيم ـ طبعة ١ ـ سنة ١٩٦٥ ـ التلفراف ـ بغداد ـ ص ٢٠٠

النوبختى ، الحسن بن موسى ـ فرق الشيعة ـ سنة ١٩٥٩ ـ النجف ـ ص ١٦٥

نيتشه ، فردريك ـ هكذا تكلم زرادشت ـ ترجمة فيلكس فارس ـ المكتبة الاهلية ـ بيروت ـ ص ٣٨١

هتلر ـ كفاحى ـ ترجمة لويس الحاج ـ سنة ١٩٦٣ ـ دار صادر ـ بيروت ـ ص ٣٨٤

وايتهيد ـ مغامرات الافكار ـ ترجمة انيس زكى حسن ـ سنة ١٩٦٠ ـ مكتبة الحياة ـ بغداد ـ ص ٤١٨

وصفى ، عاطف ـ علم الاجتماع الحضرى ـ طبعة ١ ـ سنة ١٩٦٥ ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ص ١٥١

ولسون ، كولن ـ اللامنتمى ـ ترجمة انيس زكى حسن ـ سنة ١٩٥٨ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ص ٣٤٨

ولسون ، كولن ـ سقوط الحضارة ـ ترجمة انيس زكى حسن ـ طبعة ٢ ـ سنة ١٩٦٣ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ص ٣٩٩

مطبعة العامل
بغداد ـــ تلفون ٦٥٧٣٤

DS
63
.M8

02952483

DS 63
.M8

NOV 7 1969

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU52891321
DS63 .M8
al-Waqi al-fikri wa-